خريفُ شجرةِ الرُّمّان

«آخرُ أيّامِ غِرناطة»

تأليف

محمود ماهر

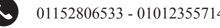
الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: خريف شجرة الرمان
التأليف: محمود ماهر
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 584 صفحة
عدد الملازم: 36.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2017/26996
الترقيم الدولى: 978-977-278-616-9







elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714

إهـــداء

إلى أولادي..

«عبد الرحمن، عمر، ندى»..

وإلى أولئك الذين يحلمون بالعودة..

إلى أحفاد المطرودين مِن ديارهم،

الحاملين مفاتيحَ دورهم في غرناطة، وباقي أنحاء الأندلس.



الفصل الأول

العرض العسكري الكبير

في أحياء غرناطة القديمة، عاصمة الدولة النّصرية، تلك المملكة الممتدّة حدودُها من شواطئ المتوسط جنوبًا، بينما تحْميها بَرًّا سلاسل جبال «السيرا نيفادا» الثلجيّة «البشرات»، التي منها ينبع نهرُ شنيل مشكِّلًا شريانَ الحياة في المدينة الجميلة.. وعلى رأس الهضبة تتربّع مدينةُ الحمراء وتزدحم بالمدافعين عنها، كما تزدحمُ بأشجار الرّمان والبرتقال والنّخيل، وتطلّ مدينة الحمراء على شوارع غرناطة وميادينها الكبيرة التى تمتلئ بالفستقيّات وأشجار النّارنج والبرتقال، ومزارع الياسمين والرّيحان. أمّا بيوت غرناطة فقد كان كلُّ بيتٍ منها محاطًا بحدائق تنسابُ خلالها جداولُ رقراقة، وتزدانُ أرض تلك البيوت بأشجارالرّمان والبرتقال، فيما تكْسوها الرّياحين. فترتسم المدينةُ في عين الناظر إليها متناسقةً على هيئة أخاديد.

ومدينةُ غرناطة محاطة بأسوارٍ عالية، ولها اثنا عشر بابًا للمدينة، والأسوار يحُفُّها نحو ألف مقاتلٍ للحماية. أمّا أسواق غرناطة فتفيض بكلّ أنواع الأقمشة والذّهب، وتغصّ جوانبُها بازدحام شديد ورجرجةٍ للأصوات تُحدِثُها أصواتُ الباعة المرتفعة في جَلبةٍ وضوضاء. وفي أحدِ الميادين الرئيسية، وتحديدًا فى موضع الطّبلة المعروف عند باب الغدر، بمنأىً عن السوق، تشخَص أعيُنا وتنغرسُ أنظارنا في مطالعة مشهدٍ مَهيب رهيب للجيش الغرناطي

الرائع بزيّه وألوانه الحمراء، إذْ كان الأمير علي بن سعد يجلس فى بناءٍ أُعِدّ له، مُحاطًا بكبار الفقهاء والوزراء، وجميعُهم يشاهدون تمايزَ الجند فى مشهدٍ أظهر لأهل غرناطة يومًا مِن أيام عزّهم وفصلًا من فصول مجْدهم، ومفصلًا من مفاصِل تاريخهم العريق، وبينما الجميع يشاهدون العروضَ العسكرية، كان هناك ثلاثة نفرٍ من أهل المدينة يجلسون على ناصية الطريق، يستظلون بشجرة رمّان تساقطت أوراقُها فكستِ الأرض مِن حولها، ويدور بينهم هذا الحديث:

علي «يمسك بورقةٍ من ورق الشجرة المتساقط، ويفركُها بيده ببطءٍ، ويغرس نظراتِه في كبد المدى الممتدّ أمام عينيه، ثمّ يقول باستغرابٍ واستنكار»: «شهر كامل وأمير المسلمين يستعرض جيوشَه الجرّارة، التي لم تشهد الأندلس نظيرًا لها منذ زمن الموحّدين.. شهرٌ كامل ولم تنتهِ عروضُ الجيش بعد؟! فضلًا عن توحيده للأندلس بعد فتنة أخيه الزغل».

محمد الغرناطي (متنهّدًا): «لقد بلغ مولاي أبو الحسن درجةً عظيمة منَ القوّة والبأس، فمنحه أهلُ غرناطة ثقتَهم، وكلّلوه بتاجِ محبّتهم وتوقيرهم، ورجَوْا أن يكون عهدُه هو العهدَ الذي تستعيد فيه الأندلسُ سيادتها!».

عامر (مستنكرًا في استهجان): «وهل تظنّ يا محمد أنّ الأندلس يمكن أن تستعيدَ سيادتها؟».

محمد: «السيادة يا عامر مُمكنة في كلّ وقت وحين، لكنها لن تتحقّق اليومَ إلّا بخروج هذا الجيش (يشير بيده ناحية صفوفِ الجند) مجاهدًا ومستردًّا المدن الأندلسية المحتلة، فالسيادةُ ليست بالأمانيّ.. ولا يمنحها أحدٌ لأحدٍ.. بل تُنْتَزَع بالمغالبة وحدِّ السيف».

عامر: «وهل تظنّ أن الظروف مواتيةٌ لنا كي نواجه أعداءنا، ونضمنَ لجيشنا الغلبة والنصر؟».

محمد: «إن الأحداث التي تمرّ بها ممالك النّصارى، هى فرصةٌ عظيمة لنا وللأمير أبي الحسن، إنْ أراد أن يستعيد مجدَ الأندلس وعزّتها وقوّتها.. فما زالت الحروب يشتعل أُوارها بين قشتالة والبرتغال، وقد أنهك القتالُ كلا الخصمين، وهي فرصة سانحةٌ يجب أن يحسنَ الأمير اقتناصَها، وأن يدفع حدودَ المملكة ناحية الشمال، وإلّا فما الفائدة من جيشٍ قوي كهذا إن لم يكن ينفرُ للجهاد، واثّاقل إلى الأرض، ووضع أصابعَه في آذانه صمًّا عن دعوى النفير!!».
(يُحرّك قدميه بضع خطوات، ثمّ يستدير نحوهما متسائلًا):

«ما الفائدة من جيوش تستعرض قوتَها وتفتل عضلاتِها وتستجلي عديدها وعُدّتها فيما تنكصُ عن جهاد عدوها وعدوّ أُمتها؟ وهل أُعدت هذه الجيوش للاستعراض فقط أمام الأُمّة، بينما العدو يتربّص بها الدوائر؟».

(ثمّ ينظر محمدٌ إلى الحدائق حوله ويتساءل): «وما الفائدة من الرخاء إن لم نتقوَّ به على الأعداء؟!».

عامر: «أشعر أحيانًا- على رغم سعادتي بهذا الجيش العظيم- بأنّه ما أُنشئ إلّا لحفظ العرش، وليس لحماية المملكة. لهذا تجدُ هذه الجيوش تهرْول نافرةً إن كان ثمّة تهديدٍ للعرش، لكنها تمشي الهوينَا إن كان الخطر يتهدّد المملكة نفسها، فلا غرْو أن تسارع تلك الجيوش- وقد سارعت يومًا- لقتال الأمير الزّغل، بينما لم تتحرك ذراعًا واحدة ناحية قشتالة!».

وفي هذه الأثناء، يستمرّ التزاحم ويغصّ المكان بالرجال والنساء والصبية، والجميع يتنزّهون ويشاهدون الفرسان في العروض العسكرية، وقد ارتدى كلّ غرناطيّ جديدَ ثيابه، وخرجت النساء للاحْتفال وكأنّه يوم عرس لا يومُ عرض، وتعالت الأصوات وسطَ صهيلِ خيل الفرسان وصليل سيوفهم وحركات رماحهم، واستمرّ تدفّق العامة وتمايز الجيش بلباسه الأحمر القاني، شعار بني الأحمر. تكاثر الحضور وَجَاء كثيرٌ من أهل الْقرى من أحواز غرناطة للنزهة، فاجْتمعوا في السّبيكة من الحَمْراء وَما حولها، وامتلأت تِلكَ المَواضِع بالخلق الكثير وَأقبَل الفرسان وصاروا يتألّفون في السبيكة، وكانت الشمس تسعى في السّماء، والوقت ضُحى، فَبينَما النَّاس كَذلِك في المهرجان إِذ بسحابة عَظيمَة قد أنشَأها الله تَعالَى ملأتْ ساحة السَّماء، مَشرقًا ومغربًا فأرعدَتْ وأبرقت، وانْتشرت من ساعتها بقدرةِ مكوّن الأشياء على السبيكة وَما قرب مِنها، وعَلى غرناطة وَما حولها وعَلى وادي حدرة، وَجاءَت بمطرٍ هائل لم يزلْ

يزْداد ويعظم ويكثر حَتَّى صار كالأنهار العارمة وَجاءَت السُّيول من كل ناحيَة وَعظم أمرها، وعاين النَّاس الهَلاك من فرط ما رَأوْا من شدَّة المَطَر وَكَثرَة السُّيول من كل ناحيَة وَاحْتمل السَّيْل الطّرق وَمَا حولهَا وَانْقطع النَّاس وَحَال السَّيْل بَينهم وَبَينه فَكانَ لا يسمع إلَّا بكاء الصّبيان وصراخَ النّسوان وأصوات الرِّجال تلهجُ بِالدُّعاءِ إلى الله تَعالى والابتهال إلى أن ارْتَفع المَطرُ وَجاء وادي حدرة الذي يشقّ غرناطة بسيلٍ عَظيم احْتمل ما على ضفّتيه من الأشجار العِظام من الميس الدرّدار والجوز واللّوز، وغير ذَلِك من الأشجار العِظام الثَّابتة في الأَرض، وَدخل البَلد واحْتمل ما على ضفّتيه من الدّور والحوانيت والمساجد، ودخل الأَسواق، وَهدم البناء المشيّد، وَلم يبْق من القناطر إلَّا الأقواس، وذهب بكُلّ ما كانَ عَليْها من البُنيان ثمّ جاءَ السَّيل بِتلكَ الأشجار العِظام الَّتي اقتلعت فتراكمت عند آخرِ قنطرة في البَلد فَسدّتْ مجاري الوادي، ليتراكم السَّيْل والشَّجر في قلب البَلد، وعاين الأهالي الهَلاك، وَدخل السَّيْل تيارة والقيسرية، حَتَّى غمر بعض حوانيتها وَوصل إلى رحبة الجامِع الأعْظَم وإلى القرّاقين والصّاغة والحدّادين، وَغير ذَلِك من الأسواق والدُّور، فلطف الله تعالى بعباده؛ إذْ نفض السَّيْل بقُوَّة تراكمِه بالقنطرة والسّور، وَخرج ذَلِك كُله خارج البَلد، وَكانَ هَذا اليَوم من أعظم الأيَّام، شاهد فِيه كل مَن رآهُ قدرَة القادِر القهّار الملكِ العلّام سُبْحانَه وَتعالَى. وبسبب السّيل العظيم؛ تبدّلت أحوال غرناطة وتغيّرت، وراح الرّخاء وثقلت المغارم التي فرضَها الأمير على شعبه

بين ليلةٍ وضُحاها؛ لتعويض الخسائر التي أوْقعها السّيل، وشحّت الأرزاق وصخبَ العامة وتذمّروا، وفقدت غرناطة بعضًا من ملامح فتنتِها، وانشغل الناسُ بمحاولات إعادة الأمور إلى نِصابها، فهذا يبني ما هدَمَه السّيل وذاك يساعدُه، وهذا يندُبُ حظّه، وبينما الجميع منشغلون برفع أضْرار السّيل والحديث عنه، إذْ بوفدٍ قشتاليّ يخترق شوارعَ المدينة، يتقدّمهم جنديٌّ في موكبٍ مَهيب، وهو مسلّح بالحديد والزرَد من رأسِه إلى أخمص قدميه، تتبعُه مرافقة قليلة لكنّها معينة بدقة لوظيفتها، وقد أحدث الوفدُ صخبًا كبيرًا، فتعلّقت أنظارُ العامة به، وراح كلُّ فرد منهم يسألُ نفسه، عن سبب وجود هذا الوفد في هذا الزّمان بالذّات. راقب الجميعُ تلك المجموعةَ الصغيرة المتعجْرفة وهي تخترقُ شوارع غرناطة، والأطفالُ يردّدون في ذُعر: «قشتاليون... قشتاليون»، فقد كانت أخبارُ جرائمهم تسبقُهم، فكمْ من قتيل قتلوه، وكمْ من جريحٍ أزْهقوه. وبينما الجميع يسألُ عن الوفد وماهيّته إذا بعليّ يقول، وهو متكئ على جذع نخلةٍ من نخيل حي البيّازين، وحوله صاحباه: «هذا الجنديّ في المقدمة أنا أَعرفُه جيدًا؛ فقد حضر منذ عامٍ إلى ميدان باب الرملة، وشهد مهرجان المبارزة والفروسية، وأبدى وقتها حِرفية شديدة أذهلت الجميع. إنه (دون خوان دي فيرا) فارس قشتالة الشهير، وأَظنّه ما جاء إلّا ليشترك في مباراة أُخرى للمبارزة والفروسية في ساحة المدينة، فقد تعودنا تلكم المباريات منذ زمن».

محمد: «مهرجانات فروسية في هذا الوقت العصيب؟!».

عامر (ملتفتًا إلى محمد): «نعم، فأين نحن وأين مهرجانات الفروسية، خاصة فى ظلّ تفاقم الوضع مع مولانا أبي الحسن، وفي ظلّ ما تشهده غرناطة منذ السّيل الذي كادَ يدمرها ويحيلها قاعًا صفْصفًا، إلّا إذا جاء للتشفّي بنا في هذا الوقت العصيب محاولًا استغلال ما وصلت إليه المملكة بعد السّيل».

علي:«إن لم يكُ هنا من أجل مهرجانات الفروسية؛ فلربما كان سفيرًا عن مليكه، خاصّة أن الجميع يعلم بأمر الرسائل المتبادَلة بين الأمير أبي الحسن وملك قشتالة قبل السّيل».

يتهكّم عامر، ويقول بعد أن ولّى وجهه قِبَل الحمراء:«سفير! كنا نسمع ونقرأ قديمًا عن السّفراء، فلم نجد مثلَ هؤلاء. لقد انتهى عصرُ السفراء يا علي، أمّا هؤلاء فهُم هنا من أجل فرض شروطهم أو استلاب أموالنا. إنّهم أُمراء بثوب سفراء» (يصمت برهة، ثمّ يقول):

«لقد ولّى عصر السفراء منذ انفراط عِقد دولة بني أمية، حينما كان السفراء يأتون لطلب ودِّ الخليفة وصداقته.. أمّا الآن فيطلبون أموالنا ويقتطعون أرضنا، ثمّ تجد ملوكنا على رغم ذلك يطلبون ودَّهم، وكأنّ هذه الأرض لا تعنيهم!».

علي (متحدثًا في شبه يأس): «مازلت تشدّنا إلى ماضٍ تليد.. غَبَرَ ولن يعود».

عامر (بصوت مرتفع): «ولِمَ لا يعود؟ لماذا يا علي؟ ألا تعلم أنّ تلكم البلاد فُتحت منذ ما يقارب القرون الثمانية بثلّة قليلة من الرجال!».

علي: «أتقارن حالنا اليوم، يا عامر، بحالِ طارق بن زياد وموسى بن نصير، رحمهما الله؟!».

عامر: «ولِمَ لا؟ انظر إلى غرناطة وأحوازِها، ستجدها تغصّ بالرجال والشباب، فلماذا نعاهد القشتاليّين وهُم أهلُ مكر وخديعة؟ لماذا لا نقاتلهم وندفعُ بهم عن بلادنا التي وُلدنا فيها، ولا نعرف ولا نألفُ لنا وطنًا سواها؟ ثمّ ما فائدة شهرٍ كامل من تمايز الجيش وعروضه العسكرية إنْ لم يضع هذا الجيش حدًّا لتلك التصرفات المستفزّة؟!».

علي: «أثناء مشاهدتنا العرضَ العسكري أحسسْنا ببعض معاني العزة، حتى إننا تحاورنا يومها وتمنّينا أن يكون العرضُ العسكري بدايةً جديدة للأندلس، لكن لم تكدْ تمضي أيامٌ حتى تبدّلت الكلمات والمعاني وخابتِ الظنون. كنّا ننتظر أن نتخلص من تبعيّتنا لقشتالة، ونمحو عارَ السنين من تاريخنا، فداهمنا السيلُ ليقضي على أحلامنا في مهْدها».

عامر: «لطالما شعرتُ بأنّ تلك السحابة التي أغرقت غرناطة وأهلكتِ الكثير من حدائقها وزروعها، إنّما هي آية من عند الله سبحانه، بعدما اغتررنا بجيشنا إثر عروضِه العسكرية».

علي: «نعم يا عامر، إذْ لا خير في جيش يستعرض ولا يجاهد، ثمّ ما الذي عاد علينا من عرضٍ عسكري استمرّ ما ينوف على شهر؟ وقد كان الأوْلى به أن يدّخر هذا المجهودَ والأموال المهدَرة المستنزفة لتصبّ في جهاد الأعداء».

محمد: «آه! لقد بدّل هذا السيلُ الأحوال!».

***

.٢.

تابع دون خوان رحلته في صمتٍ عبر شوارع غرناطة، إلى أن بلغ قصر الحمراء، حتى إذا وصل إلى باب القصر؛ بادرَهُ الحرس، شاهرينَ سيوفهم محيطين به وبجنده، طالبين إليه التعريف بنفسه، فإذا به يردّ عليهم في غرور منفِّر قائلًا لهم: «أنا.. دون خوان دي فيرا سفيرُ الملكين الكاثوليكيّين إلى سلطان غرناطة، وقد جئت إلى هنا طلبًا لمقابلته، حاملًا إليه رسالةً مهمّة»

يستمع الحرّاس إلى دون خوان، وما هي إلّا برهة حتى سارع كبيرُهم داخلًا القصرَ، فلم يلبث أن عادَ بعد بضع دقائق ليخبر دون خوان بأنّ السلطان أبا الحسن قد أذنَ له بالمثول بين يديه منفردًا، أمّا مَن كانوا برفقته فقد مُنعوا من دخول القصر.

تحرّك دون خوان في تعجْرفه المنفّر بمعيّة الحارس، ناحية بهْو السفراء حيث الأمير أبو الحسن، وكان لا يزال حاملًا وجهَه العابس

وصمتَه المتعجرف إلى حدّ أنه لم يتحدّث ببنت شفةٍ إلى الحرّاس بعدما أخبرهم بمهمّته، بل إنه لم يردّ على سؤال واحدٍ ممّن أوصله إلى بهو السفراء بعدما وقفَ دون خوان وقد ثبتتْ عيناه في محجريْهما أمامَ البوابة المشرعة لقصر الحمراء، ليملأ عينيه من فخامة القصر الذي دخله أوّل مرة في حياته ليلتقي سلطانَ غرناطة، أبا الحسن سعد بن علي، واتفق أنْ كان بمعيّته الوزير رضوان بنغيش، وما كاد يدخلُ دون خوان حتى طارَ عقله منَ الجَمال الأخّاذ، ليتشبّث بصمتِه، وكأنما اشتدّ عليه وقْعُ الرّوعة الأنيقة في البناء والزخرف وأنواع النباتات، فلم يسعْهُ إلّا أن تمتَمَ بكلام امتزج فيه الحقد الحسود بالإعجاب الشديد بالقصر، إذْ لم يكدِ الحارسُ يسمعه يتساءل: «هل في هذه الدنيا بشرٌ يستطيعون بناء مثل هذا؟!»، ثمّ سرعان ما ردّ على نفسه بقوله: «البشر لا يستطيعون..! وحدَهم الملائكةُ قد يملكون القدرة على ذلك». قال ذلك مِن دون أن ينتبِه أنه اجتازَ بهْو السفراء، وصار في حضرة سلطان غرناطة، فعلى الرّغم من طول المسافة كان الفارسُ المغرور يسير مأخوذًا مشتتًّا، فلم يكُ يتوقّع أنه وصل بالفعل إلى حيث السلطان.

لاحظَ الوزير صمتَ دون خوان؛ فبادره بالحديث قاطعًا عليه صمتَه بين الزّجر والتهكّم قائلًا: «أنت هل جئت إلى هنا لتتأمّل جدارن القصر؟»..

انتبَه دون خوان لمكانِه من السلطان ووزيرِه، فسارع بجمْع شتات نفسِه المتوزّعة الهائمة في جمال الحمراء، ليستعيد غرورَه المتعجْرف، ويرمق الوزيرَ بنظرات حادّة، كأنما يعنّفه على زجره إيّاه، أو تهكّمه عليه! ثمّ شرع يتحدّث في تعالٍ وغرور سافريْن، وهو ينظر إلى أعلى قائلًا: «أنا الفارس دون خوان دي فيرا، فارس قشتالة، وقد أرسلني الملكان الكاثوليكيّان سفيرًا عنهما إلى ملك غرناطة أبي الحسن سعد بن علي».

أبو الحسن (يتكئ على يمينه، ويضغط على أسنانه مستنكرًا الطريقةَ التي يتحدّث بها الفارس)، لكنه تمالك نفسه قائلًا له: «هات ما عندَك أيها الفارس».

يتحدّث الفارس دون خوان مغاليًا في استكباره، فخرجت كلماتُه حادّة نافرة: «يبلّغك مولاي فرناندو ومولاتي إيزابيلا ملكَا قشتالة وأراجون وليون وجليقية، موافقتَهما على طلبكم تجديد المعاهدة القديمة، لكنْ شريطةَ أن تعترف مملكةُ غرناطة بطاعتها وخضوعها لقشتالة، وأن تؤدي إليها الجزْية نفسها من المال والأسرى التي كان يؤدّيها إليها السلاطين السّالفون، وأن يحضر ملكُ غرناطة إلى إشبيلية، ويشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي الذي نسمّيه نحن (الكورتيس)، بحسبانه من الأمراء التّابعين للعرش»!

وقعتِ الكلماتُ الأخيرة على أذنيْ أبي الحسن كأنّها حجارة، فأخرجته من استغراقه في حديثٍ مع النفس، مستنكرًا عُنجهية

فرناندو، مسائلًا نفسه:«هل جاء هذا الفارس بغرض استعراض القوة، أمْ جاء حقًّا يريد الصلحَ كما يزعم؟ فمازالت كتبي تتوالى عليه في طلبِ التجديد لمعاهدة الصلح بيننا وهو لا يجيب عنها شيئًا، كأنّما يريد أن يقتلني بسُمِّ الانتظار.. وها هو الآن يرسل إلينا هذا القائدَ المحارب سفيرًا عنه!! فما هذا والله إلّا استعراضٌ سافرٌ للقوّة، وإنّ وجود هذا الفارس على رأس الوفد ليدعو حتمًا إلى رفض القشتاليّين تجديد المعاهدة».. وكان صوتُ الفارس السفير قد غام مبتعدًا، في حين أفضى الاستغراقُ بالحاكم العربي إلى أن يتذكّر الأيام الخوالي في زمنِ أبيه سعد، حين كان أبو الحسن في ميْعة شبابه يذهبُ إلى قصر قرطبة، مُرسَلًا من قِبل والده الملك، حاملًا الجزية بنفسِه في مشهدٍ مفعم بالخضوع كان يخفض كثيرًا من كبرياء أبي الحسن، الذي لم يكنْ يسلم وقتها من همزٍ ولمْزٍ مُهينَيْن من القشتاليّين، حتى إنه أحسّ الدماء تغلي فى عروقه وهو يتذكّر ذلك المشهد، فإذا به يهبّ من كرسيّه متجهًا صوب دون خوان بوجهٍ عابس منعقدِ الحاجبيْن، قائلًا له من قُربٍ بلهجة حادّة: «لقد اعتدنا نحن بني الأحمر ملوك غرناطة، أن ندفع بعض الدّنانير الذّهبية جزية لملوك قشتالة الذين ذاقوا حلاوة أموالنا فقادهم الغرورُ إلى أن اعتقدوا خطأً أنّ هذه الدنانير مع الوقت قد أصبحت حقًّا لهم.. ولكن لا بأس»، ثمّ استدار بوجهه ليجلس على عرشه مرة أخرى، قائلًا بصوتٍ امتزجت فيه الحماسة بالعزم، بينما كان يشير بيدِه اليمنى إلى صدر الفارس: «بلّغ سيدك أنّ ملك غرناطة الذي كان يعطي الجزية للتاج القشتالي قد مات، وأنّ

عُملتنا اليوم هي حدود السيوف وأسنّة الرماح»!! ثمّ أشار بيديه إلى دون خوان بالانصراف إلى خارج القصر.

في برهةٍ واحدة تجهّم وجه دون خوان مصدومًا من قساوة الردّ، وهو الذي لم يكن يتوقّع مثل هذا الردّ من الأمير أبي الحسن، بل إنه كان موقنًا أن يعود إلى إشبيلية محمّلًا بأموال المسلمين، لكن ها هو يُطرَد من القصر وقد أشعلت أذنيْه وقلبَه نارُ التهديد ومرارة السخرية.. فرمق الملك بنظرةٍ طافحة بالغرور والتوعُّد، قبل أن ينحني انحناءةً عابرة يقضي بها العُرف، وهو يكادُ يتمتِم: «إذًا، اسمح لي بالانصراف أيّها الملك». ثمّ انسحب في هيئة المتكبّر، متثاقل الخطى، وخرج متجهًا ناحية بهْو السباع، فلم يستطع أن يقاوم رغبتَه في إلقاء نظرةٍ عابرة على نوافيرها الرّائعة التى تقذف الماءَ بشكل يكادُ يخطف الألباب، ومدّ يدَه يداعب المياه يروي بها عطشَه، ليجد نفسه فى حوارٍ مع واحدٍ من حاشية القصر يُدعَى حسان بن محمد بن سراج الذي يعمل ضمن حرّاس القصر، وكان قد استمع إلى ما دار بين الأمير ودون خوان.

حسان: «لا جزية لكم علينا أيُّها القشتاليُّ اللعين، الذي كاد عقلُه يذهب من روعة ما يرى، انظر حولك.. فمَن شيّد هذا البناء قادرٌ على إنتاج السلاح ودحْركم».

حدجَ دون خوان حسانَ بنظرة ملتهبة قائلًا وهو يستدير حول نفسه: «بناءٌ جميل وتصميمٌ أنيق وحدائق بديعة حقًّا، ولكنّ الكنوز

تحتاج إلى مَن يحرسها ويحافظ عليها، وأنتم أُمّة عفى عليها الزمن، و تمزّقَتْ كلّ مُمَزَّق، وانتهت ريادتها واحتضرتْ منذُ حين».

حسان: «تلك أمانيُّكم وأحلامكم التى تُدَق دونها الأعناق، وتُجَزُّ الرؤوس».

وبينما كان حسان يشير إلى عنقِ دون خوان، كان هذا الأخير يحاول أن يكظم غيظَه الذي بلغ ذروتَه مدفوعًا بتعصُّبه الذي جعله شديدَ الكره لكلّ ما هو إسلامي، مُخفقًا في التشبّث برباطة جأشه، فقال:

«هراطقة! وسيأتي اليوم الذي نقطف فيه تلك الرؤوس المكتظّة بالهرطقة، (ثمّ وضع يدَه على قبضة سيفه، وهو ينظر إلى حسّان نظرة احتقار).

حسّان: «إنّ أُمة فتحت تلك البلاد ودوّختكم قرونًا طويلة، وهزمتكم غيرَ مرّة في مواقع عديدة، ونجح جناحُها الشرقي منذ سنوات قريبة في أن يهدم صرحَكم في القسطنطينية؛ لهي أُمةٌ قادرة على هدم صرحِكم فى الأندلس، وكما بدأنا أعظمَ نصرٍ نعيدُه».

لم يكن من دون خوان إلّا أنِ ابتسم في سخرية، ولم يردّ على حسّان، مكتفيًا بأن أشاحَ بوجهه عنه، مادًّا يُمناه إلى ماء البِركة ليشربَ مرّة أخرى بعدما كان حسّان قد قطعَ عليه ارتواءه في المرة الأولى، لتثورَ ثائرة حسّان نافرًا من سخرية دون خوان منه ومن المسلمين، على

رغم أنّه لا يزال بين ظهرانيهم ويمشي على ترابِ دولتهم، فصرخَ فيه قائلًا..

حسان: «صليبيّ مغرور، ولولا أنّ الرسل لا تُقتل وأني لا أفعل شيئًا من دون إرادة الأمير للقَّنتك دروسًا في فنون الفروسية وآداب الحوار».

دون خوان (بصوت مرتفع): «لقد تجاوزتَ حدّك أيها العربي»، ثمّ أشهر سلاحَه وأعاده فيُغمده في حركة تومئُ بالتحدّي وعدم الخوف!

لم يكدْ يضعُ دون خوان قبضته على مقبض سيفه في حركته الاستعراضية، حتى لمعتْ في ضوء الشمس أسنّة السيوف في بهْو الأُسود، وهبَّ الحرس معتزمين قتلَ الفارس السّفير، لكنّ أبا الحسن الذي سمع الضجيج، سرعان ما هبَّ من مكانه إلى ناحية بهْو الأسود، فتوقّف الجند مِن فورهم انتظارًا لأوامر أميرهم الذي بادرهم بلهجةٍ حادّة حاسمة: «أغمدوا سيوفكم، فالسّفراء لا يُقْتَلون».

أعاد الجنودُ سيوفهم إلى أغمدتها مُنصاعين للأمر، وكذلك فعل دون خوان الذي ارْتسمت على وجهه كلّ علامات الغضب.

حسّان: مولاي، لقد همَّ بقتلي.

يسمع دون خوان كلامَ حسّان فلا يرد، غير أنّ نظرات أبي الحسن له أجبرتْه على الدّفاع عن نفسه.

دون خوان: «مولاي، لقد اختبرَ هذا الفتى صبري بكلماتٍ لا أرضاها، وتكلّم في حقّ المسيحيّين جميعًا بكلام لا يليق».

حسّان: «كان جدالًا عاديًّا يا مولاي، فما هو إلّا وقد أشهر في وجهي سيفه، ولولا أنّه في حضرة مولاي وسفيرٌ عنده، لما تجاوزت عن فعلته هذه إلّا بسفك دمه».

أبو الحسن (ينظر إلى دون خوان قائلًا): «لا عليك أيها الفارس، لا عليك، فلن يتعرّض لك أحدٌ في غرناطة بأيّ شر».

أمّا حسّان، فنظر إلى دون خوان قائلًا: «سأحتفظ بحقّ الثأر، وسأقتلك يومًا ما»!

دون خوان (ينظر في احتقارٍ إلى الفتى):«سأصلي للسيدة العذراء أن تضمن لي فرصةً تمكّنني من إزاحة ذلك الشيء الذي تخبئه تحت عمامتك!».

يتدخّل أبو الحسن مرة أخرى، ويأمر حسّان بالانصراف، ثمّ يأخذ دون خوان ويدخل به إلى بهْو السّفراء مرة أخرى، ويتلطّف معه قائلًا: «لا عليك، فنحن نعرف جيدًا حقّك، وحقّ الرسل، وكيفية معاملتهم».

ينحني دون خوان قليلًا في تكبّر سافر، رامقًا أبا الحسن بنظرةٍ ماكرة.

أبو الحسن: «ولكي أطيّب خاطرك، فهذا سيفٌ دمشقي كنت أحتفظُ به لنفسي، وهو كما ترى، ذو قبضة ذهبية ومُطَعَّمٌ بالأحجار الكريمة، تَقبَّلهُ هديةً مني لك».

أخذ دون خوان السيفَ من الأمير، ثمّ سحبه من غمده وهو يبتسمُ وينظر إلى نصلِه النادر قائلًا: «لقد جاد عليّ صاحب الجلالة بسيفٍ سأُتقن استخدامَه في حضرته»!

حدجَ أبو الحسن دون خوان بنظرةٍ قاسية، متدبّرًا ما نطق به الفارس المتعجْرف من تهديدٍ ووعيد، مثلما تدبّره أيضًا الوزير رضوان الذي بلغ به الغيظ حدَّ أنه أراد أن يرسل خلفَ دون خوان مَن يقتله، قبل أن يردّه أبو الحسن رافضًا إيذاء الفارس، وإنْ كان وقحًا، مُشددًا على إيمانه بحقّ الرسل والسّفراء في الأمان لأنفسهم، وحفظ دمائهم.. وما كادتِ المقابلة بين دون خوان وأبي الحسن تنتهي، حتى طلب الفارس الانْصراف، مستأذنًا الأمير في أن يسمحَ له بالتجوال في أسواق غرناطة متعلّلًا بحاجته إلى شراءِ ما يعينه على رحلةِ عودته، فأذن له الأمير، وأمرَ له بمَن يرافقه أثناء رحلته، حتى لا يتعرّض لهم أحدٌ بسوء، فصحبهم أحدُ حراس أبي الحسن إلى باب الطباق السّبع ليخرجوا منه إلى غرناطة، متّخذين طريقهم إلى حدود قشتالة.

***

.٣.

انصرف دون خوان مع عصابته الصغيرة بخطًى متباطئة، ليشاهدوا الأسواق والقيسرية، بنظراتٍ متفحّصة، وتفكّر عميق، وصمت مُريب، مدعيًا أنه يعتزم ابتياع بعض الأغراض من هناك. كان دون خوان وعصابته يرمقون كلّ شيء بعيونهم، وكأنّهم يحاولون نقش التفاصيل على صفحاتِ ذاكرتهم، حتى إذا تحرّكوا وشاهدوا ما في المدينة من خيراتٍ سالَ لعابهم، وتمنّى كلّ واحد منهم أن تكون الحرب قريبة لتمنحهم الفرصة لاجتناء كلّ ما يريدون، وبينما هم كذلك إذْ شاهدوا التهيؤ للقتال وتقوية الأسوار والمدافع الثقيلة، فأصابتهم الدهشةُ من كثرة الإمكانات ووفرة الموارد إلى جانب قوّة المشاة وتضافرها مع كتائب الفرسان، فظلوا يتابعون مراقبة هذا النّفير من دون أن يظهروا اكتراثًا، أو حتى يُبْدوا استغرابًا، ثمّ مرَّ الوفد على قيسرية غرناطة وأسواق الحرير والذهب، فتساءل أحدُهم ويدعى (هنري) وهو فرنسي اللّسان:

«متى ستصبح كلّ هذه النفائس مِلْكًا لنا؟!

فردّ عليه دون خوان قائلًا: «أمّا أنا فشوقي وتلهُّفي لقطف رؤوس هؤلاء الكفار أكبرُ من شوقي لامتلاك تلك الأموال من ذهبٍ وحرير».

واصل دون خوان مع عصابته الصغيرة طريقهم ببطء، ميمّمين وجوهَهم نحو الحدود القشتالية، ليشهدوا مدى قوةِ كلّ حصن

مرّوا به في طريقهم، وكيف بنيت الأبراج ليلجأ إليها فلاحو القرى، وكيف تقفُ موقفَ الدفاع على كلّ ممرّ ومرتفع، وبينما كان هؤلاء الفرسان يمرّون بتلك المعاقل كانت تلمع في داخلها وأسوارها السّيوف والأسلحة، وتحت العمائم والخوذات عيونٌ متّقدة ترمقهم بنظراتٍ تشتعل نارًا، وتصبّ عليهم مزيجًا من الشّرر والاحتقار، كما شاهدوا جبال الثلج تحمي غرناطة ونهرَ شنيل يرويها، وأشجارَ الرمان تزيّنها، كما لاحظوا قوةَ الأسوار ورباطة جأش حرّاسها المتأهّبين للدفاع عنها، وشاهدوا الأسلحة والأنفاط والتّجهيزات للحرب المرتقبة.. شاهد دون خوان ذلك، وسجّله في ذاكرته، وكذلك فعل رفقاؤه، ثمّ قفل بهم عائدًا إلى قشتالة، ليقدّم تقريرًا مفصّلًا عن رحلته كيف كانت.

***

منذ اللحظة التي خرج فيها دون خوان مغادرًا بهو السفراء، استغرق أبو الحسن مفكّرًا في الحرب التي بدأت نُذُرها تقرعُ الأبواب، وصارت في حكم الواقعة لا محالة، مدركًا أنّ فرناندو لن يصمتَ بعد ذلك، ثمّ تذكّر السّيل وما أحدثه من خسائر، عندما أنهك قوة المملكة الاقتصادية، ممّا تسبّب في تأخير أعطيات الجند ورواتبهم، كما قلّ إنتاج البارود والأسلحة، وعلى رغم كلّ ذلك فقد قرّر أبو الحسن مباغتة القشتاليّين وردّ إهانتهم ضعفيْن. وفجأةً، قطع الصمتَ صوتُ الوزير رضوان، وهو يحاول أن يعرفَ بماذا يفكّر السلطان، قائلًا بصوت متلعْثم خَفيض:

«أليس مِن الغريب يا سيدي أن يرسل فرناندو فارسًا مثل دون خوان للتجسّس، بينما يمكُن لأي مُرتدٍّ عربي أنْ يقوم بتلك المهمة، ومِن دون إثارة أي شكوكٍ حوله؟».

يأخذ أبو الحسن نفسًا عميقًا، ثمّ يتحدّث بصوتٍ خفيض، ومن دون النظر إلى رضوان قائلًا: «مهما بلغ الجاسوس من القدرة على الوصف، فلن يكون في مقدوره مجاراة حنكة وحسّ فارسٍ محارب على غِرار دون خوان، لقد أراد أن يكون مَن يعاين المدينة على قدرٍ كبير من الفروسية وخطط الحرب، حتى يستطيع أن يصفَ له الوضع على طبيعته، وينقل إليه تقييم الأمور بكُنْهها قبلَ ظاهرها، وكأنّ فرناندو نفسه هو الذي حضر، ورآها بأمّ عينيه!».

***

.٤.

غادر دون خوان ببطءٍ ناحيةَ الحدود، وقد أيقنَ أنّ الاستيلاء على تلك المدينة التليدة، سيكلّف قشتالة الكثيرَ من الدّماء والوقت والأموال، وبعد أيام من خروجه وصل إلى إشبيلية، بعد أن جمع وكتب كلَّ ما شاهده في تلك الرّحلة الطويلة، وعندما وصل إلى قصر المورق طلب الإذنَ بالدخول على الملك والملكة فأذنا له، ليدخل دون خوان إلى بهْو السّفراء حتى إذا حاذى كرسي العرش، انحنى مقدِّمًا التحية للملك والملكة، ومقدّمًا تقريرًا مفصَّلًا عن الرحلة وأحداثها، وما كان فيها من مواقف وأحداث، فإذا بفرناندو يردّد في ذهول من جَمال ما سمع عن غرناطة وأسواقها قائلًا: الرّمّانة!!

دون خوان: نعم يا مولاي، هي الرّمّانة التي سنقطفها يومًا، ونتمتّع بحبّاتها الحمراء، لقد بدتْ يا مولاي حين دخلناها كعروسٍ تنتظر فارسها فرناندو، الذي قطعًا لن يتأخّر عنها.

لم يستطع فرناندو أنْ يُخفي إعجابه بكلماتِ دون خوان، قبل أن يصمتَ برهةً متفكّرًا، ثمّ يقول: وكيف حالُ سكّانها؟ وهل تحققتَ من دفاعاتها؟

دون خوان: دفاعاتها جيدةٌ يا سيدي، لكنها لن تصمدَ لقتال، لقد لاحظنا يا مولاي استعدادات المسلمين للحرب والحصار، فهُمْ يبنون الأسوار ويحصّنونها، وينتجون المزيدَ من الأنفاط. إنّ حربنا معهم يا سيدي ستكون حربًا ضَروسًا، حرب مواقع؛ حيث سيكلّف انتزاعُ كلّ موطئ قدمٍ دماءً غزيرة، كما سيكلّف الاحتفاظ به دماءَ أشدّ غزارةً، وهذا شيءٌ مُمتع يا سيدي، فالصيدُ الثمين يحتاج إلى فارسٍ ماهر.. لقد تجوّلتُ في الأسواق أنا ورفقائي، فهالني ما رأيت؛ فالأسواق تفيض بكلّ ما تشتهيه الأنفُس من حرير وذهبٍ وطيور، فكأنها جنانٌ وارفة الظلال، وكأنّ تلك المدينة قد حوَتْ كلّ خيرات الدنيا.

إيزابيلا: هذا يعني أنّ غرناطة مستعدّة للحصار الطويل!

فرناندو: أصبتِ كبدَ الحقيقة يا عزيزتي، وهذا يعني أنّنا قبل أن نفكّر في غزوها، يجب أن نرهقَها ماديًا، ونستنزف خيراتها عملًا بما فعله أسلافنا، منذ جدّنا العظيم فرناندو الأول الذي وضع لنا خطّة

نسجُ على منوالها حتى اليوم، فقوّة تلك المدن تستند إلى مدّخراتها، فإذا نحن أرهقناها واستنزَفْناها هانَ علينا ما بعد ذلك، وساغت لنا السيطرةُ عليها، وقد كان هذا هو هدفي من طلبِ الجزية، ومن مضاعفة قيمَتها! حتى نستخدمَ أموال الجزية في صناعة الأنفاط واستجلاب المقاتلين بالأُجرة من كلّ أُوروبا، وبهذا نحتلّ غرناطة بأموال الغرناطيّين!

وبينما يقهقه فرناندو حتى كادتْ جلجلة ضحكاته تصطدم بسقف القاعة، تلعثَمَ دون خوان قليلًا، قبل أن يقول: لكني أخشى يا مولاي أننا لن نستطيعَ محاربتهم بأمْوالهم!

فرناندو: ماذا تقول؟!

دون خوان (وهو يكاد يتردّد في البوْح): لقد رفض أبو الحسن أن يدفعَ الجزية لجلالتكم.

فرناندو: رفض! كيف يجرؤ؟ بل كيف يفعل؟

تردّد دون خوان في الحديث مرةً أخرى، وغامَ صوته خوفًا من ردّة فعل فرناندو وإيزابيلا، ثمّ استجمع قواه ليقول: لقد قال لي: بلّغْ مولاك أنّ أسواق غرناطة الآن لا تنتج سوى السيوفِ والرماح!!

فرناندو يهبُّ من مقعده قائلًا: أوَ قدْ بلغتِ الجرأة بهذا العربي أن يلوِّح بالحرب علينا!؟

إيزابيلا: هو بكلّ تأكيد علمَ بما تمرّ به المملكة من حروبٍ مع جارتنا البرتغال، ولهذا فعلَ ما فعل. إنّ هذا العربي أراد أن يستغلّ

الموقف لمصلحته، مع علمه بأننا لن نستطيع مجابهتَه في الوقت الحالي!

فرناندو: ألا لعنةُ الله على البرتغال ومليكها، ألا لعنةُ الله عليك يا أبا الحسن.

دون خوان: سيدي.. سيدتي.. ليس هذا كلّ شيء، فقد تعدّى هؤلاء الهراطقة على مريمَ العذراء، وكادوا يبطشون بي لدفاعي عنها.

إيزابيلا: ماذا؟ هل فعلوا؟

وهنا يتدخّل كاردينال قشتالة الأعظم، وهو مستنفر قابضًا بكفّه على الصليب قائلًا: نعم يفعلون، إنّ هذا العربي أبا الحسن لَعَديم الإيمان، شرس، وحاقد على قداسة الإيمان المسيحي، تتملّكه روحٌ شيطانية عدائيّة لهذا الإيمان المقدس، ولهذا فقد امتنعَ عنْ دفع الجزية، ثمّ تمادى بذكر السيدة العذراء بما لا يليق، إنّنا ننشُد جلالتكم الانتقامَ لمقام العذراء فينا.

فرناندو: نعم.. نعم، سننتقم، لن نترك في غرناطة وقشتالة كلها مسلمًا واحدًا، سنشنُّ حربًا لا تُبقي ولا تذر على كلّ مَن تمرّد وتعالى وكفَر. ولك تقديري يا دون خوان أنا والملكة لدفاعك عنِ السيدة العذراء. أمّا أنتَ يا قداسة الكاردينال الأعظم فعليك أنْ تخطب في شعبِ قشتالة وجنودها، وأن تحفّزهم إلى الانتقام للسيدة العذراء،

أيقظ فيهم الإحساسَ المقدس، واجعل دمَهم يغلي في عروقهم كالمِرْجل حتى تكون سيوفُهم أسبقَ من كلماتهم.. عليك أنْ تُذكي في شعبي تلكَ الروح المقدّسة التي ستمنحنا النّصر. ليجيبه الكاردينال بقوله:

سأحشد كلّ طاقتي لتلك الحرب المقدّسة التي نتوق إليها يا جلالة الملك، يجب أن يعلمَ جندُنا وشعبنا أننا لن نحارب من أجل أي مغْنَم، أو تعطّشًا إلى الدماء.. بل هي الحربُ المقدسة من أجل الكرامة القشتالية التي يحملها كلُّ فارس قشتالي. يجب أن نحارب من أجل استعادة هذه البلادِ الجميلة التي يدنّسها هؤلاء الكفرة، إلى حظيرة الإيمان الصحيح والملَكية المسيحية.

تنفرجُ أسارير إيزابيلا مبتهجةً، بعدما أطربتها كلماتُ الكاردينال، بينما قرّر فرناندو الاستعدادَ لسحق غرناطة وتطهيرها ممّن سمّاهم المحمديّين، ولكن وبسبب حروبه مع مملكة البرتغال؛ فقد آثرَ فرناندو التغاضي مؤقتًا عن محاربة مملكة غرناطة، مخافةَ أن يجتمع عليه الخَصمان، فوقتها ستكونُ قشتالة في موقفٍ لن تحسد عليه، إذ ستطبقُ عليه البرتغال من غربها وغرناطة من جنوبها- فكّر فرناندو في كلّ هذا ثمّ قرّر أن يهادن غرناطة لثلاث سنوات مُقبلة، يستغلّها في الإجهاز على مملكة البرتغال، أو إقامة الصلح معها، ثمّ يُدير حينئذٍ آلة حربِه لسحق جيش غرناطة والقضاء على شعبها.

سادَ القاعةَ صمتٌ ثقيل، قطعه فرناندو بصوته الجَهْوَري صائحًا وهو يتحرك إلى وسط البهْو، وقد تغيّر وجهه وغزَتْه علاماتُ الغضب: «غرناطة يا شجرة الرّمّان، لقد انتهتْ أيامُ ربيعك وازْدهارك، وانتهت أيامُ سعدك واخْضرارك، وحلّ خريفك.. خريفُ شجرة الرّمّان.. غرناطةُ، سوف أشقّ سترك وألتقطُ حبّاتك واحدةً واحدة، حتى أصل إلى قلبك، وأعتصره بيديّ هاتين (يقبض بيده بشدة).

ثمّ سكت فرناندو فتكاثفَ الصمتُ مجددًا، بينما كان الملكُ لايزال يحتفظ بوجهه غاضبًا، وقبضةُ يده مشدودةً كأنّما كان يهتف وهو على وشْك اقتحام ساحة معركة!

***

.5.

على الجهة الأخرى، كان أبو الحسن على علم بنوايا ملك قشتالة، لكنه- أيضًا- كان على ثقةٍ بجيشه وقدرته على المقاومة والمجالدة، فقد كانت لديه ثروةٌ كبيرة جمعها خلالَ سنواتِ الاستقرار، فحصّن بها مملكته وجلبَ الكثير من القوات الإضافية المحاربة من الشمال الأفريقي، وبهذه الاستعدادات قرّر أبو الحسن أن تكونَ له اليد العليا في الأيّام الآتية، وقرّر أن يباغتَ قشتالة بحربٍ خفيفة يغنمُ منها ما يتاح لجنده أن يغْنموه، ويهزّ بها عرش مملكة قشتالة ويزعزعُ كبرياءها. وهكذا دوَّت صيحات الحرب في كلّ غرناطة، وأصبحت

حديثَ الساعة وكلِّ ساعة.. أمّا قصر الحمراء فقد كان على موعدٍ مع لقاء أُعدّ له سلفًا.. لقاء جمع بين السلطان أبي الحسن وقادة جيشه ووزرائه.. تكلم أبو الحسن قائلًا:

لقد جمعتكم اليومَ لأمْر جَلَل، فالقشتاليون قد نقضوا عهودهم وأغاروا على حصن بللنقة (فيلا لونجا)، وأبادوا حاميتَه، وسبَوا النساء والأطفال، وعاثوا في أحوازِ «رندة» وخرّبوها على رغم ما بيننا من معاهدات!!

إبراهيم الحكيم: لم يحترم هؤلاء عهدًا من قبْل، فلا عجبَ أن ينقضوا عهدَهم اليوم، وقد انقضت يا سيدي السنواتُ الثلاث، منذ زار دون خوان دي فيرا غرناطة، كما وضعتِ الحربُ أوزارها بين قشتالة والبرتغال، ولهذا فنقضُهم العهود أمرٌ متوقّع جدًّا، إذْ إنهم ما قبلوا الهدنة إلّا ليتفرّغوا من البرتغال، فلمّا انتهت حربهم معها توجّهوا إلينا!!

أبو الحسن: كنتُ أعلمُ يا إبراهيم أن قبولهم الهدنة كان بسبب انشغالهم بحروب البرتغال، ولكن لم أكنْ أتصوّر أنهم سيسارعون بهذا الشكلِ إلى حربنا.

يعقّب إبراهيم الحكيم في حماسةٍ شديدة قائلًا: إنّ أبواق الحرب بيننا وبينهم بلغ صداها قممَ الجبال وبطونَ الوديان وأصقاعَ المعمورة يا سيدي، ولا صمت لها بعد اليوم، إنّهم يا سيدي لن يكتفوا بحِصن فيلالونجا إن نحن سكتْنا عنهم. ثمّ يتوجّه إبراهيم إلى أبي الحسن

مواصلًا: «إنهم يا سيدي لن تغمضَ لهم عينٌ ولن يهدأ لهم بالٌ، ولن يستقر لهم قرار إلّا إذا خلتْ هذه البلاد منّا.. إلّا إذا أسكتوا صوتَ المؤذن في جنباتها، وإنَّ صمْتَنا عنهم سوف يطمعُهم في بلادنا ويفتحُ شهيَّتهم لدمائنا ويُجَرِّئُهم أكثر علينا».

(ينظر أبو الحسن إلى إبراهيم في إعجابٍ ويقول له): استرسلْ في الحديث.

إبراهيم الحكيم: «لقد كان في تفرُّق أراجون وقشتالة فرصةٌ لنا في الحياة، نستغلّ تشتتهم وتقاتلهم لمصلحتنا، ولكن الآن وبعدما اتّحدت المملكتان، لم يعدْ لنا سبيل عليهما إلّا بمجابهتهم جميعًا، ثمّ هَبْنا يا سيدي التزمنا الصّمت، ولم نتحرّك لردّ العدوان عنّا، فهل سيكتفي القشتاليّون بما حققوا؟ قطعًا لن يكتفوا، وجميعُكم يعلم مدى الحقدِ الكاثوليكي عند هذا الملك وزوجته علينا، فلا بدّ من الاستعداد، ومن الآن يا سيدي».

على وقع كلمات الحكيم تحرّك أبو الحسن صوبَ إحدى الستائر مزيحًا إيّاها عن نافذةٍ تطلّ على حدائق الحمراء، فيما التزم الجميع الصمتَ في انتظار حديثه، وبينما كان لا يزالُ ينظر من خلف النافذة، قال: «إنّ القشتاليّين لن يسكتوا عنّا حتى لو دفعنا لهم الجزية، فهم دائمًا يستنزفون ثرواتنا، ثمّ بها يقوّون جيوشهم ويستأجرون السيوف لقتالنا، لهذا أرى أن نستعدّ من الآن للحرب، الحربُ التي لا مناص منها ولا مَنْدوحة عنها». ثمّ تنهد أبو الحسن متابعًا حديثه: «رحم

الله المرابطين والموحّدين وبني مرين، فما أحوجَ الأندلس إليهم اليومَ بعد أن انقطعت بنا السبل وعزَّ النصير!».

تدخّل الوزير رضوان كأنّما يواسي أميره بالقول: «أتقول هذا يا سيدي وأنت تعلمُ أنّ أُولئك عندما دخلوا الأندلس ملكوها!؟».

أبو الحسن: «كانوا سندًا للأندلس على رغم كلّ شيء يا رضوان، ولقد فقدنا بذهابهم كلَّ نصيرٍ وسند».

إبراهيم الحكيم: «نعم يا مولاي، فقد كانوا أهلَ جهاد، هبّوا لنصرة الأندلس، وكانت لهم فيها صَوَلات وجوَلات، وهُم على الرغم من كلّ شيء يظلّون إخوتنا، فلم يهدموا مساجدنا ولم يحوّلوها إلى كنائس وأديرة أيّها الوزير».

أبو الحسن: «رحمَ الله ابن عبَّاد».

إبراهيم الحكيم: «رعي الجِمال خيرٌ مِن رعْي الخنازير».

أبو الحسن: «وهذا ما قصدتُه وإنْ لم أصرّح به يا إبراهيم».

وبالفعل، أرسل أبو الحسن إلى عدوة المغرب يستمدّهم المساعداتِ اللازمةَ إن استطاعوا. فعل ذلك واليأسُ يملأ منهم فمَه وقلبَه ولسانه؛ فقد كان أبو الحسن يعلم أنّ الأحفاد ليسوا كما الأجداد، فقد ذهب المرابطون وبنو مرين بالرّجال، ومَن بقي بعدهم هُم أشباه رجال، كما علمَ أنّ بني وطّاس لن يهتموا إلّا لأنفسهم فقط، فضلًا عن انْخراطهم في حروبهم المتتالية مع جيرانهم في

المغرب الأوسط، بل إنّهم لم يستطيعوا على رغم مرورِ السنين تحريرَ سبتة من البرتغاليّين الذين احتلّوها منذ عقود عديدة، منذ سنة ١٤١٥م، ومَن يعجز عن تحرير أرضه لن ينهضَ ليساعد غيرَه.

كان أبو الحسن يعلم ذلك ويعيه جيدًا، وعلى رغم ذلك أراد أن يقيمَ الحجَّة على بني وطّاس فراسَلَهم، وأتتِ المراسلة ببعضِ الخير، فرغم تكاسلِ بني وطّاس هبّ الشعبُ المغربي لنجْدة الأندلس، فتقاطرتْ إليها وفودُ المجاهدين وهُمُ المعروفون بشدّة البأس واعتيادهم خشونة العيش.. وقبل أن ينتهي الاجتماع والإعداد للحرب، وعلى رغم معرفته بكلّ صغيرة وكبيرة في جيشه وعنه؛ فقد راح أبو الحسن يسأل قائدَ جيشه ويقول وهو العارفُ بالإجابة:

«أخبرني يا إبراهيم، كيف ترى حالَ الجيش؟».

إبراهيم الحكيم: «الجيش يا سيدي على أحسنِ حال، وقوّات المشاة متفوّقة، وخيّالتنا مستعدة دائمًا، أكُفُّهم تكادُ تخنق مقابض سيوفهم التي لا تعشق إلّا مفارقة أغمادها، كما أنّ معظم مباريات المبارزات مع القشتاليّين تتوَّج بانتصار فرساننا».

شبّك أبو الحسن يديه خلفَ ظهره، وقال: وماذا عن وسائل الحماية؟

إبراهيم الحكيم: لقد زوّدنا كلَّ فارس وجندي بدرع جديدة، تقي كلّ أجزاء جسمه من اختراق الأسهم، كما طوّرنا الخوذات،

وضاعفنا قدرتها على حماية رؤوسهم ممّا أعطى جنودَنا وفرسانَنا ثقةً فوق ثقتِهم، كما أنّنا الآن يا سيدي لدينا فرقةٌ رائعة من حمَلة الرّماح وهُم جاهزون في أيّ وقتٍ للقاء العدو. لقد أحسنّا يا مولاي تدريبَ كلّ فرق الجيش، حتى أضحى فرسانُنا مُسْتعدّين للموت دفاعًا عن عساكرهم وأملاكهم.

امتلأ وجه أبي الحسن بنشْوة الأمل، فتحرّك فى البهو ليمسكَ بسيفٍ دمشقي معلّقٍ على الجدار خلفَه، وسحبَه من غِمده، محدقًا في نصْلِه وقال: إذاً، فلنُلَقّن القشتاليّين درسًا لن ينسوه.. سنضربهم بهجمةٍ قصيرة تُرعبهم، وتثبتُ لهم أنّ عصر الخنوع قد ولّى وانتهى إلى غيْر رجعة، وقد استأصَلنا من أفكارنا بنودَ المهادنة والسكوتِ عن الضّيم، وأنّ غرناطة لم تعدْ لقمةً سائغة لهم.. والآن اكتُموا أمرَ الحرب ولا تدعوا المتطوعة إليها، فأنا لا أريد للعيون أن ترَى ولا للآذان أن تسمعَ بما سنفعل، لذلك عليك يا إبراهيم أنْ تتأهّب وتجهّز الجيش في سريّة شديدة، وكأنّنا نجهز لعروضٍ عسكرية جديدة، عليك أن تتّخذ أقصى درجات السريّة والسرعة في ذلك، حتّى لا يتنَبّه أعداؤنا فيتجهّزوا لنا. أُريدُ أَن نأْخُذَهم على حينِ غِرّة؛ فتنخلعَ قلوبهم فلا يستطيعون مجابَهَتنا، ثمّ يصرخ بصوتٍ مرتفع قائلًا: «ولتعلم غرناطة، وليعلم جيشُها العظيم، أنّ الأمير علي بن سعد سيقودكم إلى النّصر بإذن الله».

انتهى الحديث، وانصرف الجميع، ودخل أبو الحسن في صمتٍ رهيب وتفكيرٍ عميق، فهو يعلمُ علمَ اليقين أنّ حربه المقبلة مع قشتالة إنْ بدأها بإرادته، فلنْ يستطيع إنهاءها متى شاء، لهذا أخذ نفسًا عميقًا ثمّ تحرّك ببطء متأملًا بهْوَ الأسود، مستمعًا لخرير مائها، وخاطبَ نفسه قائلًا: «هبْني لم أبدأ الحرب، فهل سينتهي القشتاليّون؟ هل سيكتفون بما حقّقوه من مكاسبَ منذ قرون، أمْ أن الطمعَ فيما بأيدي المسلمين سيغريهم؟» ثمّ استدار مكملًا حديثَ نفسه قائلًا: «لو أنّهم سينتهون لكانوا اكْتفوا يومًا بطُليطلة أو إشبيلية أو حتى قرطبة؛ لذلك فلتكنِ الحرب، ولتبدأ المعارك، وليفعل فرناندو ما يستطيع»، وبينما هو كذلك كان هناك مَن يُراقبه، فقد كانت عينا عائشة الحرّة تتابعانه أولًا من بُرجها (برج قمارش المطلّ على بهْو الأسود)، ثمّ لمّا طالَ جلوسه عند نافورة الأسود نزلتْ مِن برجها وراحتْ تتلمّس مكانه، وفي هدوء وقورٍ دخلت الحرّة إلى بهْو الأسود، وهي ترتدي أفخرَ ثيابها، فبدَتْ كعروس شابة، وفجأة أحدث دخولُها صوتًا وجلبةً فانتبه لها أبو الحسن فإذا بها تبادرُه بالحديث متسائلةً عن أسباب وجوده هنا وحدَه!؟ نظر أبو الحسن إلى قمر غرناطة الظاهر في الأفق فقد كان اللّيل قد قاربَ على الانْتصاف، ثمّ مدّ يديه إلى عائشة وابتسم قائلًا: «مازلتِ كما أنتِ يا عائشة، حينما تبتسمين أطالع الدّنيا فى بسْمَتك، وأراكِ كزهرة متفتّحة في فصلِ الصيف تستمتعُ بالحياة، وأرى كلّ مَن هُم حولك يبتسمون لابْتسامتك، وحين تثورين أراها كأمواجِ البحر المتلاطمة في يومٍ عاصف».

عائشة (مبتسمة): «وهل تحبّ الزّهرة أم البحر؟!».

أبو الحسن: «أحبّ فيكِ الزهرة والبحر معًا، فأنتِ جميلة في كلّ الأحوال يا عائشة، فالبحرُ لا تتجلّى هيبته إلّا عندما تحلِّق أمواجُه عاليًا، والحياةُ لا معنى لها من دون ابتسامتك التي تسْري في روحي كنَسَمات الفجر المعبّأة برحيق الياسمين».

تنهّدت عائشة في دَلال، ونظرت إلى القمرِ المتألّق في الأفق، وتردّد بصرها بينه وبين نافورة الأسود، وقالت: «منذ زفافنا، وأنا أحبّ أن أشاهد القمر مِن هذا المكان».. ثمّ أكملت، وقد تملّكتها النشوة بابتسامةٍ عريضة وإغماضة طرف: «لأنه المكانُ الذي شهد ميلادَ أول كلمةِ حبٍّ منك لامستْ مسمعي، وسرَتْ في روحي، واستقرّت إلى الأبد في خَلَدي».

أبو الحسن: «آه يا عائشة لو يعودُ بنا الزّمان.. فأنا أيضًا كلّما نظرت إلى القمر وضوْئِه معانقًا بهْو الأسود؛ أتذكّر يوم زفافنا السعيد، بل إني أجزمُ بأن غرناطة كلها مازالت تتذكّر.. آه يا عائشة، كم أتمنّى أن أعودَ إلى تلك الأيام التي لم يكُ يشغلني فيها غيرُكِ، فلم تكُ في عنقي إمارةٌ تتناهشها أنيابُ الأخطار، وعدوٌّ متربّص بنا لا يترك فرصةً للانقضاض إلّا اغتنمها».

عائشة: «هوِّن عليك يا حبيبي، ورفقًا بنفسك؛ فلقد استطعتَ خلالَ حكمك أن تبني جيشًا يهابُه الأعداء ويطلب ودَّه الأصدقاء».

أبو الحسن: «أتعلمين؟ سيوضعُ هذا الجيش غدًا في ابتلاءٍ عسير، فقد تمادى القشتاليّون في غَيّهم، ولم يكتفوا بما حقّقوه من مكاسب على حساب دولة الإسلام في الأندلس، فأرادوا استلابَ أموالنا وبلادنا، وإجبارَنا على الخضوع، لذلك لا بدّ من ردْعهم، وأن نردّ لهم الصاعَ صاعيْن، وإلّا فسيتجرأون علينا أضعافًا!».

عائشة: «إذأ، فلتصطحب ابننا محمدًا معك».

أبو الحسن (يتغير وجهُه وتتلعثَم شفتاه): «لا، لن أصطحبه معي أبدًا.. أُريد أن أغسل ذاكرتي ممّا كان».

عائشة: «لعنة الله على ذاك الدرويش الذي تسبّب لنا في كلّ هذا».

***

.٦٠

«الصخرةُ التي هوت على رأس أبي الحسن»

بعد تفكيرٍ وتدبيرٍ وترتيب، قرّر السلطان أبو الحسن أن يوجّه ضربتَه إلى أحصن حصونِ قشتالة، ذاك الحصنُ القريب من قرطبة، الذي يفتخر القشتاليّون بحصانته وقوّته، لذلك أهملوا حراستَه اعتمادًا على قوة أسواره.. أعدّ أبو الحسن العدَّة، محافظًا على الأمر تحت غطاءٍ كثيف من السريّة، وسياج سامق من التكتّم على مقصده، قبل أن يخرج من غرناطة على رأس جيشه، بينما لا يعرف وجهتَه

إلّا أخصَّ خاصته فقط.. تحرّك متجهًا صوبَ حصن الزهراء المنيع، مستغلًّا ضعفَ الحامية لهذا الحصنِ وثقة القشتاليّين الشديدة بقوّة أسواره، إذْ بني الحصنُ على رأسٍ جبليٍّ ناتئ، فوقه قصرٌ كبير كان يُقال إنّه أعلى من أجنحة الطيور وسحبِ الغمام، كما أنّ طرقات هذا الحصن وبيوتَه كانت محفورةً في الصخر، وله بوابة واحدة مفتوحة إلى الغرب، ويحميها برجٌ يمكن أن يُصبّ منه الزيت المغلي على الغزاة، أمّا الطريق الوحيد المقطوع من الصخر فكان وعرًا إلى حدٍّ أنه يشبه دَرَجًا محطّمًا. هكذا كان حصنُ الزهراء الشهير، الذي بلغت مناعتُه أنّ المرأة العذراء التي لا مجالَ لإغوائها كانت تسمّى زهرانية.. لكن يبقى أنّ لكلّ قوة- مهما عظمت- نقطة ضعف.

وفي ليلة السبت الأوّل من يناير من العام ١٤٨١م، وقد كانت ليلة عاصفة باردة، خَلَدَ أهلُ الحصن فيها إلى النوم باكرًا. في هذه الليلة تحديدًا، قرّر أبو الحسن أن يضرب ضربتَه، فما كاد يصلُ إلى أسوار الحصن بزيّه العسكري وعُدّته القتالية ممتطيًا صهوةَ جواده ومِن حوله قادةُ جيشه، حتى أسرع ببثّ الكشافة يترصدون مكامنَ الضعف في الحصن، وأيسرَ السّبل لاخْتراقه، وقد حالف حُسنُ الطالع أبا الحسن؛ فقد وقفَ سوء الأحوال الجويّة إلى جانبه؛ إذ أجبرتِ العاصفةُ الحراس على ترك أماكن مراقبتهم واللّوذ بملاجئهم التماسًا للرّاحة والدفء، تاركين الفرصةَ سانحة لتحرّك كشّافة أبي الحسن الذين تسلّلوا وأحاطوا بالحصن في غفلةٍ من الحرّاس، وبينما

هُمْ كذلك اقتربَ مِنْهم رجلٌ ملثّم، كان قد غادر بابَ الحصن من فوره، فقبض عليه جنودُ غرناطة متوهّمين أنّه من أهل الحصن، لذلك حملوه وأتَوا به إلى الأمير أبي الحسن.

أبو الحسن: «أميطوا عنه لثامَه».

فكّ الجند اللّثامَ عن وجه الرجل الذي تقدّم ناحية أبي الحسن محاولًا أن يقبِّلَ يديه (وقد بدتْ على وجهه علاماتُ الإنهاك والتعب، لكنّه في الوقت ذاته متحفّزٌ، ويبدو كأنه سعيدٌ بلقاء الجمع)، أمسك الجند بالرّجلِ ومنعوه من التقدّم ناحيةَ الأمير أبي الحسن، الذي بادره متسائلًا وسط صمتٍ وترقّب مِن الجميع: «مَن أنت؟».

التقط الرجلُ أنفاسه وقال: «اسمي غالب البيّاسي يا سيدي، من سكّان لوشة، وقد وقعتُ في الأسر منذ سنتين، وأنا أُحارب تحتَ إمرة سيدي علي العطار، فاستعْبَدني القشتاليّون وأذلّوني، وقد مكّنني الله من الهربِ من الأسر في هذه الليلة المباركة السعيدة، وقد كنت أخشى أن يتتبّعني بعضُ القشتاليّين فلا أبلغُ بلاد المسلمين، أمّا وأنتم هنا يا سيدي فلا خوف ولا قلق».

أبو الحسن (وكأنّه شكّ في كلام الرجل):«ألا ترى أيها الرجل أنّ الأمر قد يبدو مريبًا بعضَ الشيء؛ إذْ تصادف خروجُك مع قدومنا..!!».

غالب: «بل هي إرادةُ الله يا سيدي وتوفيقه».

أبو الحسن: «لِمَ إذاً لمْ تحاول الهروبَ من قبل؟ ولِمَ في هذه الليلة تحديدًا؟».

غالب: «لقد حاولت مرارًا وتكرارًا يا سيدي، فلمّا تكرر فشلي لجأتُ إلى الحيلة، فأظهرت النّصرانية، ولكني والحمد لله مسلم كما أنا لم أتغير، ولم.. ولن أرتدّ عن ديني الذي هو عصمةُ أمري، فاطمأنّ القشتالي لي، وبدأ يخفّف عني قيوده إلى تلك الدّرجة التي مكّنتني من الفرار، والفِكاك من أغلال قيودهم».

أبو الحسن: «مرة أخرى أكرّر عليك السؤال، وإيّاك أن تغامرَ بالكذب أمامي: لِمَ هذه اللّيلة بالذات يا غالب؟».

غالب: «لأنّها يا مولاي ليلة ليلاء لا قمرَ فيها ولا هلال، فهي شديدةُ الظلمة يا سيدي الأمير، والبردُ قارس، والنوم دفء المطمئن، لهذا انتهزتُ فراغَ الأسوار من الحرّاس، ونوم معظم أهل الحصن باكرًا؛ فهربت».

أبو الحسن (بصوتٍ بين المصدّق والمتشكّك): «الحمد لله على سلامتك يا رجل».

ثمّ أمر أبو الحسن جندَه بتقديم العون إلى غالب، خاصة بعدما تعرّف عليه إبراهيم الحكيم، ألحّ غالب على الأمير أن يكون ضمنَ جندِه فقبله الأمير. استبشرَ أبو الحسن بفِرار غالب البيّاسي، الذي وشَى هروبُه بانهيار حراسة الأعداء على الأسوار، وانهماك الجندِ

في دفئهم أو نومهم، كما استبشر خيرًا عندما علمَ أنّ حاكم الحصن سليل بلايو صاحب صخرة طارق بن زياد؛ قد أهملَ حراسة الحصْن إلى درجةٍ بعيدة معتمدًا على بُعد المسافة بين الحصْن وغرناطة.

اشتدّت العواصف، وهبّت رياحٌ تحمل بين ثناياها بردًا قارسًا، وأبو الحسن يدور حولَ الحصن يتلمّس نقاط ضعفه، وبينما هو كذلك ومِن حوله جيشُه وقادته، إذْ وقع في يديه مجموعةٌ من الفتيان القشتاليّين، وعند سؤالِهم عن سببِ وجودهم خارج الحصن قالوا إنّهم سُقاة مواشٍ. استهجن المسلمون وجودَ سقاة مواش في هذا الوقت من اللّيل البارد، ثمّ زاد استهجانُهم لمّا علموا أنّ فيهم فتيات، وتبيّن فيما بعد أن بينَهم فتاة تدعى إيزابيل دي سوليس ابنةُ فارس فرسان بيدمار «دون سانشو خيمينيث» الذي قتله المسلمون في معاركهم على صخرةِ مرتش، بينما كان يدافع عنها، لهذا فقد قرّر أبو الحسن أن يصطَفِيها لابنته خادمةً لها ووصيفة. حاول إبراهيم الحكيم أن يستنطقَ الرّعاة ويستدلّ منهم على مدخلٍ للحصن يكفيهم عناءَ اقتحامه، فدلّوه بعدما هدَّدَهم على طريق وعْرٍ لا يصلحُ للجياد.

(زمجرت الرياح)

وفي الأثناء، اقترب غالب البيّاسي من مكان السلطان، وقال: «لقد بحثنا حولَ الحصن، فلم نهتدِ فيه إلّا على بابٍ واحد يحميه برجٌ يمكن أن يُصبّ منه الزيت المغلي على رؤوسنا إنْ أقدمنا على اقْتحامه، أمّا الطريق الوعرة فستوفرُ لنا عامل المفاجأة لأهل الحصن وحاميته

فندخله في غفلةٍ من أهله، وبذلك يا سيدي نضمنُ مباغتَتَهم، حتى قبْل أن تلمسَ قبضاتُهم مقابضَ سيوفهم».

اعترض إبراهيم الحكيم على كلامِ غالب قائلًا: إنّ الطريق الوعْر لا يصلح أن نخترق الحصنَ منه، إلّا إذا كنا نريدُ أن نلقي بأنفسنا إلى التّهلكة!

شاهد أبو الحسن عجزَ جنوده عن إيجادِ نقطة يقتحمون الحصنَ منها، فخاف أن يفتضحَ أمرهم، فقرّر اقتحامه بالطريقة العادية، آمرًا جنودَه بتثْبيتِ السلالم أعلى الأسوار، مستغلًّا غيابَ القمر وحجبَ الضباب الرؤيةَ عن حرّاسه. تسلق ثُلة من الجيش الأسوارَ، وفتحوا الباب.. لكنّ بعض القشتاليّين انتبهوا إلى جنود أبي الحسن فصرخ أحدهم: «المسلمون.. المسلمون».

فما كان مِن المهاجمين إلّا أنْ أسكتوا صوتَه مبادرين بالإجْهاز عليه، ثمّ قتلوا كلّ مَن انْتبه إلى دخولهم الحصن أو رفعَ السلاحَ في وجوههم، لكن على رغم ذلك استفاقَ الحرسُ، وهنا وتحتَ ضباب يناير وزمهريره، اشتعلت نارُ الحرب في حصن الزّهراء، وتعالت الصّرخات والطّعنات، وسكت كلّ شيء وتكلّم السيف، واشتبكتْ أسنّة الرّماح، وكثُرَ الطعن وسالتِ الدّماء، ودخل أبو الحسن إلى الحصن وهو يوصي جنودَه: «لا تقتلوا مستسلمًا، ولا تقتلوا إلّا مَن يشهر السيفَ في وجوهكم فقط، وفكّوا أسرَ المسلمين هنا».

وهكذا حُسمت المعركة بوقتٍ قصير، ومَن لم يُقتل حربًا لجأ إلى بيتِه أو استسلم كأسير، ولكنّ الرياح ظلّت على رغم هذا تعصِفُ مختلطةً بصرخات المسلمين الباحثين عن الفارّين.. ارتجف السكان خوفًا وهلعًا، ونادى المنادي في ساحة الحصْن العامّة أنْ يجتمع إليه كلُّ أهل الحصن تفاديًا للقتل، وما هي إلّا ساعات حتى بزغَ الفجر، فكشف عنْ خليطٍ من الناس تختلف أعمارُهم وطبقاتهم. قُيِّد الأسرى في سلاسلَ، وسُحبوا إلى غرناطة، ودخلَ أبو الحسن غرناطة دخولَ الفاتحين حاملًا معه الرايةَ المثلثة، وهي رايةُ الحصن مفتخرًا بحيازتها، وما كاد يصل إلى الحمراء حتى خفّ إليه السّادة والأُمراء للتهنئة ولمشاهدة الأسرى، وهُم منكّثوا الرؤوس يجرّون خلفهم سنواتِ تعذيبهم للمسلمين. كان يومًا مشهودًا أعادَ إلى غرناطة أيامًا من أيّام الله العظيمة، فامتلأت الشوارعُ بالأفراح والدّعاء للأمير المنصور فى الزّهراء، وتزاحم الناس على أبي الحسن مهنّئين، وتدفّق العامّة على الحمراء والجميعُ سعداء بانْتصارٍ انتظروه.

وبينما الجميع كذلك، إذ صاح صائحٌ وسط الحضور انْتبه له الجميع، وقال: «ويلٌ لنا.. لقد دنتْ ساعتك يا غرناطة، ولسوف تسقطُ أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا، وقد حلّت نهاية دولة الإسلام بالأندلس، يا لك يا غرناطة، وقت زوالك قد آن.. ستقع خرائبُ الزهراء على رأسك، فالأرواحُ تخبرني أنّ نهاية دولتنا قد حانت؟!

تدافع الناس مبتعدين عن مصدر الصوت الذي وقف وحيدًا في الساحة، فإذا هو درويشٌ من الدراويش، قد أوهنت قواه السنون، وهو يرتدي ثيابًا رثّة قديمة، بينما شعره الطويل المتداخل منسدلٌ على كتفيه، وهو يُمسك بعصًا غليظة يتكئ عليها. تردّد صوتُ هذا المجذوب في كلّ قاعات الحمراء، فأطبق الصمتُ على الحضور الملكي المنزعج من هذا الصوت الشاذّ في مثل هذا الزمن المنصور، إذ كيف لمتنبئ أن يحذّر من الخراب في وقت العمار، أو ينذر بالهزيمة في وهجِ النّصر والمجد؟ كيف له أن ينادي بالويل بينما الأَوْلى أن يلهجَ بالدعاء والثناء لجالب النصر ومحقّقه؟!

ارتاع الجميعُ لسماع هذا الصوت، واستبدّ بهم الفزع، ما عدا أبا الحسن الذي عضّ على ناجذيه، ثمّ رمق الدرويش بنظرةٍ حادّة من علياء عرشه، ثمّ غضّ النظر عنه، بعدما رآه أحمقَ يهرف بما لا يعرف. اندفع المجذوبُ إلى الشارع وهو في حالٍ من الذّعر، ليسمع كلّ الناس وعيده قائلًا: «لقد انتقض السلام.. فحرب الإبادة آتية! ياهو ياهو.. يا أهل غرناطة التي ستوشك على السقوط، ليقع كبارُها رهنَ حدّ السيف، وأطفالها ونساؤها في قبضة الأسر والهوان، تمامًا كما حصل في الزهراء!».

ارتاع أهلُ غرناطة لِما سمعوا؛ لأنّهم كانوا ينظرون إلى أمثال هذا المجذوب نظرتهم إلى المتنبّئين، ولذلك أخذوا كلامَه بمحملِ الجدّ، فسارعوا إلى إغلاق أبواب منازلهم، حتى لا يؤرّقهم الصوت المرعب، مثلما كانوا يفعلون في أيّام الحداد.

أمّا أبو الحسن فقد كان على يقينٍ بأن حرب الزهراء إنّما هي البداية فقط، كما كان على يقينٍ بأنّ ملك قشتالة لن يغفرها له، وأنّ الحروب الانتقامية في طريقها إلى غرناطة.

***

تهامس الشعبُ الغرناطي بما سمعوه على لسانِ الدرويش، فصدّقه البعض بينما كذّبه الآخرون، حتى انتقل كلامه إلى الأطفال في الشوارع، فصاروا يقلّدونه في ثنايا لهْوهم.. أمّا الأصحاب الثلاثة فقد جمعهم المسجدُ الكبير في غرناطة، ولم يستطيعوا أن يكونوا بعيدًا عن الحدث، فانْخرطوا في الحديث عنه، يسعَون إلى هتْك غموضِه وإماطة النّقاب عمّا وراءه، فقال علي بصوتٍ خافت وهو يحاولُ إخفاءَ وجهه بكفّيه:

«أنا أعرف هذا المجذوب، إنّه الدرويش حامد بن زرعة.. وهو رجلٌ صالح يقضي حياته بين الصوم والصلاة، ولا أراه إلّا صادقًا في كلامه».

هبّ محمد واقفًا: «لا تلقِ لهذا الكلام بالًا، فقد كذب المنجّمون ولو صدقوا».

علي: «لكنّ نبوءةً كهذه حملت عبد الرحمن الأول- رحمه الله- إلى دخول الأندلس وامتلاكها، ونبوءةً كهذه أيضًا حملت المسلمين على فتح الأندلس، وأيضًا يقال إنّ (لذريق) آخر ملوك القوط في

الأندلس، حينما فتح خزائن كنيسة ساو بابلو، وجدَ فيها لوحةً منقوشًا عليها (إذا كُسرت الأقْفال، وفُتح التابوت فإنّ الناس المصوّرين باللّوحة سيمتلكون الأندلس)، وقد كانت اللوحةُ زاخرةً بنقوشاتٍ لرجال بزيّ عربي.. فكان الفتح المبين».

محمد: «تكلّمتم وأنا معكم في صدقِ بعض النبوءات، ونسيتم كذبَها مرّات ومرات. ألَا تتذكرون حينما قال المنجّم للمعتصم العباسي: (لا تذهبنّ إلى عمورية الآن؛ لأنّ خسارةً كبرى ستحلّ بك وبجيشك إن فعلت) فضرب المعتصم- رحمه الله- بكلام العرّاف عرضَ الحائط وفتح عمورية، حتى قال الشّاعر وقتها قصيدته المشهورة التي يقول مطلعها:

السيفُ أصدق إنباءً منَ الكتب

في حدِّه الحدُّ بين الجدّ واللّعبِ

أين الرواية؟ بل أينَ النّجوم وما

صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ».

عامر: «نعم، كذب المنجّمون ولو صدقوا».

وكما سرق حديث الدرويش اهتمام شعب غرناطة، فقد تسرب أيضاًإلى قصر الحمراء، حتى وصل إلى جناح السيدة عائشة الحرة،التي كانت تنتظر أبا الحسن والحيرة تملأ وجهها، وتجعلها لا تستقر في مكان محدد، فهي دائمة الحركة، تنظر من النافذة تارة، ومن الباب

تارةً أُخرى في انتظارِ زوجها الذي لم يتأخّر عنها، وبادرها بالكلام: «هل كنتِ تشاهدينَ فرحة الشعب بالنصر العظيم، واستعادة حصْن الزهراء إلى دولة الإسلام؟! آه يا عائشة، لقد ارتفعت الرّوح المعنوية لشعب غرناطة، وامتلأت وجوههم بهجةً وسعادة وعزًّا،ولم يعكّر صفوي وصفوهم سوى ذاك الدرويش، حامد بن زرعة بهذيانه المنفّر المرعب، وثيابه الرثّة، حتى إنني تعجّبت من حلمي عليه!».

عائشة الحرة: «إنّه رجلٌ أصابه الخَرَف، فلا تشغل بالك به، ولا تؤثر فيك كلماته. إنه محضُ درويش مَجْذوب، لا يدري ماذا يقول!».

أبو الحسن: «علي بن سعد لا يؤثّر فيه كلام المنجّمين يا عائشة». ثمّ اقترب منها هامسًا: «والآن دعْكِ من حديث الحرب (يأخذ بيدها) وتعالي بنا إلى حديث القلب».

عائشة (مبتسمة): «منذ زمن لم أسمعْ منك أو أُشاهد في عينيك ذاكَ العشق القديم». ثمّ تنظر عبْر شرفتها إلى بهْو الأُسود من خلف الستائر مكملةً: «منذ زواجنا وهذا البهْو (تشير إلى بهْو الأسود) هو أحبّ أبهاء الحمراء إليَّ، فقد شهدَ أول أيام زواجنا، كما شهد أيضًا ولادة أبي عبد الله محمد، وأبي الحجاج يوسف».

اتّسعت الابتسامة على وجه أبي الحسن، وقال: «وشهد أيضًا مولدَ ابنتنا الأخيرة عائشة، والتي سمّيتها باسمك؛ حتى يكون ذلك وثيقةً تخلد مدى حبي لك وصدق مشاعري نحوك».

وهكذا نامت غرناطة قريرةَ العين سعيدةً بانتصار تأخّر كثيرًا.. أمّا أبو الحسن فلم يطمئنّ كثيرًا لانتصاره وقدرة جيشه على صدّ جيوش قشتالة وأراجون؛ فحاول مرةً أخرى الاستنصار بالمسلمين في عدوة المغرب، والحقيقة أنّ غرناطة لم تكُ وقتها تحاربُ جيوش إيزابيلا وفرناندو، بل كانت بالفعل تحاربُ كلّ أوروبا وبدعم رهيب من البابا الذي أراد أن ينتقمَ من فتح المسلمين للقسطنطينيةً بطرْدهم من الأندلس، لذلك كان لزامًا على أبي الحسن أنْ يحاول الاستعانة بإخوانه، علّهم يتعلّمون من أوروبا كيف يحْذون حذوها، ويناصرون بعضهم بعضًا.. لكنْ لا حياة لمن تنادي يا أبا الحسن!

وهكذا كان استردادُ حصْن الزهراء بدايةً لمرحلة ذات خطر في حياة غرناطة كلها على وجه العموم، وحياة السلطان أبي الحسن خصوصًا، إذْ تطوّرت مع الزمن القصير جدًّا علاقته بجاريته إيزابيل دي سوليس، التي دخلت قصرَ الحمراء أول الأمر كجارية ووصيفة لابْنته المسمّاة بعائشة، ثمّ ما لبثت وبنظرةٍ ناعسة منها أن خطفتْ قلبَ الرجل العجوز، فهامَ بها حبًّا، ثمّ انتزعها من ابْنته وتزوّجها، ثمّ شغف بها فتركَ مهامَ حكمه ودولتِه للوزير رضوان بنغيش، وهو وزيرٌ من أصولٍ نصرانية، وقد أسلمت عائلتُه وأجداده، ثمّ سلك في خدمة بني نصر، كما أجداده حتى أصبح الوزيرَ الأهمّ في حياة سلطان غرناطة، وقد كان هذا الوزير سيئَ الأخلاق مع الشعب الغرناطي، فكرهَه الشعب ولعنَ أبا الحسن الذي ترك له مقاليدَ الحكم.

***

.٧.

شعر فرناندو بإهانةٍ كبيرة عندما سمع خبرَ سقوط حصن الزهراء، خاصةً أنه كان يتوقّع تلقي الضربة الأولى، وعلى رغم ذلك لم يستعدّ لها جيدًا، فأعاد تقْييم كل سياساته، فملكٌ مثل فرناندو لن يغفرها لخصمِه أبدًا، بل سيجعل تلك الحرب الصغيرة حجةً له ليجتاحَ بجيوشه وجيوش أوروبا أراضي المسلمين وبلادَهم، لذلك أرسل إلى كلّ المقاطعات الحدودية، بوجوب أخذِ الحيطة والحذر والتأهّب الدائم لقتال المسلمين، كما أمر بنقلِ البارود إلى الحدود استعدادًا للحروب المقبلة، ثمّ أرسل إلى جميع نواحي قشتالة وأراجون وليون يأمرهم بالنّفير العام، ومسحِ ما لحق بالمملكة من عارِ الهزيمة في الزّهراء.. كما أرسلت الملكة إيزابيلا إلى البابا في روما تدعوه إلى تأييد مسعاهم في ذبح المسلمين وطردِهم من الأندلس، وأرسلت أيضًا إلى رهبان الفرير بمختلف تنظيماتِهم لتحريض الفرسان المسيحيّين في كلّ أوروبا ليأخذوا دورهم في هذه الحملة الصليبية على هؤلاء الهراطقة، وضجّت قشتالة كلُّها بالحديث عن الحروب المقبلة، وأخذ الفرسان يتدرّبون، والتجّار يُمنّون أنفسَهم بسبايا العرب وحريرِهم وذهبهم وفضّتهم، وأسرع النبلاء إلى التبرع للجيش، كما أسرع القادة إلى إشبيلية ليقدّموا فروض الطاعة والولاء. وكان أوّلهم وصولًا هو الفارس «دون رودريغو حاكم ليون» الذى توجّه الى قصر المورق

ليضعَ نفسه وسيفَه تحت إمرة فرناندو وخدمته، ودون رودريغو هو حاكمُ قادش من قِبَل فرناندو الخامس، ولد في العام ١٤٤٣م، وهو مِن سلالة ألفونس السادس صاحبِ الزلاقة، وقد ولد في بيئة تكنّ كلّ الكره والعَداء للمسلمين، وكرّس نفسه لحربهم، وهو مربوعُ القامة، قوي البنية، متحمّل، جلدٌ، شجاعٌ، ذو لحية حمراء وملامح قاسية، وعلى وجهه آثارُ إصابة سابقة بالجدري. لبى مركيز قادش نداءَ سيده فرناندو، فبادر بالذهاب إلى قصر المورق في إشبيلية، وكلّه شوق لقتل المسلمين وإبادتهم. دخل إشبيلية تصحبُه رفقةٌ من أتباعه المخلصين، ولمعرفتهم به وبخبرته الكبيرة في الحروب، وبشدته في القتال فقد رحّب الملكان الكاثوليكيّان أيّما ترحيب بمركيز قادش، أمّا فرناندو فأبدى ارتياحَه لمجيئه قائلًا:

«مرحبًا بحاكم قادش حفيد الإمبراطور ألفونس العظيم. يسعدني إسراعكم في تلبية النداء».

ماركيز قادش: «لا نتأخّر أبدًا عن النّداء المقدّس الذي ننتظره منذ زمن، فأنا يا مولاي أتحرّق شوقًا إلى نيْل شرف أن يأمرني مولاي باستئصال هؤلاء المسلمين الذين طال تدْنيسهم لجزيرتنا».

تعجّب فرناندو من حماسة مركيز قادش، قائلًا له: «كم تعجبني حماستُك أيها الفارس النبيل»!

ماركيز قادش: «أنا رهنُ إشارتكم يا سيدي، وطوعُ قراركم».

فرناندو: «أخبرني يا رودريغو عن استعداداتِك لملاقاة هؤلاء المسلمين، وبخاصة أنّك تحكم ولايةً على حدودهم، فأنت إذًا خيرُ مَن يعرف نقاط قوتهم وضعفهم على السّواء».

ماركيز قادش: «لقد جهزتُ جيشًا عظيمًا لحرب المسلمين متى أمرَ سيدي بهذا، ولك أنْ تعلم يا سيدي أنّ شعب قادش يتحرّق شوقًا لإبادتهم، ولو أمرتَهم اليوم لجيَّشوا جيوشهم (يتكلّم في حماسة وجديّة صارمتيْن)، لقد جاءتني الأخبار من الجواسيس والكشّافة العرب الذين أُجزل لهم العطاءَ للمراقبة وتسقُّط الأنباء، فأخبرني أحدُهم أنّ مدينة الحامة تراوح تحت حماية ضعيفة، تصلُ إلى درجة الإهمال، ولهذا يا سيدي يمكنُنا أخذها بالمباغتة، ومن دون خسائر تُذكر، وهي يا مولاي من أغنى المناطق التي يسيطر عليها الأعْداء، كما إنها ستشقّ مملكة غرناطة إلى نصْفين، ما يسهل علينا بعد ذلك الاستيلاءَ على كلّ نصف على حدة، وقطع المعونات ومراقبة المسلمين منها عن كثَب. إنّ الاستيلاء على الحامة سيقصم ظهرَ غرناطة ويشقّ قلبها، فلن يلتئمَ بعد ذلك أبدًا».

إيزبيلا: «وكيف تثقُ بهؤلاء الجواسيس يا رودريغو؟».

ماركيز قادش (يتحدّث في سخرية متعجْرفة): «إنهم يعبدون المالَ يا سيدتي، ولهذا يظلّ ولاؤهم له، وأنا أُجزل لهم العطاء، وعلى رغم ذلك يا سيدتي فأنا أُجنّد الكثير منهم، وأُطابق كلامَ هذا بكلام ذاك، فإنْ تطابق القولان علمتُ صدقهم وعدم خداعهم لنا»!

(تُظهر إيزابيلا الإعجابَ بمركيز قادش)

فرناندو: «الحامة.. الحصن الذي يتبوّأ موقعًا فريدًا، سيمكنُنا فيما بعد مِن السيطرة على طرق المواصلات الرئيسية بين غرناطة ومالقة، وبهذا سنضمنُ الهجوم على القوافل والمؤن من مالقة إلى غرناطة والعكس، كما أنّ الاستيلاء على الحامة سيكون بمنزلة الشّوكة في حلق المسلمين، والخنجر في ظهرهم»، ثمّ تحرك تجاه مركيز قادش الذي هبّ واقفًا تعظيمًا لسيده قائلًا: «أُريد أن يحدث ذلك في أقرب فرصةٍ ووقت، حتى نمحو عارَ هزيمتنا في الزّهراء، ونعيد إلى جنودنا النّشوة التي خفتتْ على وقع سقوط الزهراء، لا أريدُ لأبي الحسن أنْ يباغتنا مرةً أخرى، أو يهاجمنا من حيثُ لا نحتسب، لا أريده أن يحدّد مكان وزمان المعركة المقبلة، بل أريدُه أن يحارب في المكان والزمان اللذيْن نختارهما نحن».

ماركيز قادش: «لن يكلفنا الاستيلاء على الحامة إلّا ساعاتٍ قليلة، فضعْ ثقتك بي يا سيدي، لأداء هذه المهمة التي أتوق وأتلهّف إليها منذ زمن».

فرناندو: «أنت جديرٌ بها أيها الفارس المجرّب». (ربت على كتفه، ثمّ استدار ناحية كرسي عرشه، ولم يكد يجلس حتى أكمل حديثه قائلًا): «ولكي نضمن النصر الكامل؛ سأُعدّ لك مددًا بقيادة فارسنا دون خوان دي فيرا، يسير على أثرك، ويأتمر بأمرك، على أني أريدك فورَ انتهائك من الاستيلاء على الحامة، ألّا تضعِ السيف إلّا بعد أن تستردّ لنا الزهراء، فوجود المسلمين فيها يمثّل لنا صفعة كبرى تهزّ من مكانة المملكة، فلا تعدْ من دون استردادها»!

وهكذا وُضعت الخطةُ للاستيلاء على الحامة، وبينما كان فرناندو يخطّط ويجهّز نفسَه لما هو آت، كان أبو الحسن يزداد بعدًا عن شعبه وجيشه، فانقلبت محبتُهم له بُغضًا، وامتلأ قصرُ الحمراء بكيد النساء ودهائهن. فإيزابيل التي أعلنت اعتناقها الإسلام بدأت تكيد لعائشة وأبنائها، أمّا عائشة فلم تستكنْ لوضعها الجديد، بل كانت تخطّط وترتّب ليوم معلوم.

***

.٨.

تحرك مركيز قادش بجيشه من فوره باتجاه الحامة، وفي قرية مارشينا القريبة من الحامة، على آخر حدود قشتالة، توقّف المركيز، وأمر بأن ينصبَ المعسكر هناك، ثمّ أرسل أحدَ جنوده المحنّكين في الحرب ممّن يثق بهم، لكي لا يعتمد فقط على وشاية الجواسيس. أرسله ليستطلع أخبارَها، وكان هذا الجندي هو «أورتيغا دي برادو» قائد فرقة السلالم التي تهاجم القلاع، والشهير بفنّه في تسلّق الجدران والقلاع المستعصية.

خرج أورتيغا ممتطيًا فرسه إلى الحامة، فوصلها في ليلةٍ بلا قمر. ربط حصانه بعيدًا، واقترب من الأسوار وهو يحاول ألّا يُسمِع أحدًا نبضات قلبه المرتجف خوفًا، ولم يكد يصلُ إلى الأسوار حتى راح يتسلّقها بخفّة وصمت وترقّب، كان يضع أذنه على الحائط من فترةٍ إلى أخرى أثناء تسلّقه ليتسمَّع خطوات الحراس أعلى الحصن

في مدى اقترابهم أو ابتعادهم عنه، ومقدارعددهم. وبعد ذلك تابع تسلّقه من حصن المدينة إلى حصْن قصرها، بينما كان يتجنّب أبراج الحراسة التي كانت كأنّها تقف بينه وبين السماء، ولم يجدْ مِن الحرّاس مَن يقوم بمهمته، بل إنّ أحدًا لم يزعجه أو يلاحظه. حدّد أورتيغا النقاطَ التي يمكنُ اختراقها بحرفةٍ شديدة، ثمّ تراجع وغادر المدينة من دون أن يُكشَف أمرُه عائدًا إلى مارشينا، ليخبر قائدَه بما شاهد وعاين قائلًا له:

«المدينة يا مولاي محميّة بحصن واحد خارجها، لذا علينا قبْل مهاجمتها أن نحتلّ ذاك الحصن، حتى نؤمِّن مؤخرة جيشنا، وبالنسبة إلى الأسوار يا مولاي، علينا أن نتسلّقها بعيدًا عن نقاط الحراسة، وقد حدّدتُ بضع نقاط يمكننا من خلالها التسلّق من دون الاشتباك مع الحرس، حتى لا يتنبّه لنا بقية الجند والحامية داخلها، وللتسهيل يا مولاي سنتسلّقها بتلك السلالم التي أعدَدناها من الحبال خصيصًا لتسلّق مثل تلك الأسوار، لضمان سلامة جنودنا الذين سيصْعَدونها وهُم مُثقلون مدجّجون بالأسلحة، كما سجّلت يا سيدي مواعيد تبديل الحراس، إذ يجب علينا أن نتسلّق الأسوار وقتها».

مركيز قادش: «إذًا سنأخذ الحامة على حين غرّة من أهلها وحرسها، وبأقلّ نسبة خسائر، وببركة السيدة العذراء»، ثمّ وقف وتحرّك ناحية باب الخيمة التي يعسكر فيها، ونظر إلى السماء قائلًا في حماسة: «نحن سلالةُ ملوك قشتالة وألفونس العظيم، تعلّمنا الحرب

وخبرناها، وندخلها لنحرز النصر، ولا بديل لنا سواه، نحن عقدنا قرانَنا على النصر الحاسم، ولا نرتضي له وصيفًا أو بديلًا، وعلى هذا كان خروجي بأمرٍ من مولانا فرناندو الخامس ومولاتي القديسة إيزابيلا».

ولأنه لم يكن واثقًا تمامًا بقدرته على احتلال الحامة، فقد أرسل مركيز قادش إلى دون بيدرو ودون دييغو دي مرلو قائدا حامية قشتالة وسانكو دي فيلا سيد قرمونة أن يوافوه بالإمدادات والمساعدات، فلم يتأخّر واحدٌ منهم، وبذلك أتمّ مركيز قادش كلّ ترتيباته لإنزال ضربتِه الموجعة فوقَ مملكة غرناطة.

أُورتيغا (ويدُه على مقبض سيفه المنزرع على جانبه): «متى نعدّ للهجوم يا سيدي؟».

مركيز قادش: «سنتحرك الآن حتى نكونَ على أسوار الحامة مع دخول الليل، فتسترنا عتمتُه ونحن نتسلّق الأسوار ونأخذهم على حين غرّة، بحيث لا ينجو منهم أحدٌ».

وهكذا تحرّك الجيش المكوّن من ثلاثة آلاف من الفرسان المدجّجين بالحديد، وأربعة آلاف من المشاة الحاملين للرماح، وسلكوا طريقًا غير ممهّد أو معروف للسفر، عبر جبال «الظريقة» الوعرة وطرقاتِها الصعبة، ولمّا وصلوا إلى نهر «يغواس» تركوا كلّ متاعهم وتموينهم، حتى يخفّفوا عن أنفسهم، ويكون ذلك أيسرَ في حركتهم، وحتى يحتفظَ بمزيدٍ من السريّة فإن مركيز قادش كان

يتحرّك بجيشه في الليل وينام في النّهار من دون أي ضجيج في المخيّمات، ومن دون أن يشعل أي نيران، حتى لا يُكتشَف أمرُهم أو يتنبّه لهم أحد. وبعد يومين من المسير عبر الطرق الوعرة، وبحلول الليلة الثالثة لخروجهم؛ هبط الجيش في وادٍ سحيق على مرمى حجر من الحامة، حيث توقّفوا متعَبين من السير اللّيلي القاسي تحت البرد القارس، حيث إن غزوتَهم تلك كانت في فبراير، وهو شهرٌ شديد البرودة في شبْه الجزيرة الأندلسية، وقطرات المطر تغمر أوراق الشجروتجمّعت على الأرض، وهنا توقّف الجيش وخطبَ فيهم مركيز قادش:

«أيّها الجنود، لقد أخفيت عنكم وجهتَنا وكتمت سرّها، ليس لانعدام ثقتي بكم، ولكن حرصًا على نجاح حملتنا وصونًا لسلامتكم، واتّقاءً لجواسيس المسلمين الذين قد يقدر أحدُهم على أن يختلط بكم. أيّها الجنود، إنّها الحرب المقدسة لطرد المسلمين من مدينة الحامة، تلك المدينة الغنيّة بما يغنيكم وأُسركم، يجب علينا الثأر ممّا اقترفه المسلمون بحصْن الزهراء، أُريدُ منكم أن تنتقموا، عليكم أن تغتنموا كلّ ما في المدينة».. ثمّ أشهر سيفَه ولوّح به في الهواء، وحذا جنودُه حذوَه.

وقعت كلماتُ المركيز على الجنود فملأتهم حميّةً وأشعلتهم حقدًا على المسلمين، كما حمّستهم معرفتهم بأحوال المدينة، فانْطلقوا لاحتلالِها وسلبِ أموالها، وتكلّم أحدهم وقد نفرتْ عروق رقبته

قائلًا: «أيّها القائد، نحن طوْع بنانك، وسترى منّا ما تقرّ به عينك، فأسرع بنا إلى النصر».

مركيز قادش: «ليستعدّ الجميع، نريدُ أن نقتحم الحامة قبل بزوغ الخيوط الأولى من الفجر، نريد أنْ تنسكب أشعة شمس الغد علينا ونحن داخلَ تلك الأسوار فيسري دفؤها ممزوجًا بدفء النّصر في صقيع عظامنا»، ثمّ وجّه كلامه إلى أُورتيغا قائلًا: «اختر من الجيش ثلاثمائة رجلٍ من الصفوة، وتسلقْ بهم الأسوار، وافتح لنا الأبواب».

انصرف أورتيغا لانْتقاء رجاله، فإذا بالشابّ مارتن غاليندو يطلب الانضمامَ إليه في حماسة شديدة ونفسٍ ثائرة لقتل المسلمين، فوافق أورتيغا وضمّه إلى فرقته، ثمّ ذهب بهم ناحية الأسْوار وهُمْ يحملون سلالمَ من الحبال مصنوعةً بعناية. تسلّق أورتيغا ورجالُه المنحدارت التي توصِلُ إلى حصن الحامة، ولأنّ الظلام كان مطبقًا فلم يلاحْظهم أحدٌ من حماة الحصن، وفي هذه الأثناء أمر مركيز قادش جنودَه بإعداد الكمائن وأخذِ الحيْطة والتنبّه لما هو آتٍ، كما أرسل عيونَه لاستطلاع أي نجدات آتية.

تسلّق أورتيغا وفرقتُه الأسوار تحتَ جنح الظلام، حتى وصلوا إلى أسفل أبراج الأسْوار، فلم يتنبه لهم أحدٌ، ويسرت لهم ذلك برودةُ الجوّ التي أجبرت الحراسَ على أن يستخْفُوا داخل الأبراج .

كان أورتيغا ورجالُه يستخدمون لغةَ الإشارة ليتفاهموا فيما بينهم خشيةَ أن يوقظوا أحدًا من حراس الحصن، صعد أورتيغا السلالمَ أولًا، وخلفه الشابّ مارتن غاليندو، وثبّت أورتيغا السلالمَ على الأسوار، ثمّ تقدّم وخلفه مارتن مشْهرين سيفيْهما من دون أن يحدثا أيّ صخب أو ضوضاء.. تحرّكا صوب أقربِ برج للحراسة، فأخذا حرّاسها على حين غِرّة وقَتَلاهم، ماعدا حارسًا واحدًا قبض عليه أورتيغا وهدّده بخنجر لامع قائلًا له وهو يلفّ ذراعه حول رقبة الحارس، وخاطبه محكمًا قبضته على الخنجر).

أورتيغا: «أيّها المسلم، إن كنتَ تحرص على حياتك؛ فدلّني على غرف نوم الحرّاس».

يحاول الحارس التكلّم، فلا يكاد لسانُه ينطق من شدّة تطويق أورتيغا لرقبته فيقول: «وما الذي يضمنُ لي حياتي؟».

أورتيغا: «لا شيء يضمنُها سوى أن تطيع أمري»

الحارس: «نعم.. نعم، سأدلك. ولكن أبقِ عليّ».

أُورتيغا: «تكلّم، لا وقت لديّ، وإلّا ذبحتك».

الحارسُ يشير بيده إلى أماكن نوم الحرّاس.

أورتيغا (مبتسمًا، وبريق عينيه يلمعُ في الظّلام): «شكرًا أيّها العربي الخائن»، ثمّ أعمل خنجرَه في رقبته فاصلًا إيّاها عن جسده على الفور!

أشار أورتيغا إلى مارتن وبعضِ رجاله فتحوّلوا إلى أماكن وجود الحرس في صمت مُطبق، وهبطوا عليهم كالصّاعقة المباغتة، وتكلّم أورتيغا بهمس قائلًا: «اقتلوهم عن آخرهم، لا وقت لدينا لأخذِهم أسرى»، وهكذا انقضّ الجند القشتاليّون على الحراس النّيام، فأعملوا فيهم الذبحَ من دون أن يلقوا منهم أيّ مقاومة، بيد أن حارسًا واحدًا تنبّه فألقى بنفسه من فوق الأسوار، وقد تلطّخت ثيابه بزخّات من دماء إخوانه الذين اجتزّت سيوف الغدر أعناقَهم، وهو يصيح كالمُلْتاث: «القشتاليّون.. القشتاليون» وعلى إثر صيحاتِ الجندي المسلم تنبّه حرس القلعة، فأطلقوا صيحات الإنذار، فإذا بالحامية تستيقظُ لتجد القشتاليّين قد احتلوا الأسوار والأبراج، وضربوا عليهم طوقًا من نذر الموت الزؤام، وهنا شعر أورتيغا بدقّة موقفه ورجاله الثلاثين، وخاف أن يحاطَ بهم، بعدما فقدوا عنصر المفاجأة، وحانت لحظةُ المواجهة. لهذا- وبسرعة كبيرة- طلب من بعض جنودِه أن يقوموا بمهمةٍ انتحارية لفتح باب الحصن، وبالفعل ألقى بعض القشتاليّين بأنفسهم داخل الحصن، واشْتبكوا مع الحراس المسلمين المرتبكين ممّا يحدث، حتى استطاع أحدُهم الوصولَ إلى باب الحصن وفتحه، وسرعان ما اقتحمه مركيز قادش بجيشه المتأهّب، وبدأت معركة غيرُ متكافئة بين جنود متأهّبين وعيًا وسلاحًا، وآخرين في أعينهم بقايا نعاسٍ، وفي قلوبهم مزيدٌ من الفزع!

تعالت الأصواتُ وضربات السيوف، وقاتلَ القشتاليّون جنودَ الحامية من غرفة إلى غرفة، ووسط هذا كان يُسمع أنينُ الجرحى، تقدّم الجيش القشتالي المحاصِر إلى السّلالم بكثافة عالية، ودوّت صرخات الحرب، فازدادت الفوضى في صفوف القوات المدافعة، وسُفكت دماء غزيرة، وعند الباب الرئيس قُتل اثنان من أمْهر القادة القشتاليّين، وهُما: نيكولاس دي روجا، وسانشو دي أفيلا.

رأى مركيز قادش احتدامَ القتال وتراجعَ جنوده، فأراد أن يغيّر الموقف فنادى بصوتٍ مرتفع جَهْوَري، وبدأ تحميس جنوده وبثّ الطمأنينة في نفوسهم قائلًا:

«اقتلوهم جميعًا، لا تُبقوا منهم أحدًا، استأصلوا شأفتَهم واجتثوا جذورَهم من أصلاب جزيرتنا ومن أبواب أوروبا»

فعل صوتُ وكلام مركيز قادش الكثير، فمالت الكفّة إلى جهة القشتاليّين وسط افتقاد المسلمين إلى قائدٍ يوجّههم ويلمّ شعثهم، فقد كان قائدُ الحامة وقتها خارجَ المدينة! استمرّ القتال مع فلول المدافعين، وانطلق مركيز قادش إلى قصر المدينة ليستريح فيه بعدَ أن اطْمأن إلى مقتل الحرّاس جميعًا.

أضيئت شموعُ القصر فإذا بامرأة عربيّة جميلة تقف أمام المركيز، حاولت السيدة الفرارَ فلم تفلحْ وتعثّرت قدمُها فسقطت أرضًا، ليسألها المركيز:

«مَن أنتِ أيّتها الجميلة؟»

السيدة: «أنا زوجةُ حاكم المدينة».

مركيز قادش (متهكّمًا): «حاكم المدينة! أنا حاكمُها».

السيدة (تكاد تتميّز من الغيظ): «بل أنت لصٌّ حقير، تسلّلت إلينا بليلٍ كلُصُوص البيوت، لا كالفرسان!».

مركيز قادش (متعجبًا ومُعْجبًا بشجاعة المرأة): «هي الحرب.. أمَا علمتِ أن الحرب خدعة؟».

السيدة: «بل هي اللّصوصية والسرقة، ولولا غياب زوجي لَما كان في مقدوركم أن تُقدِموا على ما فعلتم».

تقدّم أحد الجنود شاهرًا سيفَه يريد أن يقتل السيدة التي تجرّأت على توبيخ قائده، فردّه المركيز قائلًا: «ليس من الرجولة أن يحارب الرجالُ نساء عزلًا»، ثمّ يتوجّه ببصره إلى السيدة قائلًا:

«هدّئي من روعك، فلن يمسّك أحدٌ بأذى»، ثمّ نادى أحدَ جنوده وأمره بحمايتها والحرصِ على حياتها.

ظلّت رحى المعركة تدور طوالَ الليل، بين قتال ودم كثيف انْساب أنهارًا، حتى تنفّس الصبح وسطعتِ الشمس خارجَ القصر الذي احتلّه المركيز ورجاله. غيرَ أنّ المسلمين الذين تمكّنوا من استجماع رباطة جأشهم لم يستسلموا، بل بادروا وبحركة سريعةٍ باحتلال أسوار المدينة، إذْ حمل العامّة السلاح، وانقضّوا على

الأسوار والأبراج، فاحتلّوها وأمطروا القشتاليّين من فوقها بالسّهام والأراقب (البندقية القديمة)، فأوقعوا بالكثيرِ من الجنود القشتاليّين صرعى وجرحى، وهنا خشي مركيز قادش من عواقب ما يجري أمام عينيه، وبخاصة أنّ الحامة قريبة جدًّا من غرناطة، وأدرك أنه لو لمْ يُحكم قبضتَه على المدينة، فلربّما تنبّه أبو الحسن، وسارع لنجدَتها، وعندها سيتلطّخ موقف مركيز قادش وجنوده بالحرج والازْدراء.

سارع مركيز قادش فأمر جنودَه بقمع هذا التمرّد فورًا.. واستجاب القشتاليّون لأمر قائدهم، محاولين الإجهازَ على المسلمين فوق الأسوار، لكنّ هؤلاء أمطروهم بالأحجار والسهام، فحصدوا من القشتاليّين عديدًا من الجند، وبثّوا في قلوب بقيّتهم الرعب، فتهيّبوا الموت، فلم يجرؤ أحدُهم على الاقْتراب من الأسوار!

شعر مركيز قادش بخطورة موقفه، فالتعزيزاتُ ستصل سريعًا من غرناطة التي لا تبعدُ عنهم سوى خمسة وعشرين ميلًا، فقرّر سرعة الاستيلاء على المدينة مهما كلّف الأمر، ولكنْ ومع تفشّي القتل في جنوده اقترب منه أحدُ القادة، وهمسَ إليه:

دون بيدور: «سيدي، حتى لو أحكمنا السيطرةَ على المدينة، فلنْ نستطيع أن نحافظ عليها، لهذا أقترحُ عليكم أن ننهبَها، ونسوق نساءها سبايا، ونقتل كلَّ من نستطيع قتلَه منهم، ثمّ نحرق القلعة ونرجع إلى قشتالة».

تحدّث مركيز قادش في هدوءٍ قائلًا: «إن الله هو مَن وضع في أيدينا هذه القلعة، ولهذا فسيعزّزنا للحفاظ عليها. لقد حصلنا على هذا المكان بشقّ الأنفس، وبذلنا في سبيله أنهارًا من الدّماء، ولهذا فلن يشرّفنا التخلي عنه لمجرد خوفٍ من خطر تصوريّ محتمل حدوثُه، ولهذا علينا أن نُحكم السيطرةَ على المدينة، وقتل كلّ مَن يستطيع مِن المسلمين حملَ السلاح، ثمّ الدفاع عن المدينة بأرواحنا حتى لو قُتلنا جميعًا دونها».

دون بيدرو: «وماذا لو تمكّن المسلمون من محاصرتنا؟ وقتها سنموتُ داخل القلعة جوعًا!»

مركيز قادش: «لقد تفحّصتُ كامل القلعة، فوجدتُ أن بها مخزونًا من الطعام والمؤن يكفينا لحصار طويل».

ووسط إصرارٍ كبير من مركيز قادش، خضع الجميعُ لرأيه، وارتفعت روحهم المعنويّة عقب علمهم بوجود احتياطي من المؤونة، ثمّ أمر مركيز قادش دون بيدرو أن يقودَ مجموعة انتحارية للقضاء على حَمَلة السّهام أعلى البرج والأسوار، وأن يقتل كلّ حاملٍ للسلاح حتى لو وضعه إلى جانبه، قائلًا:«لا أريد أسرَى، بل أريد قتلى وجثثًا متناثرة حتى يرتدعَ الجميع».

انطلق دون بيدرو بفرقتِه المختارة، والمحميّة بأقنعة حديدية، ليقتل المسلمين الذين اعتلَوا الأسوار، وأمرَ جنودَه برفع الدروع في مواجهة السّهام والحجارة والبنادق، وتحرّك رويدًا رويدًا، وأمرَ حملة

السّهام عنده بقنص المسلمين، ودارت بينه وبين المدافعين معركةٌ حامية الوطيس، امتزجت فيها أصواتُ السّيوف بأنين الجرحى، وتخلّلت أشلاء القتلى المتطايرة النقع المتكاثف في ميدان القتال!

وفي الوقت نفسه، صاح مركيز قادش في جنودِه قائلًا: «لقد سدّ علينا العرب بابَ القلعة فهُم متربّصون بكلّ مَن يطلّ برأسه منها، ولهذا عليكم أن تفتحوا لنا ثغرةً في سور القلعة، فنأتيهم مِن حيث لا يحتسبون، ونستطيع أن نحتلّ المدينة من خلفهم، بينما هُم يقاتلون دون بيدرو»!

أورتيغا: «أمرُ سيدي، سأقود فرقةَ السلالم لنقب السّور فورًا».

بدأ القشتاليّون في هدم جزءٍ من سور القلعة، وخرج منه مركيز قادش وهو شاهرٌ سيفه، ومن خلفه جمعٌ من جنوده، ودارت رحى حربٍ طاحنة حوصِر خلالها المسلمون المدافعون عن المدينة من خلفهم ومن أمامهم، لكنهم قاتلوا بشجاعة فائقة، واشترك في الحرب النساءُ والصبية الأطفال، وانتقلت الحربُ من بيتٍ إلى آخر، ومن سطحِ منزل إلى جواره، لكنّ القشتاليّين كانت لهم الغلبة بكوْنهم جنودًا نظاميّين مدرَّبين، ولم تفلح شجاعةُ المسلمين أو تغني عنهم من القتل شيئًا، واستبد اليأس بالمسلمين، وهُم يأملون أن ينجدَهم أبو الحسن بمددٍ قريب من غرناطة، ولهذا تجاهل المسلمون جراحهم وقتلاهم، وواصلوا القتالَ الذي طالت قسوتُه بلا هوادة من القشتاليّين، ولا استسلام من المسلمين، وكان مَن يفقد السلاح

مِن المسلمين يدافع عن بيتِه بجسده الذي لا يفتأ القشتاليّون أن يقطعوه إربًا.

قاتل الجنود القشتاليّون في تلك المعركة من أجلِ المجد والثأر، من أجلِ الإيمان المقدّس والغنائم التي يطمَعون في نهْبِها، وقد توهّموا أنّ احتلال المدينة والقضاء على كلّ حاملٍ للسلاح فيها هو طريقهم إلى هذا المجد وهذه الغنائم، بينما كان فشلُهم يعني إمّا مقتلهم وإمّا فرارهم الذي يعقبه الذّل والعار، ومن ثمّ استمرّت الحرب منذ الفجر إلى أن جنَّ الليل، حتى بدأت قوات المسلمين في التضَعْضع، فتراجع الجند إلى المسجد الجامع قرب السور، وهُم يطلقون منه نيرانَ مدفعيتهم وأسهمهم المشتعلة، فخاف القشتاليّون ولم يجرؤ أحدُهم على التقدم إلى المسجد الجامع.

أمرَ المركيز جنوده بتوخّي الحذر، وأن يتقدّم منهم مَن يرتدي الزرد والحديد فقط إلى ناحية المسجد، وبدأ القشتاليّون المدرّعون في التقدّم ببطء شديد، والنار من حولهم تلقف منهم البعض، واستمرّ البقية في التقدّم، حتى وصلت مجموعةٌ منهم إلى بابِ المسجد فأضْرموا فيه النار، التي راحت تلفحُ وجوه المسلمين داخله، ممّا جعل القنوط ينتابُ قلوبهم، فلم يتقدّم منهم إلّا فئة من الشّجعان ظلّوا يقاتلون حتى قُتلوا، بينما استسلم الباقون للقشتاليّين الذين جمعوهم في السّاحة وقتلوهم عن آخرهم، فكان جزاءُ من استسلم القتلَ مكتوفَ اليدين، بينما مَن قاتل نالَ الشّهادة العليا!

استباح المركيز المدينة، فدخل الجنودُ البيوت وسلبوها ما في أعماق خزائنها من فضة وذهبٍ وحرير، فجمعوا ذهبًا عظيمًا، وراح مَن لم يستطعْ منهم حمل الغنائم أن يحرقها ويدمّرها، فخلطوا الزّيت بالعسل في المستودعات، ومزّقوا فرش البيوت، وحرّقوا الكتب، ثمّ دخلوا السّجون فحرّروا أسرى الزهراء، وما هي إلّا ساعات حتى انتشرت رائحة الجثث وارتفعت ألسنة النيران، وأضحت الحامة قاعًا صفصفًا، ودخل المركيز المسجدَ الذي أُحرق بابُه، وصلى فيه صلاة الشكر للرّب، وقام فورًا بتحويل المسجد إلى كنيسة، وأمر بإسقاط الهلال، ووضع جرسٍ أعلى المنارة، لتدقّ الأجراس صاخبةً معلنة أنّ مسجد الحامة قد تحوّل إلى كنيسة، وأنّ القشتاليّين انتصروا. لكن ليس بقوّتهم، بل بضعف المسلمين!

***

.٩.

ركن أبو الحسن إلى الدّعة، وأطلق العنان لأهوائه وملذّاته، وبذر حوله بذور السّخط والغضب، بما ارتكبه في حقّ الأكابر والقادة من صنوف العسف والشّدة، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية، وما أثقل به كواهلَهم من صنوف المغارم، وما أغرقَ فيه من ضروب اللّهو والعبث، وكان وزيرُه رضوان بنيغش يجاريه في أهوائه وعسفِه، ويتظاهر أمامَ الشعب بغير ذلك. وهكذا عادت عواملُ الفساد والانْحلال والتفرّق الخالدة تعمل عملَها الهادم، وتُحدث

آثارها الخطرة. واسترسل أبو الحسن فى أهوائه ولْهوه، هائمًا بثريا أو كوكب الصبح (كما كان يناديها)، وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلت ظهرَه السّنون، وغدا أداةً سهلة في يدِ زوجه الفتيّة الحسناء. وكانت «ثريا» فضلًا عن حسنها الرائع، امرأةً كثيرة الدّهاء والأطماع، وكان وجودُ هذه الأميرة الأجنبيّة في قصر غرناطة، واستئثارها بالسّلطان والنفوذ في هذه الظروف العصيبة، التي تَجُوزها المملكة الإسلامية؛ عاملًا جديدًا فى إذكاء عوامل الخصومة والتّنافس الخطرة. وكانت «ثريا» تتطلّع إلى أبعد مِن السيطرة على الملك الشيخ. ذلك أنّها أنجبت من الأمير أبي الحسن- كخصيمتها وضُرّتها عائشة- ولديْن، هُما سعد ونصر. وكانت ترجو أن يكونَ المُلك لأحدِهما. وقد بذلت كلّ ما استطاعت مِن صنوف الدّس والإغراء لإبعادِ خصيمتها الأميرة عائشة عن كلّ نفوذٍ وحظوة، وحرمان ولديْها محمد ويوسف من كلّ حقّ فى الملك، وكان أكبرُهما أبو عبد الله محمد وليَّ العهد المرشّح للعرش، وكان أشرافُ غرناطة يؤثرون ترشيحَ سليل بيت الملك، على عقب الجارية النصرانيّة.

تناثرت الأخبار وانتشرت، لكنّها لم تصلْ إلى سلطان غرناطة، الهائم الغارق في حبّ ثريا، البعيد عن أمور دولته وحدودِها، وأقدارِها، فبينما الحامة تشتعلُ نارًا وتُهدَم بيوتها وتُنتهك حرماتها إذا به مسترخيًا في هيئة بين الرّقاد والقعود، وبجواره ثريا، ومِن حوله الجواري يرقْصن ويغنّين، وأبو الحسن يتناول ثمرة فاكهة ويأكل منها، وهويتحدّث مبديًا عشقه لزوجته ثريا!

أبو الحسن: «هل تعلمين لِمَ أطلقتُ عليك اسم ثريا؟»

ثريا: «أنا لا أفهم كثيرًا في معاني الأسماء العربية، ولهذا كنت أُفضّل أن أظلّ حاملة لاسمي القشتالي، فالاسم لا علاقة له بالدّين، وأنا في النهاية مسلمة، إيزابيلا كنتُ أم ثريا»!

أبو الحسن (مشيرًا بيده التي تحمل ثمرة الفاكهة): «لا ينادى لأُمّ ولد السلطان باسم غير عربي، وعليكِ أن تعلمي أنّنا (بني نصر) يرجع نسبُنا إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة- رضي الله عنه- فكيف أكون سليلَ الأنصار، وزوجتي تحملُ اسمًا غير عربي؟!».

ثريا: «إذًا، فليخبرني السّلطان بمعنى اسمي علّني أُحبّه»!

أبو الحسن: «الثريا- يا ثريا- هي مجموعةٌ من النجوم تقعُ في حيِّز برج الثور، وضمن المجموعة توجد ستُّ نجمات رئيسة هُنّ الثريا، وتُطلَق كلمة «ثريا» أيضًا على كوكبِ الزّهرة المعروف بشدّة بريقه ولمعانه، وقد كان العرب قبلَ الإسلام يعبدونها ويسمّونها العُزّى، كما كان الإغريق يعدّونها آلهة الجمال».

ثريا (بغنجٍ وتبسّم): «الآن أحببتُ اسمي العربي أكثرَ من القشتالي».

تتابع ثريا، وهي تتودّد إلى أبي الحسن في مكرٍ ودهاء قائلة له: «منذ شهور، وأنا أُلحّ عليك في تعْيين ولدي سعد وليًّا للعهد.. ولكنّك لا تجيب»!

(يستمرّ رقص الجواري وعزف الموسيقى)

أبو الحسن: «يا ثريا، ألا يكفي عائشة ما حلّ بها وبولديْها حتى تطلبي مني الآن أن أنزعَ محمدًا من ولاية العهد، لأجعلها في سعد، وهو لم يكمل عامَه الثالث بعد!»

ثريا: «لم أفعل شيئًا بها، ولم أُبادرها بسوء، ولكنّها تنسى دائمًا أو تتناسى أنها عجوزٌ أكل الدهر عليها وشرب، فقدت جمالَها فجاءت تباريني فيه، وأنا الشابّة ذات العشرين ربيعًا فهل يجاري الخريفُ الربيعَ يا مهجةَ قلبي؟ إنني أشفقتُ عليها من فرطِ غيْرتها فآثرتُ أن يكون مجلسها في برج قماش، بعيدًا عني وعنك!»

أبو الحسن (يضحكُ بصوتٍ مرتفع): «نزعتِ منها سيادتها في قصرها، وبالأمس كنت جاريةً لها.. يا لقلبكِ الحنون!»

ثريا: «أسعد الله مولاي السلطان».

ضحك أبو الحسن وقال: «لا تشفقي عليها مرةً أُخرى يا ثريا!»

ثريا: «مازلتَ تقول جارية.. ونسيتَ أنّي ابنة أحدِ أعظم قادة قشتالة، فلمَ تزوّجتني إذًا ما دمتَ تراني جارية؟!» (تدير وجهَها بعيدًا عنه مُبديةً ملامح الحزن والغضب، في محاولةٍ ماكرة لاسْتدرار عطفِه وحبّه وتأجيج هُيامه بها).

أبو الحسن: «لا تغضبي يا حبيبتي، فأنتِ سيدةُ القصر، وسيدة قلبي وروحي».

ثريا (تصطنع إظهارَ حزنٍ زائف):«أنا لم أقلْ لك: اجعل سعدًا في ولاية العهد حبًّا لابْني، ولكن حفاظًا على ملكك!»

ردّد أبو الحسن خلفها قائلًا: «حفاظًا على ملكي! وماذا سيفعل سعدُ ذو الأعوام الثلاثة أكثرَ من أخيه محمد ليحفظَ ملكي؟ ألا ترينَ يا حبيبتي أنّك تبالغين في الإطراء على ابنك؟».

ثريا: «قطعًا أنا لم أُبالغ، ولكنّ مولاي ربما خانته ذاكرتُه فنسي».

أبو الحسن: «وما الذي نسيتُه يا جميلتي؟».

ثريا: «ألا يتذكّر مولاي خبرَ النبوءة؟».

تجهّم وجه أبي الحسن وصمت، بينما عيناه لا تتحرّكان، وسرح بذاكرته إلى الخلف، حين ولادة أبي عبد الله محمد، حينما كان يحتفل بمولده، إذْ دخل عليه درويشٌ كبير السنّ هو حامد بن زرعة فقال له: «الله أكبر، فعلى يدِ هذا الطفل ستكون نهاية دولة الإسلام في الأندلس، سوف يجلسُ هذا الطفل يومًا على العرش، وسيسلّم بيده مفاتيح المدينة ويخرج منها». وبينما كان أبو الحسن مستغرقًا في ذكرياته، سمع صوتَ «ثريا» كأنّما تناديه من بعيد!

ثريا: «ما بك يا مولاي؟».

أبو الحسن(مردّدًا): «نعم، على يديه ستنتهي دولة بني نصر في الأندلس».. ثمّ اتّجه إلى «ثريا» قائلًا لها: «لا تستمعي كثيرًا لأقوال المنجّمين، على أني أريد أن تخبريني مِن أين سمعتِ بأخبار تلك النبوءة؟».

ابتهجت ثريا، وقبّلت يدَ أبي الحسن: «سمعتُها من بعض الجواري حين علمْنَ أنّ أبا عبد الله يلقب أيضًا بالزّغيب، ولأني لا أفقه العربية كثيرًا فقد سألتهم عن الاسم وعرفتُ أنه يدلّ على سوء الطالع، فلمّا سألتهم عن سرّ الاسم وإطلاقه عليه وهو ابن الأمير ووليّ عهده،علمتُ قصة النبوءة. ولهذا أتيت إليكَ أرجوك أن تحافظَ على ملك بني نصر في الأندلس، وأنْ تحولَ دون وصول ابن عائشة إلى الحكم!»

أبو الحسن: «كذب المنجّمون ولو صدقوا».. لكنّه كان يردّدها وهو غير مؤمنٍ بما يقول!

ثريا: «يا مولاي، أنت تعلمُ حنْق عائشة عليّ، فهي كثيرةُ الغيرة والحقد، حيث لم تتصوّر أن آخذك منها، وإني يا مولاي أخشى إن حدثَ لكم شيء- لا قدّر الله- أن تفعلَ بي عائشة وبسعدٍ الأفاعيل، وأنا لا أهل لي هنا غيرك، أمّا هي فسليلة الأُسرة النصرية وبنت الملك الأيسر». (وتظاهرت بأنّها تذرف الدموع).

مسح أبو الحسن دموعَها وقال: «أنا أهلك، ولن يمَسَّكِ أحدٌ بأذى أبدًا فاطمئني»

وبينما يتحدّث أبو الحسن وثريا، والجواري يواصِلن الرقص والغناء على إيقاع ونغمات الموسيقى، إذْ دخل مَن يستأذن أبا الحسن أنّ هناك مَن ينتظره في بهو السّفراء، ويلحّ في طلب الحديث إليه. فخرج أبو الحسن متثاقلَ الخطا إلى بهْو السفراء، حتى إذا وصل

وجدَ الوزير رضوان في انْتظاره، فقال له مستهجنًا، وقبل أنْ يصل إلى كرسي عرشه: «ما الأمر الجسيمُ الذي لا يصبرُ حتى الصباح، والذي لا ينتظرُ حتى تقتحموا عليَّ أوقات راحتي!؟».

رضوان: «نعتذر يا مولاي، ولكنّ رسولًا من الحامة وصل مِن فوره إلى باب قصرك، ولمّا طلبنا إليه أنْ يتريّث، أجابنا بأنّ الأمر لا يحتمل الانتظار، فاضطررنا إلى إخبارك».

أبو الحسن: «أدخلوه إليّ إذًا، لنرَ أمرَه الذي لا يحتمل الانتظار».

دخل الفارس الذي بدتْ عليه آثار الإعْياء والتعب، فقد قطع المسافةَ من الحامة إلى غرناطة من دون أن يتوقّف لحظة لأخذ قسطٍ من الرّاحة، فسلِّم على أبي الحسن قائلًا له: «النجدة، النجدة يا مولاي، لقد باغتنا القشتاليّون من دون أن نعرف مِن أين، ولا كيف ظهروا في بلادنا، وتسلّلوا إلى القصر ليلًا، فقاتلناهم قتالًا عنيفًا على الأسوار والأبراج، ولكننا فُتَّ في عضدنا فلم نستطع ردّهم.

انتفض أبو الحسن واقفًا من مجلسه: «هل سقطت المدينةُ إذًا؟».

الفارس: «لما انطلقتُ بحصاني من باب المدينة مقبلًا عليكم، كان القشتاليّون قد أحكموا احتلالَ القصر، ولكن المدينة لم تكن سقطتْ بعد!».

أبو الحسن: «وحاكم المدينة؟!».

الفارس: «لا يا مولاي، فحينما دخل القشتاليّون القصر لم يكن حاكمُها موجودًا فيها، فقد خرج منها لحضورِ حفل زفاف أحدِ أقاربه!»

غضب أبو الحسن وتكلّم بصوتٍ عال: «الملعون. نولّيه على المدينة فيتركها ويخرج لحضورِ حفل زفاف، بئسَ الحاكم هو.. والله لأُعذبَنّه عذابًا شديدًا».

رضوان: «هدئ مِن غضبك يا مولاي».

أبو الحسن (موجّهًا كلامه إلى الفارس): مَن قائد القشتاليّين؟ وكم عددُهم؟

الفارس: «قائدهم يا مولاي مركيز قادش رودريغو دي ليون، ومعه ثلّة من أفضل جنود قشتالة، أمّا عددهم فهو لا يتجاوز بضعة آلاف».

أبو الحسن (مازال غاضبًا ومستنكرًا): «بضعة آلاف يستولون على مدينة حصينة ذات أسوار عالية وقوية، وبها آلافٌ من الجنود المدافعين عنها، فضلًا عن كثافة أهلها وجميعهم محاربون؟ بئسَ القوم أنتم».

الفارس: «لقد أخذوها على حين غِرّة يا مولاي، فلم ندرِ إلّا وقد سيطروا على الأسوار، ومن ثمّ على القصر».

سُمعت جلبةٌ بالخارج، وصل صداها إلى مسامعِ أبي الحسن، فأشار إلى الوزير رضوان مستفهمًا عن مصدر تلك الأصوات وسببِها؟

خرج رضوان إلى خارج قصر الحمراء، والتقى العامةَ الغاضبين ممّا حدث في مدينتهم، ثمّ عاد وأخبر الأمير بأمرهم قائلًا: إنهم أهل غرناطة يا مولاي، قد بلغهم مَا فعله القشتاليّون بإخوانهم المُسلمين في الحامة، فهاجَتْ مشاعرهم وقالوا: «لا طاقة لنا على هذِه المُصيبَة العُظمَى ولا خير لنا في عَيْشٍ بعد هذِه النّكبة الكُبرَى.. إمَّا أَن ننصر إخواننا أَو نموتَ دونهم!».

أبو الحسن: «اخرجْ إليهم يا رضوان، وبلّغهم أنّ ملك غرناطة لن يسكتَ عمّا حدث، وأنّها أيام قليلة وستعودُ الحامة إلى أهلها وشعبها». (ثمّ التفت إلى الفارس قائلًا: «أمّا أنت أيها الفارس، فانتظر فسوف تقودُ ألفيْن من الجنود لاستردادِ المدينة».

بدأ أبو الحسن في تجْهيز الجيش، وأمر بالمناداة في الشّعب لجمع المتطوّعين، بينما ذهبَ الفارس إلى الحامة بألفي جندي سبقَ بهم أبا الحسن مسرعًا لإنقاذ المدينة المحاصَرة.

سرى الخوفُ في الشعبِ الغرناطي، وتهامس بعضُهم بأنّ نبوءة الدرويش الخاصة بالزهراء قد بدأت فعلَها، بينما تهامسَ آخرون بأنّ لهو الأمير وخضوعه للجارية القشتالية وانْهماكه في اللّذات والشَّهَوات واللهو بالنساء المطربات وركونَه إلى الرّاحة والغفلات

وتضييعه الجند وإسقاطه كثيرًا من نجدة الفرسان.. إلى غير ذلك من الأُمور هي سببُ كارثة الحامة، خاصّة أن أبا الحسن في الزّمن القريب قد قام بتسريحِ كثيرٍ من الجند، وقطع عنهم أُعْطياتهم، حتَّى باعَ الجند ثِيابهم وخيْلهم وآلات حربهم وأكلوا بأثْمانها.

وهكذا دوّت في غرناطة أبواقُ الحرب لاسْترداد الحامة والانتقام من القشتاليّين داخلها، كما دوّت فيها أصواتُ الرعب والخوف من المستقبل، وتأهّب السلطان للحرب، وخرج من غرناطة على رأس جيشٍ عرَمْرم بلغ خمسين ألفَ مقاتل، وفي الوقت نفسه أرسلَ أبو الحسن نداءاتٍ إلى عدوة المغرب استنجدَهم بها لإنقاذِ الحامة واستردادِها وإنقاذ الأندلس من مستقبلٍ مجهول.

***

.١٠.

حصارٌ يائس وفشلٌ محتوم...

الوضع داخل المدينة

أحكم القشتاليّون سيطرتَهم على المدينة، وصلّى المركيز فى مسجدها الجامع صلاة الشّكر، ثمّ أمر بسجن كلّ مَن يستطيع حملَ السّلاح من أهلها في المسجد الجامع، ووضع عليهم حراسةً شديدة، وأرسل مِن فوره في طلب النّجدة من قشتالة، مخافة من جيش أبي الحسن، وقد كان مع المركيز داخل الحامة مجموعةٌ من أشهر فرسان

قشتالة، وعلى رأسهم دون خوان دي فيرا، وأروتيغا أشهر متسلّقي السلالم في قشتالة كلها، ودون بيدرو قائد الحامية القشتاليّة.

وضع المركيز خطّته للحفاظ على المدينة، ووضع لكلّ قائد منهم مهمّة يقوم بها. كما وصلت أنباءُ غزوة المركيز إلى أحدِ أهمّ أصدقائه، وهو دون ألونزو دي قرطبة، الذي لم يشارك في حملة مركيز قادش على الحامة، وذلك لعدم علْمه بالحملة، ولكنه ما كادَ يعلم بها، حتى بادرَ إلى جمع مُشاته وخيّالته وقنّاصته ودخل بهم إلى ساحة المعركة، فلمّا وصل إلى نهر يوغواس، وجدَ متاع الجيش الذي سبقه على ضفّته فحمله لهم إلى الحامة، فعلمَ المركيز بقدوم صاحبِه الذي كان سيره بطيئًا بسبب ثقل أحماله، وبينما كان دون ألونزو على بُعد عدة أميال من الحامة، أبلغته كشّافته أخبار تقدّم ملك المسلمين نحوها بقوّة كبيرة، وفي الوقت نفسه وصَلته رسالةٌ من صديقه المركيز بعدم القدوم ناحيةَ الحامة، وذلك حتى لا يكون هو وفرقتُه رهنَ الأسر بيد المسلمين. وفي ضوء هذه الأخبار، قرّر ألونزو أن يتحصّن في الجبل منتظرًا جديد الأخبار.

وصل السلطان علي بن سعد برفقة جيشه إلى أسوار الحامة، فراعَه ما رأى من جثث وقتلى، وأحزنَه تناثرُ الأشلاء في كلّ مكان حول السور، بينما تنهشُ الكلاب وهَوام البريّة من لحومهم. فعلم بجلّ المصاب، وأنّ القشتاليّين لمْ يرحموا طفلًا أو شيخًا أو امرأة،

بل إنّهم قتلوا حتى فلّاحي المدينة وعبيدَها وتجّارها، فقال في نفسه غاضبًا: «وأي مذبحة، وأي وحشية تلك!؟» ثمّ نادى في جنوده أنْ أبعدوا الوحوشَ عن القتلى وأحسِنوا دفْنهم. ثمّ تابع أبو الحسن حديثَه وكأنّما يحدّث نفسه، فقال: لم يحفظْ لنا القشتاليّون يومًا عهدًا، ولم يراعوا يومًا أخلاق الفروسية، وإلّا ما قتلوا الفلّاحين العزّل من السّلاح. لقد ردّوا على حفظنا لأرواح أهل الزّهراء بقتْلِ أهل الحامة.

اكتملَ دفْن القتلى في بضعِ ساعات، ونزلَ الأميرُ من فوْق حصانه فاقتربَ منه إبراهيم الحكيم، وعلى عمامتِه غبارُ التراب وشُحوب لا يخفى، يرتسمُ على وجهه وقال:

«لقد فرغنا مِن دفن الشّهداء يا سيدي».

أبو الحسن: «تجهّزوا إذًا لاقتحام المدينة».

رضوان: «ألا ننْتظر وصولَ أدوات الحصار كاملة يا مولاي؟».

أبو الحسن (بصوتٍ حادّ): «لا أُطيق الانتظار، بل أُريد التّعجيل بالثأر لشهدائنا الذين نهشَت لحومَهم أنيابُ الكلاب! ولنعْتمد على تفوّقنا العدَدي، ونهاجم المدينةَ من أكثر مِن مكان، وليبدأ شُجعان الجنود في تسلّق الأسوار من مناطق عدّة، مُستخدمين السّلالم التي أحضرناها معنا، وبهذا نستطيع تشْتيت المُدافعين وإفْشال خطّتهم، وإعادة الاسْتيلاء على المدينة وتحريرها بأسرع وقتٍ مُمكن».

إبراهيم الحكيم: «مولاي، لقد لمحتْ طلائعُ جيشنا وجودَ فرقة من جيش القشتاليّين قريبةً منا، وعلى حسب ما قالته الكشافة فقائدُ الفرقة هو دون ألونزو دي قرطبة، وأظنّه ما أتى إلّا لنجدة أصحابِه المحتلّين للحامة».

أبو الحسن: «كم عددُ الفرقة؟».

إبراهيم الحكيم: «ليس كثيرًا».

أبو الحسن: «حسنًا، طاردوهم واقْضوا عليهم. خذ فرقةً من الجيش لا تزيدُ على ٥٠٠ فارس، وجئني برأس قائدِهم حيًّا أو ميّتًا».

ينطلق الحكيم لاقْتفاء أثر دون ألونزو دي قرطبة، الذي يتحصّن أعلى أحدِ الجبال، ثمّ يفرّ عائدًا بقوّاته تجاه أنتقيره، بعد أن ترك متاعَه أرضًا خوفًا من جيش المسلمين الذي يتفوّق على فرقته بعشرات المرات. امتنع الحكيم عن ملاحقتِه خشية الكمائن والمفاجآت، وعاد أدراجَه إلى الجيش، وانضمّ إلى صفوف المحاصِرين للحامة.

بدأ الهجومُ على الأسوار بشجاعة مُنقطعة النّظير، واستخدم الجيشُ السلالم من الحبال للصعودِ مِن أكثر من مكان، ولكنّ القشتاليّين كانوا لهم بالمرصاد، فقدْ أرْدوهم قتلى باسْتخدام الحجارة والأسْهم وسكْب الزيت المُشتعل عليهم فأحْرقوهم وأحْرقوا

سلالمَهم، وعبثًا حاول أبو الحسن كسرَ المدافعين؛ فكثّف هجومَه من دون أن ينتظر أدواتِ الحصار اللازمة، فكان مصيرُ المهاجمين في كلّ مرّة القتل، حتى صارتِ الجثثُ المحروقة والمقتولة تحتَ الأسوار عائقًا في وجْه مَن يتقدّم للهجوم لكثرتها.

كان أبو الحسن يشاهد ما يحدثُ بقلقٍ رهيب، خاصة بعد أنْ فشلت قواتُه في إحداث أيّ ثلمة في الأسوار أو في اعْتلائها. وبينما حالُ المسلمين كذلك وعيونُهم على الأسوار وقلوبُهم تتمزّق لمقتل عددٍ كبير من أشجع فرسان غرناطة؛ إذْ بباب الحامة يُفتح ويَخرج منه فيلقٌ من جيش المدافعين فيشتبكُ مع المسلمين في معركةٍ خاطفة، فيُسقط عددًا من القتلى، ويفرّ راجعًا إلى باب المدينة.

اجتاح الغضبُ أبا الحسن، الذي أمرَ إبراهيم الحكيم بالاسْتعداد قربَ باب الحامة، حتى إذا خرج القشتاليّون تلقّاهم مباغتًا غارزًا سيوفه في صدورهم، فتجهّز إبراهيم للمهمّة، ومكثَ غير بعيد عن بابِ الحامة، حتى إذا خرجت الفرقة القشتاليّة المهاجِمة، اشتبكَ معهم الحكيم بفرقته، وقد كان حسّان بن سراج من بين جنودِ إبراهيم الحكيم، وبينما القشتاليّون ينسحبون تحتَ ضربات إبراهيم الحكيم إذْ ينادي حسّان بأعلى صوته قائلًا:

«توقّف أيها الغادر الذي يقتلُ ويفرّ كالجبناء، توقّف فقد بلغت حتفَك».

التفت دون خوان دي فيرا خلفَه، مستمعًا لما يقوله خصمُه.

حسّان: «ارجعْ أيّها الجبان لتقاتل مَن حاولتَ إهانتَه في المكان الذي لم يكنْ يستطيع فيه عليك ردًّا».

دون خوان (مبتسمًا في سخرية): «مرحبًا بالعربي الذي حانت نهايتُه»، ثمّ شرع رمحَه الطويل وانطلق في حماسةٍ شديدة نحو حسّان الذي رفع أيضًا رمحَه متأهّبًا لقتل دون خوان.

تصارع حسّان ودون خوان حتى إذا همَّ حسّان بقتله بعد أن سقطت درعُه فإذا بسهم غادرٍ اخترق جسدَ حسّان فأرداه قتيلًا، تنفّس دون خوان الصُّعَداء وأَجْهز بسيفه على حسّان، ثمّ انطلق قافلًا إلى الحامة التي ما كادَ يدخلها حتى أُغلق بابها.

وبينما كان اليأسُ قد استولى على قلبِ السلطان الذي أيقنَ بخطأ تسرّعه في الهجوم على المدينة من دون انتظار أدواتِ الحصار، إذا بفريقٍ من المتطوعة المسلمين ينجحُ في ثلم الأسْوار وإحْراق أحد أبوابِ المدينة، وتعلّق بعضهم بالأسوار طمعًا في الدُّخول إليه، فبينما هُم كذلك إذْ وصل إليهم أَمرٌ من الأمير أبي الحسن والوزير بالرجوع عن القتال بحجّة دخول اللّيل، فتوقّف المتطوّعة امتثالًا لأوامر أَبي الحسن، وكانَ مِن ضمن هؤلاء المتطوّعة شباب السّوق الذين لم يتأخّروا يومًا عن الجهاد، ولكنّهم استغربوا كيف يتوقّفون بينما هُم قابَ قوسين أو أدنى من ولوج المدينة، فقادَهم هذا الفعل إلى التّساؤل عن سببِ إيقاف الهجوم في هذا الوقت تحديدًا، فقال محمد: «ربّما أراد أن يريحَ الجندَ على أملِ متابعة الحرب صباحًا».

تحدّث عامر في عصبيّة ملحوظة قائلًا: «لا أعلم سببًا لأمْر السلطان لنا بالتوقّف عن الهجوم بعد أن كدْنا نقتحمُ المدينة، ثمّ كيف نرتاح أو نطلبُ الرّاحة وإخوتنا تحت قبضة القشتاليّين ولا نعلم عنْهم أي شيء؟!». ارتفع صوتُه أكثر وتابع قائلًا: «ثمّ هل القشتاليّون أصبر منّا على الحرب حتى نطلبَ نحن الراحة!؟».

محمد: صه (وأشار إلى فمه): «لا يسمعنك أحدٌ- أنا أتفهّم رأيك يا عامر، وإنّي على ثقة برجْحانه، وثلمة الأسوار التي استطعنا إحداثَها بعد جهدٍ جهيد سيسهر القشتاليّون على سدّها وترميمِ الأسوار التي هدمنا جزءًا وازنًا منها».

عامر: «لو تركنا السّلطانُ أومدنا بقوةٍ من الجند الاحتياط، لبسطنا أيديَنا على الحامة قبل أن يبسطَ الفجرُ خيوطَه على محاورها».

محمد: «هدّئ مِن روْعك، فنحن في النهاية جندٌ ولسنا قادة، ولا رأي لَمن لا يطاع، ولربما يفاجئنا السلطان غدًا بشيء جديد أو بجيشٍ جديد، ولربّما ينتظر وصول أدواتِ الحصار».

وبينما كان يتحدّث محمد وعامر كان صديقهما الثالث يغطّ في نوم عميق، نظر عامر إليه وقال: «سبحانَ مّن أعطاك راحةَ البال يا علي، حتى نمتَ في مثل هذه الظروف القاسية»!

محمد: «دعْهُ يسترسلُ في نومه، وهيّا لنأخذ نحن أيضًا قسطًا من الراحة، فلا ندري ماذا سيكون لنا غدًا، وماذا يحمل لنا القدر؟ فلنخلد إلى الراحة (يربتُ على كتف صاحبه).

نام الجميع، وعند الفجر استيقظوا، وقد لاحَظوا أنّ القشتاليّين قد سدّوا عليهم ثلمتَهم وأصْلحوا الأسوار، فإذا بمنادٍ عن السلطان نادى فيهم، أنّ السلطان قد أمَر بتحويل مجرى النهر بعيدًا عن المدينة المحصورة فاسْتعدّوا وأعدوا.. وقد كان تحويل مجرى النهر يعني حصارًا طويلًا، كما يعني أيضًا وصول النّجدات من قشتالة إلى المدافعين عنها، ممّا يعني وقوع جيش أبي الحسن بين مطرقة القوات القشتاليّة المحاصِرة داخل المدينة والجيش المقبِل لا محالة من إشبيلية، لكنّ الجند مضَوا يعْملون ومعهم المتطوّعة على تحويل مجرى النهر بعد أن فقدَ السلطان الأمل فى اسْترداد المدينة بالحرب المباغتة، نتيجة لتسرّعه في ضربها من دون أدوات حصار، ثمّ بسبب سحبِه للمتطوّعة بعد أن ثلموا الأسوار؛ عمل المتطوّعة بجدّ بينما وقف الجنود شاهرين السّلاح لحمايتهم مِن سيوف ورماح وبنادق الأعداء. وبينما الحال كذلك، خرج دون خوان مرةً أخرى، ولكن هذه المرّة لقتل المتطوّعة الذين يعملون على تحويل مجْرى النهر، فاشتبكَ معهم عند النهر، لكنّ القناصة حصدت جنودَه حصدًا، وفشل دون خوان في عرقلة تحويل مَسار المياه، وترك جثث وجرحى جنودِه، وفرّ هاربًا ناحية الأسوار.

ظلّت الحال هكذا، وتحوّل دون خوان من حربٍ من أجل القتل إلى حربٍ من أجل الحصول على المياه، فكان يخرجُ بثلّة من جنوده يحملون جرارًا فارغة في محاولات مُستميتة لملئها، وكان النبّالة في كلّ

مرة يقفون لهم بالمرصاد. استمرّت الحربُ على المياه ليلًا ونهارًا، ولم ينجحوا في الوصول إلى الماء.

أمّا داخل المدينة فقد تحرك مركيز قادش حول الأسوار ومعه أورتيغا ودون خوان متفقّدين لها ولجنودهما، مخافَة أن يثور عليهم الشعبُ المهزوم أو يحاول أحدُهم فتح الأبواب، وقد أحزَنَهم وآلمهم فشلُهم المتواصل في ملء جرار الماء، بينما العطش يكادُ يفتكُ بجميع الجند.

حاول مركيز قادش رفعَ الروح المعنوية بين جنده طالبًا إليهم التحمّل، ثمّ أصدر أوامره بمنع الماءِ عن الشعب المهزوم داخل المدينة التّليدة، ولمّا قال له أحدُهم إنّ أهل المدينة سيقضُون عطشًا.. ردّ عليه قائلًا: «فليذهب أهلُها إلى الجحيم، شدِّدوا الحراسة على ما تبقّى لدينا مِن الماء وامْنعوا المسلمين عنها، ومَن أراد منهم أن يأخذ قطرةَ ماء واحدة؛ فليأخذها مِن دمِه».

وهكذا هلك معظمُ الشعب الحامي داخل مدينته عطشًا، وبينما هُم كذلك إذْ شاهد مركيز قادش بعضَ جنوده وقد خارتْ قواهم من العطش، فلم يعودوا قادرين على وتْرِ أقواسهم أو دحرجةِ الصخور على خصومهم من أعلى السور، أمّا الأسرى المسلمون التّعساء فقد سُجنوا في المسجد الكبير من دون أن يُسمح لهم بقطرةِ ماء واحدة، فهلك بعضهم ظمأً.

نظر مركيز قادش إلى جنودِه الذين كاد العطش يقتلهم، قائلًا: «علينا الإسراعُ بطلب النّجدة من الملك فرناندو، علينا الإسراعُ بذلك قبلَ فوات الوقت. أرسلوا إلى الملك وإلى كلّ فرسان قشتالة، أرسلوا أيضًا إلى زوجتي في قادش. وهكذا بُعث برسائل الاستغاثة إلى فرناندو طالبين منه سرعةَ النّجدات. وبينما هُم كذلك إذ لاحظَ مركيز قادش أنّ أورتيغا يرتوي من الماء فنظر إليه وعاتبه قائلًا: «إنّ القائدَ الشجاع يا أورتيغا هُو مَن يشارك جنودَه معاناتهم وعطشهم، هو مَن يحاول أن يتقرّب منهم بمشاركتهم يومَهم، هو مَن يشاطرهم معيشتهم وخوفهم وجوعهم، لا مَن يتركهم عطشى ليشرب دونَهم وأمامهم!».

نظرَ أُورتيغا إلى الأرض في استحياء قائلًا: «أعتذر يا سيدي، فقدْ أخطأت، ومِن الآن لن أتذوّق الماء قبل أن يرتوي جندي».

أمّا خارج الأسوار فقد طالت أيامُ الحصار، وبدأ الجيشُ في التملْمُل والخوف من المددِ الآتي من إشبيلية، وتحدّث المتطوّعة عن ذلك في أخذٍ وردّ.

عامر: «طالت أيامُ الحصار ولم يستسلم المدافعون».

علي: «وصلتني أخبارٌ تقول إنّ دوق مدينة شذونة قد هبّ لنجدة القشتاليّين داخل الحامة، ومعه ثلةٌ من أبرع فرسان قشتالة، ومنهم ألونزو دي قرطبة، وأخوه الأصغر غوانزافو فرناندو دي قرطبة ودون رودريغو غيرون ومارتن ألونزو دي متوميور ومركيز

دي فيلينا، الذي يقولون عنه إنّه أفضل القشتاليّين في استعمال الحربة الطويلة».

محمد: «لقد ضاعت علينا فرصةُ استعادة المدينة مرّتين، الأولى وقت أنْ ثلمنا الأسوار وجاءنا الأمرُ بالتوقّف. والأخرى يوم أن هاجمنا المدينة من دون أدواتِ حصار».

عامر: «لا وقت الآنَ لتلك الآراء، فما كان قدْ وقع، وعلينا الآن أنْ نقوّي جانب الجيش ونرفع مِن معنوياته، لا أن نثبّطها».

وفي الجانب الآخر، كان أبو الحسن يتَشاور مع الوزير رضوان.

رضوان: «ما العمل يا سيدي؟ فقد علمتُ من الكشافة أنّ النجدة فى طريقها إلى القشتاليّين، وإن وصلوا فسنكونُ في حكم المُحاصَرين».

أبو الحسن: «يجب علينا أن نحاول محاولةً أخيرة لاقتحام المدينة وتحريرِها، وإلّا فسنغادر فورًا حتى لا نحاصَر فيها، اخرجْ يا رضوان واجْمع لي أفضل فرساني».

خرج رضوان وأتى بثلّة من أشجع فرسان غرناطة، فاصطفّوا في مواجهة الأمير أبي الحسن.

أبو الحسن: «جميعكم يدركُ صعوبة موقفنا، فالقشتاليّون بقيادة ملكِهم في الطريق إلينا، ولهذا أُريدُ منكم أن تشنّوا هجمة شديدة على الأسوار، ثمّ تفتحوا لنا الأبواب، علينا أن نستغلّ ظلام اللّيل لنستعيد المدينة».

ردّ أحدُ الفرسان النّجباء قائلًا: «ولكن يا مولاي، سيكون القشتاليّون لنا بالمرصاد، فهُم يترقّبون هجومنا دائمًا، فما الذي سيجعلنا ننجحُ الآن فيما فشلنا فيه طوالَ أيام الحصار!؟».

أبو الحسن: «علينا إنقاذ المدينة، وتجنّب اليأس، عليكم قبل أن تضعوا نصالَ سيوفكم على رقابِ عدوكم، أن تضعوها على عنق اليأس وتحزّوه حزًّا. ثمّ أكمل حديثه بنبرة صوت مختلفة قائلًا: «ثمّ لكي أُشغل القشتاليّين عن مكان تسلّقكم للأسوار؛ سأتظاهرُ بأنّني أشنّ هجومًا على المدينة من ناحية أُخرى، وبهذا سأصرفُ أنظارهم إليَّ، بينما تقتحمون أنْتم مِن ناحيتكم».

انحنى الفرسان دليلًا على الاستجابة واعتزام التّنفيذ، ثمّ انطلقوا ناحيةَ الأسوار، بينما انطلق أبو الحسن في اتّجاهٍ آخرَ من السور ليشاغل القشتاليّين.

ذهب الجندُ الغرناطيّون الشّجعان إلى أكثر مواضع الأسوار تحصينًا، وصعدوها بمساعدة متسلّقين مَهَرة ثبّتوا لهم أطراف الحبال أعلى الأبراج والأسوار، من دون أن يتنَبّه لهم أحد، ونجحت خطةُ أبي الحسن الأخيرة حيث استطاعَ أن يجذب إليه المدافعين، بينما تسلّق الفرسان الشّجعان الأسوار ليباغتوا القشتاليّين من ناحية أُخرى.

استطاعت تلك الفرقة أن تصعد السور، وكانت في نحو سبعين رجلًا، فتكتْ بالحرّاس القشتاليّين فورًا، وبدأت الفرقة بالتقدّم وتطهير الأسوار والهجوم على المدافعين، الذين انشغلوا بمقاومةِ

أبي الحسن، ثمّ توجّهت الفرقة إلى باب المدينة الرئيس، وقتلوا كثيرًا مِن حرّاسه وكادوا ينجحون في فتح الأبواب، ولكنّ أحدَ جنود القشتاليّين تمكّن من قرع أجراس الإنْذار فتنبّه المدافعون، وتقدّم دون ألونزو ودون بيدرو ليحاصرا المهاجمين ويطيحا بكلّ فارس منهم يحاولُ أن يقترب، ودارت رحى حربٍ غير متكافئة بين سبعين رجلًا مِن أشجع فرسان غرناطة وجيش مرتزق قوامُه عدة آلاف، وانتهت المأساة بقتل كلّ المهاجمين وإبعاد السلالم وجُزَّت الأعناقُ وأُلقيت الرؤوس تجاه أبي الحسن الذي كادَ قلبُه يتوقّف من الغيظ، وهو يشاهد بأُمّ عينيه رؤوس جنودِه يعبث بها القشتاليّون من وراء الأسوار المُسْتعصية، وبعد هذا العمل نالَ دون بيدرو لقبَ الشرف والفروسية من فرناندو الخامس الذي قدّر لو أنّ العرب نجحوا تلك الليلة في فتح الأبواب لنجح أبو الحسن، ولفشلت قشتالة في الاحتفاظ بالحامة التي كان الاسْتيلاء عليها أسهلَ بكثيرٍ من الاحتفاظ بها.

أدرك أبو الحسن استحالةَ استرداد المدينة في الوقت الحاضر، خاصّة مع توارد الأنْباء بقدوم فرناندو بجيشه، فأطاح أبو الحسن بخيامِه وتراجع عن الحصار، وأخذ بعَنان فرسه ناحية غرناطة تاركًا الحامة لمصيرها المحتوم، الذي كان هو مِن أهمّ أسبابه.

***

.١٠.

فشلتْ محاولات أبي الحسن لاسْترداد الحامة، ولكنّ محاولته جعلتْ فرناندو وإيزابيلا يفكّران في أمر المدينة الجديدة، وكيفية الحفاظ عليها وتأمين سلامة مَن فيها. لذلك وبمجرد استتباب الأمر في الحامة، قرّر الملكان الكاثوليكيّان أن يعقدا مجلسَ حرب، لتحديد ما يجب فعلُه في الحامة، ولمواجهة تطورات الوضع هناك، ولكبح جماح أبي الحسن إن فكّر مرةً أخرى في استعادتها. وفي قرطبة العظيمة التّليدة، تلك المدينة التي كانت من قبل مركزًا لقيادة الأندلس تحت الحكم الإسلامي، عقد الملك فرناندو الخامس مجلسَ حربه، وعلى رغم كون إشبيلية هي العاصمة القشتاليّة، فقد قرّرت إيزابيلا أن تكون انطلاقتها للحرب على المملكة الإسلامية في غرناطة من تلك المدينة العظيمة!

جمع فرناندو مجلس حربه، وعلى رأسهم مركيز قادش، ودون خوان دي فيرا، ولويس فرناندز بيترو كاريرو، وأمير البحر مارتن دييز دي مينا، وراح الجميع يتحدّثون عن نصر الحامة، وما فعلوه بجند أبي الحسن وكيف قَصَموا ظهرَ غرناطة، وماذا سيفعلون في مقبل الأيام، بدأ فرناندو الحديثَ فهبّ واقفًا في سعادة كبيرة، وتوجّه إلى مركيز قادش قائلًا: «لقد أنعمنا على مركيز قادش بلقب سيّد الحامة والزّهراء عرفانًا منّا بما صنع». فشكرَه مركيز قادش، وانحنى له إجلالًا وإكرامًا، وبعد ذلك طلب فرناندو إلى الحضور

أن يبدي كلٌّ منهم رأيَه في مستقبل الحامة، خاصّة وهي تقع في وسْط بلاد المسلمين.. فبادر دون خوان دي فيرا بالحديث قائلًا:

«أرى يا مولاي وجوبَ تدمير المدينة والقضاء على مظاهر الحياة فيها، ومن ثمّ تركها قاعًا صفصفًا، وذلك لأنّ المدينة تقع بين بلاد المسلمين، ولهذا فإنّ الحفاظ عليها سيكون باهظَ التكاليف، فهي تحتاجُ إلى حامية قوية وجيشٍ متأهّب للدفاع عنها متى استدعى الأمر، حتى لا يتكرّر ما أصاب جنودنا من حصارٍ وعطش مِن قبل».

استمع الملكان إلى كلام فارسهما المحبوب «دون خوان دي فيرا»، ولم يعلّقا عليه في انتظار رأي يوافق هواهما، لذلك نظرَ فرناندو إلى الجلوس منتظرًا رأيًا مغايرًا، فاسترقَ النظر إلى مركيز قادش لعلّه يتحدّث بما في نفس فرناندو، لكن مركيز قادش لم يتحدّث وظلّ صامتًا، لكن دون دييغو دي مرلو تحدّث قائلًا:

«أمّا أنا يا مولاي، فأرى أن نستغلّ ارتفاع معنويّات جنودنا بتوجيه ضربةٍ ذكيّة حاسمة أخرى في صراعنا مع المسلمين.. يجب علينا أن نستغلّ شعورنا بقوّتنا بعد فشل المسلمين في حصارنا في الحامة».

نظر فرناندو إلى بقيّة الحضور فرآهم موافقين لرأي دون خوان دي فيرا، وقبْل أن يتّخذ قراره إذا بإيزابيلا تتحدّث قائلة: «لقد استمعت إلى ما قاله الفارس الشجاع دون دييغو دي مرلو (مشيرةً

إليه بيدها اليسرى)، كما استمعتُ إلى رأي دون خوان دي فيرا، وإنَّ لي رأيًا أُحبّ أن تستمعوا إليه». (ساد الصمتُ الحضور في انتظار حديث الملكة، وتطلّع الجميع إليها وهي تقول: «كيف تريدوننا أن ندمّر أُولى ثمار نصرنا؟ أفنتركها للعرب؟ يجبُ عليكم أيها الفرسان الشجعان ألا تستحوذ عليكم تلك الآراء والأفكار الهدّامة، واعلموا أنّنا لو فعلنا ذلك لتسببّنا في رفع الروح المعنوية لهؤلاء المسلمين فيظنّون بنا الضعف أو الجبن ويتجرأون علينا».

(نظر الجميع إلى إيزابيلا بإعجابٍ وتقدير، بينما هي تتابع حديثها): «أمّا قولكم تكاليف الحرب، فهل رأيتم حربًا من قبل تخلو من تكاليف أو إراقة للدماء؟! وهل تظنّون أن جدران قلاعنا حجارة؟ لا.. إنها جدران مِن أشلاء الذين قدّموا أرواحهم وأجسادهم على مذبح السيادة والمجد. وهل تريدوننا أن نتراجع عن دفع كلفتها في اللّحظة التي نحرز فيها انتصاراتنا؟! والسؤال الآن وهو لكم جميعًا: هل نصون ثمار نصرنا أو نفرط فيها؟ دعوني أيّها السادة لا أسمع مزيدًا مِن هذا الهراء عن تدمير الحامة أو التنازل عنها مهما كلّف ذلك، وعليكم بدلًا من هذا أن تقوّوا حصونها المقدّسة، لتكون لنا معقلًا مقدّسًا وهبتْه لنا السّماء في هذه الأرض الشريرة المعادية، ولتكن كلّ محاوراتنا من الآن فصاعدًا هي في كيفية فتح المدن المجاورة لهذا المعقل الخطير واحتلالها».

أنهتْ إيزابيلا حديثها، بينما الجميع سكوت، فتحدّث فرناندو:

«أنا أُؤيد كلام الملكة، ولذا فإني أصدرتُ قرارًا بتعيين لويس فرناندز بيترو كاريرو سيدًا على الحامة، وأمرتُه بأن يسير إليها في ألفٍ من المشاة وينطلق لحمايتها والموت دونها». ابتهج لويس فرناندز بيترو كاريرو، وبادر بتقديم الوعود بالمحافظة على الحامة أو الموت دونها، وتابع فرناندو حديثه: «وعملًا برأي الملكة؛ فإني أبلّغكمَ جميعًا بنيتي في فتح (لوشة)، إذ يجب ألّا نعطي المسلمين فسحة من الوقت يلتقطون فيها أنفاسَهم».

قاطعت إيزابيلا زوجَها متسائلة عن سرّ اختيار لوشة دون غيرها؛ فقال:

«لأنّ المسلمين يطلقون عليها اسم (الأقصى)، وأنا أتوقُ إلى أخذ أقصاهم هُنا، مثلما أتشوّق إلى استرداد القدس منهم بعد سنين، كما يجبُ أن يعلم هؤلاء أنّ مهارتهم وبأسهم بينهم فقط! ولهذا فأنا أُحبّ أن أكسرهم في مدينة لوشة، حتى يعلم الجميع أن بطلَ المسلمين فيها قد هُزم، وإنْ هُزم بطلُهم فلن يبقى لهم أملٌ في البقاء في الجزيرة كلها».

تحمحَمَ مركيز قادش يريد الحديثَ فأشار إليه فرناندو أن افْعل، فقال المركيز: «علينا يا مولاي أن نتمهّل قليلًا في التّجهيز للحرب، حتى نُؤَمِّن الحامة جيدًا، ونعدّ لما بعدها بخطًى ثابتة، فقد بلغني يا سيدي من أحدِ جواسيسنا العرب الذين أثقُ بهم أنّ أمير غرناطة،

قد أرسل رسلَه إلى عدوة المغرب مستنجدًا بهم لاسترداد الحامة، لهذا ألحّ عليك يا مولاي أن تتمهّل في غزوتك تلك حتى نثبت أقدامنا في الحامة أولًا».

فرناندو: «اسمعني يا رودريغو، بل استمعوا إلي جميعًا، وانقلوا كلماتي تلكَ إلى كلّ قشتالة، بل إلى كلّ أوروبا. قولوا لهم: لقد ولّى ذلك الزمن إلى غير رجعة، ولن يسمحَ الملك فرناندو الخامس للمغاربة المور بأنْ يدخلوا إلى الجزيرة مرةً أُخرى». ثمّ نظر إلى مركيز قادش، وقال: «لا تقلقْ على الحامة أيّها المركيز، فلن يجرؤ العرب على الاقتراب منها بعد الذي فعلتَه بهم أيّها البطل. والآن على جميع المدن في قشتالة وأراجون أنْ تستعد وتحشد للحرب: سانتياغو، وطليطلة، وسان جون، وشلمنقة، وسرقسطة، ومرسية، وكلّ شبر في المملكة. أرسلوا إليهم أن يزوّدوا الجيش الذي سيحاصر لوشة بكلّ ما يحتاج إليه من مؤنٍ ومواد لازمة، خصوصًا معدّات تدمير الحصون وبارود المدافع. نعم، ذلك عهدٌ قد ولّى، ففي زمن جدّنا ألفونس السادس، كانت قشتالة وأراجون لا أُسطولَ لديهم ولا منفذَ على البحر المتوسط، أمّا الآن فلدينا أُسطولٌ قوي يستطيع التحرّك وضرب السواحل المغربية ذاتها، ومنع أي نجدات تأتي منها».

إيزابيلا: «إنّ أبا الحسن يحلم».. (قهقت ثمّ أكملت): «لقد انقطعت به الأسباب في شبه الجزيرة، ومن الآن عليه أن يواجهنا بمفردِه إن استطاع!».

فرناندو: «نعم، لقد تقطّعت به الأسباب، وإني لسعيدٌ باستيلاء مملكة البرتغال على مدينة سبتة، تلك المدينة التي طالما اتّخذها المسلمون قاعدة ومنطلقًا لغزو بلادنا».

إيزابيلا: «البرتغال تمتلكُ مدينة سبتة، ونحن نسيطرُ على مدينة جبل طارق».

فرناندو (ولمزيدٍ من الاحتياط) اتّجه ببصره ناحية أمير البحر قائلًا:

«يتحرّك الأدميرال مارتن دييز دي مينا بأُسطوله إلى مدينة جبل طارق، ويمنع عبورَ أي سفينة من المغرب إلى غرناطة، أمّا القائد كارلوس دي فاليرا فعليْه أن يمسح شواطئ إفريقية من جهة المغرب، ويقوم بإغراق أيّ سفينة تُبحر منها، وعلى القادة إثارة الرّعب في المدن المغربية الساحلية حتى لا يفكّر أحدهم في إنجاد الأندلس، ويظلّ همّهم ومحور فكرهم حماية أنفسهم فقط».

مارتن دييز دي مينا: سنحرقُ أي سفينة تفكّر في أن تولّي وجهَها شطر أيٍّ من شواطئنا (وأومأ برأسه إلى الأسفل).

***

في نهاية يونيو، تحرّك فرناندو بجيشه الكبير، بمرافقةٍ مِن كبار الأساقفة والملكة إيزابيلا، ومعه أيضًا أخوه غير الشرعي «ألونزو أوف أراجون دوق فيلاهيرموسا» ومجموعة من قادته، وهو لا يشكّ

لحظة واحدة في تحقيقه نصرًا يأخذ العقول ويخطف القلوب، لذلك لم يهتمّ فرناندو لسريّة غزوته تلك، فعلمَ بها القاصي والداني. تحرّك الجيش من دون أيّ دراسة للموقف المقبل، والغرور يقودُهم، بلْ إن الغرور في ركاب مليكِهم لدرجة أنّ فرناندو كان على ثقةٍ بأن المسلمين سيتركون «لوشة»، ويفرّون على وجوههم حينما يعلمون بوجودِه على رأس ذاك الجيش المقبل عليهم، لذا فقد تحرّك هذا الجيش من دون أدنى احتياطٍ أو خطة مدْروسة، حتى وصل إلى أسوار لوشة، ثمّ ومِن دون أي ترتيب أو تخطيط أمرَ فرناندو بنصْبِ خيمته الملكية الكبيرة وسط غابات الزيتون الكثيفة، في تربةٍ متعرّجة على شاطئ نهر شنيل، ثمّ قام فرناندو بتوزيع قوّاته بين أغصان أشجار الزيتون، التي شكّلت عائقًا دون نجدة الفرق بعضها لبعض، كما أنّ نهر شنيل في هذا الوقت من العام كان يفيضُ بالمياه، وبالتالي مثّل عبورُه مهمةً شاقة على القشتاليّين. وعلى رغم تنبيه ألونزو أوف أراجون لفرناندو بخطأ اختيار مكانِ المعسكر وإضافته أنّ وضع المدفعيّة لن يكون في مصلحتهم، لم يهتمّ فرناندو بكلّ هذا وظلّ واثقًا بانتصاره وقدرات جيشه، فتقدّم منه أخوه غير الشرعي ألونزو أوف أراجون مقترحًا أنْ يقيم الجيش عددًا من الجسور على النهر، وذلك لأنّ الضفتيْن هنا عاليتان، وقاع الماء عميق ممّا يصعب على الفرسان خوضَ النهر.

رفض فرناندو أيّ تغيير في خطته، مبررًا ذلك بأنّ تغيير الموقع سيكون له مردودٌ سيئ على الجنود، الذين ربما يستشعرون القلق

بتنقّلهم، وأنّه لا يريد أن تؤثر قراراتُه في روحهم المعنوية العالية جدًّا، وأمّا الجسر فسوف يأمُر بتركيبه، ثمّ توجّهَ ببصره ناحية مركيز قادش قائلًا: «أريدك أن تنظرَ إلى أفضل مكانٍ لإقامة الجسر الذي ستعبرُ عليه قواتي لأخذِ المدينة».

سمع مركيز قادش كلامَ سيده، وخرج لدراسة الموقف من قُرب، وجلس فرناندو يدرس كلامَ قادته، فلاحظ صدقَ قولهم، وسوءَ المكان الذي نزلت فيه قواتُه، ولكن كان الوقت قد فاتَ للتغيير، لذلك أراد فرناندو أن يعالج الموقفَ باحتلال مرتفعات البهاقين، وقطع طريق الهجوم على العرب المسلمين، ثمّ خاطب نفسه بحديثٍ مسموع قائلًا: «لن تتوقّف الحرب حتى أقطف ثمرات غرناطة حبّة حبّة، وأجرّد غصونَها ورقةً ورقة، لقد طالَ خريفُكِ يا غرناطة، ولكنْ مهما طالَ فلن ترقبي ربيعَك مرةً أخرى.. بالأمس الحامة، واليوم لوشة».

سُمعت أصواتُ أقدام آتية، ودخل الحارس قائلًا: «مركيز قادش يستأذنُ للدخول يا مولاي».

فرناندو: «ائذن له».

دخل مركيز قادش، وعلى وجهه سماتُ التّوتر.

فرناندو: «ما بك قد عدتَ بوجهٍ غير الذي خرجتَ به؟».

مركيز قادش: «لقد أنهيتُ تقريري يا مولاي، وحدّدت لك مواقعَ بناء الجسور، لقد تفحّصت كلّ فرق الجيش، ولاحظت أنذ الجنود بروح معنوية عالية جدًّا، حتى إن بعضَهم يتحدّث عن نصيبه في الغنائم منذ اليوم، فهُم يرون أنّ المسلمين سيفرّون أمامهم قبل أن تبدأ الحرب».

فرناندو: «مممممم.. تلك الروح المعنوية أيّها المركيز نتاجُ سيفك وصدَى نصرك العظيم في الحامة! لقد سطّرت بسيفك فصلًا مجيدًا في تاريخ هذه الجزيرة التي ستتطّهر قريبًا من الغُزاة العرب».

مركيز قادش: «فرقٌ كبير يا سيدي بين الروح المعنوية العالية والغرور، وإنّي لأخشى مِن نتيجة ما أرى».

فرناندو: «أعلمُ رجاحةَ عقلك يا رودريغو، وبُعْدَ نظرك، لكنْ هذا يتنافى مع ما تقوله الآن!»

مركيز قادش: «كيف ذلك يا سيدي؟».

فرناندو: «إنْ كان بضع مئات من جيشنا العظيم قد اسْتطاعوا احتلال الحامة، فكيف بجيشنا هذا! كيف يُخشَى عليه يا رودريغو؟! إن جنودنا لهم كلّ الحق إن كانت روحُهم المعنوية مرتفعة، أو حتى لو كان ذلك غرورًا. لقد انتهت دولة الإسلام في الأندلس، وهذا خريفُها نشهده الآن».

مركيز قادش: «أرجو المعذرةَ يا سيدي، فلربّما أسأت تقديرَ الموقف».

فرناندو: «ما فعلتَ في الحامة يغفرُ لك، والآن أكملْ تقريرك».

مركيز قادش: «لقد لاحظتُ، وأنا أتفحص المواد الأساسية الخاصة بجيشنا نقصًا في الخبز المعدّ لإطعام الجند، وذلك بسبب تعجّلنا يا مولاي، فلم يُبْنَ أيّ فرن إلى الآن، على رغم وجود الدّقيق، ولهذا أمرت أن يتمّ استعمال الفحم بدلًا من الأفران للخَبْز».

فرناندو: «أحسنتَ صنعًا».

خرج فرناندو وخلفَه مركيز قادش من خيمتِه ليشاهدا المعسكر من كثب، وثبَّت فرناندو بصرَه ناحية أحدِ المرتفعات القريبة قائلًا: «أيّها المركيز، هل مشّط جندك تلك المرتفعات؟».

مركيز قادش: «لقد حدثَ يا مولاي، ولكنّ بعض تلك المرتفعات بيدِ المسلمين».

صمت فرناندو برهة ثمّ قال: مُرْ ثُلة من أفضل مقاتلينا، أنْ يستولوا على ذاك المرتفع، (وأشار بيده إلى مرتفع البهاقين)، يجبُ علينا أن نؤمِّن المعسكر باستيلائنا عليه».

مركيز قادش: «سأختار أفضلَ الفرسان لذلك يا مولاي».

فرناندو: «أتذكرُ يا رودريغو كيفيةَ أخذك للحامة؟».

مركيز قادش: «تلك وقعةٌ لا تُنسى يا مولاي».

فرناندو: «إذًا، افعل بهذا المرتفع فعلتَك بالحامة، انطلقْ بنفسك على رأس فرقة مُختارة، وسيطر على المرتفع وأمّنه، وخذْ معك مركيز أو فيلينا ودون رودريغو غيرون وأخاه كونت أوف يورينا».

مركيز قادش: «سأفعل يا مولاي».

انطلق مركيز قادش، وجمع بعضَ الجند المميّزين جدًّا في القتال، وسار بهم تجاه المرتفع ليحتلّه.

***

أمّا في داخل لوشة فقد كان حاكمُها، علي العطّار الذي تجاوز التّسعين، والد مريمة، يدرس أخبار الجيش القشتالي بكلّ دقة وحزم، وهو الخبير المجرِّب الذي اشتعل رأسُه شيبًا وهو يحارب القشتاليّين وينتصر عليهم، لذلك وبمجردِ وصول الأخبار إليه بقرب هجوم القشتاليّين؛ سارع بشحن المدينة بالمؤن والعتاد، وعجّل في حصد المحاصيل استعدادًا لحصار طويل، ولم ينسَ بعد ذلك أنْ يرسل إلى غرناطة لطلب النّجدات. وبمجرد وصول جيش القشتاليّين أغلقت أبوابُ لوشة، وزاغت الأبصار تنظرُ إلى الجيش الغازي من كثبٍ وتراقبه. ومن أعلى برجٍ في المدينة، راقبَ علي العطّار الموقفَ بحرص شديد وحذرٍ عميق، ومعه ثلّة من أخْلص رجالِه منهم غالب البيّاسي كبيرُ جنوده، وبخبرته الطويلة استطاع العطّار أن يلاحظ سوءَ اختيار الجيش القشتالي لموقعه، وكيف لا! وهو

الحافظ لكلّ ذراع من تراب لوشة، كما لاحظ ببصره الحادّ حفلات الرقص والطّهي القائمة في معسكر القشتاليّين، فقال في نفسه من دون أن تتحرّك شفتاه: «إنّ السهولة التي احتل بها القشتاليّون الحامة هي السببُ فيما يفعلون الآن! مِن الواضح أنّ هذا الملك قد أخذَه الغرور، وإلّا ما أقام معسكرَه بهذا الشكل في هذا المكان». وأكمل العطار: «يجب إذًا أنْ نستغلّ غرورهم ونحوّله لمصلحتنا. يجب أن يعلمَ فرناندو أنّ للمسلمين رجالًا لا يعرفون الهزيمة».

أمسك علي العطّار رمحَه وهزّه في يده هزّةً شديدة. وهنا قطع غالب البيّاسي استغراقَ العطّار في تفكيره وقال: «منذ ساعات يا مولاي وأنتَ تراقب تحركاتهم، ألَا تأخذ قسطًا من الراحة؟».

علي العطار: «حُقَّ على مَن تولّى ثغرًا من ثغور الإسلام ألّا ينام ولا يرتاح، وعدوُّه متحفّز له. لن ينام جسدي قبل أن تأمن لوشة، ويذهب القشتاليّون إلى الجحيم».

غالب البيّاسي: «سيحدث يا مولاي، وسيرى القشتاليّون أنّ لوشة تختلف عن الحامة، وسترى أنتَ مِن رجالك ما يسرّك».

علي العطار: «أنا لا يسرّني يا غالب سوى أن أرى هلاكَ هؤلاء». (واتّجه ببصره مرة أُخرى ناحية القشتاليّين، ثمّ التفت ثانية إلى غالب): «هل أرسلتم إلى الأمير أبي الحسن تُطْلعونه على ما يجري، وتطلبون منه المددَ بالجُند والعتاد؟».

غالب: «قد فعلتُ يا مولاي منذ اليوم الأوّل للحصار، إذ انتَخبتُ أفضلَ فرساني، وأمرتُه ألّا يترجّل عن ظهر جواده حتى يصلَ غرناطة، ويخبر أميرَ المسلمين بما يحدث، وبعدوانِ قشتالة وملكِها علينا».

علي العطار: «خيرًا فعلت. (ثمّ لمعت عيناه ويقول): «انظر!». (وأشار بيديه ناحية مرتفع البهاقين).

غالب: «إنّهم يتّجهون إليه لاحْتلاله».

علي العطار: «بعون الله سأُلقّن هؤلاء المغرورين درسًا لن ينسوْه، وسأجعلهم يفيقون مِن غرورهم. إنّهم يحاصروننا منذ أربعة أيام، وما توقّعت منهم خطأ كهذا»، (ثمّ نظر إلى غالب متابعًا): «اتبعني إلى أسفل».

وفي أسفل القلعة، اجتمع العطّار مع قادة جيشه المكوّن من ثلاثة آلاف فارس، وقال: «إن القشتاليّين قد أيقنوا بضعفنا، فاستولى عليهم الغرور، فجاءوا إلينا، يريدون أرضنَا التي لا نعرف ولا نألف أرضًا سواها، إنّني قد جاوزت التسعين من عمري، وأنا أُدافع عن ترابِ هذه الأرض، ولم أكلَّ يومًا أو أنشدُ الراحة، ولو أنّ الله مدّ لي عمري فسوف أُقاتل عن ترابِ أرضي، وسأحمي ديني بآخرِ قطرة من دمي. إنّني أطلب منكم جميعًا أن تجدّدوا نيّاتكم وتحتسبوا جهادكم وقتالكم وسهرَكم في سبيل الله، فالعينُ التي تبيتُ حارسةً في سبيل الله لا تمسّها النار في الآخرة، ولا يمسّها الذّل في الدنيا».

أنصتَ الجميع، بينما ألهبت مشاعرهم كلماتُ أميرهم علي العطّار الذي شقّ الزمن في وجهِه أخاديد، وقد حفرَ بصماته على جسمه التسعيني (ثمّ أمضَى العطّار في كلامه، وقال:

«لقد كنتُ وأنا صغير أعملُ بدكّان عطارة والدي- رحمه الله- وكان يأمل مني وقتَها أن أصبح طبيبًا ماهرًا، ولكني تركتُ الطبّ وانخرطت في صفوف المجاهدين، أُدافع معهم عن وطني وديني. إنّ سقوط لوشة اليوم سيحوّلنا إلى رقيقٍ عند القشتاليّين، وسيجعل نساءنا سبايا لهم، وسيجعل أولادنا خدمًا لنسائهم، إنّ سقوط لوشة معناه أن يصير مسجدُها الجامع كنيسة، وأن يعلو الجرس ويسقط الأذان، وإنّي أُفضّل الموت ألفَ مرة على أنْ أسمع الأجراس تدقّ من فوق منارة مسجد لوشة الجامع.

وما كادَ علي العطّار ينتهي من خطبته حتى تحدّث غالب، وقد شخصتْ عيناه حنقًا على العدو.

غالب: «نحن رهنُ إشارتكم سيدي، فمُرنا كي ننقضّ على معسكرهم، لنقتلهم أو نُقْتلَ دونهم، أرواحنا فداءُ ديننا يا سيدي».

علي العطار: «أنا لا أُريدُ موتكم يا غالب، فمَن للأندلس إن فقدتْ رجالها!؟ ولكني أُريدُ الإخلاص وحسنَ النية في الجهاد، (ثمّ نظر في وجوه قادته): «لقد راقبتُ الموقفَ من أعلى الحصن، ووضعتُ خطتي للقضاء على القشتاليّين وملكهم المتغطْرس، والآن أُريدُ منكم متطوّعين لمهمة خارج الأسوار، مهمة سأكون فيها القائد»، (يتكئ

العطّار على سنّ سيفه وأكمل): «لقد اقترف القشتاليّون أخطاء جسيمة، أظنّها بدافع الغرور، ممّا جعلهم يلقون بزهرة فرسانهم إلى مرتفع البهاقين لاحتلاله، متوهّمين بذلك أنّهم سيؤمّنون معسكرهم الواهي، لذا علينا أن نستغلّ هذا الخطأ بأسرع وقتٍ ممكن. لهذا سأخرج أنا مع جزءٍ من الفرسان المتطوّعين إلى المرتفع، وعليكم أنتم أنْ تؤمِّنوا ظهورنا وتحْموا أسوار المدينة وتترقّبوا عودتنا، وسأترك عليكم غالب البيّاسي فاسْمعوا له وأطيعوا».

ومع دخول الليل، خرج علي العطّار وجزءٌ من جيشه حاملين سيوفَهم ورماحهم الطويلة، وقد كان خروجُهم من المدينة في اليوم الرابع للحصار. كان العطّار يحاول ألّا يثير الأتربة حتى لا يتنبّه القشتاليّون لموقعه، فيتأهّبوا للدفاع عن أنفسهم أو الهجوم عليه، وكانت الخطة أنْ يتوهّم القشتاليّون أن ذلك كلُّ جيش لوشة، وعندها سيجتهدون في القضاءِ عليه من دون أخذِ الحيطة والحذر من الكمائن، لذلك قسّم العطّار فرقته إلى جزأين قادَ هو أحدهما وهو المهاجم للقشتاليّين، ووضع على الفرقة الثانية جنديًّا يعرف رأيَه وبأسه، وبمجرد اقتراب الجيش من القشتاليّين تعالت الأصواتُ مردّدةً: «الله أكبر.. الله أكبر»، وهجم العطّار وجيشُه هجمةً سريعة على جيشِ فرناندو، فأودوا بالكثيرِ من أبطاله صرعى وقتلى، حتّى أذهلت المفاجأة جيش القشتاليّين، فهلك منهم الكثيرُ قبل أن يستلّوا سيوفهم، ثمّ بدأ القشتاليّون يستجمعون قُواهم وذهبت عنهم

المفاجأة، وعندها انسحبَ العطّار متظاهرًا بالهزيمة، فارتفعت الرّوح المعنوية للقشتاليّين وقرّروا ركوبَ ظهور المسلمين الذين فرّوا تجاه أبواب لوشة. انسحب العطّار ناحية لوشة حتى إذا ضمن ابتعاد القشتاليّين عن خيامهم بمسافة كافية، توقّف واستدار بجيشه وكرّ عليهم، وما هي إلّا لحظات حتى خرجت بقيةُ الجيش من الأكْمنة، فوقع القشتاليّون بين فكّي الرّحى، وتفشّى فيهم القتل والجرح، وعلتِ الأصوات واخْتلطت وتزلزلت الأرضُ من تحت أقدامهم، وصلصلتِ السيوف وصهلتِ الخيول وتكاثفَ الغبار منذرًا بوقوع حربٍ ضروس، مالت كفتها تجاه مَن أخذ الحيطة ولم يغترّ بنفسه أو جيشه. استمرّ القتال نحو الساعة من الزمن، تخضّب فيها مرتفع البهاقين بدماء القشتاليّين الذين حصدَهم العطّار وجيشُه من كلّ حدبٍ وصوْب، قبل أن تجبره تعزيزاتٌ إضافية إلى القشتاليّين على التّراجع إلى أسوار لوشة، التي ما كاد يدخلها بجيشه حتى أُوصدت أبوابُها، بينما رماةُ الأسهم كانوا فوق الأسوار والأبراج لاصْطياد مَن يتقدّم من القشتاليّين أو يلاحق جيشهم وقائدهم، أمّا في معسكر فرناندو وإيزابيلا، فقد خيّم الحزن لفقدان رودريغو تلز غيرون، الذي سقط عن ظهر جوادِه مصابًا بسهمٍ شقّ صدره فأرْداه قتيلًا، وعندها فهِمَ فرناندو رجاحةَ نصائح مركيز قادش، وأدرك أنّ قواته غير مؤهّلة لأي هجوم مفاجئ، وأنّ الاستمرار في الحصار على هذا الوضع السيئ سيكلّفه حياة أفضل جنده، إذا لم يكلّفه هزيمة كاملة

بحالِ وصول تعزيزات للمسلمين من غرناطة القريبة، ولذلك فقدْ طلب فرناندو اجتماع مجلس حربٍ مساء ذلك السبت حيث قرّروا سحب الجيش في الصباح والعودة إلى قرطبة.

***

وفي داخل لوشة، لم يخلع علي العطّار ملابس الحرب، بل جلس يفكّر في الجولة المقبلة، وبينما هو كذلك دخلَ عليه أحدُ الجند قائلًا: «لقد وصلت التعزيزات من غرناطة يا سيدي، إذْ وصل جيشٌ يتجاوز عددُه ألفي مقاتل». تنفّس علي العطّار الصُّعَداء، وشعر بقرب النّصر المبين على القشتاليّين؛ فصاح بصوتٍ مجلْجِل: «الله أكبر ولله الحمد.. فألٌ حسن يعزّز من موقفنا ويُرهب أعداء الإسلام، لقد انتهى الحصار ولله الحمد، ولن نسمح لهم بأن ينسحبوا قبل أن نُصْليهم نارًا حتى لا يفكّروا في غزونا مرةً أخرى، يجب علينا الاسْتفادة من نصرنا ومِن التّعزيزات، كما يتعيّن علينا الاستفادة من الهزيمة المعنويّة التي يعيشها ملكُهم الآن، لذا سنهاجمهم وهُم يهدِمون خيامهم، مع أوّل خيطٍ من خيوط الفجر.

لم يكدِ الصّبح يتنفس، حتى خرج علي العطّار بجيشه مدعومًا بالتعزيزات التي أرسلها أميرُ غرناطة، فهاجم بجزءٍ من جيشه مَن تمسّك بالبهاقين من القشتاليّين الذين لم يكنْ معظمهم يعلم بأوامر الانسحاب، فجزعوا وراحوا يتراجعون في فوضى مدمّرة، وفرّ معظمهم من أرض المعركة وهُم يثيرون الذّعر والفوضى في

المخيّمات حتى وصلوا بذعرهم ورعبِهم إلى صخرة العشّاق التي تبعد عشرين ميلًا عن مدينة لوشة!

أمّا فرناندو وقوّاده فقد أدركوا أنّهم في وضع حرج جدًّا، لهذا استصرخ فرناندو مَن تبقّى مِن جيشه أن يحميه وإيزابيلا، فاجتمع مِن حوله أجنادُ قشتالة، وأصدر الأوامر بهدْم الخيام وانسحاب المدفعية، فإذا بهم ينْسحبون إلى أرضٍ مرتفعة، فيصير الملك وحاشيته وجنوده في مرمى مدفعيّة المسلمين.

وعبثًا حاول القشتاليّون أن يصدّوا هجوم المسلمين بكلّ يأس، كما حاولوا الدفاعَ عن مليكهم، وأوشكَ المسلمون على محاصرة فرناندو، ومع الوقت ازداد عددُ المسلمين المهاجمين، وكادوا يصلون إلى فرناندو لوْلا أنْ أنقذه ألدون خوان دي ريبيرا.

أمّا مركيز قادش، فقد كان يراقب الموقفَ من بعيد، ويرى ما يحصُل في ملكِه، ولهذا فقد جمع نحو سبعين فارسًا، وانطلق بهم إلى قلب المعْمَعة لحماية الملك والذّود عنه، واستطاع بعد أن قُتل معظمُ جنوده أن ينقذَ الملك وينسحبَ به إلى مكان أقلّ خطورة، وهكذا نجح المركيز في إنقاذِ الملك من حافّة الهاوية، بعد أن هلكَ معظم الجيش، واغتنمَ المسلمون الكثيرَ من مدفعية العدوّ وسلاحَه وعتاده، وأمر علي العطّار بمطاردة فلولِ الجيش المهزومِ إلى أحواز قرطبة.

***

الفصل الثاني

سقط علي العطّار شهيدًا رافضًا للاستسلام، مفضّلًا الموت على ذلّ الاستعباد والهزيمة، وفوْر استشهاده تدحْرجت جثّته (رحمه اللّه) إلى النهر ليبتلعها من فوْرِه، ويسحبها التيار من دون أنْ يتمكّن أحدٌ من العثور عليها.

أمامَ المرآةِ، وقفت «ثريا» تتأمّل جمالها ومفاتنها، وهي تتذكّر أيامها الخوالي في حصن الزهراء، حينما كان شبابُ الحصن يتهافتون على النّظر إليها، وينتظرون منها مجردَ نظرة عطف أو إشارة أو حتى ابتسامة عابرة. تذكّرتْ تلك الأيام وكأنّها الحلم الذي مرّ بحياتها مرور السحاب. انسحبت بعد ذلك من أمام المرآة وجلست على كرسي فخْمٍ في جناحها بالحمراء، وراحت تندبُ حظّها كيف وهي الشابّة الجميلة.. كيف تزوّجت من هذا الكهل، وأفنَتْ ريعان شبابها معه. هل هذا القصرُ الرائع سيغنيها عمّا تكابده؟ ماذا لو مات أبو الحسن؟! هل سأبقى هنا، أم تطردني عائشة وتنكّل بي انتقامًا ممّا كان بيننا؟ وهل سينسى ابنها إنْ تولّى العرشَ مكان أبيه ما فعلتُه بوالدته، وبه، وبإخوته؟ قطعًا لن ينسى، وربما ينتقم مني ويطردني، فلا أكون قد استمتعتُ بشبابي، ولا استرحت في كبَري، ولا حتى استفدتُ من هذه الزيجة! جلست «ثريا» تفكر، وأوصلها تفكيرُها إلى وجوب التخلّص من عائشة وجميع أبنائها. وقالت: «يجب ألّا تكون عائشة وولداها على قيْد الحياة عندما يموت أبو الحسن. يجب أن يكون ابني سعد هو وليَّ العهد مكان أخيه». وهكذا توصّلت «ثريا» إلى ما يضمن لها البقاءَ في الحمراء أبدَ الدّهر، وقرّرت أن تعمل

بكلّ قوة على التخلّص من هذه الأسرة، مستفيدةً من صغرها وجمالها ومكانتها في قلب أبي الحسن.

ومع مرور الأيام، سيطرت «ثريا» على قلب أبي الحسن، ثمّ ما لبثت أن أغْرته باضْطهاد عائشة وأبنائها وإبعادهم عن كلّ نفوذ وحظْوة بعد أن همستْ في سمعه وأقنعتْه بأنّ هناك مؤامرة تدبَّر ضده. حاول أبو الحسن- في بادئ الأمر- أن يتجاهل هذا الكلام ويستهزئ به، لكن «ثريا» استفادت من القطيعة بين أبي الحسن وزوجته وولّي عهده، وراحت تدسّ له كلّ ما يثير القلق في قلبه والريبة في عقله، ممّا حدا الأمير الكهْل على أن يراقب عائشة وأبناءها، ولكنه لم يصل إلى شيء.

لم تيأسْ «ثريا» ولم تفتُر همّتها، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها واستكان لرغبتها، وأقصى عائشةَ وولديْها عن كلّ عطف ورعاية، ثمّ ضاعفت «ثريا» سعيها ودسّها، حتى أمر السلطانُ باعتقالها، وزُجّت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش، أمْنعِ أبراج الحمراء، وشدّد في الحجْر عليهم، وعوملوا بأقصى الشدّة والقسوة.

أثار هذا التصرّف غضبَ الكثير من الكُبراء الذين يؤثرون الأميرة عائشة وولديها بعطفهم وتأييدهم، وكان هذا نذيرَ الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي. وانقسم الزعماءُ والقادة إلى فريقيْن خصيمين، أحدهما يؤيّد الأميرة عائشة الحرّة وولديها، والآخر يؤيد السلطان وحظيّته «ثريا». واستأثر الفريقُ الأخير بالنفوذ والقوّة

بمرور الوقت، وتصادمت الآراء، واضطرمت الأهواءُ والشهوات والأحقاد، واشتدّ السخط على أبي الحسن وحظيّته التي أضْحت سيدة غرناطة الحقيقية، فراحت تأمرُ وتنهى، وتتلذّذ برؤية عائشة وولديها في برج قمارش.. ثمّ راحت «ثريا» تغري خدمَها بمضايقة عائشة والسّخرية منها، ولم تكتفِ بذلك؛ بل ذهبت في طغيانها إلى أبعدِ حدّ، فحرّضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبد الله، الذي كانت تعتبره حجرَ عثرةٍ في طريق آمالها؛ فقد كانت «ثريا» ترى في وجودِ محمّد ابن عائشة على قيد الحياة تدميرًا لأحلامها.

كانت الأميرة عائشة امرأةً وافرةَ العزم والشَّجاعة، فلم تستسلم لواقعها الجائر، بل عمدَت إلى الاتّصال بعُصبتها وأنصارها، مُستعينةً ببعض خدمها الموالين ومحبّيها المخلصين لعهدها، وعن طريق الخدم نجحت عائشة في التواصل مع بني سراج أقوى أُسرِ غرناطة، وأخذت تدبّر معهم وسائلَ الفرار والمقاومة، ولم يغفر السّلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قطّ؛ فعمدَ فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في أحد أبهاء الحمراء. وبخاصة لمّا وقفت من خلال أصدقائها على نيّة أبي الحسن، فقرّرت أن تبادر بالعمل، وأنْ تغادر قصر الحمراء مع ولديْها بأي وسيلة.

وفي ليلة من ليالي جُمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) وكانت ليلةً معتمة، استطاعت الأميرة أن تفرّ مع ولديها محمد ويوسف بمعاونةِ بعض الأصدقاء المخلصين، الذين كان بعضُهم ينتظر مع

الجياد على مقربةٍ من الحمراء على ضفة النّهر (نهر حدرُّه) ممّا يلي برج قمارش، استعانت عائشة بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشّاهق في جوْف اللّيل، وهبطت بعد أنْ أدلت بولديها، ثمّ اختفى الجميع تحت جُنح الظلام.

كانت مغامرةً كبيرة من عائشة، وكان منظرُها وهي تتسلّق الأسوار يثيرُ في النفوس الإكبارَ لهذه السيدة الشجاعة التي فعلت ما لا يستطيع كثيرٌ من الرجال فعلَه.

وهكذا استطاعتْ هذه الأميرةُ الباسلة أن تفرّ من محْبسها في إقدامٍ وجرأة خليقَين بأبطال الرجال، واختفى الفارّون حينًا في حيّ البيازين وسط أنصارهم، وفشلت مساعي الملك الشيخ في العثور عليهم.

ظلّت عائشة وولداها متخفِّين وهُم يبثّون في الشعب نواياهم، مردّدين أن الملك الشيخ قد ذهب عقلُه، ولم يعدْ يصلح للحكم بعدما تحكّمت فيه وفي مصير غرناطة، بل وفي كلّ مصائر الشعب الغرناطي؛ جاريةٌ قشتاليّة من سنّ بناته. وعملت هذه الدّعوات في الشّعب أيّما عمل، فحفّزت عاطفته، وأيقظت حميّته، وانتقلت تلك الدّعوات من مجلس إلى مجلس، ومن دارٍ إلى دار، حتى قويت الدّعوة وانضمّ إليها كثيرٌ من أهل غرناطة، وكان اسمُ عائشة ورفيعُ شِيَمها، وقصة فرارها الجريء، تثيرُ في كلّ مَن يسمع بها كلّ عطف وإعجاب.

وبعد مرور فترة مناسبة من الوقت كان كافيًا لذيوع الدعوة في كلّ ربوع غرناطة، ظهر ولدُ عائشة الأمير الفتى أبو عبد الله محمد في وادي آش؛ حيث مَجمع عصبتِه وأنصاره، وهو يدعو لنفسه بوصفِه الحاكم الأوْلَى، وبأنّه المنقذ المقبل لغرناطة، والحافظ لها من مستقبلٍ مجهول تصنعُه هذه الجارية القشتاليّة العنيدة المدعوّة «ثريا».

كان السلطان أبو الحسن وقتَ فرار الأميرة وولديها بعيدًا عن غرناطة، وكانت الحوادث تسير بسرعةٍ مؤذِنةً باضطرام عاصفةٍ جديدة. وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكِه حتى تجهّم الجوّ من حوله وتلبّدت غيومه. وكانت سياستُه الداخلية قد أثارت حوله كثيرًا من السّخط، على الرغم ممّا أحرز من نجاح، كما كان وجود وزيره رضوان بنغيش في رفقته يثيرُ عواصف من السّخط على هذا الملك الشيخ، فقد كان رضوان ظالمًا غشومًا.

تهيّأت غرناطة للثورة التي اشتعلت في كلّ أرجائها، وراحت نُذُرُها تدقّ باب الحمراء، وتزعج مسامعَ أبي الحسن الذي لم يستطعْ وصحبُه مواجهةَ العاصفة؛ ففرّ الملك الشيخ إلى مالقة تحت جنح الظلام، وكان بها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد، المعروف بـ «الزغل» أي الشجاع الباسل، وبهذا خلتْ غرناطة وتهيّأت لملك جديد هتفَ باسمه الناسُ في كلّ ناحية من غرناطة.

عاد محمد بن علي من وادي آش يحفّ به حرّاس من أخلَص أصحابه، حتى إذا ولجَ بابَ غرناطة التفّ الشعب حوله، وهتفت

الجموعُ باسمه وحملوه إلى قصر الحمراء ملكًا عليهم مكانَ أبيه (أواخر سنة ٨٨٧ هـ). وأطاعته غرناطة ووادي آش، وأعمالُها. وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه، وكان أبو عبد الله يومئذ شابًّا في نحو الخامسة والعشرين، وهكذا انشقّت «الرمانة»، وانفرطت حبّاتها، وبدتْ كأنّما دنا خريفُها وصار قابَ قوسين، وأصبحت الدويلة الصغيرة متقطعةَ الأوصال، وصار الشعبُ الغرناطي يبحث عن حقيقةِ ما كان!

اجتمع الأصدقاء الثلاثة محمد وعلي وعامر- كعهدهم- تحت شجرة الرمان على حافة نهر شنيل، يتلقطون الأخبار، ويناقشون الأحداث، بينما المارّة يذرعون الطرقاتِ في حيْرة وخوف، وأوراق الأشجار تتساقط من فوقهم لتدور مع حركة الهواء قبل أن تحطّ على الأرض.

التفت عامر إلى مسجد «التائبين» القريب، وقال متأوّهًا وهو يهزّ رأسه: «أين نحن من هذا الزمن الجميل! زمن المرابطين الذين تركوا لنا من آثارهم مساجدَ يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا؟». يصمت عامر برهةً يلتقط فيها أنفاسه، قبل أن يُكمل: «لقد نسي الجميع أنّ هناك عدوًّا يتربّص بكلّ غرناطة، فذهبوا يشعلون الفتن.. والله لا فرق عندي بين أبي الحسن وابنه وزوجتيْه، فجميعُهم أمثلة لملوك الطوائف، لا يشغلهم سوى العرش والجلوس في قصور الحمراء الفارهة!».

محمد: «لولا فشل علي بن سعد في استرداد الحامة ما استتبّ الأمر لابنه محمد، فضلًا عن سيطرة الجارية القشتاليّة عليه، وتسْييرها أمورَ المملكة من دونه»، وكان مطرقًا فرفع رأسه ليرْدِف: «على أني أميل إلى رأيك يا عامر، إذْ لا خير فيهم جميعًا، ولكني على كلّ حالٍ لست سعيدًا بهذه الأحداث، وأرى آثارها تنصبّ في غير نهرغرناطة!».

علي: «كيف ذلك يا محمد؟».

أخذ محمدٌ نفسًا عميقًا وقال: «بعدما أغلقت غرناطة أبوابَها في وجه الأمير أبي الحسن، انسحب بمَن اصطفّ معه من جنود إلى مالقة حيث أخوه أبو عبد الله الزّغل كما تعلمون، وبهذا ستعود المملكة إلى الانقسام، وتصير الأندلس الصغيرة أندلسَيْن، ويغدو شعبُها طائفتين متخاصمتين». أخذ محمد شهيقًا سمع صوتَه رفيقاه، ثمّ أردف: «لقد احتلت قشتالةُ معظم الأندلس، وبدلًا من أن نناصبها العداء باتّحادنا، ذهب ملوكُنا ملوك بني نصر يتصارعون على اقتسام المُلك فيما بينهم. يتنازعون الملك في مملكةٍ صغيرة مهدّدة من جميع الجهات، في مملكة تتساقط مدنُها كتساقط أوراق الشّجر في فصل الخريف، يتصارعون ولا هَمّ لهم غير العرش، وكأنّما لا يعرفون أنهم سيحرقونه بنار صراعهم، أو سيتركونه شاغرًا ليجلس عليه ملك قشتالة»!

علي: «هدئ مِن روعك يا محمد، لعلّ العقل والحكمة يجدان طريقَهما إلى هؤلاء المنقسمين».

محمد (كأنّه لم يسمع كلامَ رفيقه، فمضى في حديثه): «إنّ استيلاء محمد بن علي على الأمر سيفتحُ البابَ على مصراعيه لحروبٍ أهلية لا تنتهي، وسيحسنُ القشتاليّون استغلال تلك الحروب جيدًا، ولهذا فأنا قلقٌ على مصير هذه البلاد التي لا أعرف لي أرضًا سواها. إنّ أبا عبد الله محمد بن سعد لن يرضى بانفصال عمّه عنه، وفي الوقت ذاته لن يرضى الزّغل بحكم مالقة تابعًا لابن أخيه، خاصةً مع وجود الأمير أبي الحسن معه في مالقة، وهذا يعني نذيرًا لحروبٍ أهلية أدعو الله ألا أراها وألّا تدور رحاها على هذه الأرض الطيبة».

تعجّب علي من حديث محمد، ونظر إليه متحدثًا في هدوء قائلًا: «لقد شاخ أبو الحسن، وربما حان الوقت لأنْ يترك الحكم لابنه الصغير، ولو فعل سيجنّب غرناطة الحروب الأهلية، وأيضًا سيُضعف من حجة أبي عبد الله الزّغل في منازعتِه لابن أخيه».

محمد: «بعد أحداث الأيام السابقة، لا أظنّ أبدًا أنْ يتنازل أبو الحسن لابنه».

***

.٢.

أضحت مملكة غرناطة بين ملكٍ جديد وضع يدَه على الحكم، وآخر يبحث عن استعادة ملكه، ظنّ الأمير أبو الحسن أنّ الأمرَ لن يطول، وسرعان ما ستعود الأمور إلى صوابها طائعةً له مُنصاعة لحكمه.

بعد عدة أيام، ذهب أبو الحسن إلى بسطة، وذلك لقرْبها من غرناطة، ومنها أرسلَ الرسل إلى شعب غرناطة وإلى ابنه في الحمراء، داعيًا إيّاهم إلى أنْ يحكِّموا عقولهم، وألّا يشقّوا عصا الطاعة.. لكنّ أحدًا مِن غرناطة لم يعِرْه اهتمامًا؛ فقد كان الجميعُ متفائلين بمليكهم الشابّ، ولمّا رفضت غرناطة أن تستمع إلى دعاوى ونداءات أبي الحسن؛ عزم أمرَه على أن يستعيد مُلكه بالقوّة، إذْ لا معنى لحياته بعيدًا عنْ قصور الحمراء، لذلك استمدّ أبو الحسن أخاه «الزغل» جندًا وسلاحًا وعتادًا، فأمدّه بقوة من خمسمائة رجلٍ من أخلص رجاله، مدجّجين بالسلاح وبرفقتهم كاملُ عدّتهم وعتادهم.

كان أبو عبد الله الصغير قد أمِن لنجاحه، وكان قد خُيّل إليه أن دولة أبيه قدْ دالت وانتهى عهدُها، وأن المستقبل الآتي سيكون له وحدَه، بعدما تصوّر أن الأجواء قد خلتْ له بلا منازع أو شريك؛ لذلك ترك الحاكم الشاب أسوارَ الحمراء من دون حماية كافية، وراح يبالغُ في إقامة الاحتفالات زهوًا بحيازته المُلك والعرشَ وسط أصحابه في البيازين، فاستغلّ أبو الحسن ذلك وجهّز قواته، متأهّبًا لمباغتة الحمراء، وانتزاع عرشه مجدّدًا مهما كان الثمن.

بالقرب من أسوار غرناطة، أمر أبو الحسن رجالَ جيشه الصغير بأن يترجّلوا، وأن يتفرّقوا في مختلف الطرق، تجنّبًا لاسْترعاء الانتباه، على أن يلتقي الجميع تحت أسوار الحمراء في الوقت المحدّد بعد منتصف الليل؛ حيث تكون شوارعُ غرناطة قد خلَتْ من المارة.

وفي الساعة المحددة، اجتمع أبو الحسن إلى جيشه مرة أخرى، وفي مغامرة تشبه تلك المغامرة التي قامت بها «عائشة الحرة» تسلّق أبو الحسن أسوار الحمراء على رغم شيخوخته وتقدّم سنّه، وتبعه في ذلك جنودُه، وبعد دخوله القصر استلّوا جميعًا سيوفهم، وقتلوا كلّ مَن رأوه مِن الخدم والجند بذريعة أنهم خائنون له، وارتفعت الصرخاتُ وسالت الدماء، ودخل الملك الشّيخ قاعة عرشه والدّماء لا تزال تسيلُ من نصْلِ سيفه، ومِن حوله جنوده بأكملهم لم يُصَب أحدُهم بجرحٍ واحد، أمّا الوزير «يوسف بن كماشة» وزير ابنه، فما كادَ يشعر بها يحدث حتى لاذَ بالفرار معتصماً بأحد الأبراج.

التقطَ أبو الحسن أنفاسَه، وتنفّس الصعداء مطمئنًّا لعودته إلى قصره، وبدأ في التأهّب للخروج للشعب الغرناطي يبشّرهم بعودته.. أمّا الملك الصغير فقد هالَهُ ما سمع واضطربت حالُه، وخاف على نفسه، فحاول الفرارَ من البيازين، لولا أن نهرَته أمُّه ووبَّخته، قائلة له: «كيف تهرب وتتركُ مَن ناصروك، فإمّا أن تحيا بينهم أو تموت معهم». وقعت كلماتُ الأم الشجاعة على مَسْمع الملك الصغير موقعَ الحكم النافذ أو القدر الذي لا يُردّ، فلم يستطع إلّا أن حملَ السيف عازمًا على الوقوف في وجْه أبيه، ودارت الحربُ الطاحنة، ورجحت كِفّة الملك الصغير ليس لقوّته، ولكن لالْتفاف العامّة حوله؛ ما حمل أبا الحسن على التّراجع وترك المدينة بعدما قتل جنودُه من أهلها الكثير. لقد حارب أهل البيازين أميرَهم القديم

كُرهًا لزوجته الثانية «ثريا الرومية»، وتعاطفًا مع ابن زوجته القديمة «عائشة الحرة»، فما كان منه إلّا أن خرج من غرناطة كلّها، وهو يتوعّدها عائدًا إلى أخيه الزّغل بمالقة.

***

وفي مالقة، قرّر أبو الحسن أنّ غزوة واحدة لأراضي قشتالة، قد تعيده ملكًا على غرناطة، ومثلما فقد مُلكه بسبب الحامة، فسوف يعودُ إليه بغزوة ناجحة في أراضي العدو، فالشعب الغرناطي لا يحبّ المهزوم، بل يبغضُه أشدّ البغض، لذلك جمع أبو الحسن قواتَه وخرج بهم إلى المدينة الأندلسيّة القديمة «شذونة»، بعد أن عمدَ إلى وضع الأمور في نصابها الطبيعي. تابع أبو الحسن مسيرتَه في هدوءٍ وحذر شديديْن، مرسلًا كشّافته لرصد الكمائن، واستطلاع أخبار العدو، خاصّة عبر الممرّات الضيقة، ثمّ وزّع قواته فأرسل جزءًا منها إلى مدينة «طريف» المترامية الحقول والغنيّة بقطعان المواشي والأغنام، فعادت إليه بعد قليلٍ محمّلةً بكلّ أنواع الحبوب، وساحبة خلفَها الكثير من البهائم والأغنام.

علمَ القشتاليّون بوجود قوات للمسلمين، فأطلقوا من القرى القريبة نداءات الاستغاثة، وأشعلوا سحائبَ الدخان دلالةً على غزو العرب لبلادهم، وهنا قرّر أبو الحسن أن يكتفي بما حقّق من مكاسب، فأطاح بخيمته وانطلق بأسرع ما يمكنه عائدًا صوبَ الحدود.

أثارت الغارة التي شنَّها أبو الحسن الأحقاد في نفوس القشتاليّين، بينما لم يغنَم منها ما أرادَه من ملك غرناطة، ما حدا قادة قشتالة على أنْ يجتمعوا ويقرّروا ردّ الإهانة التي لحقت بهم، ومحْو عار أحداثِ لوشة الأخيرة، وفي الأنتقيرة القريبة من مالقة، اجتمع مركيز قادش ودون بيدروهنريكويز، ودون خوان دي سفيل، ودون ألونزو غاردیناز، حامل العلم الملكي ودون ألونزو دي غاردينا ماستر النظام الديني العسكري في سانتياغو، ودون ألونزو دي غويلار مع عددٍ من الفرسان الآخرين، وتحدّث كلّ منهم عن كيفية ردّ الصاع صاعيْن للمسلمين، وعلتْ أصوات الحقد على أصوات العقل، فاندفعوا في حوارٍ يفيض حقدًا على مالقة ورجالها، وتصوّروا أن مالقة قد أصبحت ملكًا لهم حتى قبل أنْ يغزوها!

لكنّ مركيز قادش أراد تحويل الحديث إلى رأي آخر يراه، اعتمادًا على معلوماتٍ وصلته من أحدِ المرتدّين الذين باعوا دينهم، واعتنقوا النصرانيّة، ثمّ استغلهم القشتاليّون متّخذين منهم جواسيس لهم، وكان هذا الجاسوس هو لويس عمار الذي أظهر لمركيز قادش وعورَةَ جبال مالقة وقوة تحصيناتها وشدّة بأس أهلها. وبتلك المعلومات أراد مركيز قادش أن يحوّل أنظار القادة إلى مكانٍ أقلّ تحصينًا من مالقة، واختار لهم حصنَ الزهراء، لكنهم رفضوا نصيحته، وأجبروه على أن يتحرّك حسب أغلبية الأصوات، لتشتعل نار الجدل بين الفرسان.

ألونزو دي غاردينا: «إنّ وضع مالقة حرجٌ للغاية، ولهذا أقترحُ عليكم أن تتركوا الزهراء، وتنظروا إلى ما هو أهمّ منها. علينا أن نهاجم قلب المسلمين، علينا اكتساح مالقة حيث الملك الشّيخ وأخوه الزغل، وبذلك نقتل المقاومةَ في نفوسهم».

يهمْهِم مركيز قادش وكأنّه يريد الرفض، ولكنه تحت ضغط بقية القادة يضطر إلى الانصياع، بينما يكملُ دون ألونزو دي غاردينا: «سنهاجم مالقة من الجبال، وتحديدًا من منطقة الزرقاوية الغنية بالمحاصيل والمراعي، وسننتهز ضعفَ التحصينات والحماية وعدم وجود كثرة من فرسان المسلمين فيها، وندمّرها تدميرًا، وننتقم لأحداث شذونة، ونستردّ أموالنا التي انتهبها أبو الحسن وجيشُه».

اتّكأ مركيز قادش على كرسيّه، وقال موجّهًا حديثه إلى دي غاردينا: «هل تقصد أنّ نباغتها بمغامرةٍ شبيهة بما فعلنا في الحامة؟».

دون ألونزو دي غاردينا: «هذا فعلًا ما قصدته. أن نهاجم المسلمين من مأمنهم، من حيث لا يتوقّعون».

دون خوان دي سيفيل (يتنهّد قبل أن يبدأ تعقيبه في لهجةٍ مستغربة): «إني لأشعرُ كأننا دخلنا مالقة، واستولينا عليها، وأصبحت ملكًا لقشتالة. لقد ملأتموني حماسة، وإني لفي شوقٍ إلى نسائها العربيّات وأموالها وقصورها». (يقهقه بصوتٍ مرتفع يتردّد صداه في جنبات القاعة).

يشتعل المكانُ بالحماسة والرغبة في التحرّك على وجْه السرعة ناحية مالقة، فيتدخل مركيز قادش محاولًا ثَنيهم عن غايتهم قائلًا: «علينا، أيها الرفاق، أن نتروّى بعض الشيء، لا نريد أن نكرّر مأساة حصار لوشة».

دون ألونزو دي غاردينا: «الوضع مختلف تمامًا أيّها المركيز، فلا تثبّط من عزائمنا بحقّ الرب».

مركيز قادش: «بل أنا حريصٌ على سلامتكم وسلامة قشتالة أكثر منكم!»

دون ألونزو دي غاردينا (يتحدّث بلهجة تحمل كثيرًا من الغرور): «نعلم حرصك، ولكن ما المشكلة في أن نغزو مالقة؟ خصوصًا أنني أستندُ إلى ما وصلني من جواسيسي عن ضعف حاميتها. فلستَ وحدك مَن يملك الجواسيس أيّها المركيز».

مركيز قادش: «أنا أدعوكم إلى تحكيم العقل، فجبالُ الزرقاوية شديدة الوعورة والبأس، وكثيفة الممرّات، وحافلة بالمسلمين الفقراء. وإني لأخشى أن يهاجمنا أهلُ تلك الجبال، فيقطعوا علينا الطريق، وتكون كارثة علينا ككارثة لوشة».

دون ألونزو دي غاردينا (يواصل لهجته التي يتصاعد استكبارها مع الوقت): «أتظنّ أيها المركيز الذي خبر الحرب، أنّ جيشًا كجيشنا وفرسانًا كفرساننا يمكن أن تصدّهم عن هدفهم حفنةٌ من العامة والرّعاع؟».

تفهّم مركيز قادش أسلوبَ دون ألونزو، فرمقَه بعينٍ ممتلئة بالثقة تسبق ردّه قائلًا: «حتى لو قهرنا شعبَ الزرقاوية، فلنْ نخرج منهم بأيّ مغنم، فهم فقراء، ولا تكاد بيوتهم تزيد على كوْنها محضَ حُفر في الجبال!»

دون ألونزو دي غويلار (متدخّلًا): «لا تحاول أنْ تَثنينا عن هدفنا أيها المركيز. جميعنا يعلم حرصَك وتروّيك في الحرب، لكننا جميعًا أيضًا نعلم كيف استطعتَ- أنت نفسُك- بمغامرةٍ محسوبة وبجيش صغير جدًّا أن تقتحم الحامة، وتضمّها إلى التّاج القشتالي، أو لعلّك تريد أن تكون وحدَك فارس قشتالة المظفّر!»

مركيز قادش: «إنّ الوضع في مالقة مختلف تمامًا عن وضع الحامة، ولكن كما تشاءون، ولتعلموا أنّ أول سيف سيُشرَع هو سيفي».

هدأت نيران الجدل بين قادة قشتالة، مسفرةً عن اتحاد رأيهم على غزو مالقة، فحدّدوا هدفهم، وقرّروا أن يتخلّصوا من أحمالهم الثقيلة، ليتوّجوا غزوتهم بهجوم مفاجئ. وفي الموعد المحدّد انطلقوا بجنودهم تحفّهم روح معنويّة عالية، وأعينُهم جميعًا مصوّبة نحو هدفهم، واختاروا مِن جيادهم الأقوى لتسلّق الجبال، وقاد طليعتَهم دون ألونزو دي غويلار، وتسابق الجميع لاقتسام الغنيمة المنتظرة، ولم يحملوا معهم من المؤن الكثير، بل ما يكفي فقط لوصولهم إلى أقرب مدينة أو قرية مسلمة لينتهبوها ويتقوّتوا من غنائمها!

تحلّى فرسان الجيش وجنده بثقةٍ رهيبة، مرْتدين أفخر اللباس، وامتطوا الخيول المزركشة، وكأنّهم محتفلون في حفل زفاف، أو خارجون في نزهة، ومن فرط التفاؤل بالنصر، اصطحبوا معهم جماعة من التجار ليبيعوا لهم غنائم مالقة ونساءها على الفور!، واستعدّ الجميع للربح والانتصار.

أمّا الجنود فكانوا متشوّقين إلى سفك دماء المسلمين، وأمّا التجار فكانوا متشوّقين لشراء غنائمهم وأولادهم ونسائهم يأخذونهم عبيدًا وسبايا.

ولثقتهم العمْياء في النصر، فقد علم القاصي والدّاني بأخبار غزوتهم، وبهذا فقد القشتاليّون عنصر المفاجأة، الذي هو أهمّ سرّ من أسرار النصر. ووصلت أخبارُ الغزوة إلى أبي عبد الله الزّغل حاكم مالقة، الأخ الأصغر لأبي الحسن علي بن سعد، الذي لم يفوِّت الفرصة، بل شمّر عن ساعديه، وسارع إلى التأهّب للحرب والدفاع عن مدينته، واستنفر قادته قائلًا لهم: «لم يكتفِ الصليبيّون بمدينة الحامة، فأرادوا أن يستغلّوا ما دار بين أخي أبي الحسن وابنه محمد، ليقتطعوا أشلاءَ هذا البلد، لذلك تشرئبّ عيونهم اليوم إلى مالقة. لقد اغترّوا بقوّتهم، فلم يتكتّموا على غزوهم، حتى أنّ أخبار غزوتهم قد سمع بها القاصي والداني، فلم يحتاطوا ولم يحذروا، فكأنهم ذاهبون إلى عرس، لا إلى حرب!». ثمّ مضى الزّغل معليًا من نبرة صوته: «وإني قد أحببتُ هذا الغرور فيهم، فلا بأس لصاحب غرورٍ ولا

خطة، وسيرون عاقبةَ غرورهم، والله ناصرنا، وهو سبحانه نعم الوكيل». ثمّ انتزع الزّغل سيفه من غمده، وقال: «لقد تعلّمنا أن الحروب لا تُكتسب بالتسرع والعتاد الكثير، بل بالحكمة والتريّث والصبر عند اللقاء، واتخاذ الحيطة وتحاشي الاستهزاء بالخصم، إنّ هؤلاء القوم لم يتعلّموا ممّا حدث لهم في لوشة، حتى أتوا إلينا هنا يحملون معهم كلّ صفاقة وغرور!».

رضوان بنغيش: «لقد هالتْهم هزيمتهم في لوشة، وهُم يومها المعتدون علينا، فجاءوا اليوم ليردّوا اعتبارهم، منتهزين فرصةَ ما كان بين مولاي أبي الحسن وابنه محمد».

يحيى النيار: «سيدي، هل نحشد الجيش والمتطوّعة خلف الأسوار؟».

صمت الزّغل وفكّر في صمت وعيناه حائرتان، وهو يقول في نفسه: «إذا وصل هذا الجيش القشتالي إلى المدينة، فسيصعب علينا ردّه عن أسوارها، كما أنّ حشد الجيش خلف الأسوار هو خطة العاجز. والهزائمُ دائماً تلحق بالمُدافع مهما بلغت قوةُ دفاعه، كما أن القشتاليّين يتوقّعون منّا هذا التصرّف، ولهذا سنُخلف ظنونهم». رفع الزّغل رأسه، إذْ فرغ من تفكيره في الخطوة المقبلة، ليردّ على يحيى النيار قائلًا: «بل سأخرج أنا بمعظم الجيش حتى أُجبر أهلَ الجبال على الحرب معنا، وأُشعل في قلوبهم لهيب الحماسة، فيهبّوا للدفاع ولا

يسارعوا بالاستسلام. وستبقى أنت هنا يا يحيى النيّار مع قطاع من الجيش، حتى يطمئن العامّة، وتحمي ظهورنا إذا حدث ما نخشاه».

يحيى النيار: «والفلاحون يا سيدي، هل ستضع قوّاتًا في القرى لحمايتهم؟».

الزغل: «لا، لن أشتّت جيشي، وأمّا الفلاحون في قرى الزرقاوية فسوف أرسل إليهم مَن يخبرهم بأمر القشتاليّين، حتى يكونوا على أهْبة الاستعداد للمواجهة، ولا يأخذهم النصارى على حين غِرة. إنّ حربنا اليوم تحتاج إلى سواعد كلّ مسلم، بل وكلّ مسلمة. إنها الحرب التى إن خسرناها خسرنا الدّين والأرض، لذلك على الفلاحين أن يهبّوا لحماية أنفسهم».

***

في المساء، انطلق الزّغل بجيشه، ومعه يحيى النيار والوزير بنغيش تاركًا خلفه في مالقة إبراهيم الحكيم مع قطعة أخرى من الجيش، كما أرسل الزّغل إلى فلاحي الزرقاوية مَن يخبرهم وينبّههم بأن يحتاطوا لأنْفسهم من غدر القشتاليّين، وأنْ يتسلّحوا بما يتيسر لهم من أدوات وسكاكين حتى يستطيعوا الذّود عن أنفسهم ونسائهم، فلا يقعوا أسرى وسبايا في أيدي القشتاليّين، ثمّ تنبّه الزّغل إلى جبال الزرقاوية، وقال في نفسه: «إن كان الفلاحون سيصعدون الجبال، فلماذا لا يساعدوننا بطريقةٍ جادّة في القضاء على هذا الجيش الغاشم؟ إنّ جبال الزرقاوية مملوءة بالممرات الوعرة التي سيضطر

القشتاليّون إلى المرور منها، ولو أنّ فلاحي الزرقاوية تربّصوا بهم حتى إذا مرّ جيش القشتاليّين طفقوا يرمونه بالصخور من الأعلى، بينما نقطف نحن رؤوسهم من الأسفل...». كان الزّغل يفكّر بينما يترك لفرسه العنانَ، والهواءُ يلفح وجهَه ويطوقه، فجذب بقبضتِه لجام حصانه ليتوقّف، وكلّف النيّار أن يبلغ أهل الزرقاوية بأن يصعدوا قممَ الجبال ويتجهّزوا بالصخور والسّهام للانقضاض على الجيش القشتالي حين يمرّ من أسفلهم، وبذلك سيعتقد القشتاليّون أن جنود الجيش هُم مَن يرمونهم بالصخور، وبهذا الفعل نفاجئهم ونشتّت تفكيرهم أكثر وأكثر.. ثمّ أمر الزّغل صهرَه النيّار بأن يضع بين الفلاحين مَن يقودهم، وأرسل معهم فرقة من حَمَلة السهام، حتى إذا حاول القشتاليّون تسلّق الصخور قذفهم الرّماة بسهامهم، كما وضع الزّغل بين فلاحي الزرقاوية الذين سيصعدون قممَ الجبال دليلًا حتى إذا مرّ القشتاليّون وبلعوا الطّعم؛ أوقدوا النار، وصاحوا كي يخبروا جيشَ الزّغل بوصول القشتاليّين.

وهكذا تمّ وضع الخطة العجيبة، وساعد الظلام على إكمالها، فلم يميّز القشتاليّون بين الجيش والفلاحين، فضلا عن حملة السهام الذين تأهبوا لاصطياد الغزاة.

وبحلول الظلام كان معظم فلاحي الزرقاوية قد تركوا بيوتهم وصعدوا بنسائهم وأولادهم وماشيتهم إلى قمم الجبال، حتى إذا وصل الفرسان القشتاليّون إلى القرى وجدوها فارغة على عروشها،

فلم يستفيدوا منها شيئًا. كان الغرور يملأ الفرسان القشتاليّين، حتى إذا اقتربوا من مالقة وشاهدوا نيرانَها من بعيد، شعروا وكأنّهم قد امتلكوها، فهاجت عواطفهم وراحوا يدخلون بيوت الفلاحين بالزرقاوية بحثًا عن متاع قريب، وعن مسلمين يذبحونهم استعجالًا للانتقام والقتل، فلمّا لم يجدوا بالبيوت أحدًا ثارت حفيظتهم فأشعلوا النيران في البيوت، فكانت تلك النيران دليلًا ورسالة إلى أهل الجبال بأنّ الغزاة قد صاروا أسفلهم فاستعدّوا!

حاول دون ألونزو دي غويلار أن يجمع شتاتَ جيشه وجنده الذين تفرقوا بحثًا عن غنائم في البيوت، كما أصدر دون ألونزو دي غاردينا الذي يقود مؤخرة الجيش أوامرَ مشدّدة بضرورة بقاء الفرسان معًا وموحَّدي الصفوف؛ استعدادًا لأي هجوم من المسلمين، ولكن أحدًا لم يعْطه أُذنًا صاغية. وهام الجنود المغْرورون بعددهم وخيولهم بحثًا عن الماشية والذّهب ونساء مالقة، وأفضى بهم تشتُّتهم إلى أسفل الجبال بين الممرّات، وهنا انهالت على رؤوسهم الصخور، وكأنّ القيامة قد قامت، وكأنّ الجبال قد بُعثرت، وأطلق المسلمون صخورَهم متوازيةً مع صيحات تُنذر بوجود القشتاليّين أسفل الجبل.. فقُتل معظم مؤخرة الجيش القشتالي، ممّا حدا دون ألونزو دي غاردينا على أن يرسل إلى مركيز قادش طالبًا المدد، فأسرع هذا الأخير لنجْدته، واستطاع بعد جهدٍ جهيد أن ينقذَ فلول الجيش من هلاك محقَّق.

أمّا على الناحية الأخرى فقد علم الزّغل بنجاح خطّته، وعلم أنّ الفلاحين نفّذوا المرسوم لهم على أتمّ وجهٍ وبكفاءة عالية، كما علم أنّ معظم جنود الجيش القشتالي قتلوا بالصخور من دون مقاومة تُذكر، ممّا حدا قائدهم على محاولة الهروب متسلّلًا من الممرّات إلى مكان أكثر أمانًا. أرسل الزّغل إلى سكان الجبال أن استمرّوا في قذف القشتاليّين بالصخور، كما شدّد على عدم تركهم لمواقعهم، وزوّدهم بالسهام ليكمل بها حَمَلةُ السهام مهمتهم، حتى يتيقّن هؤلاء الغزاة من أنّ الجيش مع الفلاحين بالأعلى، فيخرجوا من الممرّات وهُم متوهّمون أن أحدًا لن يواجههم!

تعالتِ الأصوات والصرخات، ممتزجةً بالتكبير يجلجل في المكان، وابتلع الجيشُ القشتالي الطُّعم، وخرج جنودُه من الممرّات متوهّمين أن جيش الزّغل معتصمٌ بأعلى الجبل، وما كاد القشتاليّون يصلون إلى وادٍ فسيح، حتى صاحَ صائح بصوتٍ جَهْوَري: «الله أكبر.. الله أكبر، جيش الزّغل وصل». سمع جنود الجيش القشتالي التكبيرات واسم الزغل؛ فوقع الرعبُ في قلوبهم، وزاغت أبصارهم وهُم ينظرون إلى الجبال، شاهرين الأسلحة، ولم يمْهِلهم الزّغل ولو قليلًا من الوقت ليلتقطوا الأنفاس، أو حتى يفكّروا فيما هو آتٍ. كان اللّيل قد قارب على الرّحيل ومازالت ألسنة الدخان تتصاعد من خلف التلال، وأصوات الصخور والصراخ تملأ الأجواء، وأصبح القشتاليّون وقد وجدوا أنفسهم في وضعٍ حرجٍ، فالزغل بجيشه من أمامهم، وحملة الصخور من خلفهم.

واصلت الخيولُ صهيلها والسّيوف صليلها، وقُطعت الرقاب، وبُترت الأيدي والأرجل. وبعد ساعات، انكشفت الحربُ عن هزيمة مروّعة للقشتاليّين، وما كادت المعركة تؤول إلى نهايتها، حتى بادر الزّغل بالترجّل عن حصانه، وخرَّ ساجدًا لله، مخضّبًا وجهَه بترابٍ من أرض المعركة التي كانت رائحتها تموجُ في الأجواء، وهو يصيح شاهرًا سيفه: «الله أكبر.. الله أكبر»، والجيش يردّد خلفَه من خلفِه: «الله أكبر.. الله أكبر».

أمَر الزّغل بجمع الأسرى والجرحى من الجنود القشتاليّين إلى سجون مالقة، وكان الأسرى قد بلغ عددُهم ٧٠٠ أسيرًا، فضلًا عن أولئك الذين سقطوا في أيدي الفلاحين، وقد كان من بين الأسرى بعضُ النّبلاء والسادة، فأمر الزّغل بحبسهم في القلعة وبيْع الباقي في أسواق الرّقيق.

لاذَ مركيز قادش وبقيّة القادة بالفرار، تصحبهم ذيول الخيبة والتعاسة، وقد تمكّنوا من تحقيق ذلك الانسحاب الآمن بفضل الجاسوس لويس عمار الذي قاد مركيز قادش إلى ممرّ آمن هربَ منه إلى انتقيرة، واستطاعت القوات الإسلامية أن تقتل أخا مركيز قادش وبضعةً من أولاده، بينما تعلّق هو نفسه بطوق النجاة بصعوبةٍ بالغة، بعدما كان قد أشرفَ على الهلاك، وهو الأمر الذي أدخل إلى قلب المركيز حزنًا شديدًا لازمه طويلًا. وبعد المعركة اعترف الزغل- كدأب القادة العظماء- بشدّة بأس مركيز قادش، وأقرّ بأن

رباطة جأشه هي التي مكّنته من احتلال الحامة، وإنقاذ فرناندو في لوشة من الهلاك المحقّق.

النيّار: «الله أكبر.. الله أكبر، لقد استطاع أحدُ جنودنا أن يأسر الكونت سيفيونتي ودون بيدرو دي سيفيل».

الزغل: «ضعهم مع بقية الفرسان في السجن حتى نتفاوض مع ملك قشتالة بشأنهم، أريد أن أحرّر بهم أكبرَ عددٍ من أسرانا لدى قشتالة. والآن هيّا نتفقّدْ قرى الزرقاوية».

سار الزّغل في شوارع الزرقاوية، ومعه الوزير رضوان ويحيى النيّار وخلفه عددٌ كبير من الجند، ليستقبله فلاحو الزرقاوية بمحبّة وتكبير وسعادة عريضة، بينما خرجت إلى الشوارع مئات الأطفال والنساء، وكانت بعض النساء يمْسكنَ بكثير من أسرى المعركة في زهوٍ وفَخار. استمرّ الزّغل في تفقّده للقرية، وأمر بإصلاح ما خُرِّب من دورها، ثمّ استمرّ في سيره حتى إذا وصل إلى مسجد المدينة الجامع، وكان اليوم يوم الجمعة الموافق ٢١ من مارس من العام ١٤٨٣م؛ دخل الزّغل إلى المسجد منتظرًا صلاة الجمعة فصلّى في مسجد المدينة الجامع وسط جيشه حامدًا الله على النصر العظيم، ومن طريف المفارقات أنّ الزّغل حينما بلغه خبر تجّار الرقيق القشتاليّين الذين حضروا مع الحملة الغازية ليشتروا المسلمين عبيدًا والمسلمات سبايا من أرض المعركة؛ أصدر أمره ببيعهم جميعًا جزاءً وفاقًا لنيّتهم الخبيثة!

***

.٣٠

في فصل الربيع من سنة ١٤٨٣م، كان محمد العطّار يسير منفردًا في شوارع غرناطة، يتأمّل أزقتها الضيقة الزرقاء، ليشاهد بعينيه ويسمع بأذنيه حديثَ العامة عن الأمير الزّغل وانتصاره في موقعة «الشرقية العظيمة»، وكيف استدرج الزّغل القشتاليّين حتى أفناهم وحفظ مالقة ولقّن العدو درسًا لن ينساه. كانت الفرحة ظاهرةً في عيون أهل غرناطة، إذْ إن كلّ انتصار في أرض المملكة المسلمة وكلّ هزيمة للقشتاليّين يزيدان الغرناطيّين أملًا في بقاء دولتهم، وكلّ هزيمة تعجّل بذهاب دولتهم وذهابهم، لهذا انتعش الشعب الغرناطي وتعلقت آماله بالزغل وتخيّلوه المنقذَ لهم من ظلمات القشتاليّين وعدوانهم.. فقد أحدث انتصاره في مالقة صدًى بين أهالي غرناطة، فراحوا يهتفون له، ويتغنّون بحياته وشجاعته، هو وأخيه أبي الحسن، بل وطالب بعضٌ من شعب غرناطة بعودة أبي الحسن إلى حكمها مرة أخرى، متّهمين الصغير بأنه صاحب الحرير لا صاحب الحرب والخيل والكرّ والفرّ. سار محمد حتى وصل إلى شاطئ نهر شنيل الذي تُزيِّن ضفّتيه أشجارُ الرمّان والنّخيل، وعلى أغصان تلك الأشجار تغرّد البلابل وتصدح العصافير. جلس العطّار يفكّر في مستقبل غرناطة تحت حكم ملكها الشاب الذي لم يحاول مِن قبل أن يخرج لجهادٍ أو قتال. كيف لملكٍ كهذا أن يحفظَ مملكة تتقاذفها الأهوال ويجاورها الشيطان وتبرّأ منها الصديق والرفيق. هل يستحقّ محمد بن علي بن سعد أن يكون هو حاكم تلك المملكة،

أم عمّه المظفّر في الزرقاوية «الشرقية»؟! ولم يكُ العطّار وحده الذي يفكر في أمرٍ كهذا، فبعد قليلٍ من جلسته تلك، استمع إلى أمواج العامة السّاخطين من حكم محمد بن علي (أبي عبد الله الصغير) التوّاقين إلى أن يكون الزّغل ملكًا عليهم، لذلك فقد خرج العامة إلى شوارع غرناطة يندّدون بحكم الصغير، وينادون بعودة غرناطة تحت ظلّ سيف أبي الحسن وأخيه الزّغل من بعده، ومن ثمّ اتجهوا بأصواتهم تجاه الحمراء وهُم يردّدون هاتفين: «عاش السلطان أبو الحسن وأخوه الأمير الزغل.. عاش بطل الشرقية الشجاع». زلزلت تلك الأصواتُ الأرضَ من تحت قدمي أبي عبد الله الصغير، وكاد بسببها يدخل في نوبة من الاكتئاب الشديد لولا تدخّلُ والدته الحرّة ونصيحتُها له بأن يحذو حذوَ عمّه وأبيه.

اعتزم ملك غرناطة الشاب أبو عبد الله محمد، أن يحذو حذوَ عمّه الباسل في الجهاد والغزو، وأن ينتهز فرصة اضطراب القشتاليّين عقب الهزيمة الفادحة في موقعة الشرقية، وفي قصر الحمراء، وتحديدًا في برج قمارش. كان السلطان أبو عبد الله الصغير يتجهّز للخروج إلى العامة، بينما تساعده والدته عائشة الحرة، وزوجتُه مريمة في ذلك.

استمرت غرناطة في ترديد الهتاف للزغل، فأزعج صدى أصواتها آذان الصغير، ولذلك لم يجد أبو عبد الله الصغير بُدًّا من الخروج لقتال القشتاليّين لجذب الأنظار إليه، وتحويلها عن أبيه، ممّا يعني أنّ حربه لم تكنْ خالصة لوجه الله، بل كانت من أجل أهدافٍ دنيوية!

أبو عبد الله الصغير: «أتسمعون؟! إنهم يهتفون لأبي بينما بالأمس كانوا يهتفون لي!».

عائشة الحرّة: هدّئ من روْعك يا بني، فالأحداث تفرض نفسها، وشعب غرناطة يميل إلى الملك القوي. إنه شعب يحبّ الانتصارات، ويعشق مَن يصنعها، لهذا فقد خرج هذا الشعب اليوم يهتفُ باسم أبيك أبي الحسن، لانتصاره أولًا في لوشة وثانيًا في مالقة. تتحرّك عائشة وهي تكمل حديثها فتقول: «لقد أحدث انتصارُه دويًّا في كل غرناطة، وصار انتصاره مهدِّدًا لعرشك، فالغرناطيون اليوم ينادون باسمه، وإن لم تجلب لهم نصرًا قريبًا، فستودّع حكم غرناطة».

يقاطع الصغير أمَّه قائلًا: «لكن هذا النداء يزعجني.. يزعجني جدًّا» (يضع أصابعه في أذنيه متحاشيًا الصوت ومكملًا): «إذ كيف لهم أن ينصروني بالأمس ويخذلوني اليوم!؟ كيف لهم أن يخلعوا أبي بالأمس وينادوا بحياته اليوم!؟.. كيف!».

عائشة الحرة (متحدّثة في ثبات وهدوء): «النصر هو كلمة السرّ يا بني. إن تأييد الشعب الكامل لك لن يأتي إلّا بعدما يشاهدونك ملكًا منتصرًا، محقّقًا لهم الأمن والأمان، وإن لك في صهرك علي العطّار خيرَ عون فالتمس رأيَه وعونه، خصوصًا أنه انْحاز إليك وأيّدك ضد أبيك، واعترف بطاعتك، ودخلت لوشة تحت تاجك وعرشك».

استمع أبو عبد الله محمد إلى كلام أمّه وفكّر فيه مليًّا، فلم يجدْ مناصًا عن تنفيذه، لذلك أرسل إلى صهره، فارس الأندلس وأشهر مَن رمى برمح طويل فيها، يستشيره في أمر الغزو والحرب، فأيّد العطّار مسعاه في وجوب الهجوم على قشتالة، واستغلال الأحداث والوقائع الأخيرة، ثمّ اتفق الاثنان على هدف الغزوة وهو مدينة «اللسانة» القريبة من قرطبة، وذلك لأنها ضعيفة التّحصين، غنية بالزروع والمواشي وكلّ أنواع المؤن.

أعلن الصغير النفيرَ العام في غرناطة، فاستبشر الشعبُ ونادى باسم محمد بن علي، ولم يشكّ الشعب ولو لحظة في أن مَلكَه سيجلب إليه النصر. أمّا محمد العطّار فقد قطع هذا الإعلان عليه حيرتَه، لذلك حزم رأيَه بالجهاد تحت راية أبي عبد الله محمد، فقطع التفكير في الذهاب إلى مالقة، ثمّ هبّ إلى أصحابه يستنفرهم ويحثّهم على الخروج للجهاد. وبدأ الصغير ولأوّل مرةٍ في التأهّب للحرب، فدخل إلى جناحه الخاص ليرتدي لباسه الحريري المزركش وسيفَه المطعم بالذهب والحلي، وساعدته في ذلك والدتُه التي رفضت أن يساعد ابنَها في ارتداءِ ثياب الحرب سواها، لكن.. على رغم كلّ التّطمينات فقد أجهشتْ مريمة بنت علي العطّار بالبكاء، فهذه هي المرّة الأولى التي يخرج فيها محمد إلى الحرب ويتركها ليتمزّق قلبها قلقًا عليه، وهي التي اعتادت قربَه وألِفَت وجوده الدائم إلى جانبها، فإذا بعائشة الحرة تلتفت إليها وتقول:

«لِمَ تبكين يا ابنة علي العطّار!؟ هذه ليست من شمائل ابنة ذلك المحارب القوي، ولا هي مِن شمائل زوجات الملوك! كوني على ثقةٍ بأن زوجك في خطرٍ هنا، بين أبراج هذا القصر المنيف الفارِهِ، أكثر منه في خيمة القيادة بساحةِ الشرف والجهاد، واعْلمي أن جهاده ونصره هما السبيلُ إلى الأمان وحفظه لتاجِه وعرشه».

والحقيقة أن عائشة كانت تُدلي بكلامها الذي يفيض شجاعة، بينما هي تخفي في حنايا قلبها قلقًا رهيبًا يكادُ يمزّقها، وإن اجتهدت كي لا تظهر آثاره على قسمات وجهها، لذلك وبمجرد خروج محمد دخلت غرفتها وأغلقت عليها أبوابها، وجلست وحيدة تكابدُ الخوف على ابنها الذي لم تكنْ تعرف ماذا تخبئ له الأيام المقبلة!

قبيل خروج أبي عبد الله نظرَ إلى أمّه فقبّل يدها، قبْل أن يلتفت إلى زوجته ليعانقها مودّعًا، ثمّ خرج من فوره حاملًا سيفه، ومرتديًا خوذَتَه، ومنطلقًا في طريقه مسرعَ الخطى إلى خارج القاعة، بينما تجري مريمةُ ناحية الشرفة، لتطلّ من خلف الستائر لتشاهد زوجها الشاب، وتظلّ متعلّقة بالشرفة حتى يختفي أثره.

خرج الصغير إلى أكبر ميادين غرناطة، تصحبُه دعوات الغرناطيّين وثقتهم به، وخلفه جيشٌ مكوّن من سبعمائة فارس وتسعة آلاف راجل، معظمُهم من أتباعه المخلصين، ومعه الوزير يوسف بن كماشة، فمرّ بجيشه من شوارع غرناطة متّجهًا ناحية الحدود، وهو يستعرض جيشه كأنه ذاهبٌ إلى عرض عسكري لا إلى

حرب ضروس!. بينما كان شعب غرناطة يحيِّي ملكَه الشاب بالهتاف ودعوات النصر وطلقات الرصاص في الهواء، متأمّلين بالنصر الذي سيجلبه لهم كأبيه وعمه.

استمر أبو عبد الله يتبخترُ في سيره، حتى قارب الوصول إلى مدينة اللسانة، وهناك أمرَ جنودَه بجمع المواشي وحصد الزروع وأخذ الأسرى والغنائم من كلّ صوب، وبكلّ سرعة وعنف من دون انتظار وصول علي العطّار وجيشه، فتذمّر من بين جنده عددٌ من الخبراء بفنون الحرب، ومن هؤلاء محمد العطّار الذي شعر وكأنّه مع قاطع طريق، وليس بملك مجاهد، لهذا أصابه يأسٌ شديد وقرّر عدم مطاردة الغنائم والاكتفاء بالوقوف متفرّجًا شاهرًا سلاحه. وهكذا وبرعونة شديدة وخطوات غير محسوبة، أضاع أبو عبد الله الصغير نهارًا كاملًا في جمع الغنائم، حتى لفت بتصرفاته انتباهَ العدو، الذي أخذ أُهْبته استعدادًا للّقاء، وهكذا دوّت إشارات الإنذار من الجبال وتصاعدت أعمدةُ الدخان تُنذر بوجود جيش المسلمين، وبهذا فقد الصغيرُ عاملَ المفاجأة الذي كان بحوْزته، ولكنّ القدر أرسل إليه في هذا الوقت طليعةَ قوات علي العطّار، وكان قد تأخّر في الوصول إلى «اللسانة»، وبهذا تفوّقت قوات الصغير عددًا وعتادًا على قوات القشتاليّين المدافعة. وبهيبة كبرى وخطوات محاربٍ قديم، وصل علي العطّار إلى اللسانة، وأزعجه تأخّر الصغير في مهاجمتها وإهداره الوقت في غير فتْحها، وأنكر عليه تضْييع الوقت

في جمع الغنائم والأسرى، ومن ثمّ أراد أن يعالج الأمر باستعجال الهجوم على المدينة الصغيرة، آملًا أن يستولي عليها قبْل تجمُّع قوات العدو، وبذلك يضمن أن تكون له ولجنوده حصنًا إن تكاثر عليهم القشتاليّون، كما أن التعجيل بالهجوم سيقطع عن المدينة الإمدادات، وهكذا أقنع العطّار صهرَه بخطأ تأخّره، فأصدر الصغير أوامرَه بمهاجمة المدينة، وتحرّك الجيش ناحية اللسانة، التي سارعت بإغلاق أبوابها، فلم يستطع الجيش اقتحامَها، عندها قرّر أبو عبد الله الصغير أن يضرب حولها الحصار، ثمّ أمر العطّار بإحراق أبواب المدينة استعدادًا لاقتحامها، قبل أن يأتيها المدد. لكن المدينة صمدت حتى جاءت الأخبارُ باقتراب وصول مددٍ من قشتالة يقوده الفارسان دييغو دي قرطبة وألونزو دي قرطبة، وعندها تشاور الصغير مع العطّار، فأشار عليه بوجوب فكّ الحصار والرجوع إلى غرناطة، وكان تفسير ذلك أنْ قال العطّار: «إن دييغو دي قرطبة هو عمّ حاكم اللسانة هرناندز دي قرطبة، وهو من أمْهر قادة قشتالة، ولستُ أخاف منهم، ولكن لا نريد أن نقع بين جيش القشتاليّين باللسانة، وجيش دييغو دي قرطبة، فيحاصرونا بعد أن كنّا نحاصرهم، ونقعُ بين فكي رحى. وهكذا نادى المنادي، وبدأ الجيش في الانسحاب حاملًا معه ما استطاع جمعَه من غنائم وأموال.

تحرّك الجيش المسلم مرتدًّا عن اللسانة، مخترقًا الوديان العميقة حتى لا يصطدم بجيش القشتاليّين، ولكنْ شاء الله أن تُرعد وتبرق

وتمطرَ السماء بغزارة، ممّا تسبّب في تعطل الجيش، إذ غاصت أرجلُ الخيل في الوحل، فأبطأت حركته، ومرّ الوقت وما هي إلّا ساعة أو أقل، حتى صرخ أحد الجنود مُنذرًا باقتراب فرسان قشتاليّين. سرعان ما ارتبك أبو عبد الله الصغير، وشعر بدقّة موقفه وجيشه، بينما استعدّ علي العطّار في ثبات عجيبٍ لملاقاة جيش العدو.

تأهّب الجميع للحرب، وساعد ضبابُ أبريل الجنود القشتاليّين على التخفي ومباغتة المسلمين، كما أن أبا عبد الله الصغير ضخّم من أعدادهم بشكل غير صحيح.!

أراد العطّار أن يكون انسحابه سريعًا، لكن جيش القشتاليّين كان له رأي آخر، فقد تقدّمت جنوده وهجموا بسرعة جنونية، وأصابوا جانبًا كبيرًا من جيش المسلمين، ثمّ عادوا فانسحبوا إلى المرتفعات، مُظهرين الهزيمة.. فاغترّ الصغير الذي أراد أن يحقّق أي انتصار يُنسب إليه، لذلك أمرَ جيشه بملاحقة الفارّين على رغم معارضة العطّار لهذا الأمر، خصوصًا مع سوء الأحوال الجوية وشدة الأمطار.! وهنا كرّ جيش القشتاليّين على جيش الصغير، فراعَ جنودَه وأسقط الكثيرَ من فرسانه أرضًا، وفرّ الكثير منهم في فوضى مدمّرة، وهنا عمدت قواتُ القشتاليّين إلى الضغط عليهم بقوّة، فزادت الفوضى، ممّا حدا أبا عبد الله الصغير على أن يصيحَ فيهم: «أن ارجعوا، ولا تتراجعوا». ولكن صياحه لم يُجدِ شيئًا، خاصة مع وصول مددٍ آخر للقشتاليّين من جنود إيطاليّين متطوّعين. تراجع

المسلمون أكثرَ وأكثر، في حين لم تتوقّف المبارزات بين الفرسان المسلمين وخصومهم القشتاليّين، حتى غصّت المسافة بين الجيشين بالجثث الغارقة في دمائها وماء المطر، وغاصت سيقانُ الخيول في الطين، وامتزج هزيمُ الرعد وخرير المياه مع صليل السيوف وصهيلِ الخيول، وصراخ الجرحى وهتافِ الصامدين!

صمد الصغير مع قوةٍ من فرسانه لا يتجاوز عددُهم العشرة، بينما فرّ من حوله بقيةُ جنده ومعظم فرسانه، وهُم في حالة ذعر شديد. وهنا تقدم القشتاليّون تجاه الملك، فدافع عنه فرسانُه حتى قُتلوا عن آخرهم، ثمّ اضطرّ الصغير إلى النزول من فوق صهوة فرسه المزركش الذي صار هدفًا لسهام القشتاليّين وحرابهم. وسرعان ما تقدّم منه فارس قشتالي اسمه مارتن هورتيدو وهاجَمه بحربته فدافع الملكُ عن نفسه بالسيف والترس، فجاء جندي آخر وانضمّ إلى مارتن ثمّ جاءهما ثالث، فتراجع السلطان وطلبَ إليهم التوقّف عن الهجوم عليه مقابل مبلغٍ كبير من المال، لكن مارتن اندفع نحوه عازمًا على الإمساك به، فتلقّاه الملك بالسيف فقتله، وفي هذه اللحظة وصل دون دييغو دي قرطبة، فأفسح الرجال لحصانِه كي يجتازهم، بينما هُم يقولون: «سيدي، نحن نأسر مسلمًا يبدو أنه ذو منصبٍ عالٍ، وهو يعرض علينا فديَتَه»، فردّ عليهم أبو عبد الله قائلًا: «لم تأسروني بعدُ أيها العبيد، وأنا أستسلم لهذا الفارس النبيل».

نظر دون دييغو دي قرطبة إلى أبي عبد الله الصغير بتمعّنٍ شديد وفضول عميق، ورغبةٍ في الاطلاع على هويّته، فبادر الصغير وعرّف عن نفسه على أنه واحدٌ من نبلاء غرناطة!

دون دييغو: «لا تؤذوه، وكونوا في حراسته حتى أعودَ إليكم».

وهكذا وقع الصغير في الأسر بعدما أنكرَ أنه ملك غرناطة، علّهم يقبلون منه المالَ دون الأسر. وبعد ذلك انطلق دون دييغو ليتابع مطاردةَ جيش المسلمين بقيادة علي العطّار مقرّرًا الإجهاز على هذا الجيش وإفنائه قبل أن يستفيقَ من صدمته، خاصة أن عددَ القشتاليّين المهاجمين أقلّ بكثير من المسلمين المنسحبين، وقد خشي دون دييغو أن ينتبِه المسلمون إلى قلّة عدد القشتاليّين فيعودوا إلى الحرب بعد أنْ تقوى نفوسهم فيوقعوا بالقشتاليّين هزيمة مروّعة. جمع دون دييغو جنودَه كوحدةٍ واحدة، حتى يتوهّم المسلمون أنهم كثير، وراح يهاجم فلولَ جيش علي العطّار الذي تراجع بحذر شديد. غير أنّ الفلاحين القشتاليّين انطلقوا، كلٌّ منهم إلى سلاحه، وجهّز نفسه لنهب هذا الجيش المتراجع، وبينما كان العطّار يحاول الانسحاب في سياج من الأمان، إذا بقوة من الجيش القشتالي التي سبق أن انهزمت في مالقة بقيادة دون ألونزو دي غويلار تلتقيه عند أحدِ أفرع نهر شنيل، وكان النهر فائضًا بسبب الأمطار الغزيرة، وعلى ضفّته تجمّع الجيش المسلم بقيادة العطّار، ولكن بشكل مشتّت وقلوب مفجوعة وأبصار زائغة!

هجم دون ألونزو دي غويلار بجيشه على جيش علي العطّار، واختلطت السيوف بالسيوف، واشتعل قتالٌ ضارٍ على ضفة النهر الذي اختلطت بمياهه دماءُ القتلى والجرحى. ولفرط جزعهم ألقى بعضُ الجنود المسلمين بأنفسهم إلى النهر ليلقوا حتفَهم غرقًا، فرارًا من الموت بالسيف (وصدق القائل: مَن لم يمُت بالسيف ماتَ بغيره)!

شعر علي العطّار بالمهانة، وتحرّكت فيه روحُ الجهاد وهو المتمرّس به الخبير بضروبه.. فاستجمع قوتَه رغم سنّه الطاعن، وفقدانه مليكَه، وغضبه من تلك التّراجعات والهزائم المتتالية لجيشه، والتي لم يكن له فيها أيّ يدٍ أو رأي. وتقدّم باتجاه دون ألونزو دي غويلار بحرصٍ شديد، معتزمًا الإجهاز عليه، ومن ثمّ فتح ثغرةٍ لإنقاذ جيش المسلمين أو ما تبقّى منه، وبعد نظراتٍ شَزرةٍ متبادلة رفع علي العطّار رمحَه وهزّه في الهواء بشدة، ثمّ قذف الرمح باتجاه دون ألونزو، وكان رمح علي العطّار لا يخيب أبدًا، ولم يخِب من قبْل، ولكنّه اليوم- ويا للعجب- قد خاب، فلم يصبْ من ألونزو دي غويلار مقتلًا، وإن تمزّق درع دي غويلار لكنّه لم يصبْ بأي جُرح، وهنا استلّ كلا الفارسيْن سيفيهما، لتندلعَ مبارزة شديدة الوطأة تقاتَل فيها الرّجلان على ضفّة النهر، وكلٌّ منهم يتجنّب الوقوع في مياهه، ولكن كبرُ سنّ علي العطّار مكّن دي غويلار من أن يجرحَه ويصيبه مرارًا، وهنا عرضَ دي غويلار على العطّار أن يستسلم، فأجابه وهو على وشك

الانهيار: أبدًا أيّها الكلب القشتالي اللعين. وحاول أن ينهض، فعاجله دي غويلار هاويًا بالسيف على رأسه ليسقط العطّار شهيدًا.. سقط شهيدًا رافضًا للاستسلام ومفضّلًا الموت على ذلّ الاستعباد ومرارة الهزيمة، وفور استشهاده ووقوعه، تدحْرجت جثّته- رحمه الله- إلى النهر ليبتلعها مشن فوره ويسحبها التيار من دون أن يتمكّن أحدٌ من العثور عليه، وقد كانت مكرمةً كبرى لهذا الفارس العظيم أن تختفي جثّته فور استشهاده، حتى لا يتمكّن القشتاليّون من التمثيل بها، وهو الذي في حياته أصلاهم كثيرًا من نار رمحِه وشدّة بأسه ورجاحَة عقله في المواجهة والقتال!

مات العطّار بطلُ الأندلس في رمي الرمح، وصاحب الانتصارات والعقل الحربي الجبار.. استُشهد بعدما دافع عن الأندلس بجسده وسيفِه.. بعدما رفض الاستسلام حيًّا، ونجّى الله جثته ميتًا فرحم الله علي العطّار. وبعد استشهاده لم تتوقّف الحرب، بل زادت ضراوةً وحرارة، ورفضَ القشتاليّون أسرَ أي جريح، وبادروا بالإجْهاز عليهم جميعًا، ومثّلوا بجثثهم، واستطاع محمد العطّار أنْ ينجو بأعجوبة وهو يرى مصارعَ قومه والتمثيل بجثثهم وضحكات القشتاليّين تملأ الفراغَ وتخالط أمطارَ السماء.

أمّا أبو عبد الله الصغير، فقد خشي على نفسه غدرَ القشتاليّين، وهو يراهم بعينه يقتلون الجرحى عوضًا عن الاحتفاظ بهم أسرى. عندها كشف لهم هويّته، وأخبرهم أنه ملكُ غرناطة، فأخذوه إلى

قائدهم الكونت دي قبرا فاستقبله بحفاوةٍ وأدب، وأنزله أحدَ الحصون الغربية تحت حراسة قوية. وأخطر في الحال ملكي قشتالة بالنبأ السعيد، فأمرَ فرناندو أن يؤتَى بالأسير الملكي إلى قرطبة، وأن يُستقبَل استقبالَ الأمراء؛ فأُخذ أبو عبد الله وأصحابه إلى قرطبة في حرسٍ قوي، واحتشد أهلُ قرطبة لرؤية موكبِ الملك المسلم، وكان أبو عبد الله يرتدي ثوبًا من القطيفة السوداء، ويمتطي حصانًا أسودَ عليه سرجٌ ثمين، وكان وجهه منطفئًا من فرط الكآبة، وأُخذ الملك الأسير أولًا إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع، ثمّ أخذ بعد ذلك إلى أحدِ القلاع الحصينة، وعُومِل هناك بإكرامٍ وحفاوة، وأقام في أسرِه مكتئبًا ينتظر يومَ الخلاص.

***

.٤.

بعد ساعات من المذبحة، وصل إلى لوشة فارسٌ وحيد استطاعَ النجاة بنفسه، وقطع ظهر حصانه ليصل إلى بلاد المسلمين، وما كاد يصلُ إلى أبواب المدينة حتى خارت قوّته فوقع مغشيًّا عليه وهو ينزفُ من جراح متعدّدة أصابته، وهنا هبط الجنودُ من الأبراج وفتحوا له البابَ وحملوه وأدركوا في الحال أنّ أمرًا جللًا قد كان، وبالتحديق في وجهِ علم الجنود أنه القائدُ غالب البيّاسي ابن قاضي القضاة، فسأله أحدهم: «كمْ تبعد أيها الفارس عن جيش الملك؟».

ردّ غالب وهو يشيرُ إلى أرض القشتاليّين: «هناك هُم يرقدون كأنما وقعت السماء عليهم. لقد مات الجميع.. ضاع الجميع». ارتفعت في الحال أصواتُ النساء وعويلهنّ، وعلم الجميع أن مذبحةً قد وقعت، وسأل السائل عن الملك وصهْرِه فأجابه: «إنّ الاثنين قد فُقدا على الأغلب. ووسط عويل النساء جمعَ غالب قوّته وقرّر الذهاب إلى غرناطة، ليؤدي مهمةً صعبة. في هذه الأثناء، كانت مريمة بنت علي العطّار زوجة أبي عبد الله الصغير، جالسةً تترقب وصولَ زوجها، تكثر من النظر عبْر نافذة برج التجّار، في انتظار قدوم البشرى بنصرٍ مبين، وكانت تجلس معها في المكان ذاته السيدة عائشة الحرّة وهُما يتناولان أطرافَ الحديث.

عائشة: «كلُّ آتٍ قريب، فهدّئي من رَوعك يا بُنيتي».

مريمة: «لقد طال الانتظار يا عمّتاه، وغلبني الشوق إلى زوجي وأبي، وأنا التي لم تبتعد يومًا عن محمدٍ منذ زواجنا، فشعرت بالوحدة والحنين إليه والخوف على أبي وزوجي من غدر القشتاليّين». وأثناء ذلك تلمحُ عائشة الحرة فارسًا يقترب من القصر فيتهلّل وجهها، وتقول لمريمة: «لقد أتى البشير يا بنيّة، بشير النصرِ إن شاء الله، ثمّ تمسك يدَ مريمة، وتقول لها هيا يا مريمة، فقد جاءت الأخبار، وربما علم محمد بلهفتك عليه فأرسلَ مَن يطمْئنك».

يتهلّل وجه مريمة، ثمّ ترتدي حجابها وتنزل خلفَ عائشة إلى حيث بهو السفراء ورسول زوجها.

تدخل الحرّة إلى البهو وخلفها مريمة فينحني الفارسُ ويسلم، ولا يكاد يرفعُ وجهه من الأرض من شدّة حزنه وخجله، فتبادره الحرّة بالسؤال.

عائشة: «أخبرنا متى سيعود السلطان؟».

غالب (يحاول جاهدًا أن يرفعَ رأسه): «لن يعود يا سيدتي!».

اجتاح القلقُ وجهَ مريمة، بينما جاهدت عائشة كي تبدو رابطةَ الجأش، وتحدّثت مستنكرة: «ماذا تقول أيها الرجل؟».

يبذل غالب جهدًا طائلًا كي تخرج الكلماتُ من بين شفتيه: «لقد حدثت الكارثة يا مولاتي، وحلّت بنا الهزيمة. لقد قُتل معظم الجيش، وأجهز القشتاليّون على الأسرى، وأخذوا مولاي محمدًا أسيرًا»، (تغلبه دموعه فيتلعْثم مجهشًا بالبكاء): « كما قتلوا الأمير عليًّا العطار، وابتلع نهر شنيل جثته»!

تقع كلماتُ الفارس على عائشة وقعَ الصاعقة، فتهوي على مقعدٍ خلفها منهارةَ القوة، بينما تجهشُ مريمة ببكاءٍ سمع الحضورُ صوته. تماسكت عائشة الحرّة وحاولت مواراةَ دموعها، متوجهةً إلى مريمة قائلة لها: «هوّني عليكِ يا بنية، وتذكّري أن أولاد الأمراء والملوك يجب أن يتحلّوا بالصبر والنّخوة والصمود، ولا يتصرّفون تصرف العامة والدّهماء عند الشدائد والفواجع».

يعلو نحيبُ مريمة، وهي تُعوِل قائلة: «أبي.. وزوجي»، ثمّ تنظر من النافذة إلى حيث يجري نهر شنيل، متسائلةً: «مَن سيجمع رفاتك يا أبي من بلاد الأعداء، لتُدفن في مراقدِ المسلمين؟». وتكمل متحسّرةً: «لقد حرمتُ حتى مِن وداعك يا أبي». تنخرط أكثر في البكاء فتشاركها عائشة الحرة في الدموع والنّحيب.

ارتاعتِ العاصمة لهذه النكبة، واضطرب الشعب، وسادَ الوجوم أرجاءَ البيازين والقيسرية وغرناطة كلها، وسرَى الحزن والأسى إلى قلوب الناس، وأغلقت المدينة أبوابَها، كما أغلق الغرناطيّون أبواب منازلهم، وانتشر الرعبُ وتوقّع الجميع الفاجعةَ الكبرى، وخُيّل إليهم أنّ وراء كل عاصفة ترابيّة تهبّ فارسًا قشتاليًّا قد أتى ينوي شرًّا، ومن فرط خوفهم من المستقبلِ تناسَوا الحاضر الذي لا يزال ماثلًا، فلم يتحدّثوا عن قتلاهم. أمّا محمد الغرناطي فقد أصابَه الوجوم والذّهول، فذهب يحدّث نفسه وكأنّه غير قادر على تصديق ما كان، وظلّ يتذكر المعركةَ وكيف أعمل القشتاليّون الذبحَ في المسلمين، وألقوا بجثَثِهم في مجرى النهر أو رموها طعامًا لوحوش البرِّية. فظلّ يصرخ تارة، ويبكي قتلى المسلمين تارة أخرى، حتى ظنّ به أهله الجنون، واستمرّ على هذه الحال فترة طويلة وهو يلعنُ أبا عبد الله محمد، ويصبّ جامَ غضبه ولعناته على الغنائم التي أضاعت جيش المسلمين!

وفي ميدان باب الرّملة الشهير، وعقب يوم واحد فقط على وقوع الفاجعة، اجتمعَ الكبراءُ والقادة وقرّروا على عجل استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش ثانية مكانَ ولده الأسير، كي لا تبقى غرناطة بدون أمير.

***

.٥.

في سجنٍ شديد الحراسة، في إحدى قلاع قرطبة التليدة، سُجن الأمير أبوعبد الله الصغير، وحيدًا يرافقه يأسُه وسوء طالعه ونحسه. سُجن في قعر محبسٍ مظلم كئيب، تحت حراسة مشددة. في هذا السجن، جلس أبو عبد الله يطيلُ التفكير في أمرِ مملكته وشعبه، والحزنُ يخيّم عليه ويحاصره: «ماذا تفعل أمي الآن؟ كيف حال زوجتي مريمة؟ وكيف استقبلتْ خبرَ وفاة والدها؟ وكيف تلقّت خبر أسري؟ هل شعب غرناطة لا يزال ينتظرني أمْ ملّك أحدًا غيري؟» واصل أبو عبد الله التفكيرَ وهو يخطو متثاقلًا على أرض السجن الباردة جيئة وذهابًا، ويستذكرُ أخطاء حربه الأخيرة، ويعضّ على أصابعه غيظًا وندمًا وحنقًا على هذه الظروف التي جعلته يخرجُ من غرناطة ليقع في الأسر، ثمّ جلس في إحدى زوايا سجنه واضعًا كفّيه على وجهه وهو في غاية الحزن والكآبة. ظلّ على هذه الحالِ وقتًا طويلًا، بعدها قامَ لينظر من شُباك صغير في سجنه علّه يجد منه وفيه مخرجًا ومهربًا، فإذا بالنافذة ضيّقة، والسجن في أعلى أبراج القلعة! شاهد أبو عبد

الله ذلك وأطالَ النظر، فمِن البرج الذي سُجن فيه كان بإمكانه رؤية المدينة وحرّاسه وهُم يتبادلون مواقعَهم لمراقبته والسخرية منه. كان مجرد النظر من أعلى البرج لكيفية تشْييده كفيلٌ بقتل أيّ أمل في أن ينالَ هذا الملك المنكودُ أي فرصة للحرية والهرب.

مرت الأيام وأبوعبد الله على هذه الحال، لا يفرق بين ليل ونهار، ولا حتى بين جمعةٍ وأحد، فأيّام السجن متشابهة الملامح، وكذلك أيام عمره تمضي رتيبةً متراخية بغير ملامح أصلًا. وسط هذا اليأس والبؤس فُتح باب السجن فتوقّع أبو عبد الله أن يكون السجّان قد وصل ليقدّم إليه الطعام كما هو معتاد، ولكنه فوجئ أمامَه بزائر غريبٍ مَهيب الطلعة.. وعندما تطلّع أبوعبد الله إلى الزائر من خلال أشعّة الضوء الشحيحة التي دخلت من الباب، إذا هو الكونت دي قابرا، الذي لم يكدْ يدخل حتى بادرَ بتقديم تحية لائقة إلى أبي عبد الله.

دي قابرا: «السلام عليك أيها الملك».

أبو عبد الله (في غير اكتراث): «وعليك السلام».

دي قابرا: «لماذا أراك ضَجِرًا أيها الملك؟».

أبوعبد الله: «الملك..؟!)، يقولها ولا يزيد حرفًا.

دي قابرا: «هوّن عليك يا سيدي، فإنما أنا هنا لخدمتك والتّرويح عنك».

أبوعبد الله (مستنكرًا): «لخدمتي، أمْ لمراقبتي والتحقّق من إحكام سَجني؟».

دي قابرا: «بل لخدمتك والتّرويح عنك، ولكن إن كنتَ تراني سجّانًا فسوف أذهب الآنَ ولن أعود». قال كلماته هذه ثمّ اتجه ببصره ناحية أبي عبد الله، فإذا به لا يعبأ كثيرًا بهذا الحديث، عندئذٍ هبّ دي قابرا معتزمًا الرحيل متخذًا أولى خطواته باتجاه الباب، لكن أبا عبد الله ناداه طالبًا منه البقاء. حاول أبو عبد الله أن يغيّر من أسلوب حديثه مع زائره، متفكّرًا: «فمن يدري لعلّه جاء فعلًا للمساعدة والنصيحة!». هكذا فكّر الصغير، ومن ثمّ قرّر أن يتجاوب مع الكونت.

تبدّلت حال أبي عبد الله، وغيّر أسلوب حديثه، بعدما أيقن بأنّ وجود دي قابرا معه فرصةٌ ربما لن تتكرر، خاصة بعدما أصبح مصيرُه بيد أعدائه، فلماذا إذًا لا يستفيد من وجود هذا الفارس، ولماذا لا يتحامل كي يتجاذب معه طرف الحديث، ربما يدري ما جاء به؟!

أبوعبد الله (بحزن شديد وصوتٍ خفيض): «لقد طالت محنتي أيها الكونت حتى ضاقت نفسي، وقد ساءني ما أنا فيه من أَسْر لا أجد له نهاية، فلا أحد يهتم بوجودي هنا، فكيف الخلاص؟».

دي قابرا (مُظهرًا لمحدّثه شديد اكتراثه): «لماذا تعتقد أن أحدًا لا يهتم بك هنا يا سيدي؟ لقد وصلتني الأخبار بأنّ والدك ووالدتك أيضًا قد عرضا على الملكين الكاثوليكيّين دفعَ المال لافتدائك، ممّا يدل على أن هناك مَن يهتم بك ولك».

أبو عبد الله: «وهل تراهما فاعلَين؟ أقصد هل سيقبل الملكان إطلاق سراحي؟».

تظاهر دي قابرا بالتفكير والحيرة، ثمّ قال بعد صمتٍ يسير: «ربما لو أرسلت إليهم تتغيّر الحال، وتتخذ طريقًا آخر».

أبو عبد الله: «كيف ذلك؟ أفصحْ أكثر».

دي قابرا: «اكتب إليهما يا سيدي مستعطفًا، واعرض عليهما صداقتك، وذكّرهما بنفسك، وثقْ بأن قلب الملكة سيرِقُّ لك، ومن ناحيتى سأتدخّل لمحاولة إقناعها هي والملك فرناندو بأنّك صديق لقشتالة، وحقٌّ على الصديق أن يساعد صديقه» يقول ذلك ويرمقُ الصغير بنظرة ماكرة.

***

هكذا كانت حال الملك الأسير، أمّا مملكته فقد تبدّلت الأحوال فيها بعد قدوم أبي الحسن، فأظهر الكثيرُ من الشعب الغرناطي الشماتةَ في أبي عبد الله محمد، وتمنّى البعض منهم أن يقتلَه القشتاليّون، وسخر البعضُ الآخر منه كيف يستسلم ولا يقاتل حتى يُقتَل بشرف، وقارنوا بينه وبين علي العطّار الذي رفض الاستسلام. وكان محمد العطّار قائدَ هذا الجزء من الشعب، وتحدّثوا بأنه لا يستحقّ شرف الشهادة ولهذا لم ينلْها، ثمّ هتفت الجماهير لحياة السلطان أبي الحسن، صاحب النصر في مالقة ولوشة من قبلها، فهو الجديرُ بحكم تلك

المملكة، لا ابنه المنكود التعيس، وهكذا عادتْ غرناطة لأبي الحسن فعادَ إليها وسكن الحمراء مرة أخرى!

أمّا قشتالة، فقد ابتهجت كلها لما حدث في اللسانة، فلأوّل مرة في التاريخ يُقتل قائد ويُؤسَر ملك، لهذا اجتهد القشتاليّون في الاقتراب من سجن أبي عبد الله محمد وهمزِه ولمْزِه، أمّا الملكان القشتاليّان فرناندو وإيزابيلا فقد قرّرا- لمزيد من التشفّي- أن يذهبا إلى قرطبة؛ كي يشاهدا أسيرهما في قفصه، ويحتفيا بالمرّة الأولى التي يكون فيها ملك الأندلس أسيرًا لديهما، وليعيشا نشوةَ هذا النصر الفريد الذي قلّما يجود الزمان بمثله.

حضرت إيزابيلا في زينتها الكاملة وأبهى ثيابها إلى قصر قرطبة، كي تكون قريبة من هذا الملك المنكود، ولم تكدْ تبلغ القنطرةَ الكبيرة عند القصر، (قنطرة السمح بن مالك رحمه الله)، حتى دقّت أجراس المسجد الكبير في قرطبة مؤذنة بوصول الملكة والملك وحاشيتهما. توقّفت الملكة قليلًا بإزاء المسجد، ونظرت إلى منارته الرائعة والأجراس تدقّ فوقها، واجتاحت ابتسامة عريضة وجهَها، قبل أن تقول بصوتٍ مسموع: «مَن ذا الذي كان يظنّ يومًا أن قرطبة التي شهدت صولاتِ المسلمين وجولاتهم ستشهد غدًا بؤسَهم!؟». نظر إليها فرناندو، وأخذ بيدها وهو يردّد: «قالوا عنها إنها المبتدأ والمنتهى، وقد صدقوا.. ففيها كانت بدايتهم ومنها ستكون نهايتهم». ضحك فرناندو، وشاركته الملكةُ الضحك، ثمّ تحرك الملكان وهُما ينظران

إلى الشعب المحيط بهما المتطلّع لرؤيتهما، وبادلاه التحية، ثمّ واصلا مسيرهما ناحية قصر قرطبة؛ حيث كان كبارُ القادة وحاكم قرطبة في انتظارهما.

.٦٠.

في بهو السفراء، جلس الملك فرناندو الخامس على كرسي العرش، وبجواره الملكة إيزابيلا، وحولهما جمعٌ من فرسان قشتالة المشهورين، وبدأ الحوار وتبادل الجميعُ التهاني بالنصر العظيم في موقعة اللسانة، ثمّ قالت إيزابيلا وهي توزّع البسمات على الحضور وملامحُ البهجة تملأ وجهها: «إنه ليومٌ عظيم في تاريخ قشتالة، أنْ يؤسَر ملك المسلمين على يد فرسان قشتالة، لقد أتى اليومُ الذي يعيد فيه التاريخُ نفسه، ولكن هذه المرة لمصلحتنا، وكما أتى الملك أردونيو إلى ملكهم الناصر يوما طالبًا ودَّه وصداقته، فقد أسرنا نحنُ اليوم مليكهم، وها هو اليوم يطلب عفوَنا وصداقتنا، بل... ويطلب منّا أن يكون خادمًا لنا». (تضحك بسخرية، قبل أن تواصل حديثها): «لم يستطعْ ملك المسلمين أن ينسى الحرير الذي كان يلبس، والجواري التي كانت تغنّي له، والخدم الذين كانوا يزدحمون حوله، فضجر سريعًا واستسْلم لضجره.. فراح يشكو همّه إلى مَن أسره وسجنه!». (تقهقه عاليًا فتتردّد أصداء ضحكاتها في القاعة، ويشاركها الجميع، فتقطع ضجيجهم مكملة): «إنّ من العجب العجاب أن يطلب الأسير النصيحة ممّن أسره، بل ويستشيره في كيفية فكّ قيود الأسر

من يديه، ويسأله عن الطريق لإطلاق سراحه!»، (عندما رأت الملكة علاماتِ الدهشة ترتسم على وجوه الحضور، قالت مفسّرة وهي تقرأ رسالة كانت بيدها): «لقد أرسل إلينا ملك غرناطة من سجنه، بعد مشاورات تمّت بينه وبين الكونت دي قابرا، رسالةً يقول فيها: أبلغوا صاحبي الجلالة الملك والملكة، أنني لا أستطيع أن أكون تعيسًا، وأنا عند ملكين بهذه القدرة والمروءة العاليتين، خاصة أنهما يتمتعان بكثيرٍ من الخير والنعمة اللذيْن يسبغها الله على الملوك الذين يحبّهم.. لقد فكرت منذ زمن طويل في الخضوع لكما شخصيًّا، وأنْ أقدّم لجلالتكما مملكة غرناطة لتكون بين يديكما، ولكن حزني وهمي في هذا الأسر، أنه يبدو أنني أفعل هذا غصبًا عنّي لما يمكن أنني فاعله بإرادتي!». (عاودت الملكة ضحكها الساخر، ثمّ استأنفت حديثَها مستجمعةً انتباه الحضور): «أسمِعْتم يا سادة! هذه رسالة الملك الأسير إلينا. لقد لاطفته في الردّ، وأرسلت إليه طاقةً من الورد، وأمرتُ الكونت دي قابرا أن يحسنَ معاملته ويرفِّه عنه في سجنه، ومن الجميل أنْ أخبركم أنّ قرطبة التي شهدت عظمة المسلمين، ستشهد اليوم ذلّهم وهوانهم»!

تحدّث فرناندو مكملًا شوط الشماتة والسخرية الذي بدأته زوجته الملكة قائلًا: «أريدُ أيها السادة أن أخبركم أنّ سفارتين قد وصلتا اليوم إلى البلاط، إحداهما من أبي الحسن والد الصغير، يطلب فيها الإفراجَ عن ابنه، نظير إطلاقه مجموعة من الأسرى القشتاليّين

لديه. أمّا السفارة الثانية فقد كانت من عائشة الحرّة والدة الصغير وقد عرضت الشروطَ ذاتها من إرسال فدْية كبرى وإطلاق عددٍ كبير من الأسرى لقاءَ إخلاء سبيل ابنها».

دون ألونزو دي غويلار: «العفو يا مولاي، ولكني أرى ألّا نتفاوض مع هؤلاء الكفرة! أنا ضد كلّ حلف معهم. فهذه الحرب ليست لإخضاعهم، ولكن لمحْوِهم وقتلهم عن بكْرة أبيهم، حتى لا يبقى في الجزيرة كلّها أي محمدي»!

تحمْحَمَ مركيز قادش ثمّ قال: «لو أذِنَ لي سيدي الملك وسيدتي الملكة، فأنا لي رأي مختلف عن رأي ألونزو دي غويلار». (نظر الملكان إليه باهتمام وفضول، وأشارت إليه إيزابيلا أن تكلّم، فتابع قائلًا: «إذا كان أبو الحسن قدْ أرسل لافتداء ابنِه من جهة، وأرسلت والدته الحرّة من جهة أخرى للغرض ذاته، فهذا يعني أنّ المسلمين مازالوا غير متّفقين حتى في افتداء أسراهم (يهبّ واقفًا ويتحرّك في القاعة والجميع يتابع حركتَه وحديثه، فيقول): «وهذه أهمّ نقطة يجب علينا النظرَ إليها، إنّ قتْلَنا الصغير أو إبقاءنا إيّاه في السجن وقتًا طويلًا، سيعطي ذلك أبا الحسن الفرصةَ العظيمة لكي يعيد توحيدَ غرناطة، ومن ثمّ يعود إلى حربنا، وهو المجرّب فيها المنتصر علينا غيرَ مرة، أمّا إن أطلقنا سراح الصغير ولو مِن دون أي شروط، فهذا يعني استمرارَ الحروب الأهلية في غرناطة، والتي يمكن دومًا التدخّل فيها إلى جانب أحدِ الطرفين وتدميرهما معًا، وهذا أفضل

بكثيرٍ للمصلحة القشتاليّة؛ لأنّه لن يكلّف الكثير مقارنة بتدمير غرناطة بالسلاح»!

دون بيدرو غونزاليس دي مندوزا (مستشار الملكة): «أنا أؤيد رأي مركيز قادش، وأضيف إليه أننا يجب علينا أن نزودَ هذا الملك الأسير بالمال والرجال، وكلّ ما يحتاج إليه لإضرام نار الحرب الأهلية في غرناطة، وبذلك نؤدي خدمةً للرب الذي قال لنا إنّ المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها البقاء، كما في الإنجيل».

إيزابيلا: «إذن يجبُ أن نحسن استغلال الموقف، فإذا كان هذا الملك العربي قد وضع نفسه تابعًا لنا كما أجداده لأجدادنا، فلماذا لا نحصلُ على الامتيازات نفسها وأكثر؟ لذلك سنحرّر هذا الأسير الملكي بشرط.. أنْ يصبح خادمًا لتاجنا، وبهذا يمكننا إنقاذ الكثير من الأسرى الذين يرسفون في أغلال المسلمين».

يقوم فرناندو من مجلسه ويتحرّك تجاه مائدة عليها ثمراتٌ من فواكه مختلفة الأشكال والألوان، فيختار منها ثمرةَ رمّان، ثمّ يقضمها بأسنانه قائلًا: «ربما حان الوقت لقطف حبّات الرمّان التي تعيش خريفها الآن!». (كان يتحدّث بينما قطرات من عصير الثمرة الأحمر يسيل صانعًا خطّين يسيلان على جانبي لحْيته، بينما ينظر الجميع إلى فرناندو، وتعجب الملكة بكلامه، وفي هذه الأثناء يدخل الحارسُ إلى الإيوان).

الحارس (مخاطبًا الملك): «بالباب يا مولاي الكونت دي قابرا يستأذن في الدّخول على جلالتكم».

فرناندو: «ائذن له».

يدخل دي قابرا في زيّ القتال، وكأنه خارج إلى الحرب، أو آتٍ منها، وينحني أمام الملك والملكة، فيشير إليه فرناندو بالجلوس، مبادرًا إيّاه بالسؤال.

فرناندو: «كيف حال ببدول؟».

دي قابرا: «مسجون في القصر يا مولاي، ونعامله بأفضل ما يكون، كما أشرتم. لقد روّضناه جيدًا يا سيدي حتى أصبح اليوم ينتظر أوامرنا، ونحن أيضًا في انتظار أوامركم الجديدة تجاهه يا سيدي».

فرناندو: «أحسنت أيها الكونت. لولا خوفي من أنْ يعيد أبو الحسن توحيدَ مملكة غرناطة، لما فككتُ أَسْره أبدًا، ولكن السياسة تستوجب فعلَ ذلك، لهذا أريدك أن تذهب إليه، وتجلس معه وتُمنِّيه بإمكانية أن نطلق سراحَه إن هو نفّذ لنا ما نرضاه من شروط» (يمسك فرناندو بقلمٍ وورقة ويلقي بهما إلى دي قابرا، قائلًا له):

«اكتب ما سأمْليه عليك، واذْهب إليه ثمّ عد إليّ بردّه حتى نقرّر ما سنفعل، ولا تنسَ أثناء ذلك أنْ تأمر أمْهرَ الرّسامين بأن يرسموا

لي صورة له، وهو يرسفُ في أسره، حتى إذا أطلقناه يومًا كانت هذه الصورة المرسومة شاهدةً عليه ومخلدة لأَسْرنا إيّاه».

دي قابرا (مجيبًا): «أمر سيدي»، ثمّ يمسك بالقلم ويكتب: «شروط قشتالة لفكّ أسر أبي عبد الله محمد بن علي:

أولًا: الاعتراف بطاعة ملكيْ قشتالة.

ثانيًا: دفع جزية سنوية قدرها ١٢ ألف دوبلة من الذهب.

ثالثًا: الإفراج عن ٤٠٠ أسير قشتالي يوجدون في غرناطة، يختارهم ملكهم، ثمّ إطلاق سبعين أسيرًا كلّ عامٍ على مدى خمسة أعوام.

رابعًا: أنْ يقدم الصغير ولدَه الصغير مع عددٍ من أبناء الأمراء وعلية القوم، ليكونوا رهائنَ يضْمنون حسن الوفاء.

أمّا فيما يخصّ الملكين:

أولًا: الإفراج عن الصغير.

ثانيًا: ألّا يكلَّف الصغير في حكمه بأي أمرٍ يخالف أوامر الشريعة الإسلامية.

ثالثًا: أن يعاون الملكان الكاثوليكيّان الصغير في إخضاع المدن الثائرة على أنْ تعترف هذه المدن حين إخضاعها بسلطة قشتالة.

انتهى».

ما كاد يفرغ من كتابة الشروط، حتى انطلق دي قابرا إلى حيثُ يقع سجن الصغير، فدخل عليه ومعه أحد الرّسامين المهَرة، الذي لم يكدْ يدخل حتى وضع ريشته وأدواته، وبدأ في رسم صورة لأبي عبد الله وهو يرسف في أغلاله.

حاول أبو عبد الله أن يخفي وجهَه، لولا أنْ نصحه الكونت بعدم فعل ذلك طاعةً لأوامر الملك. بجهامة تخفي حزنًا كبيرًا استسلم أبو عبد الله لكلام دي قابرا تاركًا للرّسام أن يؤدي مهمّته، ثمّ جلس يتحدّث إلى دي قابرا فعرض عليه هذا الأخير شروطَ الملك، بعدما أقنعه بأنه تدخّل شخصيًّا لإقناع الملك بفكّ أسره، وأنّ الملك كان يرفض أولًا كلَّ المحاولات لفكّ أسْره. ثمّ عرض عليه شروط الملكين، وما هى إلّا دقائق حتى وافق الصغير من دون تردّد، أو حتى طلب استثناء لأيّ شرط من الشروط، فابتهج دي قابرا، وقرّر أن يعود إلى قصر قرطبة بصحبة الصغير، الذي اختلفت نبرةُ صوته وعاد إليه الأملُ في الحياة، ووجدَ في قبول المعاهدة بدايةً جديدة له، حتى إنْ حكم بموجبها غرناطة تحت اسم الملكين الكاثوليكيّين، فالمهم أن يحكمَ هو غرناطة، وأنْ يعود إلى حرير الحمراء!!

انتهى الرّسام، وعاد دي قابرا ومعه الصغير ليلتقي الملكين القشتاليّين، ولكن تعمدًا لإلحاق مزيدٍ من الإهانة بأبي عبد الله؛ فقد أهمله دي قابرا، تاركًا إيّاه تحت رقابة الحراس خارج بهو السفراء، إلى أنْ يُؤذَن له بالمثول بين يدي فرناندو وإيزابيلا!

جلس أبو عبد الله ينتظر الإذنَ له بالدخول على الملكين، وبعدما استبدّ به الملل ساعاتٍ من الانتظار دخلَ بصحبة دي قابرا، حتى إذا وصلا قريبًا من كرسي العرش، تأخّر دي قابرا مبطئًا من خطوه، تاركًا الصغير ليتقدّم، فانحنى الأخير أمامَ الملكين، ثمّ جثا على ركبتيه، محاولًا تقبيل يدِ فرناندو، كأيّ خادمٍ من رعيّته، لكن فرناندو بعدما تركه برهةً يتصرف فيها تصرّفَ العبيدِ، عاد ليسارع برفعه من الأرض مخاطبًا إيّاه.

فرناندو: «ارفع رأسك يا ملكَ المسلمين، فأنت لدينا عزيزٌ مكين»!

أبو عبد الله: «كنت أتمنى أنْ ألقاك يا مولاي في ظروفٍ أفضل من هذه، ولكنها إرادةُ الله على كلّ حال».

فرناندو: «لقيناك على كلّ حال، وإني لسعيدٌ بلقائك».

أبو عبد الله (في استحياءٍ شديد): «لن أنسى يا مولاي كرمَ ضيافتكم وحسنَ معاملتكم لي، ولذا فأنا أعدُ مولاي بأنْ ألتزمَ بشروط الصلح، وأن أكون خادمًا لك، وأن أحكمَ غرناطة كواحدٍ من عمّالك، وأن أعادي مَن تعادي، وأصالح مَن تصالح، وأكون ورعيتي طوعَ بَنانك».

فرناندو (مربّتًا على كتف أبي عبد الله): «سأضع ثقتي فيك، وسأضعُك تحتَ حمايتي التي أنت جديرٌ بها»!

أبو عبد الله: «سأكون دائمًا عند حُسن ظنّك بي».

***

.٧.

اجتمع الكثيرُ من أهالي قرطبة، ليشاهدوا أبا عبد الله الصغير وهو يغادر إلى غرناطة بعد أن جاء أحدُ نُبلاء بني سراج بالأموال والهدايا النفيسة تنفيذًا لشروط فكّ الأسر، ووسط شماتةٍ كبيرة اخترق موكب الصغير المحاط بالجنود القشتاليّين أراضي قرطبة، متجهًا إلى غرناطة من دون أن يحاول النظرَ في عيون الشّعب القشتالي، وكما دخل قرطبة ذليلًا فقد خرج منها كذلك... خرج وهو يفكّر فيما سوف يقول لأهل غرناطة، كيف يقنعهم بأنّه مليكهم وقائدهم بعد الذي حدث؟! ولم ينسَ بالطبع إبّان خروجه أن يقدّم فروض الطاعة للملكين القشتاليّين، وأن يشكر فضلَهما عليه. ولَدَى وصوله إلى أراضي غرناطة كان في استقباله وزيرُه يوسف بن كماشة ونخبة من فرسانه الذين أتَوا ليخفّفوا عنه أحزانه بأمرٍ من أمّه عائشة الحرة، كما حذّروه من دخول غرناطة جهرًا، فحزن الصغير لذلك، ونسي أن سببَ ذلك هو وقوعُه في الأسر، وتذكّر فقط أن كلّ هذا بسبب أبيه، بل إنه ذكر فضل الملكين فرناندو وإيزابيلا عليه، ومن ثمّ وضع أباه نُصبَ عينيه كأكبر خصومِه، ومن بعده عمّه الزغل، واستماعًا لنصيحة يوسف بن كماشة، فقد حاول الصغير التخفّي وقرّر ولوج المدينة وهي نائمة، ولأنّ شعبيّته محصورة في حي البيازين فقد قرّر الصغير أن يلجأ إليه ويتحصّن به.

وصل الصغير إلى البيازين، فوجد أمّه قد أعدّت له منزلًا كبيرًا في الحي بعيدًا عن أنظار أبيه، وما كاد يصلُ حتى عانق أمَّه عناقًا حارًّا، وذرف بين يديها الدموعَ مدرارًا.. فنهرتْه بقوة، قائلة له إنّ هذا ليس وقتَ عناق ودموع، بل وقتُ تخطيطٍ وتدبير، لإعادة عرشك الذي سلبَك إيّاه أبوك. قالت له عائشة هذا الكلام، مُنحّيَة بالملامة على أبيه، بينما كان الصوابُ أن تلقي لومَها على ابنها الضعيف العائد من الأسر.. فلو أنّه انتصر، ولم يقع فريسةً سهلة بين أغلال الأسر، لما وصلت به الحالُ إلى تلك الحال!

وفي الصباح علمَ أهالي البيازين، ومن بعدهم كلّ أهالي غرناطة، بعودة الصغير الذي أصبح محورَ حديثهم وكلامهم. ولاجتذاب الناس إلى ابنها وتأليف قلوبهم حولَه، وزّعت فيهم عائشة الحرة الأموال، كما وعدَ الصغير بتوزيع المراتب على كبار العامة إنْ هُم ساعدوه على استرجاع ملكه.

وهكذا دوّت في غرناطة كلّها أسئلة من قَبيل «كيف يعود المخلوعُ إلى حكمه؟»، وتداولها الناسُ فيما بينهم، كما تبادلها الأصدقاءُ الثلاثة، عامر ومحمد وعلي!

كان عامر ومحمد يجلسان على شاطئ نهر شنيل، تحت إحدى شجرات الرّمان، وهُما يتجاذبان أطراف الحديث بينما تتناهَى إليهما أشعة الشمس متخلّلةً أوراق الشجرة وغصونها، وإذا بثالثهما علي يمرّ بهما فيسلّم ويجلس معهما.

علي: «السلام عليكم ورحمة الله، ما بالُكم تستمتعون تحت شمس أغسطس!».

محمد: «وعليك السلام يا علي، لكن ليست شمسُ أغسطس هى ما أتى بنا إلى هذا النهر، بل هي غرناطة وشنيلها الذي ابتلع خيرَ جنودنا».

يمسك عامر بحجَر فيلقيه إلى النهر ويخاطبه متسائلًا: «ألم تستطعْ أيها النهر أن تتركَ لنا علي العطّار، وتبتلع بدلًا منه أبا عبد الله محمد بن علي!».

علي: «إنها الأعمار يا صديقي، ولا رادّ لقضاء الله».

محمد: «نعم إنها الأعمار وحسن الخاتمة، فلقد شرّف الله هذا النهر فجعله يحتوي جثمان الشهيد علي العطّار، وليس هذا كذاك، فالشهادة لا ينالها إلّا المتقون».

عامر: «صدقتَ والله، وإني لأرى أنّ هذا الملك ابن عائشة لا يستحقّ شرف الشهادة، فالشهادة تكونُ للأبطال الحقيقيّين الذين يفضّلون الموت على ذلّ الاستسلام، ولهذا فقد استحقّ ذلك الأسر! لقد فقد هذا الملك الصغير كلّ أمارات النُّبل، ولم يعد جديرًا بأنْ يحكم بلاد المسلمين. لقد أورثَنا الذلّ والعار باستسلامه وجبْنِهِ وخنوعه»!

محمد: «على كلّ حال، أبو عبد الله لم يعدْ ملكَ غرناطة اليوم، بل هو أبو الحسن».

عامر (يُظهر الحزنَ والألم الشديديْن): «نعم، هو ليس ملكها اليوم، ولكنه سيتسبّب في مصرعها. ألمْ تشاهد شحنَه للناس في البيازين وخداعَه إيّاهم. يا ليْتَه جمعَ الناس مِن حوله لاسْترداد شرفه المدنّس في اللسّانة بدلًا من شحْنهم لحرب أهلية ستبتلع الأخضر واليابس. (يصمت برهة ثمّ يقول): من مفارقات الأقدار أنّ هذا الشاب يستسلم للقشتاليّين ويتذلّل لهم، ثمّ يأتينا ليحارب أباه ويشقّ المملكة، مشعلًا حربًا أهلية شعْواء لا يعلم عقباها إلّا الله وحده».

محمد: «أراك تقفُ في جانب أبي الحسن»

عامر: «بل قلْ إنك تراني كارهًا لأبي عبد الله وأفعالِه».

علي: «ولكن يا عامر، إن كنت تقف في فسطاط أبي الحسن، فهناك العامة من شعب غرناطة تعاطفوا مع أبي عبد الله، ومازال أكثرهم يراه الملك الشرعي لغرناطة».

عامر (يُظهر ازدراءَه لجهل العامة): «تحدثني عن العامة.. إنهم يتعاملون في السياسة بعواطفهم لا بعقولهم، وها هي عواطفهم تقودهم إلى مؤازرة ملكٍ جبان رضي بالاستسلام، فشقّوا بموقفهم هذا وحدةَ غرناطة، مطيحين بها على حافّة الهاوية»!

محمد: «هدِّئ من رَوعك يا عامر».

عامر: «كيف أهدأ، وأنا أرى ملكًا ذليلًا لأمّة تأبى الهزيمة؟ كيف أهدأ وأنا لم أجدْ لهذا الملك مثالًا في تاريخ المسلمين؟! كيف أهدأ وأنا أراه سببًا في حربٍ أهلية في بلاد تتقاذفها الأهوال، ويحيط بها العدو إحاطة السوار بالمعصم؟».

محمد: «هل كنتَ تريد مِن عائشة الحرة أن تستكينَ لأسر ولدها؟».

عامر: «لا.. ولكن كنتُ أريدها ألّا تستثير الناس من أجله، فلتفكَّه من أسره كما تشاء، ولكن كان يجبُ عليها أن تقدّم مصلحة غرناطة على أهوائها الشخصية، فليس ابنُها مَن يستحق حكمَ تلك البلاد!».

علي (ينظر مستفسرًا): «فمَن إذن..؟».

عامر: «والله إني لأرى أبا عبد الله الزّغل أفضل وأقوى منه شكيمة، وأشجع منه عند اللّقاء».

محمد: «ربما صدقتَ في هذا يا عامر، وإني لأرى أنّ هذا ملكٌ مكسور، لا يصلح للحكم بعد اليوم، إذْ كيف يحارب مَن أسروه وأذلُّوه، فضلًا عن حربٍ أهلية تطلّ علينا من قريب».

***

.٨٠.

ترامتِ الأخبار بأحداث البيازين ودقّت أبواب الحمراء، وقرّر أبو الحسن محاربةَ ابنه والقضاءَ عليه وعلى مَن والاه، لهذا جهّز جنوده وكأنه سيحاربُ قشتالة كلها، وليس ابنه وجزءًا من شعبه! ودقّت طبول الحرب بين الطرفين وأُزهقتِ الأرواحُ بلا رحمة، وأصبحت كلّ غرناطة مسرحًا للقتال والحرب، وفتكَ جنود أبي الحسن بعامّة أهل البيازين الملتفّين حول الصغير، وخافَ الصغير على نفسه من انتقام أبيه ففرّ إلى «المرية» بعد نصيحة الفقهاء له، وجاءَ مرة أخرى ليودّع أمه على عجل، فحاولت ثنْيَه عن قرارهِ قائلة له: «إنّ مَن لا يستطيع إخضاعَ هذه العاصمة ليس جديرًا بأن يسمّي نفسه ملكًا»!

وهكذا تمكّن أبو الحسن، على رغم تقدّم العمر به، مِن أن يقضي على محاولةِ ابنه الفاشلة لخلْعِه مرة أخرى من عرشه، وتوقّع الجميع أن يستغلّ أبو الحسن ما كان ويخرجُ للجهاد، فمَن حارب بهذه الكيفية والعزم يقدر على أن يقدّم لدولته الكثير، ومَن أبلى هذا البلاءَ في البيازين يمكنُه أن يشنّ الحرب على قشتالة. هكذا ظنّ أهل غرناطة، ولكن سرعان ما خابَ ظنّهم، فلم يكدْ أبو الحسن يقضي على محاولة ابنه الفاشلة، حتى ألقى بالسلاح وخلع رداءَ الحرب، عائدًا إلى جواريه وشرابه، يشجّعه على ذلك الوزير رضوان بنغيش. عاد أبو الحسن ليستمعَ إلى الموسيقى، ويشاهد رقصَ الجواري والفتيان، ويصل ليلَه بنهاره، بينما يغرق رضوان في بحرٍ من الخمر.

تناسى أبو الحسن الأخطارَ المحدقة بغرناطة، وأطلق لنفسه العنان لأن يحيا لنفسه ودنياه، مديرًا ظهره لدينه وآخرته ووطنه غرناطة!

وفي إحدى الليالي الصاخبة بالموسيقى والطرب، جلس أبو الحسن ووزيرُه وهُما يستمعان إلى دقّات العود ويطالعان رقصات الجواري، وإذ بأبي الحسن يصمتُ برهة حدّث فيها نفسه بحديثٍ غير مسموع، وهو يتذكّر أحداث حصْن الزهراء عندما أسرَ «ثريا»، ثمّ أخذته ذاكرته إلى استيلاء ابنه على العرش، ثمّ موقعة اللسانة ومقتل علي العطّار، ووقوع أبي عبد الله الصغير أسيرًا، ثمّ تذكّر عودة الصغير إلى البيازين، وما تبع ذلك من حربٍ أهلية راح ضحيتَها عشرات القتلى من أبناء غرناطة. وبينما هو مستغرِقٌ في أفكاره قطعَ عليه الوزير رضوان استرساله.

رضوان (يرفع الكأس بيدِه ثمّ يتجرّعه دُفعةً واحدة، ثمّ ينظر بعدها إلى أبي الحسن متحدّثًا): «ما بال مولاي لا يستمتع بالجواري والموسيقى والقِيَان؟».

أبو الحسن: «تذكّرتُ أحداث العاميْن الماضيَين فأفزعني ما وصلتْ إليه أحوالُ المملكة، فهذا ابني محمد يتربّص بنا من المرية، وهذا أخي أبو عبد الله الزّغل يتطلّع إلى الجلوس هنا مكاني».

رضوان: «لقد انتهى أمرُ الأمير محمد يا مولاي، وما عاد له مِن المؤيدين مثلما كان من قبْل، فقد أذهبتْ موقعة اللسانة حبَّ الشعب له، فغرناطة يا مولاى تؤيّد مَن يأتي لها بالنصر على الأعداء!

أبو الحسن (متهكمًا): «وأين نحنُ من هذه الانتصارات حتى نضمنَ تأييد الشعب لنا؟! لقد أردتُ أن أُسكتَ الشعب بحربٍ وبغزوة جديدة في قلب قشتالة، فأوفدتُ إلى حاكم المرية وأمرتُه بالإيغال في أراضي العدو، فإذا به يؤسَر ويُقتَل أكثر من ٦٠٠ مِن رجاله، ولولا الله ثمّ حامد الثغري لفَنِي كلّ الجيش، وإذا بالغزوة التي أردْنا أن نثبّت بها أركان المملكة تنقلب علينا بهزيمة تهزّ كياننا، وتلهج الألسنة بالحديث عنها شماتةً».

رضوان: «ولكن يا مولاي، لم تكنْ أنت المسئول عن الهزيمة. فأنتَ لم تخرجْ يومًا إلى غزو إلّا وكان النصر حليفَك، ولعلّك لم تنسَ يا مولاي أنّ الحرب الأهلية التي شهدتها غرناطة قد أرهقت الجيش، والحربُ كرٌّ وفَرّ».

يهزّ أبو الحسن رأسَه ثمّ يمسك بالكأس كي يصبّ له أحدُ العبيد، فيرتشف رشفةً ثمّ يكمل الحديث: «لولا هذه الحرب الأهلية لما جلستُ هنا في الحمراء، ولكنتُ على رأس الجيش بدلًا مِن هذا حاكم المرية اللعين جالب الهزيمة والعار لنا».

رضوان: «لو خرج مولاي لانْتهز الأمير محمد خروجَه إلى الغزو، ولاحتلّ غرناطة بجيشه».

ارتمى أبو الحسن على كرسيّه ورفع رأسه إلى أعلى قائلًا: «وهذا ما جعلني أُحجمُ عن الغزو بنفسي، فأنا لا أضمنُ ماذا يفعل بي محمد لو تغلّب بجيشه عليّ!. ومن المؤسف أنّ القشتاليّين استغلوا

ما بيني وبينه، فدفعوا بجيوشهم إلى أرض المملكة، يقتطعون منها ما يريدون، فأسقطوا في شهريْن متتابعين عدةَ مئات من رجالنا، فضلًا عن احتلالهم لحصن الزّهراء!».

رضوان: «هوّن عليك يا مولاي».

أبو الحسن: «أتعلم يا رضوان؟ ليسَ سقوط الزهراء هو ما يؤرقني، ولكن ما يؤرقني حقًّا هو تلك الوحشة التي بيني وبين أهل غرناطة، حتى أني لم أعدْ أنام ملء عيني خشيةً مِن ثورتهم.. فضلًا عن تربّص أخي الزّغل بي وبمملكتي، وارتفاع شأنِه من جرّاء انتصاراته على القشتاليّين في عدة مواقع».

رضوان: «اطمئنّ يا مولاي، فحرّاس القصر لا ينامون، وأسوارُه منيعة وأبراجُه مشحونةٌ بالجند، وأخوك الزّغل في مالقة، ولن يجرؤ على الخروج عليك».

أبو الحسن: «صرْنا نخشى الشعب، والشعب يخشانا، بينما القشتاليّون يصولون ويجولون، ويقتطعون القرى والمدنَ من حولنا». صمت أبو الحسن قليلًا، قبْل أن يلتفتَ إلى رضوان مرة أخرى، ويقول: «أخبرني ماذا فعلتَ مع الفلاحين القريبين من مدينة الحامة؟».

رضوان: «لقد أرسلنا إليهم سرايا من الجند كما أمرتَ يا مولاي، وهُم الآن على أحسنِ حال».

أبو الحسن: «لقد قصمَ سقوط الحامة ظهرَ المملكة، فاتّخذها القشتاليّون مركزًا للإغارة علينا وترويع السكان والفلاحين، لقد صارت حياة المسلمين القريبين من الحامة مستحيلة».

رضوان: «منذ أن عهد بها فرناندو إلى دون دييغو لوبيز دي مندوزا، وهو لا يكفّ عن الإغارة علينا».

أبو الحسن: «أتعلم يا رضوان، بينما نعكف نحن على الشراب واستماع الموسيقى والغناء هنا، يعكف دون دييغو لوبيز حاكم الحامة على عكس ذلك تمامًا؛ فقد منع عن جندِه كلّ أدوات الموسيقى والغناء».

رضوان: «وكيف الحياة إذًا من دون موسيقى، وبلا طرب وراقصات؟».

أبو الحسن: «إنّ الموسيقى والغناء يُضعفان صلابةَ الرجال ويُرخيان عزيمتَهم، ويجعلان الآذان تتعوّد ليونة الطرب وما يصاحبه من نساء وخمر، وبهذا ينفرُ الجنديّ من طبول الحرب وركوب الخيل وقعقعة السيوف. لقد أرهقتنا الدنيا، ولو عاد بي الزّمان لجعلتُ مِن غرناطة مملكة أخرى».

رضوان: «تُرى يا مولاي، هل يستطيع أهلُ غرناطة العيشَ من دون حفلات للعزف والرقص؟».

أبو الحسن: «يستطيعون إن فعلنا نحن- ملوكهم- وأحيينا فيهم طاقةَ الجهاد، والزهد في الدنيا، وحب الآخرة. ولكنْ هيهات يا رضوان، فقد ذهب العمرُ وانقضى».

رضوان: «أمدّ الله في عمرك يا سيدي».

أبو الحسن: «تلك دعوة لن تؤخِّر في أجلي شيئًا» قالها ثمّ قام من مجلسه، وذهب باتّجاه الراقصات وأمسك بيدِ إحداهن ورقصَ غير مُلتفِتٍ إلى شيء!

***

.٩.

أدرك أبو الحسن خطرَ تلك القوة الشعبية الرهيبة التي حصل عليها أخوه الزّغل من جرّاء انتصاره على القشتاليّين في مالقة، كما أدرك أنّ ابنه محمدًا غيرُ صالح للحكم، فتنازل لأخيه عنه، ثمّ انسحب مع زوجته ثريا الرومية وابنيه منها سعد ونصر، وترك غرناطة إلى بلدة «اليورة» ومنها إلى «المنكّب»، ومن المنكّب إلى «مونديخار» التي وافتْه المنيّة على أرضها، فبادر أخوه الزّغل بنقل الجثمان إلى غرناطة؛، حيث دُفن بجوار أجداده في جبّانة الروضة الملكية.

مات السلطان أبو الحسن علي بن سعد، بعد أن فقد بصرَه وصار قبل الموت أسيرًا للفراش، وأوصى بالحكم من بعده لأخيه أبي عبد الله الزغل، فانتقلت بذلك العداوةُ بين الصغير وأبيه إلى الصغير وعمّه،

فناصب أبو عبد الله الصغير عمَّه العداء، ولم يعترف بالوصيّة، فما كان من السلطان الزّغل إلّا أنْ طارد ابن أخيه في المرية وانتزعَها منه، وقتل القائم بدعوته فيها أخاه أبا الحجاج يوسف، وبعدها فرّ محمد بن علي بن سعد إلى بلش، وكان ذلك يعني أنّ أبا عبد الله بن علي لم يستسلمْ لحكم عمّه، ولن يسلّم.. وقبل خروجه إلى المرية كان الأمير الزّغل قد قامَ بالكتابة إلى حكّام المقاطعات والقرى، يخبرهم بوفاة السلطان وبتولّيه الحكم، فما كان من معظمهم إلّا السمع والطاعة، لّما رأوه أحرصَ على غرناطة من ابن أخيه وأشْجع، بل إنّ حامد الثغري حاكم «رندة» حمدَ الله كثيرًا لاستبعاد الصغير عن الحكم، وقال: «لقد بايعتُ السلطان أبا عبد الله محمد بن سعد (الزغل)، وإني على رغم ذلك لأخشى على الأندلس مِن هذا الصراع بين العمّ وابن أخيه خاصّة، وأعلم أنّ أبا عبد الله محمد- أميرًا- ضعيفُ العزم والإرادة قليل الحزم والخبرة، لا يتمتّع بشيء من تلك الخلال الباهرة التى امتازَ بها أسلافه وأجدادُه العظام من بني الأحمر، إذْ إن الملك والحكم غايته يبتغيها بأيّ الأثمان والوسائل، وهذا يعني أن عدمَ إطاعته لعمّه ستجعله مطيّة لقشتالة يستخدمونه في احتلالهم للأندلس!».

وهكذا جاءت البيعاتُ تترى على الزغل، بينما لاحقت ابنَ عائشة اللعناتُ بسبب صداقته مع ملوك قشتالة حتى إنّ بعض الفقهاء حكموا بردّته لموالاته القشتاليّين!

***

تطايرت أوراقُ الأشجار الجافّة في فصل الخريف الطويل فوق السهول الممتدّة إلى مدى البصر في مدينة «رندة» الأندلسية بالقرب من الحدود القشتالية، بينما الشمس كانت تلقي بأشعتها الذهبية الدافئة على جوادٍ أسود بلون الليل ينطلق كالعاصفة ينهبُ الأرض نهبًا في اتجاه البلدة وعلى متْنِه فارسٌ أسود متينُ البنية صارمُ القسمات، مفتولُ العضلات قويٌّ كالجبل صامتٌ كالموت، حتى بلغ البلدة التي كانت الحركة تدبّ في سوقها الكبير مع تحرك الشمس في الضحى، وما كاد الفارس يدخل المدينة حتى التفتتْ إليه عيونُ الجميع تتعقّب اتجاهه، وتتردّد في العقول علاماتُ استفهام عن هويّته وغايته.. أمّا هو فظلّ يتابع طريقه غير عابئ بأحد، حتى وصل إلى قصر الحاكم، واستأذن للدخول عليه.

تحدّث الفارس بصوت عالٍ وبأنفاس متسارعة، وجُمَل متقطّعة حملت حروفها ثِقَل التعبِ الذي احتمله الرجلُ من جرّاء المسافة الشاسعة التي قطعها فقال: « لقد استغلّ فرناندو الخامس الأحداث جيدًا، فعمد إلى تجهيز جيشٍ كبير، وقرّر الهجوم على مملكة المسلمين المتصارعة، والمنقسمة بين العمّ وابن أخيه، لذلك فقد خرج من قرطبة قاصدًا الهجوم على بلاد المسلمين، واستولى على قرية بني المقوقس، وقتل مِن أهلها كلَّ مَن رفض الولاء له، وساقَ البقيّة عبيدًا له، ثمّ تقدّم لمحاصرة حصن ذكوين الحصين، وقد جئتك يا سيدي لتنقذَ الحصن مِن براثن القشتاليّين، إذْ إننا لم نسلّم بعد».

احتقن وجهُ حامد الثغري، واحتفظ بصمتِه بضع لحظات من دون أنْ ينبس ببنْتِ شفة، وسرعان ما غلتِ الدّماء في عروقه ووجْهه، فهبّ واقفًا وهو يقول: «يجب علينا الإسراعُ في نجدة الحصن.. سحقًا للحروب الأهلية وسحقًا للخونة». خرجت الكلمات من فمِه عالية رجْراجَة كأنّها الرعد، فلم يقاطعه أحدٌ أو يردّ عليه، ثمّ اتجه ببصره ناحية الفارس يسأله عن عددِ جيش الأعداء وعدّته.

الفارس: «عددُهم كبير جدًّا يا سيدي، فقد بلغ تسعة آلاف من الفرسان مع عددٍ كبير من المُشاة تصاحبهم الأنفاط الضخمة، ولقد خرج فرناندو بنفسه على رأس هذا الجيش، يرافقه دون ألونزو دي غويلار، ولويس فرناندو بيترو كاريرو».

ما كاد الجندي يفرغ مِن قوله، حتى نظر الثغري إلى صالح ويوسف قائلًا: «مَن به منكم ذرّة شفقة على أطفال ونساء المسلمين في حصني قرطبة وذكوين فليتبعني، فإنّي ذاهب إلى إنقاذهم أو الموت معهم!».

قال الثغري عبارته التي دوّت في القاعة كرشْق السّهام، ولم يردف بعدها حرفًا، بل خرج إلى حرّاسه وجيشه الصغير، ونادى فيهم بصوته الجَهْوري: «حيّ على إنقاذ بلاد المسلمين، حيّ على إنقاذ أعراض المسلمات».

سرتْ كلمات حامد الثغري في الجيش وفي أهل المدينة ففعلتِ الكثير، وتحمّس الجميع لمرافقته في الذَّبّ عن بلاد المسلمين،

وخرجوا معه لإنقاذ الحصنيْن، رافعين علمًا أبيض يدلّ على أنه حاكمُ رنده، وبسرعة كبيرة تابع حامد طريقَه عبْر الحقول والوديان؛ لإنقاذ الحصن من السقوط بيد القشتاليّين، ولم يترجّل من فوق ظهرِ حصانه حتى وصل بجيشه الصغير إلى مَقربة من حِصن ذكوين، ليشاهد الجنود القشتاليّين وهُم يقذفون أسوار الحصن بالأنفاط، وفي هذه الأثناء رآه أهلُ الحصن فارتفعت روحُهم المعنوية، وفتحوا أبوابَ حصنهم واشتبكوا مع القشتاليّين في معركةٍ ضارية، وهنا رأى الثغري أنّ اللحظة مناسبةٌ كي يشتبكَ في المعركة، فانطلق بسرعة نادرةٍ وسلّ سيفه وأطلقتْ حنجرته صرخاتٍ مفزعة، ثمّ نداء «الله أكبر»، فانهالت سيوفُ جيشه وحامية الحصن على الجيش القشتالي فأزهقتْ من جنودِه الكثير، وبعدها نجح الثغري في دخول الحصن، وراح ومعه رفقاؤه يتفقّدون أسوار الحصن ويوزّعون المهام، أمّا القشتاليّون خارجَ الحصن فقد هالَهُم ما حدث لهم، فجنّ جنونهم وراحوا يقذفون الحصنَ بالنار واللّهب وقذائف الأنفاط الضخمة، ثمّ ركزوا قذائفهم على موضعٍ معيّن من السور فثَلَموه، واستعدّ المسلمون للدفاع عن أنفسهم ومدينتهم، وإذا بالكونت أوف نقصري وكونت بناقنتي يدْخلان من تلك الفتحة يرافقهما لويس دي سيدرا بجزءٍ من قواته.

استجمع حامد قواته وبدأ بالضغط على القوات الغازية، واستطاع أن يسحبَ القشتاليّين إلى شوارع جانبية في الحصن، وفي

تلك الشوارع انتهزَ حامد ضيقَ المكان وحاصرهم من أمامهم ومن خلفهم، بينما النساء والأطفال يقذفونهم بالحجارة والنشاب من أسطح المنازل، كما استطاع القنّاصة المسلمون ببنادقهم الطويلة أن يصرعوا مجموعةً من المهاجمين من أسطح وشبابيك البيوت، ما اضطر القشتاليّين إلى الفرار ناحية الأسوار بعدما سقط معظمُهم قتلى.

هدأتْ نيران الأنفاط بعض الوقت، واستجمع حامد قواته وبدأ بإغلاق الفتحة التي أحدثتها الأنفاط، لكن مع بدءِ تنفّس الصبح كثف القشتاليّون من نيران أنفاطهم حتى استطاعوا في تلك المرة أنْ يحدثوا أكثرَ من فتحة، بل إنهم هدَموا جزءًا كبيرًا من الأسوار، فتقدّم الفارس المغوار حامد الثغري قائلًا لأهل الحصن: «لقد جئنا لنجدتكم أو الموت معكم، فاطمئنوا.. فرقابنا دونَ رقابكم، ولن تسبَى نساء المسلمين وفي أحدِنا عرقٌ ينبض أو قلب يخفق. فاستعدوا لموتٍ مشرّف تحت أسوار هذا الحصن». وبينما يتحدّث الثغري إذْ بجندي قشتالي يرفع علامة الرُّسُل يريدُ مقابلته، فما كاد يتقدّم حتى حاصرته مجموعةٌ من جند المسلمين، وطلب إليه أن يعرّف بنفسه، وفي صوتٍ خائف مهتزّ تحدّث الجندي قائلًا: «اسمي بيرو، وأنا رسول من مولاي فرناندو إلى أهل الحصن، وهذه علامةُ الرسل جئت أحملها إليكم».

حامد الثغري: «هدئ مِن رَوعك يا هذا، فنحن لا نقتلُ الرّسل».

بدأت أنفاسُ بيرو في الهدوء شيئًا فشيئًا، فبادره الثغري وسأله عن سبب دخوله الحصن.

بيرو: «يطلب إليكم مولاي فرناندو أن تسْتسلموا، فلا داعي للمقاومة، على أن يتعهّد مولاي بحسن معاملتكم والإبقاء على أرواحكم»!

ابتسم حامد في سخرية وتحدٍّ ثمّ قال: «ومَن قال لك إنّنا سنستسلم؟!».

بيرو (موجّهًا ناظريه إلى أسوار الحصن المتداعية): «لقد سقطت الأسوار، وإن استطعتم الصمودَ ساعة فلن تستطيعوا كلّ ساعة يا سيدي؛ لذلك فاستسلام شريفٌ خيرٌ ممّا سواه!».

يحتدّ صالح الغماري ويزمجر موجهًا كلامه إلى بيرو قائلًا: «هل جئت إلينا رسولًا أم مهدّدًا يا هذا؟!».

بيرو (يتحدّث بخبث): «بل جئتكم ناصحًا يا سيدي».

صالح الغماري: «لا نريد نصيحتَك، ولا تتجاوز حدّ الرسل، فيسقط حقّك ويُهْدر دمُك».

يلتزم بيرو الصمت، بينما يدخل حامد الثغري في تفكيرٍ طويل، وهو ينظر إلى أسوار الحصن المتداعية وأطفال المسلمين داخل

الحصن ودموع النساء وهنَّ يبكين أزواجهن وأولادهن الشهداء من جرّاء قذف الأنفاط، وهو يكادُ يتفجّر من شعوره بالعجز عن حماية الحصن ومَن فيه، لكن صالح الغماري يربِّت على كتفيه ليوقظه من تفكيره وألمِه، ويواسيه، ويحدّثه في حزن شديد، متطلعًا إلى عيون الأطفال في شوارع الحصن) ويقول :«لولا هؤلاء ما سلَّمنا».

حامد الثغري: «ومَن قال إنّنا سنستسلم؟!».

صالح الغماري: «نستسلم اليوم حتى نقاتل غدًا، فذلك أفضلُ من أنْ نقتل اليوم ويقتل هؤلاء (مشيرًا إلى أهل الحصن) في معركةٍ محسومة مقدّمًا»!

استجمع حامد الثغري قواه وفكّر مليًّا في كلام صالح، وقال: «لا رادّ لقضاء الله». ثمّ أمر بالرسول فأوتيَ به، وقال له في لهجةٍ جادّة: «لولا أطفال المسلمين ونساؤهم وملوك متصارعون متقاتلون لما تركتُ لكم حبّة من رملِ هذا الحصن (مشيرًا إلى الأرض) قبل أن أرويها بدمائكم».

بيرو (مستبشرًا وقد انفرجتْ أساريره): «إذًا، لقد قرّرتم التسليم بالأمان».

حامد الثغري (متحدّثًا بلهجة أَنِفة): «لا.. لن أنزل على شروطكم أبدًا، ولن أذلّ نفسي لكم ما دامت في يدي بعضُ القوة، لذلك على سيدك إنْ أراد الحصن أن يعمل بشروطي.. وإلّا فوالله لأقتلنّ مِن

رجاله ما استطعتُ، فلا يدخل الحصن إلّا على جثثهم، بعدما أروي الأرض من دمائهم، ولن يضرّني بعدها كيف يكونُ موتي أو حياتي. سأقبَلُ بالتسليم يا بيرو، ولكن ليس خوفًا من الموت، فالشهادة حلمي ودعوتي ومُرادي، ولكن سأستسْلم خوفًا على نساء المسلمين من الاغتصاب والرّق، وعلى أطفالهن من الاستعباد والذّل، فإنْ قبلَ فبها ونعمت، وإلّا فليقبض على سيفه وليكمل القتال».

وبسرعةٍ واضحة تحدّث بيرو، وكأنه كان يخشى أن يتراجعَ الثغري في قراره فقال:

«حسنًا حسنًا.. ما الشروط التي تراها؟».

حامد الثغري: «أن يخرج جميعُ مَن في الحصن مِن نساء وأطفال مِن دون أنْ ينبذهم أحدُكم، ولو ببنْتِ شفة، وأن يخرج المحاربون بكامل أسلحتهم وألّا يتعرض لهم أحد. وليعلم مولاك أنّ ما حملني على القبول بتلك الشروط هو أرواحُ النساء والأطفال، ولولاهم ما استسلمتُ لكم قط».

ينحني بيرو أمامَ حامد الثغري، وهو لا يكاد يصدّق نفسه من فرط إعجابه به، ثمّ يخرج باتجاه أسوار الحصن بينما يغرق الثغري ومَن معه في بحرٍ من حزنٍ رهيب، وما هي إلّا ساعة أو أقل حتى عاد إليهم بيرو مُبلّغًا إياهم موافقة فرناندو على الشروط.

زفر حامد الثغري زفرة كأنّها جهنم، ثمّ راح يهدئ من رَوع الأطفال والنساء، ويأمرهم بالتأهّب للرحيل، وهو يكاد يموتُ حسرةً وكمدًا، لذلك فقد استغلّ جمود الحرب وراحَ يودّع الحصن بعينين حزينتين، حتى إذا دخل المسجد صلّى فيه وودّعه، ولم يستطع أن يغالبَ دموعه، فهو يعلم أنّ صلاته هذه ستكون آخرَ صلاة تقامُ في هذا المسجد العظيم. ولمّا اكتمل الجمعُ خرج السكان مع متاعهم وسلاحهم، بينما حامد الثغري وجنوده يحيطون بهم. خرج المسلمون من الحصن، ومرّوا عبر معسكر «الأعداء» الذين نظروا إلى الثغري نظراتٍ بعضها حافل بالإعجاب الشديد والأخرى مشتعلة حقدًا رهيبًا. وإثر خروج آخر المسلمين من الحصن، نظر إليه حامد نظرةَ وداعٍ وهو يكاد يبكي مسائلًا نفسه: كيف سلّم أرضه لأعدائه، بينما رأسه لا يزال باقيًا فوق جسده؟!

لم يكدِ المسلمون يخرجون من الحصن، حتى دخل القشتاليّون إليه رافعين صليبَهم الأعظم وهُم يتغنّون بأهازيج النصر على المسلمين. وفوْر دخوله الحصن أمرَ فرناندو بتحويل مسجدِه إلى كنيسة، وصلّى فيه صلاة الشكر، ثمّ راح يتفقّده بينما انصرف جنوده يفتّشون ما خلّفه أهلُ الحصن المغادرون، علّهم يجدون وراءهم شيئًا ثمينًا أو مالًا منسيًّا، ومع دخول الليل أمرَ فرناندو بإقامة معسكرٍ داخل الحصن الذي تهدّم معظمه من جرّاء الهجوم القشتالي عليه، ونُصبت الخيمة الملكية في مكانٍ مرتفع، وأقام فرناندو حفلةً صغيرة

للاحتفاء بهذا النصر. وأمسك فرناندو بكأسٍ مُترعة بالخمر، وهو يقول بعدما ارتشف منه ملء فيه: «لقد أمرتُ بهدْم الحصن وتسويَتِه بالأرض، ولولا صعوبة احتفاظنا به لما أمرتُ أبدًا بهدمه»!

مركيز قادش: «حقًّا يا مولاي، فالحصن شديدُ المَنَعة والحصانة، وكان يمكننا إصلاحُ ما فسد من أسواره وشحنِه بالجند والمقاتلين، ليكون بذلك شوكةً في ظهور المسلمين».

فرناندو: «إنّ إصلاحه وشحنه بهذه الطريقة، وفي هذه الأثناء، سيكونان عائقيْن لنا ومشتتَيْن لقواتنا، لذلك سوّوه بالأرض، فلا وقتَ لدينا؛ إذ يجب أن ننقل بسرعةٍ معداتنا الحربية من أنفاط ومجانيق إلى حصن قرطبة. نريد أن نتخلّص ممّا يثقل كواهلنا حتى نستطيعَ مفاجأة مالقة وأخْذها».

مركيز قادش (وكأنّه متعجّب ممّا يسمع): «مالقة..!».

فرناندو: «نعم مالقة، يا رودريغو».

مركيز قادش: «يا مولاي، لقد تنبّه العرب لنيّتنا، فأحاطوا مالقة بكلّ ما يؤمنها».

الملك فرناندو: «وهل صرتَ تخاف العرب يا رودريغو؟ هل صرتَ تقيم لهم وزنًا؟».

مركيز قادش: «ليس الأمر كذلك سيدي الملك».

فرناندو: «فما هو إذًا؟».

مركيز قادش: «تعلم يا سيدي أنني لا أخشى أحدًا، ولكنك تعلم أيضًا حرصي وخوفي على جلالتكم وعلى جيش جلالتكم، وأنا يا سيدي قد بلغني من يوسف الظريف..».

فرناندو (مقاطعًا ومردّدًا): «يوسف الظريف..؟!».

مركيز قادش: «نعم يا سيدي، يوسف الظريف.. إنه عربي متنصّر يعمل جاسوسًا لديّ مقابل أموال طائلة».

فرناندو (يهزّ رأسه قائلًا): «وماذا قال لك جاسوسك؟».

مركيز قادش: «قال إن المسلمين قد تنبّهوا لنيّتنا غزو مالقة، فشحنوها بالجند، وتحصّن بها السلطان العنيد أبو عبد الله الزغل، وقوّى من حصونها ودفاعاتها، كما أرسل إلى القرى المجاورة كي يهُبّوا إلى نجدته بأسرع وقتٍ ممْكن إنْ هو طلب منهم ذلك. وهذا يا مولاي ربما يفسّر عدم إقدام الزّغل لحصني ذكوين وقرطبة، فقد فضّل أن يحفظ مالقة على أن ينجدَ الحصنيْن».

صمتَ فرناندو برهةً من الزمن قبل أن يقول: «ولكني لم أخرجْ بكلّ هذا الجيش لأحتلّ هذين الحصنيْن فقط؟».

ألونزو دي غويلار (متدخّلًا في الحديث): «لي رأي يا سيدي، إن أذنت لي».

فرناندو (ينظر إليه مستفهمًا ومشيرًا إليه بالتحدّث): «ماذا لديك يا ألونزا؟».

ألونزو دي غويلار: «نغزو «رندة» يا مولاي، فهي أولًا غير محصّنة بالشكل الكافي، كما أنّ المسلمين لا يتوقّعون هجومنا عليها. لذلك تركوها من دون حماية كافية، كما أنّ في هجومنا على «رندة» فرصة لنردّ الثأر لحاكمها المغرور حامد الثغري، ونلقّنه درسًا لن ينساه».

فرناندو: «ماذا تقول في «رندة» يا رودريغو؟».

مركيز قادش: «نعم «رندة» يا مولاي، فهي قريبةٌ من هنا، لهذا سيكون هجومنا عليها سريعًا خاطفًا، وسيكون مفاجأة تشلّ تفكير المسلمين عن مجرد التفكير في نجدتها، ولقد علمتُ يا مولاي، من شبكة جواسيسي، أن جنود «رندة» قد هبّوا لنجدة مالقة خوفًا من غزونا لها، وهذا يعني أنّ «رندة» الآن خالية ممّن يدافع عنها».

ألونزو دي غويلار: «وهناك أمرٌ مهمّ جدًّا يحتّم علينا مهاجمة «رندة» الآن، إضافة إلى ما سبق، وهو أن حامد الثغري حاكم «رندة» يحتجزُ في حصونها عددًا كبيرًا من الأسرى القشتاليّين، لهذا واجبنا يا مولاي أن نحرّرهم ونردّ لهم كرامتهم التي سلبَهم إيّاها العرب».

هزّ فرناندو رأسه متعجبًا من حدّة رأي مركيز قادش، ومن كلام دي غويلار وقال: «لم تتركوا لي فرصةَ الاختيار.. لهذا سنتوجّه إلى رندة، مفتاح غرناطة التي يستحقّ أهلها التأديب نظيرَ ما قدموه من مساعدات لحصنيْ ذكوين وقرطبة»!

***

بعد أيام من احتلال حصني «ذكوين» و«قرطبة»، تحرّك الجيش القشتالي صوبَ مدينة «رندة»، وهو يقتلع ما يلقاه في طريقِه من أشجار وزروع، ويروِّع الآمنين في بيوتهم وينتهكُ الحرمات، إذْ لم يمرّ القشتاليّون على قرية إلّا وانتهبوها، أو على بستان إلّا وأحرقوه أو سرقوا ثماره. وبعد يوميْن من التحرّك وصل الجيش الغازي إلى أبواب «رندة»، ووقف أمام أسوار تلك المدينة المنيعة التي يصعُب اختراقها، فـ «رندة» تقع في قلب جبالٍ وعرة، تحيط بها قلعتُها القوية، ويلفّها سور حصين يتكّون من جدران ثلاثة، ولها ضاحيتان مُسوَّرتان بجدران وأبراج، ويخترق المدينةَ أنهارٌ وجداول عدّة تنتج أشهى الثمار.

اقترب الجيشُ القشتالي من الأسوار تصحبُه ضجّة قوية تمتزج بهمهمة الجنود وصهيل الخيل التي تثيرُ حوافرها سحبًا كثيفة من الأتربة كادت تحول دونَ رؤية الموكب، وخلف الجيش مجموعةٌ كبيرة من البغال تجرّ الأنفاط الكبيرة لدكّ الأسوار. وبإشارة من الملك فرناندو توقّف الجيش تجاه المدينة التليدة، التي سارعت بإغلاق أبوابها واستعدّت للحصار.

أمرَ فرناندو جيشَه بإحكام الحصار، والبحث عن منافذ لاختراق المدينة وبثّ العيون لاستطلاع الأخبار، ومعرفة إنْ كان هناك مَن يتحركُ مِن خلفهم بقصدِ مهاجمتهم، إذ كان يتوقّع أن تأتي نجدات من مالقة أو غرناطة أو المرية. وبعد وقت ليس بطويل، جاءت الأخبار السّارة إلى القشتاليّين، عن طريق خونة من الجواسيس

المسلمين الذين باعوا دينَهم ووطنهم بحفْنة من الدنانير، يدفعها إليهم مركيز قادش، هذا الفارس العنيد الذي استمع لجواسيسه وأخبارهم ونقلها- وبسرعة كبيرة - إلى سيده فرناندو المتأهّب لسماع تلك الأخبار.

مركيز قادش: «بشرى يا مولاي، فقد بلغني أنّ حامد الثغري قد خرج من المدينة للغزْو والإغارة، ممّا يعني عدم وجوده داخل المدينة، أي أنها حاليًا من دون قائد يلتفّ حوله المدافعون عنها».

فرناندو (مبتسماً ومتعجّبًا): «لم يكدْ يعود من حربنا في ذكوين حتى خرج للإغارة علينا! يا لهُ من رجل صعْبِ المِراس وفارسٍ لا يلين. على أني سأقتله يومًا، فمثله إمّا أن يكون معنا أو لا يكونَ على الإطلاق». (يصمت لحظة، وعيناه مفتوحتان، ثمّ يقول مستدركًا ومستهجنًا): «وهل نجح في غارته تلك؟ وأين كانت حامياتنا؟».

مركيز قادش: «لقد خرج من رندة، ومعه ثلة من أفضل جنده، وشنّ غزوات في الأراضي التابعة لنا يا مولاي، فهاجم شذونة وأثخن فيها».

فرناندو: «اللعين! يفعل بنا ما لم يفعله غيره. على أني سعيدٌ بغزوته تلك، إذْ إنها تعني أنه لم يتوقّع أو حتى يخطر على باله أنّنا سنغزوه، فترك مدينتَه وذهب». (يقهقه في حنقٍ عجيب): «لكنني لنْ أتيح له فرصة العودة إليها مجددًا، بل إني لنْ أسمح له حتى بفرصة توْديعها»!

مركيز قادش: «نعم، لقد تحقّق عنصر المفاجأة كاملًا، والآن علينا ألّا نضيّع الفرصة، حتى إذا تنبّه حامد لنا، تكون المدينة قد فتحت لنا أبوابَها، وبهذا تخلص لنا بأقلّ خسائر ممكنة».

التفت فرناندو إلى رندة، ويستنشق شهيقًا عميقًا، متنسمًا هواءها المُنعش، ثمّ يقول: «اليوم سألتقط مفتاحَ غرناطة.. اليوم سأجني ثمراتِ الرّمان!». (ثمّ ينظر إلى مركيز قادش وألونزو دي غويلار موجهًا إليهما الحديث): «لنبدأ الهجوم فورًا.. أريد أن تتحوّل هذه المدينة إلى جمرةِ نارٍ كبيرة. اهدموها بالأنفاط والمجانيق، ولا تبقوا منها شيئًا».

يومِئ مركيز قادش برأسه، ثمّ يتجّه إلى جنود الأنفاط فيأمرهم ببدءِ إطلاق قذائفهم، بينما يتّجه ألونزو دي غويلار إلى مَيْمنة الجيش مستعدًّا لاقتحام المدينة فوْرَ تمكّن الأنفاط من ثَلْم أسوارها.

دوّت أصواتُ الأنفاط المزعجة، وتصاعدت أعمدةُ الدخان من كلّ أرجاء «رندة» الأبيّة، وتواصل الهجوم شديدًا وقاسيًا، بينما رماة المسلمين فوق الأسوار يقنصون كلّ مَن يقترب مِن أسوارهم. مرّت الساعات ودخل اللّيل ثمّ تبعه النهار، والأنفاط لا تكفّ، لكن الأسوار بقيت صامدةً متماسكة، والمسلمون من خلفها يُبدون شجاعةً عظيمة ورباطة جأش في انتظار مَن ينجدهم ويفكّ الحصار عنهم.

ضجّ المكان بأصواتِ قذائف النيران المتتابعة، فقد كانت الأنفاط كبيرةَ الحجم بحيث إنّ أصواتها كانت تصمّ الآذان، وترجفُ القلوب. وبينما يمتطي فرناندو ظهرَ حصانه، إذ اضطربتْ ميسرة جيشه بشدّة رهيبة، وإذا ببعض القشتاليّين يصيحون: «الثغري.. الثغري». وسرعان ما اضطرب نفسه فرناندو اضطرابًا شديدًا، وظهرت عليه علاماتُ الترقّب والقلق، بينما الصراخ ما زال عاليًا.. ثمّ أمر فرناندو مركيز قادش بأن يمدّ ميسرة الجيش بقواتٍ إضافية.

كان حامد الثغري قد عاد إلى رندة، ففوجئ بوجود جيش القشتاليّين يحاصرها، وسحبُ الدخان تعلو وتتكاثف صانعةً سحبًا قاتمة غطّت سماء المدينة، منْبِئة بأنّ الهجوم شديد والتّخريب كبير. كاد الثغري أن يجنّ جنونه، فلم يكنْ يتصور أنّ «رندة» ستكون هدفًا للقشتاليّين، وراعه أنه- الآن- خارجها، لا يملك مِن أمرها شيئًا، فجلس ينظر إلى المدينة وقلبُه يتقطع، إذ إنه يعلم بفراغ المدينة ممّن يتولّى أمرها ويرتّب شئونها واتّخاذ زمام المبادرة للدفاع عنها.

بعد تفكيرٍ قصير لم يجدِ الثغري أمامه إلّا قرارًا واحدًا، أن يكرّر هجومه آملًا أن يفتح ثغرةً للوصول إلى رندة، حتى يتمكّن في الانخراط بين أهلها يشاركهم القتالَ ومقاومة الحصار.

استغلّ حامد الظلام ودخول اللّيل، وشنّ وجنودُه هجومًا شديدًا، فارتفعت الأصوات والصرخات، وسقط الكثيرُ من القشتاليّين قتلى، وأوشك المخطّط أن ينجح لولا الإمدادات التي

أرسلها فرناندو بقيادة مركيز قادش، إذ استطاعت تلك التّعزيزات أن تردّ حامد على عقبَيْه بعد أن قُتل من رجاله الكثيرُ من الشّجعان، ومن ثمّ عاد إلى قمم الجبال ينظر إلى مدينته ويترقّب مصيرَها تحت الحصار والهجوم.

في هذه الأثناء، تقدّم مركيز قادش من الملك فرناندو، بينما لا يزال سيفُه تتقاطر منه الدماء، وتحدّث إليه قائلًا:

«لقد ردَدْنا الثغري ففرّ إلى قمم الجبال يا سيدي».

فرناندو (يتحدّث بغضب): «أرسل خلفه مَن يقتله. لا أريد أن نكون محصورين بين الثغري وأهل رندة».

مركيز قادش: «فعلتُ يا مولاي، ولكنّ الثغري ردّ جنودنا بإلقاء الحجارة الضخمةعليهم من أعالي الجبال التي يعتصمُ بها».

فرناندو: «إذًا، جرِّد له ألفَ فارس يراقبونه حتى إذا حاول أنْ يفاجئنا مرّة أخرى؛ كانوا له بالمرصاد».

مركيز قادش: «أمر مولاي».

انحنى مركيز قادش أمام الملك وخرج ليتابع الحرب. وكانت أصوات الأنفاط لا تزال تعلو وتعلو، والجيش الغازي يتابع ضرباتِه للأسوار.

فكّر فرناندو قليلًا، وسأل نفسه: «ماذا لو استطاع الثغري اختراقنا والوصول إلى المدينة! أخشى أن يطول الحصار، ووقتها

سنكون هدفًا للزغل وهجمات القرى الإسلامية المجاورة التي ستأتي لنجدته»!

اضطرب أمرُ فرناندو وارتاعَ ممّا قد يحدث، وبدأ خوفه من مغامرات الثغري يهجسُ في قلبه، إلى حدّ أنْ أفضى به جبنُه إلى أن يأمرَ بإحراق المدينة وضربِها بكُرات الزيت والأنفاط، قائلًا لجنوده: «أريد أن أسمع مِن مكاني هذا صراخَ الأطفال وعويل النساء واستغاثات القتلى- يصرخ- لا تُبقوا منهم أحدًا»!

عند ضاحية المدينة وقف مركيز قادش بعدما نجح في احتلال الضاحية حتى وصل إلى النهر، ثمّ أمر جنوده بتغيير مجرى النهر حتى يجبر أهل المدينة على التسليم، فسارع الجنودُ بتنفيذ الأمر، ولكن أهلَ المدينة لم يسلموا أو يستسلموا».

تراوح الحالُ بين إصرارٍ على الاحتلال من القشتاليّين وإصرارٍ أكبر على التحدّي من أهل المدينة، وكاد الجيش القشتالي أن يفقدَ حظوظَه في النصر، خاصةً بعدما فشلت خطط تحويل مياه النهر في إجبار أهلِ «رندة» على التسليم، وإذْ بأحد الجواسيس العرب يتقدّم في حذَرٍ كبير نحو مركيز قادش، ويخبره بأنّ أهل المدينة لا يعتمدون في شربهم على النهر، بل على ممرّ سرّي أسفل الجبل!

اندهش مركيز قادش من كلام الجاسوس، وابتهج لمعرفتِه السرّ العظيم، وقرّر الوصول إلى ذلك الممرّ وردْمه بأيّ ثمن. وبدأ يدور

حول الأسوار إلى أنْ بلغ ذاك الممرّ السري؛ فارْتشَفَ من مائه العذب، ثمّ أمر بإغلاقه وهو يقول: «الآن سيكون أهلُ المدينة تحت رحمتنا!». قال ذلك ثمّ ارتدّ إلى خيمة الملك ليطلعَه على جديد الأخبار.

فرناندو (يتحرّك في الخيمة وهو يقول): «يجب علينا أن نحثّهم على الاستسلام بأسرع وقتٍ ممكن، فنحن الآن عُرْضة لهجوم القبائل والقرى المجاورة لنا، وهذا اللعين حامد الثغري يرابط بقوّاته في انتظار أن تسنح له فرصةٌ للهجوم علينا. لهذا عليك الآن أنْ تأمر هذا الجاسوس بأن يكتب رسائل بالعربية إلى أهل المدينة يحثّهم على التسليم والاستسلام، ويخبرهم في الرّسالة أنْ لا أمل لهم في النجاة إلّا عن طريقنا والتسليم لنا، وإلّا فالظمأ المفضي إلى الموت بألسنةٍ جافة»

مركيز قادش: «هل مِن أوامر أخرى يا سيدي؟».

يقعد فرناندو على كرسيّه قبل أن يقول: «اكتب إليهم بعقْم محاولتهم الدفاع عن المدينة، وقلْ لهم إنّ تسليمهم يعني حفظ أرواحهم ومتاعهم، وإننا سنسمحُ لَمَن استسلم منهم بالخروج إلى إفريقية بكامل متاعِه، ولهم أيضًا أن يبقوا تحتَ ظل قشتالة، ويمارسوا شعائر دينهم بكلّ حرية إن أرادوا، ولكنْ ليس لهم أن يتّجهوا إلى غرناطة أو مالقة، فإمّا الدخول في طاعتنا، أو الخروج إلى إفريقية».

مركيز قادش: «أمرك سيدي».

خرج مركيز قادش ليراسل أهلَ رندة، بينما بقى فرناندو في حيرةٍ من أمره، ومع دخول اللّيل تعالت أصواتُ الأنفاط التي كانت توشك أن تصمّ الآذان، وكانت تصدر لهبًا يضيء صفحة السماء، بينما روائح الشّواء تزكم الأنوف.

أمّا داخل المدينة فقد راع أهلَها وأفزعهم أنهم لم يعودوا يعرفون إلى أين المفرّ! أو إلى أيّ الجهات يولون وجوهَهم، فبيوتهم إمّا تحترق وإمّا تنتظر دورها كي تصيبها النيران، والطرقُ مكدّسة بكرات الزيت الملتهبة التي تنهالُ عليهم من كلّ صوب مدمّرة كلّ شيء تصيبه، وامتلأت الشوارع والسّاحات بعويل النساء وبكاءِ الأطفال، فاجتمع كبارُ القادة وقرّروا أن لا أملَ لهم في النجدات، فملوك المسلمين ساهون عنهم ومنشغلون عن مأساتهم، والماء بدأ في النفاد. وهكذا قرّرت المدينة التليدة الاستسلامَ بعدما اجتاح اليأسُ قلوبَ أهلها، قبل أن يغشاهم الجنود القشتاليّون!

وهكذا فتحت المدينة أبوابَها، ودخلها فرناندو في غرورٍ كبير، وجنودُه من حوله يحملون الصّلبان، وفوْر دخوله اتّجه ببصره إلى مسجد «رندة» الكبير، مصدرًا لجنوده أمرًا بتحويله إلى كنيسةٍ كبيرة، وسرعان ما توجّه كبير القساوسة إليه، وأشرف على تحطيم محرابه وطمسِه، ووضع بدلًا منه مذبحًا، وما هي إلّا لحظات حتى دخل فرناندو بجنوده إلى المسجد الذي تحوّل منذ هذه اللحظة إلى كنيسة، فصلّوا فيه جميعًا صلاة للشكر، ودقّت الأجراس ووصل صوتُها إلى

حامد الثغري الذي كان لا يزال مرابطًا أعلى الجبال، فأيقنَ بسقوط المدينة العظيمة، ووجدَ أنْ لم يعدْ في وسعه سوى أن يتّخذ قرارَه بأنْ يغادر، وألّا يخوض غمار حربٍ لا طائل تحتها إلّا مزيدٌ من الهزيمة، فتراجع مع قواته حزينًا كسِيفِ الخاطر، وحوله بقية جنودِه كسيري الأفئدة، وإنْ كانوا- وقائدُهم جميعًا- يحتفظون بأملٍ عميق أن يتيح لهم الله الفرصةَ للثأر من أعدائهم.

وبينما تتعالى دقّات الأجراس معلنةً نهاية دولة الإسلام في رندة، إذ بماركيز قادش يمسك بأحدِ جنود «رندة» المستسْلمين، ويضع السيفَ على رقبته، ويأمره بأن يدلّه على القبو المتَّخَذ محبسًا للأسرى القشتاليّين الذين أسرهم حامدُ الثغري. وتحت السيف المُسلّط تحرّك الجندي المستسلم، بخطواتٍ مرتبكة، وخلفه مركيز قادش حتى وصلا إلى القبو، وعند بابه أمر مركيز قادش بضعة جنودٍ من المسلمين المسْتسلمين بأن يفتحوا المغاليق، ويفكّوا وثاقَ الأسرى، حتى إذا تألّم أحد الأسرى من شدّة الوثاق سارع مركيز قادش بقتل الجندي المسلم الذي يفكّ وثاقه!

وهكذا، وفي أبريل من العام ١٤٨٥م، سقطت «رندة» مفتاحُ الأندلس، لينقشَ التاريخ سقوطها- بعد الحامة- بحروفٍ غائرةٍ قاسية، بوصفها حلقةً جديدة في سلسلة النّكبات التي حلّت بالأندلس.. الجرحُ الذي لا يزال ينْزف!

***

الفصل الثالث

«لن يجعل اللّه نجاةَ الأندلس على يدِ رجلٍ خائن.. وهل انتصر الإسلامُ في شبه جزيرة الأندلس يومًا بخائن!؟».

عامر الأندلسي

فجّر سقوط «رندة» الأحداث داخل غرناطة، وأظهر مشاعر الشعب الضَّجِر من الحرب الأهلية القائمة بين الزّغل والزغابي، واجتمع أعيانُ غرناطة، واتّفقوا على أنّ «رندة» إنّما سقطت نتيجةً ما يحدث بين أبي عبد الله وعمّه؛ فقد استغلّ القشتاليّون الموقف المتأزّم بين الأميرْين وانشغالهما بأحقادهما الشخصية وحروبَهما العبثية عن نجدة ثغورهما وحماية حدودهما؛ واقتنصوا «رندة». انقسم الشعبُ بين مَن يلقي بأسباب الهزيمة على الزّغل ومَن يلقيها على الزغابي، وارتفعت الأصواتُ في السّاحات العامة والمساجد، وأثناء أحدِ هذه التجمعات خرج الفقيهُ «عليم المصري» مناديًا في أهل غرناطة: «إنكم تختارون وتقارنون بين ملِكَين، وهُما الخائن الفارّ من مُلكه واللاجئ عند العدو، أسيرُ سوءِ طالعه إلى حدّ أنه تعسَ بكلّ معاني الكلمة، وبين بطلٍ قائد جيش مُنتصر من قبل في مالقة، وهو الملقّب بالزغل، لذلك إذا كان لكم حقّ الاختيار فاختاروا الزغل؛ لأنّه القادر على حمايتكم وقيادة جيشكم وحماية أعراضكم».

تلقّت الحشود أقوالَ الفقيه «عليم المصري» بحماسة عالية، وأعجبتهم الفكرة، فهتفوا باسمه واسْم الزغل، وصبّوا كلّ اللّعنات على أبي عبد الله الصغير «الزغابي»، ونسبوا إليه أسبابَ تعاسة المسلمين في الأندلس!

وصلت أخبارُ تلك الاجتماعات إلى الزغل، بينما هو عائدٌ إلى غرناطة، فانشرحَ صدره لما سمع، وبينما كان يقطعُ الوديان في طريق عودته إلى غرناطة، إذ أشرفَ على الوادي الضيّق الذي يقرب من حِصن الحامة الشهير، وتوافَق أنّ ١٠٠ من فرسان الحصن مع سبعين راجلًا كانوا قد خرجوا من الحصن للإغارة على المسلمين في تلك الأنحاء، مستغلّين انكسارَ المسلمين في اللسّانة، ومن بعدها رندة، وموكلين وحصن قرطبة. غزا القشتاليّون السهل، وعادوا ليتّجهوا إلى الحامة وهُم محمّلون بالغنائم والأسرى. وعن طريق كشّافته؛ علمَ الزّغل بما حدث، وكان قريبًا جدًّا من الحامة فقال: «سيكون مِن الرائع أن نسعدَ قلوب وأفئدة شعب غرناطة بأَسْر هؤلاء».

دخل الزّغل الوادي بكلّ هدوء وهاجم الفرسان القشتاليّين برباطة جأش وقوةٍ أذْهلتهم، فقتلهم الرعبُ قبل أن يقتلهم الزّغل وجنودُه، واستأثر منهم أحدَ عشر أسيرًا وقُتل الآخرين، ثمّ أمر الزّغل بتقْييد الأسرى وافتكاك الغنائم وأسرى المسلمين الذين كانوا بحوْزتهم، ثمّ أمرَ بهم فرُبطوا إلى ذيل حصانه وقفل بهم عائدًا إلى غرناطة التي أصبحت ميادينها وأزقّتها ساحاتٍ للجدال والنقاش حول الأوضاع السياسية في البلاد.

أشرقت شمسُ يومٍ جديد في غرناطة، عاصمة الأندلس الصغيرة، وألقت أشعّتها الدافئة كخيوطٍ مِن ذهب طوّقت قصر

الحمراء، كما سرتْ في كلّ شوارع غرناطة، وانعكست على وجْه شابٍّ يرتدي حلّة مزركشة وهو يتبخْتَر في قيسرية غرناطة الشهيرة، التي كانت تعجّ الآن بأصواتِ الباعة والتجار، وإذا بهذا الرجل يتوقّف عند واحدٍ من بائعي طيور الباز، ثمّ تابع مسيرَه حتى وصل إلى دكّان العطارة على رأس القيسرية. لقد كان هذا الشابّ هو علي الغرناطي، أحدُ الأصدقاء الثلاثة، وقد حضر ليجتمعَ مع صاحبيْه محمد وعامر، وما كاد يدخل الدّكان حتى بدأ الحوارُ بينهم.

عامر (ينظر إلى الدكّان مليًّا، يتفحّص ما فيه، قبل أن يبدأ حديثه): «لقد مرّ وقت طويل منذ آخر زيارةٍ لنا، على أني أرى البضاعة كما هي!».

محمد: «الحمدُ لله على كلّ حال، منذ أن تمّ الصلح بين أبي عبد الله محمد بن سعد وعمّه الزّغل والحال تتحسّن، فقد هدأت الأمورُ وارتاحت الخواطر، وأمنَ الناسُ على أموالهم بعد فترةٍ من الحروب الأهلية التي لم تكُ تنذر بانتهاء».

عامر: «هل تتوقّع حقًّا يا محمد أنّ الحرب الأهلية قد وضعت أوزارها، وأنّ أبا عبد الله محمد بن سعد سيستكين ويسلم لعمّه؟!».

محمد: «أمّا التوقّع فأجزم بأنه لنْ يفعل، وسيشعل حربًا أهلية لا محالة، وأمّا التمنّي فأدعو الله أن يفعلَ ويسلم بأن عمّه أفضلُ منه وأقدر على حماية دولة الإسلام في الأندلس».

علي: «ولماذا يا محمد جزمتَ بأفضليّة العمّ على ابن أخيه؟ هل لأنه دخل غرناطة وفي ذيل حصانه أحد عشر من الأسرى القشتاليّين و٩٠ فرسًا قُتل جنودها».

محمد: «ليس هذا فحسب يا علي. انظر إلى أحوالنا في آخرِ بضع سنوات، ستجدُ أنّ الزّغل هو الأجدر بالحكم، فهو القائد الشجاع المظفّر الذي حافظ على مالقة، وهزم القشتاليّين غير مرّة، بينما ابنُ أخيه عندما خرج للحرب وقع في الأسر قبل أن ينجزَ شيئًا!».

عامر: «ليتَ الأسر فقط هو ما حدث، ولكنْ ألم تستمعوا إلى أحاديث القوم بأنّ أبا عبد الله قد خان دينَه ووطنه وأصبح حليفًا لملك قشتالة؟! لهذا فلنْ يجعل الله نجاةَ الأندلس على يدِ رجل خائن، وهل انتصر الإسلام في شبه جزيرة الأندلس يومًا بخائن؟! أمّا الزّغل فهو كما قال محمد، وأضيفُ إلى كلامه نصرَه المظفّر في حصن موكلين. هذا النصر الذي ترجع أسبابُه إلى رباطة جأش الزّغل أكثر ممّا سواها».

علي: «صدقتَ واللهِ يا عامر، وأنتَ مَن رافق الزّغل في حربه الأخيرة، وأنت خيرُ من يصفه، وإني أحب أن أستمعَ منك لما حدثَ في حصن موكلين، فهل حقًّا كان الزّغل قابَ قوسين أو أدنى من الأسر؟».

سكت عامر، ثمّ استرخى على المقعد، ثمّ عاد إلى وضعه الأول، وقال: «سأحكي لكم الأحداثَ كأنّكم تشاهدونها؛ فأنصتوا.. في

اليوم التاسع عشر من شعبان، وبينما أنا خارجٌ من صلاة الظهر، إذْ نادى المنادي أن هبّوا لنجدة حصن موكلين مع الأمير محمد بن سعد، فسارعتُ إلى بيتي وأسرجتُ حصاني ولبستُ درعي وخرجتُ مع الخارجين، حتى إذا وصلنا إلى الحصن؛ أمر الأمير بإصلاح الأسوار وتجديدها، وبينما نجهدُ في البناء وصلتِ الأخبار بأنّ العدو- دمّره الله- قد خرج يريد الحصن وينتوي لقاءنا، وعلم الأمير أنّ قائد جيش القشتاليّين هو الكونت دي قابرا، صاحب اللسانة، الذي بلغ به الغرور أنْ صرّح بأنه آتٍ إلى موكلين لأخذ أبي عبد الله محمد بن سعد أسيرًا، بل إنه لقّب نفسه بصائد الملوك! واصطحب دي قابرا معه مارتن ألونزو دي منتموري، كما اصطحب معه السلاسلَ اللازمة لأخذ الأسرى». (صمت عامرُ برهة، وأخذ شهيقًا عميقًا، قبل أن يستأنفَ حديثه): «لقد ظنّ الخبيث أن كلّ ملوك الأندلس على شاكلة ابن عائشة»!

علي: «قبّحه الله».

عامر (متابعًا كلامه): «أنهينا إصلاحَ الأسوار، حتى إذا كانت ليلة الثاني والعشرين من شعبان، وكانت ليلة صافية لا غيْمَ فيها، أمرنا الأميرُ الزّغل بعمل الكمائن اللازمة، ووقع الاختيارُ عليّ ضمن المجموعة التي ستحارب بجوار الأمير، حتى إذا اقترب القشتاليّون، وشاهدنا خيولَهم تثير الغبار في أرض القلعة، علتِ التّكبيرات واشتبكت مقدمةُ جيش دي قابرا مع أحد الكمائن، وعلتِ الأصوات

والتكبيرات في كلّ أرجاء المكان حول الحصن أكثرَ وأكثر، يصاحبها هطولُ السّهام والنيران التي أوقعت الكثيرَ من جند القشتاليّين قتلى، اشتد القتالُ بيننا، وضرب القشتاليّون الطبول، ونصَبوا في اتجاهنا الأنفاطَ، ووصل القتالُ إلى خيمة الأمير.. وأرادوا أخذه أسيرًا».

محمد (مقاطعًا ومردّدًا): «أرادوا أخذه أسيرًا!».

عامر: «نعم يا أبا خالد، تكاثروا عليه ابتغاءَ أسره، فثبّته الله واجتمع الجندُ المسلمون حوله صابرين مُحْتسبين لله تعالى، فلم تكن إلّا هنيهات حتى هزم الله القشتاليّين وولّوا الأدبار، فأمرنا الأميرُ بركوب ظهورهم، فتبعناهم حتى قتلنا منهم خلقًا كثيرًا.. وكنتُ أنا في أوائل الفرسان، ونحن نتبع القشتاليّين أثناء فرارهم، فكنت أسبقُ إلى بعض المواضع، فأجد أمامي جنودًا منهم مقتولين، ولكني لم أرَ أحدًا سبقني إليه، ولا أدري مَن قتله!».

محمد (مبتسمًا): «أمّا مَن قتلهم فهُم مَن قتلوا من قبلُ مشركي مكة فى غزوة بدر الكبرى.. إنّهم الملائكة المحاربون الذين يبعثهم الله نُصرةً للمؤمنين الصادقين في جهادهم».

وبينما يتابع محمد حديثَه، والابتسامة تملأ وجهه، إذ وقعتْ في سوق المدينة ضجّةٌ كبيرة، فهبّ الجميع لاستطلاع سببِ الضجة وما اندلعَ فجأة من الهَرَج والمَرَج، فإذا بالدرويش «حامد بن زرعة» متكئًا على عصا ضخمة، ومرتديًا ثيابًا رثّة، يقف وسطَ جمع كبيرٍ من الناس، فيتكلّم والكلّ ملتفتٌ إليه وهو يقول بصوتٍ جَهْوري:

«أيها الناس، احذروا مِن الذين يريدون أنْ يحكموا ولا يستطيعوا أنْ يحموا.. احذروا أن يقتلَ بعضكم بعضًا مِن أجل الزّغل وابن أخيه.. فإمّا أن يترك ملوكُكم خلافاتِهم، ويتّحدوا لإنقاذ غرناطة، وإمّا أن يذهبوا.. وإلّا فستذهب غرناطة». ثمّ تحرك حامد وهو يردّد كلامه، وصوته يختفي شيئًا فشيئًا من وسط الزحام، إلى أنِ ابتعد تمامًا لتبتلعه المنْحَنيات المُفْضية إلى سفوح الجبال!

عامر (متأفّفًا): «ما زال هذا الدرويش ينبئنا بكلّ ما يوهن كاهلنا، وكأنه لا ينتظر فرحتنا إلّا ليقتلها، ويتربّص بنصرنا ليهوِّن من شأنه، فمرةً يظهر بعد انتصار الزهراء، وها هو اليوم يعودُ إلى التحذير بينما نحن منتصرون في موكلين! لقد صار حديثُ هذا الدرويش يحمل الشرّ دائمًا لغرناطة!».

محمد: «لا عليك يا عامر من كلام المنجّمين، فقد كذبوا وإنْ صدقوا، كما تعلم».

عامر: «أنا لا أؤمن بكلامِهم، ولكنّ العامة تؤمن به، كما أنّ هذا الكلام ليس وقتُه الآن، فهو ممّا يُضعف النفوس، ويُشعر البعضَ بقرب الرحيل عن غرناطة.. إنه ينبئ دائمًا بقرب النهاية».

محمد: «أمّا في هذه فصدقتَ، وإني هنا لَأتذكَّر قول الشاعر ابن العسال حين أُخذت طليطلة- وكانت مِن أوّل ما أُخذ من القواعد العظام- يخاطب أهلَ الأندلس:

يا أهلَ أندلسٍ شُدوا رحالكمُ

فما المقــامُ بها إلّا مــن الغـلطِ

السلكُ يُنثَر من أطرافه وأرى

سلكَ الجزيرة منثورًا من الوسطِ

مَن جاورَ الشرَّ لا يأمنْ بوائقَه

كيف الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَطِ

لقد كان ابنُ العسال بهذا أولَّ مَن نادى وتنبّأ بخروج المسلمين من الأندلس، فكان أولَ داعي هزيمة بها».

عامر: «وهذا ما قصدتُه، إذ إنّ هؤلاء الشعراء والمنجّمين من الواجب عليهم وقتَ الأزمات أن يبثّوا في الناس روحَ المقاومة والجهاد، لا روح اليأس والفرار والهزيمة».

علي: «هل تقصدان أنْ يتكلّم الرجل بعكس ما يفكّر؟ هل تريدان منه أن يكذبَ الناس في أحاسيسه؟».

محمد: «لا نقصد الكذبَ يا علي، ولكنَّ لكل مقامٍ مقالًا، إذْ ليس من الحكمة أن تُدخل في قلوب العامة الوهنَ في وقتٍ هُم فيه بأشدّ الحاجة إلى القوة وبعْثِ الأمل، وأنا هنا أعيبُ على حامد، ولكنْ في مقامٍ آخر أستحسِنُ قوله، خاصةً يوم أنْ وقف أمام أبي عبد الله محمد بن علي بن سعد بعد اتفاقه وصلحِه مع عمّه قائلًا له: كنْ صادقًا مع

دينك وبلدك، ولا تخضع أكثرَ من هذا لأولئك الكلابِ القشتاليّين، ولا تثقْ بمَن يدّعي الطيبة منهم، وإيّاك أن تثقَ بملكي قشتالة، فهما يسحبان البساطَ مِن تحتك، وعليك أن تختار أحدَ أمريْن، إمّا أن تكون ملكًا وإمّا أن تكون عبدًا، ولا يمكنك أن تكون كليهما معًا! فهنا يا علي أحسنَ حامدٌ النصيحةَ وأوْجَزها».

***

.٢.

على أسوار لوشة

لم يدم الصلحُ طويلًا بين الزّغل والزغابي، كما توقّع عامّة أهل غرناطة، ودخلتْ غرناطة في حربٍ بائسة وصراع مُميت، واصطبغت طرقاتُها بدماء أطفالها ورجالها. وبسبب الشعور بخطورة الموقف؛ فقد توصّل أهل الحلّ والعقد في غرناطة إلى وجوب الصلح بين الأميريْن، وتقسيم المملكة بينهما، فيأخذ الزّغل غرناطة ومالقة وبلش مالقة وجوارها، فيما يكون نصيبُ الزغابي لوشة ومجاوراتها، وبمجردِ الصلح بين الخصميْن جمع الزغابي جنودَه المخلصين وتوجّه بهم إلى لوشة، متخذًا منها مستقرًّا وعاصمة.

أمّا في قشتالة نفسها، ومِن جديد، فقد قرّر الملكان القشتاليّان فرناندو وإيزابيلا أن تكون قرطبة مقرَّ تجمُّعِ وانطلاق القوات الفرنجية الغازية والمدمّرة لبلاد المسلمين الباقية في الأندلس!

فانطلق الرّسل إلى دول الجوار يدْعون إلى الحروب المقدّسة على مسلمي الأندلس، وتجاوَب البابا وتحمّس لتلك الدعوات، وأصدر صكوكَ الغفران لكلِّ مَن شارك في تلك الحروب المقدسة، فانطلقت جموعُ الفرنجة نحو الأندلس للمشاركة في تلك الحرب، وامتلأت شوارع قرطبة وأزقّتُها بالفرسان القشتاليّين والأوروبيّين الذين أسرعوا للمشاركة في تلك الحروب علّهم يظْفرون فيها بما يغنيهم طوالَ حياتهم، وكيف لا وقدْ سمعوا وعلموا عنْ ثراء غرناطة ورفاهية ساكنيها.

من فرنسا، جاء «غاستون دو ليون» و«سنسكال دو تولوز»، ومعهما جيشٌ من فرسانهما المسلّحين في كاملِ عدّتهم، والمتميّزين بألوان ثيابهم الزّاهية وريش رؤوسهم الخاص، كما حضر ولي عهد إنجلترا «اللورد سكاليس» ومعه جيشُه المسلّح بالرّماح الطويلة والفؤوس العظيمة، وقد أفصحَ حين وصولِه إلى قرطبة عن نيّاته تجاه المسلمين، لهذا توجّه فورًا إلى حيث فرناندو الخامس، وانْحنى أمامه والحماسُ يملأه وقال: «لقد أتيتُ إلى هنا لذبح المسلمين حتى لا تصدأ أسلحتنا!».

فرناندو (مبتسمًا): «لنْ تصدأ، أيها اللّورد، وفي أوروبا الملوك الكاثوليك».

كما جاء- أيضًا- متطوّعون من هولندا وجرمانيا، وبعد تجمّع تلك القوّات الغفيرة، قرّر فرناندو أن تكون وجهتُه إلى المدينة

المستعصية «لوشة»، ولكن في هذه المرة قرّر أن يستفيدَ من أخطائه السّابقة، لهذا فقد أحسنَ الاستعداد والتأهّب، ووضع الخطط واستشار قادتَه ونوّابه، وبعدما اكتملت الخطّة دقّتْ ساعة الحرب.

وفي إحدى ليالي شهر مايو/ أيار من العام ١٤٨٦م، تحرّك الملك فرناندو على رأسِ جيشه، الذي يتألّف من اثني عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل مسلّحين بالأقواس والدّروع والفؤوس والحِراب والبنادق والمدافع، وكلّ أدوات الحصار التي تشرفُ عليها فرقةٌ ألمانية متخصّصة.

سارَ هذا الجيش الضخم بهدوء وَرَيثٍ عبْر الوديان والقفار، حتى وصلَ إلى صخرةٍ جعلها لونها الرمادي مباينةً تمامًا للّونين البني والأخضر اللّذين يصبغان الأراضي الفلاحية المحيطة بها، فإذا بفرناندو يأمرُ الجيش بالتّوقّف وإقامة المعسكر في هذا المكان تحديدًا، أولًا لأخذ قسطٍ من الراحة، وثانيًا لإعجابه بالمكان، وقد دفعه فضولُه إلى أنْ يسأل عن هذا الموضعِ الغريب بعدما ترجّل من فوقِ صهوة حصانه، وتمشّى قليلًا على عشب الصخرة.

فرناندو (يتحدّث وهو يتحرّك): «عجيب جدًّا هذا المكان، والأعجبُ منه تلك الصخرة الغريبة التي تطلّ علينا وكأنّها وجهُ رجلٍ بربري انبثق من الأرض».

مركيز قادش: «هذه يا مولاي الصخرة التي يسمّيها العرب صخرة العشّاق».

فرناندو (يستدير ناحية مركيز قادش ويرفع حاجبيْه مردّدًا): «صخرة العشّاق...!».

مركيز قادش: «نعم يا سيدي، صخرة العشاق».

تزدادُ الدهشة على ملامح فرناندو، فيعاود السؤال: «وما السرّ وراءَ هذه التّسمية؟».

مركيز قادش: «السرّ يا مولاي يعود إلى أسطورة بزغَتْ منذ عهد غير بعيد، تقول إن شابًّا قشتاليًّا وقع قيْد الأسر في مدينة أنتقيرة الحدودية بين قشتالة وغرناطة، وحدث أن ابنةَ الحاكم المسلم للمدينة، وخلال زيارتها لزنازين والدِها، التقت مصادفةً بهذا الأسير، وكما يحدث في كلّ الأساطير جمع بين الشابّين سهمُ الحب، ممّا دفع الأميرة الأندلسية إلى مساعدة حبيبِها القشتالي على الفرارِ من زنزانته، وعندما تمكّن من ذلك انطلقا معًا هاربيْن، بعدما وحَّد بينهما حبٌّ عميق لم يستطيعا إلّا الاستسلام له. غير أنّ أتباع حاكم أنتقيرة فطِنوا للأمر، فسارعوا بملاحقة الحبيبَيْن الهاربيْن، فلمّا لحقوا بهما لم يجدِ العاشقان من ملاذٍ سوى تسلّق هذه الصخرة عند مدخل المدينة، والبقاء مختبئين فوق قمّتها، لكنهما سرعان ما أيْقنا بأن الحصارَ يضيق عليهما، ولا أملَ لهما في النجاة من الأسر وإعادتهما إلى العقاب المنتظر؛ لهذا اتّخذا آخرِ قرار في حياتهما، وألقيا بنفسيهما من أعلى قمّة الصخرة شهيديْن للمحبّة الجارفة، فسُمّيت لذلك بصخرة العشاق».

فرناندو (يتنهّد كأنه يحلم، قبل أن يعقّب): «قصة مثيرة لمكان ربما تحوم فيه الآنَ أراوح العاشقيْن بحثًا عن أنيسٍ للروح وشفاء للقلوب». (ثمّ صمت برهةً وهو يتأمّل الصخرةَ ثمّ التفتَ إلى مركيز قادش قائلًا): «جميلٌ هو الحب، والأجملُ أنْ ينتهي باجتماعِ المحبّين؛ لأنّ القلب الذي لا يجتمع مع حبيبه يظلّ طوالَ الدّهر في شوق عظيم، وتظلّ روحه متعلقةً بحبيبه على مرّ الزمن، والحبّ يُمرض القلوب والنفوس. الحبّ لا يقتل العشاق، هو فقط يجعلهم معلّقين بينَ الحياة والموت». (يصمت فرناندو ثمّ يعود ويقول): «الآنَ أخبرني يا رودريغو، كيف تصفُ الحبّ في كلامٍ موجَز؟».

مركيز قادش: «الحبّ يا سيدي هو تجربةٌ حيّة، لا يعانيها إلّا مَن يكابدها.. إنه هذا الهواء الذي نتنفّسه».

فرناندو: «مَرْحى مَرحى أيّها القائد العظيم، فإني أراك بارعًا في الحبّ، مجرّبًا له!».

مركيز قادش: «تلميذُك يا سيدي، على أني أرى مولاي خبيرًا بأحوال المحبّين أكثرَ مني».

فرناندو (يتنهّد ويأخذ نفسًا عميقًا): «حديث الحبّ ليس الآن وإنْ كان ممتعًا، لكنّه يوهن الجسدَ ويُمرض القلب، ونحن الآنَ في حاجة إلى قوانا يا رودريغو». (يتوقّف قليلًا، ثمّ يغيّر من نبرة صوته): «اجمعْ لنا القادة حتّى نضعَ الخطّة، ونأخذ أعداءنا على غرّة، وليكن الكاردينال الأعظم حاضرًا المجلس».

ثمّ تُجهَّز الخيمة الملكية على أرضٍ مرتفعة تشرف على كلّ المعسكر، يرفرف عليها علمُ قشتالة وأراجون، بينما ترتفع صاريةُ الصليب المقدّس. وحولها تتشكّل خيمات النّبلاء والقوات الفرنسية والإنجليزية المشاركة في الحرب، ومِن حول تلك المخيّمات يقف الجنود والفرسان في نوْبات حراسة متتابعَة، فشكّل بهذا المعسكر مزيجًا من اللّغات والأمم الأوروبية، الذين جمعتهم صكوكُ الغُفران التي وعدَهم بها البابا لمحاربة المسلمين. وفي الخيمةِ الملكيّة اجتمع قادة الجيش القشتالي مع قادة المتطوّعين الذين دعاهم فرناندو لمناقشة الاسْتيلاء على مدينةِ لوشة، وبعد نقاشٍ لم يدمْ طويلًا، تقرّر غزو المدينة من اتّجاهين، فقُسِم الجيش إلى جزءٍ يحتلّ مرتفعات «البهاقين» الخطرة، بينما الآخرُ يطوق المدينة من الجهة الأخرى.

فرناندو (يتحدّث واقفًا وقد اتّكأ على سيفه): «ربّما علم البعض منكم أنّ هذا هو هجومنا الثاني على تلك المدينة المستعْصية، لذلك لنْ أسمح هذه المرّة لأي نوعٍ مِن الفشل، خاصةً وأنّ حاميها قد مات منذ زمن.. فنحن لم نأتِ هنا لنحاول، بل أتينا لننتصر!».

مركيز قادش (يتجهّم وجهه ثمّ يقول): «ومَن منّا يستطيع أن ينسى تلك الأحداث يا مولاي، لعلّها فرصتنا الآن لمحْو سجلّنا من الهزائم بفتحنا لتلك المدينة، لهذا فأنا أطلبُ إلى مولاي أنْ يجعلني وفرساني في المكان نفسِه الذي اضطررتُ من قبْل إلى التّنازل مرغمًا عنه، حتى ظنّ العدو بنا الهزيمة؛ فقتل منّا مَن قتل».

فرناندو: «سأجعلك يا رودريغو على رأس قوّة تحتلّ بها مرتفعات البهاقين، فكنْ حريصًا، وتذكّر أولئك القتلى الذين سقَطوا في المكان ذاته، تذكّر ماستر أوف كالاترافا، وخذْ معك الكونت دي قابرا، فقد اعتدنا أن نجعلَه على رأس طليعة كلّ هجوم لنا، فما بالنا اليوم والعدوُّ هو أسيره.! وبهذا ننجح فى إضعاف الرّوح المعنوية للصغير بوقوفِ الكونت دي قابرا أمامَه وهو مَن أسره مِن قبل».

اللّورد سكاليس (يتحدّث بحماس): «يسعدني يا مولاي الملك أنْ أضع نفسي وكلّ جنود إنجلترا تحت تصرّفك».

فرناندو (يبتسم موجهًا حديثه لوليّ عهد إنجلترا): «إنّ عند هؤلاء الفرسان حسابًا قديمًا مع تلك المدينة، يجبُ أن يُصفُّوه، وهذا الثأرُ له علاقة بسُمْعتهم، فاسمح أيّها اللورد لهم بأنْ يقوموا بهذه المبادرة بأنفسهم، خاصّة أنّك لو بقيت معنا تتابع هذه الحروب مع المسلمين؛ فلنْ تعدم الفرصَ المتاحة لتقديم خدماتك الثمينة».

الكاردينال الأعظم (مبتهجًا بما يسمع ويشاهد): «إني أبثّ لكم سعادتي بتلك الرّوح الحماسية التي ترفرف فوْقنا، إننا اليوم أمامَ مشهد عظيم، إذ يتبارَى رجال الصليب في خدمةِ صليبهم، حتى تجمّع في تلك الأرض فرسانٌ من كلّ أوروبا. إنه لمشهدٌ عظيم ورائعٌ للقضاء على هؤلاء الكفرَة على يدِ هؤلاء الفرسان الذين يبْدون مِن بعيد كأنّهم يسبحون على بحرٍ مِن أعلام الصليب باتّجاه الهلال، كالموجِ المتلاطم بسيوفهم وبنادقهم وفؤوسهم. وأنا قبلَ أن أوجّه

تحياتي إلى الفرسان مِن فرنسا وألمانيا وإنجلترا أحبّ أنْ أوجّه الشكر والنّصيحة لهذا الملك الصالح، استنادًا إلى النَّصّ الحادي عشر من إنجيل لوقا الذي يقول: (إنّ المملكة المنقسَمة على نفسها لا تستطيع البقاء). ولقد تُرك هؤلاء المسلمون يدمّر بعضهم بعضًا بخلافاتهم الذّاتية، لكي يدمَّر الناجي منهم- بحسب المبدأ القائل- بتحقيق النّصر على المنتصر منهم.. فملوك المسلمين بصراعهم المدمّر، بعضهم مع بعض، جعلوا مِن قشتالة أيامَ حكمهم مسرحًا لحربٍ أهلية دائمة، فهم لا يستحقّون الملك، لا جملة ولا تفصيلًا».

فرناندو: «إننا- أيّها الأب- جميعًا خدَمٌ للصليب المقدّس، وإنني أعدُك بألّا تتوقّف هذه الحرب قبل إلقاءِ المسلمين في البحر، أو طردهم من هذه الأرض».

وفي تلك الأثناء، يدخل الحارس فيقول: «رسالة مِن ملك المسلمين يا مولاي يحملُها أحد الفرسان».

فرناندو (ناظرًا إلى الحضور): «دعونا نرَ ما في جُعبة هذا الرسول»، ثمّ نظر إلى الحارس وقال له: «إليّ بالرسالة، أمّا الرسول فدعْه ينتظر خارجًا».

أومَأ الحارس برأسِه ثمّ خرج، وسرعان ما عاد وبيدِه رسالة، سلّمها لفرناندو الذي أعطاها بدوْرِه لمركيز قادش كي يفتحَها ويقرأها.

مركيز قادش (قارئًا للرسالة): «إنّ لوشة وعددًا مِن المدن المجاورة قد أضحت وسكانُها تبعًا للتاج القشتالي، لذلك لا داعي لأيّ هجوم عليها. وأنا أعرض عليك أيّها الملك أن تمرّ منها وجيشك آمنًا لضرب مالقة أو أي مكان آخر تحت حكم عمّي الزغل»!

فرناندو (مبتسمًا في سخرية، وهو ينظرُ إلى مجلسه): «بماذا نردّ على هذا الملك؟».

دي قابرا: «لا يا مولاي، لا صلحَ معهم، نريد أن ننتقمَ للهزيمة التي مُنِينا بها من قبل».

مركيز قادش: «أظنّ أنّ ملك المسلمين صادقٌ في تبعيّته لنا، ولكن هذا لن يغيّر من الأمر شيئًا».

الكاردينال: «لقد بدأت الحربُ المقدسة، ولا سبيل إلى وقفها، بل لن تُطفَأ جذوتها حتى يختفي أتباعُ محمد من جزيرتنا».

اللورد سكاليس: «لا مجالَ هنا إلّا للسيف يا سيدي».

فرناندو: «لقد تكلّمتم جميعًا بما في نفسي، ولكن لأنّ لوشة لنْ تكون نهاية حروبنا وفتوحاتنا، ولأنّ الزّغل ملكٌ قوي سيجهدنا لو استمرّ في الحكم، فالأفضلُ لنا أن نستمرّ في الإيحاء للصغير بأنّه المقدَّم لدينا، وبأنّ حملتنا تلك إنّما ناتجة عن تحالفِه مع عمّه ونقضه لتحالفنا السابق، وبهذا ندخلُ لوشة ونضمنُ استمرار الصغير في الخنوع لنا». (يمدّ يدَه إلى مركيز قادش ويأخذُ الرسالة، ثمّ يطويها

مُلقيًا بها إلى أحد الحراس آمرًا إيّاه): «بلِّغوا الرسول بأنّ الصغير قد نقض الاتفاقية بيننا». ثمّ هبّ من مجلسه متحدثًا إلى مركيز قادش أنِ ابْدأ التنفيذ فورًا.

مركيز قادش: «أمرُ مولاي».

خرج المركيز وخلفَه الكونت دي قابرا، وانفضّ المجلس العسكري بعدما علم كلّ فردٍ منهم وظيفتَه في المعركة التالية.

أطاح مركيز قادش بخيمتِه وتحرّك في قوة من خمسة آلاف فارس واثْني عشر ألف راجل عبْر شعاب الجبال بسرعة فائقة، وكأنّه كان يخشى أن يتقدّمه أحد إليها، وبعد ساعات قصيرة وصل إلى المدينة الخالدة، وهاجمها فورًا، وحاول اقتحام مرتفعاتِ البهاقين المشرفة على لوشة واحتلالها. أمّا الكونت دي قابرا فقد اندفع نحوَ الوادي محاولًا اقتحام المدينة من الجهة الأخرى.

ألقى تقدمُ الجيش القشتالي ناحية لوشة، أبا عبد الله الصغير المتردّد المتذبذب كعادته؛ بين قَسَمِه الذي خضع بموجبِه للقصر القشتالي وواجبِه تجاه أمّته وشعبه؛ فالعدو يتقدّم ليحتلّ مرتفعات البهاقين، والناس يطالبون بخوض معركةِ الدفاع عن المدينة، فإذا به يخرج مِن تردّده.

الصغير: «الله.. لقد كنتُ صادقًا مع هؤلاء القشتاليّين في قسَمي، ولم أفعل أكثرَ مِن أن أخذت لوشة لأكونَ مِن رعيتهم (قالها بكلّ

ذلّ وخنوع)، وعلى رغم ذلك جاء فرناندو ليأخذها حربًا! فلتنزل الحربُ على رأسه إذًا.

ولأنه دائمًا يتّخذ القرارَ بتردّد هائل، فإمّا أنْ يقرّر بعد فوات الأوان، ما يدفعه إلى التعجّل في تنفيذه، فيأتي سلوكُه متسرّعًا وعملُه غيرَ ناضج. وإمّا أن تقرّر له أمّه وهي غيرُ موجودة الآن! لهذا فقد قرّر الحرب بعد وصول العدوّ إلى أبواب مدينته، فسارع بارتداءِ دروعِه، وانطلق لملاقاة العدوّ بقوات تتألّف من أربعمائة فارس وأربعة آلاف راجل، فخاض بهم مبارزاتٍ مع المهاجمين لمنْعهم من احتلال مرتفعات البهاقين الخطيرة. وفي هذه الأثناء، اجتاز الكونت دي قابرا مخاضات الوادي، ولمحَ أبا عبد الله الصغير فوقَ فرسه، فصاح بأعْلى صوته.

دي قابرا: «ها هي الجائزة الكبرى». (قاصدًا بذلك أن يعيد أسْر أبي عبد الله مرّة أخرى».

انطلق دي قابرا ناحيةَ جيش المسلمين الذي بدأ في الانسحاب بسرعةٍ كبيرة تجاه أبواب مدينته، وذلك بعدما أُصيب أبو عبد الله في ساحة المعركة من أوّل صدام، على رغم أنّ القوات التي حوْله كانت تدافع عنه بضراوةٍ بالغة، فحمله الجنود من ساحة المعركة وهو ينزف. وبهذا أفلتَ أبو عبد الله مِن براثن دي قابرا.

على رغم انسحاب أبي عبد الله، استمرّت المعركة مشتعلة، فقد واصل جند غمارة والمغاربة الأشدّاء القتال، فأثْخَنوا في العدو بكلّ

قوّة وحماسة، يقودُهم حامد الثغري الذي ركّز هجومَه على مرتفعات البهاقين، وتشابكت الرّماح وانهمرت الأسهمُ في الاتجاهين، وارتفع الصراخ، وصهلتِ الخيل وانسابَ الدّم في معركةٍ عنيفة لا توصَف ضراوتها؛ فالمسلمون يعرفون أهميةَ المرتفعات بالنسبة إلى المدينة، والقشتاليّون يريدون الانتقامَ من فشلهم السابق في احتلال البهاقين؛ لذلك تدافعت التعزيزاتُ من المدينة، وتخضَّبت الزروع في كلّ مكان باللون الأحمر، واضطرب أمرُ مركيز قادش وجماعتِه، بعدما أرهقتهم شجاعةُ المسلمين، وقتلت منهم الكثير.

وفي هذه الأثناء، وصل فرناندو وبقيّة جيشه، وأشرفَ على حصون المدينة ومعه اللورد سكاليس وريث العرش الإنجليزي الذي أمعنَ النّظر باهتمام شديدٍ إلى ظروف المعركة القائمة أمامه، فتحمّس لصرخات الحرب الطاحنة وأصوات الطبول وأبواق النّفير وأصوات طلقات البنادق التي تُصمّ الآذان؛ لذلك طلب- وبحماسة كبيرة- إلى فرناندو أنْ يسمح له بولوج الحرب والمشاركة فيها.

اللورد سكاليس (متحدثًا في حماس شديد): «فليسمح لي مولاي الملك بشرفِ إنجاد مركيز قادش».

(تتعالى أصواتُ البنادق).

فرناندو (ينظر إلى اللورد سكاليس قائلًا): «انطلق، وليكن الربّ في عونك».

انحنى اللورد سكاليس أمام فرناندو، ثمّ اتجه بسرعة ناحية فرقته وخاطبهم بصوتٍ جَهْوري:

«تذكّروا أيها الأبطال أنّ عيون الغرباء عليكم، فأنتم تقاتلون في بلادٍ غريبة من أجل مجدِ الله، وشرفِ إنجلترا وازدهارها».. قال تلك الكلمات ثمّ انطلق وهو يرتدي درعًا خفيفًا مربوطًا بين ظهرِه وصدره بحمّالات جلديّة، ومعه سيف قاسٍ على خصْره، ويحمل في يده فأسًا، بينما تتبعه مجموعةٌ من النبّالة بأقواسهم المصنوعة من الشجر الإنجليزي «يو تري»، وما هي إلّا لحظات حتى صار هو وجيشه في قلب المعركة، فاشتركَ فيها بكلّ حماسة، وراح يضرب بفأسه يمينًا ويسارًا، ليزداد تدفّق الدماء، ويرتوي ترابُ لوشة من دماء المسلمين، كما سبق أنِ ارتوت رندة وإشبيلية وطليطلة وبرشلونة من قبل. استمرّ التطاعُن بين المسلمين والأوروبيّين بضراوةٍ شديدة، فالمسلمون يعرفون جيدًا أهمية المرتفعات، والأوروبيّون يعلمون أنّ تلك المرتفعات شهدتْ من قبلُ هزيمتَهم، فراح المسلمون يدافعون عنها بضراوةٍ بينما جنود الفريق المهاجم يتذكّرون قتلاهم فيزدادُ حنقهم، وهكذا استمرّ النضال وسطَ هدير طلقات الرصاص.

تابع فرناندو ما يحدثُ باهتمام وقلقٍ شديديْن، وإذا به يشاهد شيئًا عجيبًا. فبينما تكاد تكون المعركة متكافئة تَجري سجالًا، جولةٌ في مقابل جولة، إذ فوجئ بانسحاب المسلمين نحو أسوار مدينتهم، بينما يتبعهم الجيش القشتالي حتى دخلوا وراءهم ضواحي المدينة،

فقرّر فرناندو النزولَ إلى أرض المعركة ليتابع بنفسه من كثب. تقدّم فرناندو ومعه الحرسُ الملكي، فإذا بمركيز قادش، وقد ظهرتْ عليه علاماتُ الفرح بينما تسيل الدماء من كلّ مكانٍ في جسده ومن حدّ سيفه!

فرناندو: «ما الخطب؟ ولماذا انسحب هؤلاء؟».

مركيز قادش: «لقد استطاع أحدُ النبّالة الإنجليز أن يصيبَ قائدهم حامد الثغري فسقط عن حصانه، فحمله جنودُه وعادوا به إلى مدينتهم».

فرناندو: «لماذا إذًا لم تلاحقوهم، وتقتلوا الثغري أو تأسروه؟».

مركيز قادش: «لقد دافع عنه الجنودُ المغاربة بكلّ بسالة، فلم نستطعْ تجاوزهم إليه».

فرناندو: «إنّ الثغري هذا يُذكرني بعليّ العطار.. لا بأس، فلتتابعوا الهجوم».

دي قابرا: «لقد أصيبَ وريث العرش الإنجليزي يا مولاي بعدما أثخن في مقاتلة العدو».

فرناندو: «احملوه إذًا إلى خيمتي، وأحضروا له الأطباء».

دي قابرا: «أمرُ مولاي».

مركيز قادش: «وماذا نفعل الآن يا مولاي؟».

فرناندو: «اهدموا هذا الجسر، حتى نُحكم الحصار على المدينة، وتابعوا دكّها بالأنفاط، واقتلوا كلّ متحرك يظهر من جهة المسلمين، ولو كان هِرةً أو كلبًا.. لا أريد أن أرى طفلًا يتحرّك».

انحنى مركيز قادش مبتسمًا قبل أن يخرج إلى المعركة ليستأنف قيادة جنوده. كانت صيحات القتلى وطلقات البنادق وصراخ الأطفال تملأ المكان، بينما استطاع الأوروبيّون هدمَ أجزاءٍ من الأسوار، وقد كان باستطاعتهم الدخولُ منها، ولكنّهم أرادوا إهلاك المدينة وعدم إعطاء المدافعين عنها أي فرصٍ للنجاة. لهذا تابعوا الدك، كما تابع القناصة قتلَ كلّ متحرك يظهرُ من جهة لوشة، فقتلوا الكثيرَ من الأطفال والنساء الذين خرجوا من بيوتهم بعدما الْتهمتها نيرانُ الأنفاط، فكان لهم القناصة بالمرصاد.

استطاع القشتاليّون احتلالَ ضواحي المدينة، وركّزوا نيران أنفاطهم الثقيلة على المدينة من مختلف الجهات، إضافةً إلى القذائف الحديديّة والحجارة التي ترميها هذه الأنفاط، ونصبوا العرادات لتقذفَ كرات القماش المشبع بالنفط المحترق مثل الشّهب؛ كي تسقط على البيوت وتحرقَها من فورها. وهكذا تمزّقت أبراج المدينة وتهدّمت جدرانها، وتساقط من أبنائها وأطفالها ونسائها الكثيرُ والكثير، ولم يرحم القشتاليّون طفلًا كان أو شيخًا.

ظلّت رحى القتال تدور هكذا يومين متتاليَين، وفي اليوم الثالث ظهرت أعلامٌ تدلّ على الاسْتسلام. حاول وريثُ العرش الإنجليزي

أن يشيرَ على الملك فرناندو بقتل حملة راياتِ الاستسلام، والمضي قُدُمًا في الهجوم، حتى لا يبقى في لوشة أيّ مسلم، لكنه رفضَ وقال: إنّ فيهم الصغير!».

اللورد سكاليس: «الصغير.. ملك المسلمين».

فرناندو: «نعم».

اللورد سكاليس: «إذًا لنقتله، حتى لا يكونَ للعرب ملك يجتمعون تحت رايته».

مركيز قادش: «لو قتلْناه لصعُب علينا اقتحام بقية أراضي المسلمين».

اللورد سكاليس: «كيف ذلك..؟».

مركيز قادش: «سيلتفّ بقية المسلمين وقتها حول عبد الله بن سعد، الملّقب بالزغل، وهو أكثرُ شجاعة من ابن أخيه (الصغير)، ووقتها لن تطأ قواتُنا شبرًا في أرضه إلّا بعد أن تُسفَك دون ذلك دماء كثيفة».

نظر اللورد سكاليس إلى فرناندو متعجبًا وقال: «الآن فهمتُ الخطة يا مولاي».

يبتسمُ فرناندو ويقول :«ائذن للمتفاوضين على التّسليم أن يدخلوا، ولتتوقّف المدفعيّة عن دكّ المدينة».

وما هي إلّا ساعات قليلة حتى دخل وفدٌ عربي مكوّن من ثلاثة رجال منهم يوسف بن كماشة وزير الصغير.

يوسف بن كماشة: «يبلغك الملك محمد بن سعد بأنه على أتمّ الاستعداد للتفاوض حول المدينة».

فرناندو: «نحن لم نوقف أنفاطنا وجيشنا عن القتال، كي نخوض تفاوضًا، بلْ من أجلِ الاسْتسلام غير المشروط، استسلام بشروطنا نحن، أمّا أنتم فليس لكم عندي أيّ شرط».

ينظر يوسف إلى فرناندو متسائلًا: «وما شروط الملك؟».

فرناندو: «اكتب عندك».

أولًا: تسليم المدينة مع كلّ الأسرى القشتاليّين فورًا.

ثانيًا: إخلاء المدينة من كاملِ سكّانها الذين يمكنهم أخذ ما يقدرون على حمْله من متاعهم، والذهاب إلى إفريقية، ونضمن لكم ألّا نتعرّض لهم بإيذاء أو نهْبٍ من أيّ نوع.

ثالثًا: على مَن أراد مِن أهل لوشة البقاء في قشتالة أن يبقى في أماكنَ محددة، فيُمنع عليهم اللّجوء إلى غرناطة».

يوسف بن كماشة: «أين إذن يقيمون؟».

فرناندو: «قشتالة وأراجون وبلنسية، على أن يكونوا تابعين لي، ثمّ لا تسأل قبل أنْ أكمِلَ شروطي». (يشير بيده ليرْدَعه عن التدخل).

(يومئ يوسف بالخضوع)

فرناندو (مستأنفًا حديثه): «رابعًا: يقدم سيدُكم نفسه لنحاسبه على نكثِه بقسَمِه السابق الذي أقسمه يومًا بأن يكون تابعًا لنا.

خامسًا: يتنازل سيدُكم عن لقب ملك غرناطة، وسينال لقب دوق وادي آش شريطةَ أن يعينني في التخلّص من أبي عبد الله الزغل.

سادسًا: يسلّم لي أولاد علي العطّار وبعضًا من كبار القادة كرهائن».

***

.٣٠

أشرقت شمسُ يوم جديد في غرناطة، وبدا كلّ شيء عاديًّا، فالأسواق عامرةٌ بالبضائع والزوّار، وأصواتُ الباعة لا تنقطع مختلطةً بتغريد البلابل وزقزقة العصافير. وبينما بدا كل شيء طبيعيًّا، إذْ خرج محمد الغرناطي إلى خارج أسوار المدينة ينظر تجاه الفراغ الممتدّ أمام ناظريه. استمرّ محمد في النظر هكذا من دون أدنى حركة أو كلمة، وهو يترقّب وينتظر في صمتٍ شديد. كان ينتظر عودةَ صديق عمرِه عامر الغرناطي الذي خرج إلى موكلين مجاهدًا للمرّة الثانية، ولكنه لم يرجعْ هذا اليوم أيضًا! قاربت الشمسُ على الرحيل؛ فقرّر محمد وقتَها العودة إلى منزله، ولكنّه ما كاد يصلُ إلى ميدان باب الرملة، حتى كان كلّ شيء قد تغير؛ إذْ ظهرت في

الأفق سحابةٌ عظيمة تقترب من غرناطة يصاحبها بكاءٌ وعويل، إنّها سحابة كثيفة من الغبار المعْتِم، أثارها أهلُ لوشة النّاجون من الموت هناك. توقّف محمد ليطالع بعينيه ما جنَتْه يدُ الخيانة والغدر والتّطاحن بين المسلمين، بل ليشاهد ويسمعَ عن جرائم تشيبُ لهولها الولدان، فهذا فقدَ يدَه وذاك فقَدَ عينَه، وهذه قُتِل أبوها وتيتّمت، وتلك ذُبح زوجُها وترمّلت، ومئات أخرى من قصص تميت ولا تحيي، وتورث في القلوب حسرةً لا تنتهي، وكسرًا لا يجبره دواء. وإذا مِن بين أولئك الفارّين امرأةٌ مسنّة تبكي بصوتٍ خافت من فرط الإعياء، ولا يكادُ يسمعُ أحدٌ بكاءها. قرّر محمد أن تكون هذه السيدة العجوز ضيفتَه، لذلك عاد إلى منزله مسرعًا؛ ليصطحب زوجتَه على عجل، كي ترافقَ تلك المسكينة وتهدئ مِن روْعها.. فما كاد يخبرُ زوجته حمدونة، حتى سارعت الأخيرة في إعدادِ غرفةٍ للسيدة العجوز لتأوي إليها، بينما جلس محمد والصمتُ يكادُ يقتلُه، وهو شاردُ الذّهن يفكّر في غرناطة وتلك الأحداث المؤلمة التي تدهَمُها وتُدمي ترابَها!

تردّد نظر محمد بين أرجاء منزلِه الجميل، وكأنّه يستعيد أحداثَ اليوم وأخباره وما كان فيه، ثمّ تفقّد منزله جيدًا، وفكّر مليًّا وسأل نفسه: متى سيحينُ وقت غرناطة؟ هل بعدَ لوشة؟ أمْ سيكون الدّور على غيرها؟ وبينما هو غارق في أفكاره؛ إذ قطعت عليه حمدونة استغراقَه.

حمدونة: «لقد نامتِ المسكينة من فرط الإعياء».

محمد: «نومٌ ليس بهنيئ، فمثلها ينامُ ولكن تحاصره الأحلامُ المزعجة».

حمدونة: «نامت السيدة العجوز على كلّ حال، وفي الغد سأهيّئ لها منزلنا القديم، ليكون لها إنْ أردتَ».

أومأ محمد بالموافقة ولم يتكلّم، قبل أن يعودَ إلى الصمت وهو يفكّر في بلده المتآكل الأطراف، الذي لا تنفكّ قُراه ومدُنُه تتساقط كأوراقِ الشجر في فصل الخريف الطويل.

تنبّهت حمدونة لصمتِ زوجها، فحاولت التخفيفَ عنه، ومواساته.

حمدونة: «أراك اليومَ أكثر ألمًا ممّا قبل، وأكثر حزنًا».

محمد: «ومَن لا يحزن، وقد صارت الأندلسُ (التي كانت حدودُها تصل إلى بلاد الفرنجة، وتتوغّل في أعماق الصحراء المغربية) إلى ما صارت إليه الآن، وقد انكمشت في حدودٍ ضيّقة محاصرة من العدو من كلّ جانب وناحية. لقد تخطّى الأمرُ لوشةَ والحامةَ من قبلها، فقد وصلني الخبرُ أيضًا بسقوط موكلين وإيللورا، وهُما من حُصوننا الأمامية. وقبل ذلك سقط حصنا ذكوين وقرطبة ومدينة رندة التليدة.. آهٍ يا أندلس! تنهّد محمد ثمّ صمتَ مرةً أخرى.

في صباح اليوم التالي، خرج محمد إلى أسوار المدينة مرّة أخرى ينتظر المقبل إليها، وبينما أشعةُ الشمس الذهبية تداعبُه، شاهد فارسًا يتقدّم نحوه في ثباتٍ عجيب، وعندما دقّق محمد النظرَ في المقبل نحوه، إذا هو رفيقه وصديقُه عامر الذي عادَ من الغزو في الحال، ولكنه عادَ مصابًا بكسورٍ في ذراعه اليمنى. تعانق الصديقان، وبكي عامر وهو ينظر إلى صديقه.

محمد: «الحمد لله يا عامر، أنّك بخير».

عامر: «ليتني متُّ قبل هذا.. قبل أن أرى نساءَ المسلمين تُسبَى وأطفالُهم يُستعبَدون. لقد كان ما حدث شيئًا مؤلمًا». (يبكي عامر).

محمد: (يحاول الظهور بمظهر القويّ، ويقول لصاحبه): «هوِّن عليك، فقريبًا تتعافى من إصابتك، وتنتقم لمن شاهدتَهم يُقتَلون».

عامر: «حتى إنْ تعافى الجسد، فالقلبُ لا شفاء له بعدَ اليوم، لقد مرض القلب والرّوح من تلك الهزائمِ المتتالية والخيانات المتتابعة التي مُني بها المسلمون».

محمد: «هل تعلم أنّ أهل لوشة أشاعوا أنّ أبا عبد الله الصغير إنّما دخل لوشة ليسلمها إلى ملك قشتالة؟».

عامر: «سمعتُ هذا الكلام، وسمعت غيره.. سمعت أنّ هذا الملك المهزوم ركع على ركبتيه أمام فرناندو الذي ساقه إلى قشتالة أسيرًا له».

محمد: «لا أعلم أيّ ذل وضعْنا فيه هذا الأميرُ الضعيف، والله إنّ الشهادة في سبيل الله هي ما تنقصُ الشجعان، وإنّ الموت فى كلّ الأوقات آت، فإنْ كان كذلك فلتكنْ شهادة في سبيل الله».

عامر: «الشهادة لا ينالها إلّا المتقون».

محمد: «ولكنْ أخبرني يا عامر: كيف خسرتم موكلين؟».

ينظر عامر في الفضاء البعيد، تجاه الشّمس الساطعة من خلفِ الغيوم) ويقول: «إنّنا لا نقاتل قشتالة وأراجون فقط يا محمد!.. بل نقاتل كلَّ أوروبا المجتمعة تحت الصّليب، بينما لا يهبُّ إلى نجْدتنا أحدٌ مِن إخوتنا المسلمين. لقد كنّا نحارب القشتاليّين والإنجليزَ والألمان والفرنسيّين في آنٍ واحد. لقد اجتهدْنا ودافعنا عنِ المدينة بكلّ ما كان متاحًا لدينا، ولّما أيقنّا بأنّنا مأخوذون لا محالةَ سلّمنا المدينة خوفًا على الأطفال والنساء، وإلّا لكان الموتُ أفضلَ إلينا من ذلّ الحياة».

رَبتَ محمدٌ على كتف صاحبه، واصطحبَه حتى ودّعه عند داره واطمأنّ عليه، ثمّ عاد إلى منزله عبْر البيازين، وما كاد يصلُ حتّى بادر بسؤالِ زوجته عن حالِ المرأة اللوشية.

محمد: «كيف حال زينب اللوشية الآن؟».

حمدونة: «مازالت تبكي زوجَها وبيتَها وجيرانها، وكلَّ قتلى المسلمين». (تتنهّد ثمّ تقول): «لقد روّعتنا تلك المسكينة بأخبارها وأخبارِ زوجها».

محمد: «أخبريني، ماذا قالت؟».

حمدونة: «لقد قصّت عليّ ما حدث فى مدينَتها، وكيف كان القشتاليّون يجعلون من أطفال لوشة ونسائها هدفًا لبنادقهم، فكانوا يتعاملون مع الأطفال والنّساء كصيادٍ حيالَ فريسته. لقد جعلوا من ضواحي المدينة مسرحًا للنّهب والجريمة، ومَن لم يُقتل في الطريق ذُبح في بيته من دون أيّ مقاومة تُذكر».

محمد: «وكيف نجتْ هي بينما قُتِل زوجها؟».

حمدونة: «كان زوجها يعمل في صناعة الحرير، فحثّته على الهروب إلى حصنِ المدينة، فردّ عليها الزّوج المسكين الذي منعه مرضُه من حمل السلاح والمقاومة، متسائلًا: لماذا أهربُ يا زينب؟ هل لأصبح رهنًا للجوع؟ أمْ أهرب لأصبح رهنًا للعبودية عند القشتاليّين؟ دعيني أقل لك أيّتها الزّوجة الصالحة: سأنتظر العدوّ هنا؛ فالموت السريع بالسيف خيرٌ مِن الموت البطيء في أقبْية محاكم التفتيش وعتْمة زنزاناتها. ثمّ تابع المسكين عملَه ليلقى حتفه على يد هؤلاء القشتاليّين الهمَجِ الذين لم يرأفوا بمريض أو امرأة أو طفل أو شيخ عجوز!».

محمد: «رحمَ الله زوجها ورزقَها الصبر على فراقه. ولكنْ لا تنسَي يا أمّ خالد أنْ تمديها بما تحتاج إليه من أموال تُعينها على معيشتها في غرناطة، فإنْ لم نُغثْها في لوشة فلنحسنْ ضيافتها في غرناطة.. وكفانا تقصيرًا».

حمدونة: «لا تقلق، فقد جعلتُ جزءًا من يومي لها؛ أخفّف عنها غربتها، وأواسيها في آلامها وحزنها على زوجها».

***

كان صوت هديرِ الماء يملأ المكان، عندما وقف أبو عبد الله الزّغل متأملًا تلكَ النافورة الصغيرة في بهْو بني سراج بقلبِ قصر الحمراء، فإذا به يمدّ يدَه ويداعبُ الماء محاولًا إمساكَ القليل منها، فإذا به ينسابُ من بين يديه، فيحاولُ مرّة أخرى ولكنْ بلا فائدة! ثمّ- في حزن عميق- ينظر الزّغل إلى بقعةٍ داكنة على أرضيّة البهو.. يقترب مِن البقعة ثمّ يفركها محاولًا تنظيفَها، ولكنّ محاولته أيضًا ذهبت سدى. يصمت ولا يتحرّك ويفكّر ولا يتكلّم. وبعد قليل، يقول بحروفٍ ثقيلة اجتهدَ كثيرًا في إخراجها: «رحم الله أخي علي- يتنهّد- فقد كان محقًّا يومَ قتله زعماء بني سراج، ليتَه لم يترك منهم أحدًا. ليته قتلَ أطفالهم ونساءهم». قالها ناظرًا إلى رضوان وكأنّه يذكّره بالأحداث.

رضوان (يهزّ رأسَه علامة الموافقة): «نعم يا سيدي، فذاك يومٌ لا يُنسى»، (يهبّ من مكانه): «لقد كنتُ حاضرًا مع مولاي أبي الحسن،

إذْ أمرني بعد صمتٍ طويل بتوجيهِ دعوةٍ عامة لكلّ زعماء بني سراج، وعلى رأسهم زعيمهم محمد بن سراج. فنفّذت مطلبَه من دون أنْ أعرف سببَ الدعوة على وجْه التحديد. وفي اليوم الموعود، وبعدما اكْتمل وصول بني سراج، استقبلهم مولاي بالجلوس في بهْو الأسود. وبعد وقت قصير، تركهم ودخل إلى هذه القاعة، وأنا خلفه، فإذا به يجلس على هذا المقعد». (يشير رضوان إلى مقعد جانبي، مكملًا): «ثمّ أمرني أنْ أدعوهم فردًا فردًا للمثول بين يديه- كلّ ذلك وأنا لا أعلم أي شيء- فكان كلّما دخل فردٌ منهم، أمرَ به فجلس على ناصية هذه النافورة وحولَه الحرس شاهرين سيوفَهم، فإذا جلس الفردُ منهم، جاء إليه مَن يذبحه، وهكذا حتى فني بنو سراج كلّهم إلّا مَن تخلّف منهم أو مَن كان دون الحُلُم».

الزغل: «إذًا، هذه البقعة الدّاكنة هي ما تبقّى من محمد بن سراج وقومه».

رضوان: «لقد أمر مولاي وقتها بعدم تنظيف المكان إلّا مِن جثثهم، وترك الدم مكانه فاستحالَ إلى هذه البقعة الدّاكنة، وكأنه أرادَ أن يتذكّر مقتلهم دائمًا ويذكِّر به، حتى يتّعظ غيرهم».

الزغل: «هل تتذكّر يا رضوان سببَ نقمة علي بن سعد عليهم؟».

رضوان: «كانت هذه الحادثة في العام ١٤٨٢م، بعد غزوة الأمير أبي الحسن لحصن الزهراء، وزواجه من ثريا، التي أنجبت له ولديْه

سعدًا ونصرًا اللّذيْن رشحتْهُما أمُّهما لتولي ولاية العهد بدلًا من محمد بن علي بن سعد، ما أغضبَ الزوجة الأولى عائشة الحرة، فاتفقتْ مع زعيم بني سراج وقتها، وهو محمد بن سراج، على الفرار إلى البيازين وإشعال ثورة عارمة على مُلك أبي الحسن.. لكنّ الأمر كُشف، فكان ما كان».

يلتفت الزّغل إلى صهرِه يحيى النيار، قائلًا: «هل علمتَ الآن يا يحيى، لماذا تمنّيتُ لو أنّ أخي عليًّا قتل حتى أطفال بني سراج؟!».

يحيى: «رحمه الله- فلو أنه استأصل شأفتَهم، لما وجد ابن أخيك مَن ينهض معه اليوم!».

الزغل: «بل قل: لما وجدَ مَن يخون الأندلس معه اليوم!». كان الزّغل يقول هذا الكلام متأثّرًا بأخبارٍ وصَلَته عن صُلحٍ أُبرِم في الخفاء بين فرناندو الخامس وأبي عبد الله محمد بن علي بن سعد، وكان مِن شروط هذا الصلح: أنْ يعلن أبو عبد الله الحربَ على عمّه الزّغل ومملكة غرناطة، ولمّا تمّ الصلح خرج أبو عبد الله الصغير متخفّيًا، حتى وصل إلى أحواز مالقة، وتحديدًا أرض القبذاق، التي منها انطلقَ إلى بلش الأبيض عند أصدقائه الأوفياء من بني سراج، الذين أكرموا وفادتَه ووعدوا بنصرته، وبعدها ذهب الصغير إلى بلش الأشقر حيث عقدَ الأحلاف والعهود مع أهلِ تلك المنطقة، ثمّ أرسل إلى حاكم بلدة أجيجر يدعوه للانْضمام إلى صفوفه والدّخول في الصلح الذي أبرمه مع القشتاليّين. لكن حاكم أجيجر رفضَ

العرض، وأغلق أبوابَ حصنه في وجْه أبي عبد الله الصغير.

تحرّك الزّغل من مكانه، في اتّجاه بهو السفراء، وخلفه رضوان ويحيى النيار، حتى إذا وصل إلى البهو، وقبل أن يجلس على كرسي عرشه، التفت إلى رضوان سائلًا: «هل أرسلتَ إلى غالب البياسي كما أمرنا؟».

رضوان: «نعم يا سيدي، وعمّا قريب يكون ماثلًا بين يديك».

يضربُ الزّغل بيدِه على جانب الكرسي الجالس عليه صارخًا بصوتٍ مرتفع: «لنْ أظلّ نصفَ حاكم.. لن أبقى أبدَ الدهر نصف ملك.. لن أحكم بلدًا منقسمًا في عاصمة منقسمة».

يحيى النيّار: «هدّئ من روعك يا مولاي».

الزغل: «ما دام ابن أخي حيًّا، فسأظلّ نصفَ ملك، وتظلّ المملكة معرّضة للخراب، كما سأبقى رهنَ إرادة العامة يرفعونني متى أرادوا ويخفضونني متى أرادوا». (يصمت، بينما عيونُ رضوان والنيّار تترقبه، ثمّ يعود ليقول): «لا، لن يعيش طويلًا.. لن يعيش».

ظلّ الزّغل يردّد العبارة الأخيرة مرات.. حتى لاذَ بالصمت، ليصمت المكانُ كله، إذْ لم يجرؤ أحدٌ على النطق ببنْتِ شفة. وظلّ الصمت يسود المكان، حتى قطعَه صوتُ الحارس.

الحارس: «غالب البيّاسي يستأذن في الدخول عليك يا مولاي».

يومِئ الزّغل بيديْه للحارس بأنْ يأذن له بالدخول.

غالب البيّاسي: «السلام عليكم ورحمة الله».

الزغل: «وعليكم السلام ورحمة الله. كيف إقامتكم في غرناطة؟».

غالب البيّاسي: «الحمد الله على كلّ حال يا مولاي. الحمد لله أنْ وجدنا أرضًا تؤوينا بعدما فقدنا بلدنا والأهل».

الزغل: «أما زلتَ حزينًا على سقوط لوشة يا غالب؟».

يضعُ غالب وجهَه بين يديه ثمّ يرفعه ثانيةً، ويقول: «ومَن لا يحزن على ضياع الإسلام في بلاد الإسلام! ومَن لا يحزن على بلد عليّ العطّار! ومَن لا يحزن يا سيدي وقد صارت مساجدُها كنائسَ»، (ينظر الجميع إلى الدموع في عيني غالب الذي يتابع مواصلًا البكاء): «لقد شاهدتُ بأمّ عينيّ القشتاليّين وهُم يدنّسون مسجد لوشة بعدما حوّلوه إلى كنيسة. وكأنّ أرض لوشة قد ضاقت عليهم فلمْ يجدوا مكانًا لكنيستهم إلّا مسجدَها الجامع».

يربتُ الزّغل على كتف غالب قائلًا: «تلك أخلاق القشتاليّين منذ احتلالهم طليطلة.. تحويل المساجد إلى كنائس أو هدمها». (يتحرّك معطيًا ظهره للجلوس مكملًا): «ولن يكون مسجد لوشة هو المسجدَ الأخير الذي سيحوّلونه إلى كنيسة، بل إنّ مساجد أخرى آتية، إنْ لم نتدارك أمر ومصيرَ هذه الأمة». (يتوقّف الزّغل ثمّ يتابع): «ولهذا فقد انتدبتك لمهمةٍ خاصة يا غالب».

غالب: «نَفسي فداءُ الأندلسِ ومساجدِها يا سيدي».

الزغل: «أريدك أن تذهبَ إلى ابن أخينا في بلش، وتخبره بأنّ إنقاذ غرناطة يجب أن يكون هدفَه، بغضّ النظر عن أي اعتبارات أخرى. أخبره بأني على استعدادٍ للتنازل له عن كلّ غرناطة، وأنْ أغدو واحدًا من رعيّته، على أن يعطيني أملاكًا تضمن ليَ العيش الكريم».

ينظرُ غالب إلى الزّغل في انبهارٍ شديد، بينما ينظر رضوان ويحيى إليه باستغرابٍ مخلوط بصدمةٍ كبيرة، ثمّ يخرّ البياسي ليقبّل يدَ الزّغل قائلًا: «قد كنتُ في السابق أسمعُ عن شجاعتكم، ولكنني اليوم أقف مبهورًا أمام ما تتحلّون به من الشهامة والرجولة والمروءة».

الزغل (مبتسمًا): «اذهب على بركة الله، وعدْ إليّ سريعًا، فحياة غرناطة متوقّفة على ما سيحدث في تالي الأيام. فإنْ وافق ابن أخي على الوحدة معنا، فسوف تعيش غرناطة، وإلّا ...»، (يصمت الزّغل ولا يكمل البقية المأساوية لعبارته!).

***

بعد أيام، وفي بلش الأبيض، العاصمة الجديدة المؤقتة لأبي عبد الله الصغير، كان الصغير نفسُه يجلس في إيوانه شاخصَ البصر، يتذكّر غرناطة وشوارعها، وقصرَه في الحمراء بحدائقه الشهيّة ونوافيره العذبة، وجنتِه الأرضية، وبينما هو كذلك إذْ تقطع عليه أمّه عائشة الحرة وزوجته مريمة خلوتَه وتدخلان عليه الإيوان.

عائشة: «كيف حالك يا محمد؟».

ينتبِه الصغير وينظر إلى أمّه وزوجته، ويقول بصوتٍ لا يكاد يُسمَع: «بخير يا أماه». قالها بغير اهتمام، ثمّ سرعان ما عاد إلى شرودِه وصمتِه!

تنظر مريمة إلى عائشة الحرة وتقول: «هكذا حالُه منذ الأمس، شارد الذهن قليل الكلام».

تتحرّك عائشة تجاه ابنها، وتضع يدَها على كتفه وتقول: «أهي غرناطة؟».

أبو عبد الله الصغير: «وهل لمثلي أنْ ينسى غرناطة، وقد كنتُ سيدَها؟».

عائشة: «اعتقدتُ أنك سلوتَها ونسيتها». (تنظر إليه مليًّا وتكمِل): «وإلّا فما جلوسك في بلش مالقة بعيدًا عنها؟!».

يهبّ الصغير من مجلسه ويتحرّك، ثمّ يقول موجهًا حديثه إلى أمّه وهو يقبض على يديه: «لن يطولَ غيابي عنها».

مريمة (تتحدّث في استعجاب): «كيف وقد تقطّعت بك وبنا الأسباب هنا؟».

أبوعبد الله الصغير: «الأسباب لم ولنْ تتقطّع يا مريمة. لقد أرسل إليّ عمّي بالأمس رسالةً حملها غالبُ البيّاسي، يطلب إليّ العودة إلى غرناطة، والجلوس على عرشها».

عائشة (في نبرةٍ جمعت بين الاستهجان والدّهشة): «هكذا بكلّ بساطة؟ ما أظنُّها إلّا خُدعة ولعبة جديدة من ألعاب عمّك؛ فلا تنخدعْ له».

الصغير (يقبّل رأسَ أمّه قبل أن يقول): «طيبِي خاطرًا يا أمّاه واطمئني، فلقد أرسلتُ إليه، أن اخرجْ منها لأدخلها إن كنتَ صادقًا فيما تدّعي. لقد رفضتُ دخول غرناطة ما دام هو موجودًا فيها».

عائشة: «خيرًا فعلتَ يا ولدي. ولْتُشِع في الناس أن عمّك هو المسئول عن قتل أبيك وأخيك يوسف، وأنه مُعتدٍ على التاج يحاول خداعَك، واجمعْ مِن حولك الأتباع، واشتَرِهم بالأموال والوعود، واركنْ إلى بني سراج، فعداؤهم لأبيك وعمّك كبير، وهُم خيرُ عونٍ لك في هذه الأيام».

أبو عبد الله الصغير: «وماذا عن القشتاليّين؟».

عائشة: «لن تستطيع أنْ تجمع بين عدوّين في آنٍ واحد، لهذا.. اطلب مساعدةَ فرناندو، وأجهزْ بها على عمّك، حتى إذا خلُصَت لك الأندلس، أَعلِن وقتها الحربَ على قشتالة وتخلَّصْ مِن تبعيّتك لها».

أبو عبد الله الصغير (يفركُ لحيتَه الصغيرة): «حسنًا، سأرسل إلى قائد حصن لورقا، دون خوان دي بنافيدس، أنْ يوافيني بقواته، كي نهاجم بها غرناطة».

تبتهجُ عائشة بحديث ابنها وحماسته لإعادة مُلكه، وتقول له في لهجةٍ جادّة: «يا محمد، مِن العار عليك أن تتسكّع على حدود مملكتك بينما هذا الدّعي يجلس على العرش في عاصمتك، لا تنظرْ إلى الخارج كي يساعدك، بينما لديك قلوب موالية لك في غرناطة، فأسيادُها سيفتحون الأبواب لاستقبالك، فاضربْ في العمق، فإذا فعلتَ فقدْ تغيّرُ كلَّ الموازين، أو على الأقل تضعُ حدًّا لكلّ هذا، فيكون لك إمّا الصدر وإمّا القبر.. ولا وسط للملوك بينهما».

تبكي مريمة وهي تنظرُ إلى زوجها، فتنهرُها عائشة وتعنّفها قائلة: «لا تكوني عائقًا بينه وبين عرش أبيه وأجداده يا ابنة عليّ العطّار، فلا يُصِبْه الوهنُ بدموعك، ولا تكوني أوّل المثبّطين له».

تُجهش مريمة بالبكاء، ولكن بصوتٍ أكثر ارتفاعًا، إذ إنها تخشى على زوجها الغِيلَة، ولا تستطيع أنْ تراه أسيرًا مرة أخرى، ولهذا يطالعها الصغير ويواسيها ويطمئنها بنظراته، ثمّ يحوّل بصره ناحية غرناطة قائلًا: «إني آتٍ إليك يا غرناطة، فإمّا أن أنتزع العرش، وإمّا أن أُشيَّع إلى القبر»!

***

.٤٠.

على مشارف غرناطة

بعد تردّد وتذبْذب قرّر الصغير مهاجمة غرناطة، فجمع رجالَه في بلش مالقة، وخطب فيهم قائلًا: «ماذا فعلتُ كي أستحقّ النفي من جنة آبائي وأجدادي؟ أصبحتُ مشرَّدًا داخل مملكتي، بينما الخائنُ المجرم يجلس على كرسي مُلكي مفاخرًا بما سرق، فاللهُ سيكون مع الحقّ، وضربة واحدة ستعيد إليّ كلّ شيء»، (ثمّ استلّ سيفه وصرخ مكملًا): «مَن منكم سيلحَق بمَلِكه إلى الموت؟».

ما كاد الصغير يُنهي حديثه حتى وضع كلُّ جندي من رجاله يدَه على سيفه وردّدوا في حماسٍ كبير: «كلنا فداءٌ لك يا سيدي».

بعد ذلك أمرهم الصغير بالتأهّب لشنّ هجوم مباغتٍ قريب على غرناطة الحبيبة.

بمرافقةٍ من عميد بني سراج، محمد بن حامد بن سراج، ووزيره يوسف بن كماشة، وكوكبةٍ من الجند القشتاليّين؛ خرج أبو عبد الله قاصدًا غرناطة، ولغرضِ التّمويه ابتعد الصغير بجيشِه عن كلّ منطقة مأهولة، واختارَ أن يمرّ بجيشه عبْر الوديان والجبال التي لا يرتادُها أحد، وذلك حتى يباغت غرناطة ويغشاها في غفلةٍ من أهلها. وعند منتصف الليلة الثانية من خروجه، وصل الصغير إلى مشارف المدينة

الخالدة، وعلى مرمى حجر من باب «البيازين» الشهير رفع الصغير يدَه، مشيرًا لجنده، بينما جذب إليه لجامَ فرسه الأبيض.

أبو عبد الله الصغير: «إذًا، فليتوقّف الجميع هنا».

محمد بن حامد: «لِمَ يا مولاي وقد صرنا قابَ قوسين منها؟!».

أبوعبد الله الصغير: «أريد أن أفاجئ الحرس، لهذا سأذهبُ إلى الباب وحدي، فلو أنّنا ذهبنا جميعًا لراعَهُم ذلك، وربّما استيقظ حرسُ الزّغل الخاصّ، ووقتها لن تنجح خطّتنا، ولن ندخل غرناطة».

يوسف بن كماشة (يُظهر الخوف والقلق على حياة سيده، قائلًا): «إذن يجبُ أن تصطحبَ معك بعض الحرس الأشدّاء يا مولاي».

أبو عبد الله الصغير: «سأكتفي بثلاثة منهم، على أنْ يصطحبني ابن سراج».

يوسف بن كماشة: «كما تحبّ يا مولاي».

يتحرّك الصغير ومعه محمد بن حامد بن سراج، وثلاثة من الحرس، حتى إذا وصلوا إلى الباب، طرقه الصغير بكعْبِ سيفه، فاستيقظ الحرّاس متسائلين في فزع.

حارس الباب (في لهجةٍ جادّة): «مَن أنتم...؟!».

أبو عبد الله الصغير: (افتحوا الأبواب، أنا الملك. هكذا قالها في ثقةٍ ترجرَجَ صداها في الفضاء المحيط، كأنّما أراد أن يلجمَ الحرس

ويبْهَتهم. أضاء الحرسُ المصابيح، وسلّطوها من أعلى البرج على الخيل الواقفة أسفلهم، فإذا بالصغير يشير إليهم: «أنِ افْتحوا»، وسرعان ما اضطرب أمرهم، فانتهزَ الصغير ذلك لينهرهم وهُم بين التّردّد والخوف.

الصغير: «ماذا تنتظرون!!؟ افتحوا الأبواب».

وبتردّد، هبطَ أحدُ الحرس من أعلى البرج، وفتح الباب على الفور، وسرعان ما دخل أبو عبد الله الصغير وحاشيته، وبإشارة سريعة للجيش المرابط قريبًا، دخل الجميع وصاح أبو عبد الله الصغيرفي جنده وفي حرس الأسوار: «أيقظوا البيازين وساكنيه. أخبروهم أنّ مليكهم قد عاد. فليهبّوا ويستعدّوا للدفاع عنه وعن كرامتهم». (ثمّ تحدّث موجّهًا بصرَه إلى محمد بن سراج): «وزِّعوا السلاح على كلّ مَن يستطيع حملَه».

وبحركاتٍ تلقائية التفّ الشعب حول أبي عبد الله الصغير، الذي لاحظ أنّ البيازين ما زالت نائمة، ولذلك أمر بأنْ تُنفَخ الأبواق وتُدَقّ الطبول ليستيقظ الجميع، ويسارع الناسُ إلى الساحات والميادين.

لم تمضِ فترة قصيرة حتى امتلأت الشّوارع بكلّ متحمِّس، ولم يطلع الفجر حتى امتلأت الساحاتُ بأسلحة تلمَع، ونفوسٍ ترى أن الصغير هو الملك وأنّ غيره خائن معتدٍ!

***

استيقظ البيازين، رجالُه ونساؤه وأطفاله، وفتحت «حمدونة» زوجة محمد العطّار نافذة منزلها، لتنظر ما الذي يحدث، ثمّ أدارت وجهَها لتشاهد محمدًا وهو يستعدّ للخروج.

حمدونة: «إلى أين يا أبا خالد؟».

محمد (متعجّبًا مِن سؤالها: «إلى أين!».

حمدونة: «نعم، إلى أين أنت ذاهب الآن؟».

محمد: «ما بكِ يا امرأة؟ تتحدّثين وكأني أولَّ مرةٍ أخرج في هذا الوقت!».

حمدونة: «ظننتُك ذاهبًا إلى حيث الملك أبو عبد الله محمد بن علي، فلقد شاهدتُ الرجال من خلف النافذة يتجمّعون حوله».

محمد: «آه.. لقد أقلقوا نومي اليوم، إذْ سمعت الأبواق، وصوت المنادي يستنفرُ الناس لحمل السلاح».

حمدونة: «ألن تنضمّ إليهم؟».

محمد: «ومنذ متى تعلمين أنّ زوجك يشهر سيفَه في وجه مسلم!؟ والله لو أنّ المنادي قد نادى لجهاد القشتاليّين، لما تأخّر زوجُك عنهم طرفةَ عين من ليل أو نهار، أما أنْ يكون المنادي قد أطلق صوته لإشعال فتنةٍ وحرب بين المسلمين فلا والله لن أكون معهم أبدًا».

يرتفع صوتُ المؤذن بصلاة الفجر..

«حي على الفلاح، حي على الفلاح

الصلاة خيرٌ من النوم..»

محمد: «أيقظي خالدًا وعائشة، كي لا تفوتهما الصلاة في وقتها».

بعد ذلك خرج محمد للصلاة في المسجد، وبعد الصلاة قادته قدماه إلى شاطئ نهر شنيل، كان محمد ينتظر الشروق تحت شجرة الرّمان التي طالما شهدت على حواراته مع صديقيْه عامر وعليّ، وبينما يتأمل المشهد والأوراق تتساقط، وأشعة الشمس الدافئة تظهر رويدًا رويدًا من خلف جبال السيرانيفادا؛ إذ بعامر وعلي يقتربان ويُلقيان السّلام. وبعد عبارات قصيرة عابرة فيما بينهم، أجبرتهم الأحداثُ القائمة على الدّخول في جدلٍ حولها.

عامر: «ماذا سنفعل الآن؟». (تساءل وهو ينظر إلى سطح النهر بينما أمواجه الجميلة تنساب متتابعة ومتسقة): «أنا في الأصل لا أحبّ هذا الأمير، لهذا أفكّر في الانضمام إلى مولاي الزغل».

علي: «وأنا كذلك، فأنا أرى ابنَ عائشة من أسباب تعاسة غرناطة، هذا إن لم يكن سببَها الوحيد».

ينظر محمد إلى صاحبيه مليًّا، ثمّ يقول: «أمّا أنا فسأذهب إلى بيتي».

عامر (بين الدهشة والاستهجان): «تذهب إلى بيتك في هذا الوقت العصيب وهذه الظروف القاسية؟!».

يهبّ محمد واقفًا ثمّ يرفع صوته وقد تملّكه الغضب: «نعم، أدَّخر سيفي للهدف الجدير به.. لمن احتل ديارنا وقتل رجالنا ويتّم أطفالنا وسبى نساءنا، وحوَّل مساجدنا إلى كنائس، واتخذ من مآذننا أبراجًا لأجراسه. واللهِ لن أرفع سيفي في فتنةٍ كهذه.. لن أفعل».

لم يكد محمد يفرغ من قسَمِه حتى غادر صاحبيه متجهًا ناحية بيته، وقد قرّر في هذه اللحظة أن لا تجارة ولا بيع أو شراء، حتى لا تُجبره الظروف على فعل ما لا يحب!

أمّا عامر وعلي فقد تحرّكا أيضًا، ولكن باتجاه البيازين حتى يكونا على مقربةٍ من الأحداث، وبينما هُما يقتربان، وقد سارت الشمس حثيثة في طريقها لتتوسّط السماء؛ إذ تنتهي إلى سمعهما أصواتُ البنادق وصليل السيوف وصهيل الخيول وصريخ النساء وجلبة كبيرة. توقّف الصاحبان ليسَ عن خوف، ولكن عملًا بنصيحة صاحبهما، فإذا بأبي عبد الله الزّغل قد جمع رجالَه ودخل بهم حيّ البيازين وسيفُه في يده، على أملٍ أن يباغت الصغير ويقضي عليه، وبذلك يحقّق الوحدة للمملكة ويقضي على أسباب تصارعها وتقاتُلِ شعبها وتشتُّتِ أمرها.

ظنّ الزّغل أنه فور دخوله هو وأتباعِه حيَّ البيازين سيفرّ أتباع ابن أخيه ويتركوه أسيرَ جُبنه، لذلك لم يستعدّ للمعركة جيدًا، ولم

يحْتَطْ لقوّة خصمه بما فيه الكفاية. فما كادَ يصل إلى أسوار الحي حتى وقع ما لم يكنْ قد حسب له حسابًا، إذ استقبله محمد بن حامد بن سراج في قوّاته ودارت بينهم معركةٌ رهيبة في الساحة الرئيسية أمام مسجد البيازين، وتحت وقع الصدمة وأثر ضعفِ الاستعداد، اضطر الزّغل أن ينسحبَ إلى أبواب الحمراء، ليس ليخرج منها ومن غرناطة، بل ليعيد الكَرَّة ويستعدّ لجولة جديدة، وبالفعل عادَ الزّغل مرة أخرى ليقاتل جيشَ ابن أخيه.

استمرّت طاحونة القتال تفجّر الدماء أنهارًا بين جيشي العمّ وابن أخيه، ليسقط القاتل والقتيل المسلمان في دائرةٍ من العبثِ الجهنّمي اتّسعت لتشمل شوارع غرناطة وأزقّتها، بين كرٍّ وفرّ، وإقبالٍ يعقبه إدبار. وقد كان في جيش الصغير مجموعةٌ من القشتاليّين، الذين كانوا يقاتلون ببأسٍ شديد، ويخرِّبون ما يستطيعون ممّا يجدونه أمامهم، بل إنّهم تطاولوا على مسجد التائبين في غرناطة، ولم يجرؤ الصغير على أنْ ينهرهم، مخافةَ أن يتركوه وحيدًا في مواجهة عمّه.

مر الوقت وسقط الكثير من كلا الجانبين، ولم ينجح أحدُهم في انتزاع الغلبة على خصمه، وحسم المعركة لمصلحته؛ فخسرَ الجانبان رجالًا كُثْرًا وأموالًا طائلة، ولم يفرق بينهما إلّا حلول الظلام، لينسحب كلّ فريق إلى معسكره، فعاد الزّغل إلى الحمراء بينما تحصّن الصغير بأسوار البيازين، وقضى الجيشان ساعاتِ اللّيل في التأهّب وترتيب الصفوف ومعالجة الثغرات. وسرعان ما تجدّد الصراع مع

شروق الشمس، وهكذا ظلّت المَدينة المنقسمَة تشهدُ الصراع العبثي بين الخصْمين المسلمين، بينما ينصبّ نهر الدماء المنسكبُ منهما معًا في مصلحة عدوّتهما المتربّصة: قشتالة الحاقدة، وجنودها الذين استباحوا ما استطاعوا من المدينة تحت راية الصغير. وبعد أيامٍ من القتال قرّر الزّغل محاصرة الحي بكلّ مَن فيه، بل إنه ترك الإقامة في الحمراء، وأقام معسكرًا قربَ البيازين، وهنا كان السؤال المرير: «ماذا لو أنّ الزّغل جلبَ أنفاطه وضرب بها البيازين؟». هكذا سأل عامر صاحبَه عليًّا الذي كان مستغرقًا في الهمّ الكبير.

علي: «ستكون والله هي القاضية وقتها، وسيتدمّر هذا الحي الجميل»، (قالها ثمّ صمت قليلًا، قبل أن يتّجه ببصره إلى صاحبه): «ولكنْ ماذا يساوي بقاءُ الحي إنْ هلك أهله؟!».

***

في منزل محمد العطّار، كانت زوجتُه حمدونة تجلسُ قُرب نافورة المياه، تمشط شعرَ ابنتها عائشة في سكون، وما هي إلّا لحظات حتى طرقَ البابَ طارقٌ، فنادت حمدونة بصوتٍ مرتفع، أن افْتح الباب يا خالد.

تحرّك خالد ليفتح الباب، وسرعان ما أطلّت من زاويته زينب اللوشية وهي تبتسم ثمّ سلّمت ودخلت، لتردَّ عليها حمدونة السلام، ثمّ تدعوها إلى الجلوس معها، وتجاذبتِ الاثنتان أطرافَ الحديث.

حمدونة (تستمرّ في تصفيف شعر ابنتها، ثمّ تقول): «لحظات وأفرغ لك يا زينب».

زينب: «لست متعجّلة يا أمّ خالد». (تتأوّه، قبل أن تكمل): «ولِمَ التعجل وقد أصبحنا أسرى منازلنا، لا نخرجُ منها ولا حتى نطمئنّ فيها على أنفسنا». (تقول ذلك ثمّ تسأل): «ما أخبار أبي خالد، فلم أعدْ أراه يذهب إلى دكّانه؟».

حمدونة (تنتهي ممّا تفعل، ثمّ تقول): «ولِمَ يذهبُ وقد كسدت التجارة، ولم يعدْ أحدٌ في غرناطة كلها يبحثُ عن العطارة».

زينب: «لقد أصبحنا نبحثُ عن أقلّ أسباب الحياة، بعدما أضاعها الملوك بصراعاتهم وتقاتلهم».

حمدونة: «إنّ شهورًا من الصراع يا زينب لكفيلةٌ بأن تفني الأقوات والمؤن، وتقضي على كلّ أسباب الحياة. خمسة شهور كاملة لم تتوقّف أو تهدأ خلالها رحَى هذه الحرب، ولم نعدْ ندري متى تتوقّف، وقد زاد من ضرامِها ما فعله ملكُ قشتالة عندما أمدّ أبا عبد الله بن عليّ بالأقوات والقمح والجنود والسّلاح والبنادق الطويلة».

زينب: «الجنود..!».

حمدونة: «لِمَ الاستعجاب، وكأنّك لم تسمعي مِن قبلُ عن تعاون هذا الملك مع القشتاليّين، وكأنّه يفعلها أول مرة». (تقولها في دهشة واضحة).

زينب: «لا.. لا، بل أعلم بسابق تعاونه معهم، وما استعجابي لفعله، بل لعدم انْفضاض الناس مِن حوله بعد كلّ هذا!».

حمدونة (تتأوّه ثمّ تقول): «ولِمَ ينفضّون مِن حوله؟ ألا ترينَ انتشار المخدرات والفواحش بين شباب غرناطة، هل مَن يتناول المخدرات سيلتفتُ إلى أمرٍ كهذا؟». (تتوقّف قليلًا ثمّ تكملُ حديثها): «إنّ شعب غرناطة شعبٌ عاطفي، وقد هيّج هذا الملك مشاعره بقوله إن عمّه الزّغل قد قتل أباه وأخاه، ولهذا ترينْهم يريدون الثأر له. وقد تناسوا في غمْرة ذلك كلّ خيانات الصغير وأفعالَه المزْرية».

زينب: «هذا ليس تعاطفًا، بل جهلٌ بالدين والسياسة أيضًا، فمَن يقاتلونه اليوم هُم في حاجة إليه غدًا، ومَن يساعدهم اليومَ هو عدوّهم غدًا».

تصبُّ حمدونة كأسًا من عصير الرّمان وتقدّمها إلى زينب، ثمّ تقول لها وهي تبتسم: «واللهِ لقد مللتُ الحديث عن الحرب وأمورها فهل تتوقّفين أيتها اللوشية عن هذا الحديث الذي يضاعف الآلام». (تقول ذلك وهي تبتسم). وأثناء ذلك تنتهي إليهما أصواتٌ من جهة باب المنزل، مؤذنةً بدخول محمد الذي دخل وألقى السلام.

حمدونة: «وعليكم السلام، انظر مَن عندنا اليوم؟».

محمد (ينظر تجاه زينب مرحّبًا): «أهلًا وسهلًا بجارتنا اللوشية».

زينب: «أهلًا بك يا أبا خالد. كيف صارت غرناطة اليوم؟».

محمد: «مممم.. غرناطة! لقد أصبحت أسيرةً لملكيْن متقاتلين، أحدهما يقاتل القشتاليّين والثاني يقاتل مَن يقاتل القشتاليّين بعدما فشل في قتال هؤلاء الأخيريْن!».

يتحرّك محمد جهةَ النافورة وسط المنزل ثمّ يقول: «لا أدري إلى متى سيظلّ هذا الملك أسيرًا لأعدائه وعدوًّا لأمّته؟ لقد طلب العونَ من القشتاليّين فأمدّوه بالجنود والعتاد، وبين ليلةٍ وضحاها صارَ غونثالو القرطبي، أو ما يدعونه فرنان الفيريز دي سوتومري، ومعه جمعٌ من القشتاليّين يملأون أزقّة البيازين وميادينها، فصار الجندي المسلمُ ينظر حوله فيجد نفسَه يعاضد القشتالي على أخيه المسلم، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله».

زينب: «أين العلماء من كلّ هذا يا أبا خالد؟ فوالله لولا أنّني امرأة لخرجت فيهم، ولأعلنت خيانةَ أبي عبد الله محمد بن علي وشيعته».

محمد: «لا تظلمي العلماء. فقد امتلأت بهم مساجدُ البيازين وغرناطة كلها، بل إنّ الأمر لم يقتصر على العلماء والفقهاء وحدهم، إذْ خرج كبار السن وأعلنوا خيانة محمد بن علي، كما حذّروا كثيرًا من الخطر المُحدق الذي ينتظر غرناطة مع تمدُّد هذا الصراع المرير الذي لا ربحَ فيه إلّا للشيطان».

حمدونة: «ألا يخجل أبو عبد الله هذا من كوْنه حليفًا للقشتاليّين!؟ ألا يخجل من أنّ حلفاءه القشتاليّين يُشيعون الآن- وبأمْره- الخراب والدمار في أرض آبائه وأجداده؟!».

محمد: «يخجل!». (يبتسم في سخرية): «هذا رجلٌ لا يعرف الخجل ولا الشّهامة. وكيف يعرفهما وقد سمحَ للقشتاليّين بدخول البيازين!».

زينب: «صدقْت يا أبا خالد، ولكن ماذا عن الزغل؟ ألَا تراه مخطئًا هو أيضًا؟».

محمد (يردّ بسرعة): «لا، يقينًا».

زينب: «كيف ذلك؟».

محمد: «لم يكن أمام أبي عبد الله الزّغل إلّا أن يدافع عن مُلك أجداده، ضد رجل تحالف مع الأعداء ضدّ بلده ودينه، ثمّ كيف يحكم غرناطة رجلٌ لا يعرف فنون القتال، وكلّما دخل حربًا خرج منها مأسورًا ومهزومًا». (يستدير قائلًا): «كيف يحكم غرناطة من دخلها برماح القشتاليّين وسيوفهم؟!».

***

.٥٠.

في دهاءٍ شديد وخبثٍ قَميء، قرّر فرناندو الخامس استغلالَ ما يحدث في جارته غرناطة، فقرّر نقلَ الحرب إلى المدن الكبيرة، مستفيدًا من انشغال المسلمين بعضهم بقتالِ بعض.

اجتمع فرناندو مع قادته ورجاله في قرطبة بعد أنْ أعلن النّفير العام للحرب، فاصْطفَّ له جيشٌ يتكوّن من عشرين ألف فارس وخمسين ألف راجلٍ تحت قيادة أشجع فرسان قشتالة.

تركّز في قرطبة جيشُ القشتاليّين بعدما كانت مِن قبل مَركزًا لجيش المسلمين المجاهدين، حين كانت أرضًا تتزاحَمُ عليها جيوش الناصر والحاجب المنصور، ثمّ غدت مَرْتَعًا للجيوش الحاقدة على الإسلام ومقرًّا للدّسائسِ والمكائِد التي تُحاكُ للمسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية. ولعلّ لوفائها العظيم مُصابًا اهتزّت له قرطبة مُحدِثًا زِلزالًا مُريعًا؛ ارتجّتْ إثرَهُ الأرضُ ورقصت الأبراج والأسوار والأعمدة، و فزِعَ النّاس وهُرِعوا يتسابقونَ والجيش المحتشد إلى الساحات الخالية خوفًا من أن تَهوي عليهِم مساكِنُهم؛ هَبُّوا جميعًا فِرارًا مِـن الموتِ المُحدقِ إذ تَهوي المساكِنُ بعضُها فوقَ بعضٍ وتَركعُ أنقاضًا.

تصدّع قصر قرطبة من جرّاء الزلزال وسقطت بعضُ أقبيته، وما كادت الرجّةُ تهدأ حتى اجتمع المِلكان الكاثوليكيّان في قصر قرطبة القديم؛ قصر عبد الرحمن الداخل، أمامَ المسجد الجامع الذي كان

قدْ تحوّل إلى كنيسة، اجتَمعَا مع كبار قادتها والكاردينال الأعظم مندوسا والأب أغابيدا، وبادر فرناندو متأفّفًا ممّا حصل..

فرناندو: «كم بلغت خسائر المملكة من جرّاء هذا الزلزال؟».

مركيز قادش: «اطمئن يا سيدي، لم تكن هنالك أي خسائر في الأرواح أو الممتلكات، إلّا بعض الأبنية القديمة».

إيزابيلا: «الشّكر للربّ على كلّ حال».

يتحدّث الكاردينال الأعظم معقبًا وهو يرسم علامةَ الصليب على وجهه: «إنّ هذه الهزة الأرضية القوية التي لم تُسقط لنا عمودًا، أو تهدم لنا بيتًا أو كنيسة، إنّما هي هزّة أصابت تلك الدولة العربية المغربية، وإنها لعلامةٌ من الربّ على اقتراب نهاية تلك المملكة، وأنّ هذا الاهتزاز قد أصابها في عُمقِها، ولن تنجو مِن بعدِه أبدًا، لذلك يجبُ أن يكون هذا الزلزالُ دافعًا لنا لاستكمال ما بدأناه».

الأبُ أغابيدا (يوجّه حديثه للكاردينال الأعظم): «إنّك مُلهمٌ يا سيّدي، دائمًا ما تَشحنُنا بـتفاسيرَ وكلامٍ رائع، وإني لأرى مثلَك أنّ هذا الزلزال يجب أن يتّخذه مولاي ومولاتي دافعًا للقضاء على مَن يسمّون أنفسهم بأمّة محمد».

يتحرّك فرناندو من مجلسه ويستلّ سيفَه ويقول: «إنه عهدٌ قديم أخذته على نفسي أنْ أقتطف ثمراتِ الرّمان حبّة حبّة، ومليكُكُم لم ينقضْ قَط عهدًا قطَعَه على نفسه!».

إيزابيلا: «٨٠٠ سنة، ولم تفترْ قوتنا أو تضعف عزيمتنا، على رغم ما كان للمسلمين من بأسٍ آنذاك، أفتَفترُ هِمَمُنا اليومَ بعدما خُضنَا شوطنا الكبير!؟ إننا نقترب من نَصرِنا، وإنّكم تَروْن ما صار إليه العرب من تضعضعٍ وانقسام وتشتّتٍ!». (تأخذ نفسًا عميقًا ثمّ تسترسل): «لقد بدأت الحربُ منذ قرون، ولن تنتهي إلّا باسترداد القدس وقبر المسيح ابن الرب من أيدي هؤلاء الكفرة».

فرناندو (واقفًا مُركّزًا بصره؛ يتلمس بخياله ملامحَ الحرب المقبلة): «لقد كانت هذه الحرب على شدّتها حربَ مواقع، تُحدَّد الانتصارات فيها بمدى صمود هذه المواقع أو تراجعها أو امتدادِها، وخلال هذه المدّة الطويلة كان الهجوم المفاجئ والغزوُ والنّهب وإسقاط الحصون والقرى وحتى المدن؛ صفةَ هذه الحرب. أمّا الآن وبعد حصولنا على هذا العدد الكبير من الأنفاط والأسلِحة، وبعدَما كسبنا انقسام المسلمين، فإنّنا ندخل منعطفًا جديدًا في هذه الحرب، ذلِك أنّ الواقع يفرضُ علينا القيامَ بعمليات كبرى ضدّ مدن قوية، تدمِيرُها أوْلَى من حصارها الذي ينتهي بانتهاء موسم الربيع والصيف». (يصمت ثمّ يواصل في نبرة تفيض غرورًا بشعًا): «لقد وصل صدى حروبنا إلى الشرق، فبهتَ كلُّ الكفرة، ممّا دفع عظيم الترك في القسطنطينية، بايزيد الثاني، إلى التحالف مع سلطان مصر لحماية دين محمد». (يقهقه).

مركيز قادش (مستدرِكًا): «لكن يا سيدي، لديّ معلومات بأن حربًا قائمة بين مماليك مصر وأتراك القسطنطينية! فهل يعني ما قلتَه أنّ صلحًا انعقد بين الفريقين؟».

فرناندو: «لا صُلح بعدُ بينهم يا رودريغو. إنّهم يحاولون فقط». (ترتفع قهقهتُه مرة أخرى ممتزجةً بسخرية سافرة، ثمّ يسترسل): «لن نعطيهم فرصةً للتوحّد ضدّنا مهما كلّف الأمر».

على الجانب الأخر من العالم، وفي قلب العاصمة العثمانية اسطنبول كانت قد تمّت مفاوضات للصلح منذُ فترة بين الأشرف قايتباي سلطان مصر والسلطان بايزيد الثاني ملك الترك سعيًا لوقف الحرب بينهم ووضع خطة مشتركة لإنقاذ الأندلس.

دعا السلطان بايزيد الثاني الصدرَ الأعظم والوزراء والقواد إلى مجلس اجتماع طارئ لبحث الموقف والتدبّر فيما تستطيعه الدولة العثمانية من طاقةٍ للحرب في تلك الظروف.

بحث المشاركون في المجلس الظروفَ التي تمرّ بها الدولة العثمانية، ونوعَ وقدر المساعدة التي تستطيع الدولةُ تقديمها لمسلمي الأندلس. غير أنّ الدولة العثمانية عجزت عن انتشالِ الأندلسِ من مُصابها، لما كانت تمرُّ به هي الأخرى من أوضاع قاسية جدًّا، كما كان بُعد المسافة، وعدم وجود طريق برّي مباشر إليها يزيدان من حدّة المشكلة ويعقّدان غزْلها.

بعد دراسة لكلّ الظروف الداخلية والخارجية، قرّر السلطان بايزيد إرسال قوّة بحرية تحت قيادة «كمال رَئيس» على وجه السرعة. كان ذلك في العام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م. وكان هذا التحرّك من الدولة العثمانية بمنزلة إعلانٍ للحرب على عدّة دول مسيحيّة في أوروبا؛ وقد شمل هذا الإعلان قسطاليا وأراجون ونابولي وصقلية والبندقية؛ وبذلك كانت الدولة العثمانية- على الرغم من مشاكلها الجمّة- هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي حاولت مدّ يدَ العون لمسلمي الأندلس على قدْر طاقتها، ودخلت من أجلهم في حالةِ حربٍ مع دول عدة دفعة واحدة؛ بينما تقاعست عن ذلك الدولُ الإسلامية الموجودة الواقعة في شمالي أفريقيا- كالدولة الحفصية في تونس والدولة الوطاسية في المغرب- والتي كان قربها الجغرافي يمكّنها- لو أرادت- مِن إنقاذ مسلمي الأندلس!

أقدم «كمال رَئيس» على ضرب سواحل جزر جاربا ومالطا وصقلية وساردينيا وكورسيكا، ثمّ ضرب سواحل إيطاليا ثمّ سواحل الأندلس، وهدَم في طريقِه العديدَ من القلاع والحصون المشرفة على البحر في هذه السّواحل. وعمدَ أحيانًا إلى إنزال جنوده في بعض السواحل لهدم تلك القلاع. ولكنه لم يستطعِ الصّمود طويلًا؛ لأنّ الحرب البحرية لا تكفي للاستيلاء على المدن، ولاسيّما المدن الداخلية البعيدة عن البحر، فلا بدّ مِن مشاركة القوّات البرية التي تستطيع التوغّل في الداخل، وتثبيت وإدامة السيطرة على المدن

المفتوحة. ولم يكنْ هذا ممكنًا آنذاك، لبُعد الشّقة الجغرافية بين الدولة العثمانية والأندلس، وكذلك بين مصر والأندلس. كما أنّ الدول الأوروبية كانت قد قطعت كلَّ صلةٍ لمسلمي الأندلس مع البحر المتوسط، وسدّوا مضيقَ جبل طارق ليمنعوا وصولَ أي نجدة إليهم من الدول الإسلامية. وعمد «كمال رئيس» إلى قصف بعض سواحل تونس بسبب دخول الدولة الحفصية الحاكمة في تونس في حلفٍ مع الإسبان وفرنسا ضدّ إخوانهم الأندلسيّين.

وكم كان مؤسفًا أنّ هذه القوة البحرية العثمانية اضطرت أخيرًا إلى مواجهة الدولة الحفصية في تونس انتقامًا من مساعدة هذه الأخيرة للفرنسيّين. ولأنّ الدولة العثمانية كانت- آنئذٍ- في حربٍ مع المماليك، فقد وقعتْ هذه القوة البحرية بين نارَيْن! لذا لم تُسفر هجماتُها عن نتائج ذات بال.

وعلى كلّ حال، فقد استبعدَ الملك فرناندو وقادتُه وحدة بين المسلمين استنادًا إلى وقائع التاريخ، ليس هذا فحسب بل إنّ مركيز قادش أشارَ على فرناندو وإيزابيلا لإشعال الحربِ النفسيّة ضدّ مسلمي غرناطة فقال:

«يجبُ علينا الاستعداد لكلّ طارئ، فمن ناحية نتدبّر أمرنا جيدًا، ومن ناحية أخرى نُشعل الحربَ النفسية ضدّ المسلمين، إذ سنقطَعُ أمرَ الوحدة بين مصر والقسطنطينية مُستَقبَلًا، ولكنّ رواجها الآن وتناقلها سيعطيان مزيدًا من الأمل والصّبر لمسلمي غرناطة،

فتقوى شوكتهم ويزيد إصرارهم على البقاء، بل ربما تقوى نفوسُهم فيطلبون ما هو أكثر من غرناطة والعيش فيها. وإنّي أرى يا سيدي أنّ مِن الحِكمة الآنَ ضربَ نفوسِهم وآمالِهم؛ نُشيع بينهم أخبارًا وهميّة تأكُل عُدّةَ صبرِهم و شجاعتهم؛ نحدّثهم عن جيوش أوروبية ضخمة مسلّحة بأحدث الأسلحة قد أتتْ لمشاركتنا حربَنا المقدسةَ، كذلك علينا إحكامُ حصار غرناطة وقطْع صلتها بالمشرق».

فرناندو: «لهذا يا رودريغو قرّرتُ نقل الحرب إلى الموانئ». (يجلس مكملًا): «يجب علينا إحكامُ السيطرة على موانئ غرناطة وإغلاقها في وجْه المساعدات الخارجية المحتملة، لنقطع بذلك أملَهم في النّجدة أو حتى مجرد التفكير فيها. سيستسلمون لنا عاجلًا أو آجلًا، وقد انقطع أملُهم وخاب ظنّهم وانهارت نفوسهم وخارتْ عزائمهم». (يصمت ليتناول رشفةً من كوبٍ أمامه، قبل أن يستأنفَ حديثه): «إنّ غرناطة اليوم فيها أكثرُ من مليون مسلم، يمكنهم أن يجيّشوا لنا نصف مليون مقاتل، لهذا وجبَ علينا أن نهزمهم مِن داخلهم، حتى يتيقّنوا مِن أنّه لا سبيل لهم إلى النّجاة سوى التسليم والخنوع».

إيزابيلا (تحدّق في وجوه القادة، فتلاحظ صمتَ دي قابرا لتبادرَه): «ماذا يدورُ في رأس دي قابرا؟».

دي قابرا: «يشغلني يا.. سيدتي.. سؤالٌ يحيّرني: مَن الذي بعث بأخبارنا إلى الشّرق؟ مَن الذي استغاثَ بملوك الترك ومصر؟».

فرناندو: «لن يكون الصغير بكلّ تأكيد».

دي قابرا: «عمّه الزغل؟».

فرناندو (يومئ برأسه): «ما فتئ الزّغل يحرّض علينا، ويتحدّى إرادتنا، ويبذل قصارى جهدِه للوقوف ضدّ أهدافنا».

دي قابرا: «هذا يعني أن حربَه مع ابن أخيه لم تَثنِه عن مواجهتنا».

فرناندو: «قطعًا، الزّغل محاربٌ عنيد، ومِن ثمّ عليْنا تحْييده بكلّ الوسائل لتَخلُص لنا غرناطة، وها هي الآن فرصةٌ عظيمة قد واتَتْنا؛ هو منشغلٌ بحربِه مع ابن أخيه، وابنُ أخيه أرسل إلينا منذ أيام يخبرنا أنّ العمّ طلب العونَ من بلش مالقة ووادي آش، وطلب منا تحْييدهم».

مركيز قادش (متعجبًا): «أوَ قد فعل؟!».

فرناندو: «لِمَ التعجّب أيّها المركيز، وأنت الخبيرُ بأحوال الرجال؟».

مركيز قادش: «أعلمُ يا مولاي أنه ضعيفُ الإرادة، خائرُ النفس، خفيفُ العقل، ولكنني لم أكُن أعْلم أنه بلغ هذا الحدّ مِن السذاجة!».

الكاردينال الأعظم: «لو لمْ يصلوا إلى هذا الحدّ أيها المركيز لما كنّا نحن هنا اليوم، في قرطبة عاصمة مُلكهم وملوكهم!».

مركيز قادش: «صدقتَ أيها الأب الجليل».

وهكذا، فقد أرسل أبو عبد الله الصغير رسالةً إلى الملوك الكاثوليك يحثّهم فيها على نُصْرته، ويدعوهم صراحةً إلى احتلال بلش مالقة إمعانًا في إذلال عمّه، وقد استغل القشتاليّون تلك الرسالة فقرّروا غزو بلش مالقة، محقّقين من وراء ذلك الغزو عدةَ نتائج مهمّة للغاية، فمِن جهة سيحاصرون ثغرَ مالقة العظيم فيسهل عليهم أخذُه بعد ذلك؛ إذْ لمالقة أهمية كبيرة عند المسلمين والقشتاليّين على السّواء، ذلك أنّها آخر الموانئ الكبيرة المهمّة لمملكة غرناطة، وهي سبيلُها للاتّصال بالعالم الإسلامي، فإذا احتلّها القشتاليّون انقطعتِ الصّلة بالمشرق وعدوّة المغرب، ومن جهة أخرى فإن احتلال مالقة سيضعفُ جانب الزّغل العنيد؛ لأنّها مكمنُ قوّته ومجمع أنصاره، كما أنّ مالقة بالنسبة إلى القشتاليّين ميناءٌ عظيم وثغرٌ منيع، ومن جهة ثالثة سيثبتون لأبي عبد الله الصغير أنّهم باقون على العهد معَه، وجادُّون في نصرته، فيزيده هذا إصرارًا على حرب عمّه، ومن ثمّ تسقط القرى والمدن تباعًا في أيدي القشتاليّين، بينما ملوك المسلمين منشغلون بحروبهم وصراعاتهم!

ومالقة فمُ غرناطة ويدُها، فمنها تذهب السّفن إلى سورية ومصر للتجارة أو طلب العون، كما أنّها همزةُ الوصل بين الأندلس والمغرب؛ حيث تأتي عن طريقها المساعداتُ المالية والعسكرية والسلاح والخيول، وخاصةً من تونس والمغرب وطرابلس وفاس وتلمسان، لكلّ هذا قرّر القشتاليّون انتهازَ الفرصة، وحدّدوا موعد

خروجهم إلى بلش مالقة عقبَ عيد القدّيسين مباشرة، على أن يكون الهدفُ من أخذها هو مالقة نفسها!

***

٦٠.

في يوم الأحد التالي لعيد القدّيسين، خرج الملك القشتالي فرناندو بجيشه، والأمطارُ تصاحبه، والسّماء تُبرق وتُرعد، والأوحالُ تزيد من وعورة الطرقات، لذلك قسّم الملك جيشَه إلى قسمين رئيسيّيْن، واضعًا مع أحدهما كلّ مدفعيّته التي تحرسها مجموعةٌ قويّة من الفرسان بقيادة سيّد مدينة القنطرة ومعه «مارتن ألونزو»، واختار لهذا القسم السيرَ في الوديان التي يتوافرُ بها علفٌ للثيران التي تجرّ الأنفاط. أمّا جسم الجيش الرئيس فكان بقيادة الملك نفسه، وكان مقسّماً إلى قطاعات مختلفة يقودُ كلَّ قطاعٍ منه فارسٌ مميّز، وقد اتّجه الملك بهذا القسم نحو طرقات الجبال الوعْرة، تسبقه طليعةٌ مختارة من ٤ آلاف مقاتل، وذلك تحسبًا من أن يؤخذ الجيش على حين غِرّة. كما كانت للطليعة مُهمّة أخرى، هي تمهيدُ الطريق للجيش الرئيس، كما خرج الكونت «أوف تريفنتو» على رأس أسطوله البحري، ليمنع عن بلش مالقة أيَّ مساعدات قد تُرسَل إليها، ولأن فرناندو كان يخشى المفاجآت؛ فقد خرج دون دييغو دي كاستريلو مع فرسانه ومشاتِه ليتمركَزوا في المرتفعات والممرّات الضيّقة ليمنعوا سكانَ تلك المناطق من العرب والمسلمين منَ الاحتكاك بالجيش.

وبعد أيام، وصل الجيش إلى بلش مالقة، وقد غمرتْ أفرادَه السعادةُ للخروج من الطرقِ الوعْرة الموحِشة، ونظر فرناندو إلى بلش مالقة مستمتعًا بشمسها الذهبية الصافية، متأملًا بساتين الزيتون والكروم التي تحيطها، بينما تموجُ الحقول الأخرى بسنابل القمح الذهبية، تتخلّلها أشجار الليمون الجميلة الفوّاحة بالروائح الزّكية. وفي الوقت الذي وصلت فيه هذه القوّات إلى أسوار بلش مالقة رسَتْ على شاطئها أربعُ سفنٍ تحمل العَلَم القشتالي بقيادة الكونت أوف تريفنتو، تحمل كلٌّ منها عددًا لا بأس به من الأنفاط والرجال، كما صاحبت تلك السفنَ سفنٌ أخرى تحمل المُؤَن والسلاح.

بعد فحص الأرض، خيّم فرناندو على جانب الجبل الذي يمتدّ حتى المدينة، والذي يمثّل نهاية جبال السيرا نيفادا الغرناطية، وعلى حافة هذا المنحدر كانت هناك مدينة عربية صغيرة تسمّى «بنت عميز»، وهي التي كانت تستطيع تقديمَ العون لبلش مالقة.

اجتمع فرناندو مع عددٍ من القادة، ليحدّدوا المكان الذي يجب استهدافه أولًا، فرأى الملك القشتالي أنْ يبدأ بقطع الاتّصال بين «بنت عميز» وبلش مالقة. ولخوف فرناندو الشديد من المفاجآت، وتأسّيًا بما حدث له من قبلُ أمام أسوار «لوشة» فقد قرّر تشديد الحراسة.

امتطى فرناندو صهوةَ جواده، وخرج بنفسه يدور حول المخيّم لتحديد مواقع الحراسة فيه، ثمّ عاد إلى خيْمته كَي يلتمسَ قسطًا يسيرًا من الراحة، وسرعان ما ثقلَ النّعاس على جفنيْه، فغفَا قليلًا،

لكن ما هي إلّا برهة قصيرة حتى صحا مذعورًا على وقْع جلبةٍ وضجيج، حتى إذا انْتبه تبيّن له أنّ هجومًا مفاجئًا استهدفهم؛ إذْ هاجمتِ المعسكرَ مجموعةٌ صغيرة من المسلمين قاصدةً الخَيْمةَ الملكيةَ، وأوشكتْ أن تصلَ إليها، ولم ينقذ الملك من سيوفهم سوى مركيز قادش الذي وصل في اللحظة المناسبة.

***

بينما كانت أعلامُ الصليب ترفرفُ على مرتفعات سهول مالقة استعدادًا لاقتحامها، كانت الحرب الأهلية على أشدّها في غرناطة، ممّا دفع رجال المدينة وفقهاءها إلى الإسراع في التحرّك لوقف تلك الطاحونة الجهنمية البائسة، ومن ثمّ إنقاذ المدينة المحاصَرَة.

فبينما كان الزّغل جالسًا في معسكره يحاصر البيازين، وحوله بعض رجاله وعلى رأسهم رضوان بنغيش وزيره ووزير أخيه أبي الحسن من قبل، دخل عليه أحدُ الحراس الخيمةَ الملكية.

الحارس: «الفقيه عليم المصري، ومعه محمد العطّار يستأذنان في الدخول».

الزغل (يشير بيديه): «أدخلهما».

الفقيه : «السلام عليكم ورحمة الله».

الزغل: «وعليكم السلام ورحمة الله، أهلًا بالفقيه وصاحبه، أهلًا بأشراف غرناطة والبيازين».

عليم المصري: «أهلًا بك يا مولاي».

الزغل: «كنتُ أنتظرُ أن تأتيا منذ بداية الحرب، فأنا موقنٌ أنّكما لستما ممّن يوالون القشتاليّين أو يحاربون إلى جانبهم».

عليم المصري: «لم نأتِ لننصرك على ابن أخيك يا مولاي».

الزغل (متعجبًا): «فلمَ أتيتما إذًا؟!».

عليم المصري: «جئناك لحاجةِ غرناطة وشعبها، جئناك لننصر غرناطة الجريحة، ونرمّم جراحها، ونقيل عثرتها».

الزغل: «وأنا لا أتأخّر عن غرناطة.. لم أتأخر عنها يومًا، وكيف أفعل وهي أرضُ آبائي وأجدادي من قبلي؟!».

عليم المصري: «غرناطة ليست في حاجة إلى مَن يقتل أهلَها!».

يهبّ الزّغل واقفًا، ثمّ يرنو ببصره ناحيةَ عليم المصري قائلًا بصوت مرتفع: «يقتلُ أهلها؟! وهل أنا مَن قتلتُهم يا عليم؟ هل أنا مَن أدخل القشتاليّين إليها؟».

عليم المصري (يردّ بثبات): «نعلم أنت لم تُدخل القشتاليّين إلى غرناطة، ولم تهادنْهم، ولكنك يا سيدي أسهمت- بتلك الحرب- في قتل أهلِ غرناطة، هذه الحربُ التي لن تبقي ولن تذر. ستة شهور وأنتم تراوحون في اقْتتالٍ شديد؛ أُزهقت فيه الأرواح، وافتقد الناسُ الأمن، وعزَّت عليهم الأقوات. تفرقتم شيعًا، وتمزّقتم وجعلتم بأسَكم بينكم، تاركين حدودكم وثغوركم لعدوٍّ يتربّص بكم،

وينتظر السّاعة المناسبة لينقضَّ على المنتصر منْكم، واقيًا نفسه مزيدًا مِن الأعداء!

الزغل (يهدأ، ثمّ يجلس مرةً أخرى قائلًا): «أقدّر غَيرتكم على غرناطة ونُصحكم لي، ولكن.. هل ترونني أنا مَن تحالفَ مع قشتالة؟ هل أنا مَن سلّم لهم لوشة؟ هل أنا مَن دخل البيازين ليلًا كاللّصوص، وأعلن الثورة وأشعل الحرب الأهليّة؟ شهد الله أني أتألّم مع كلّ قطرة دمٍ سالت في هذه المعارك المستمرة منذ شهور، وأنّ ألمي لمقتل جنديّ من جنود ابن أخي، ما خلا القشتاليّين، لا يقلّ عن ألمي وحزني لمقتل جندي من جنودي ورجلٍ من رجالي».

عليم المصري : «نعلم أيها الملك أنّك لستَ السّبب في ما يحدث، ونعلم حُسنَ صنيعك وحروبك السابقة ضد القشتاليّين. إنّك يا سيدي الفارسُ المظفّر ولا نُكران. ونحن هنا الآن لثقتنا بأنّك ستقدِّم مصلحة الأمة على مصلحتك الشخصية، لذا أتيناك أنتَ وإلّا كنّا ذهبنا إلى ابن أخيك في البيازين، فهو إلينا أقرب، إذْ إننا- كما تعلم- مِن سكان البيازين التي يعتصم بها الصغير، واذكرْ أيها الملك أننا لم نستلّ سيوفنا عليك، وآثرنا الوقوف على الحياد بينك وبين ابن أخيك، فنحن نرى أنّ رقاب القشتاليّين أولى بسيوفنا، وإنّنا يا مولاي سائلوك: هل تريد أن تكون ملكًا على مملكة ضائعة!؟».

الزغل (بلهجةٍ حادّة): «بل أريد الحفاظَ على غرناطة يا حامد».

عليم المصري: «إذًا، اترك الحربَ هنا، واذهب حيث العدوّ الحقيقي».

الزغل: «العدو الحقيقي يا حامد هو انقسامُ المملكة، واستباحة القشتاليّين للبيازين، ووجود ملكيْن أحدهما لم ينتصرْ في معركة خاضها من قبْل، والثاني دافع عنكم وعنْ غرناطة بالسّيف والدم».

محمد العطّار: «لقد انتهز القشتاليّون الأحداثَ الجارية في غرناطة، وذهبوا بجيوشهم وصُلبانهم إلى بلش مالقة استعدادًا لانتزاعها. فهل يتركها ملكُنا المظفّر لقمةً سائغة لهم؟».

عليم المصري: «لو علمنا يا مولاي أنّ هناك أملًا يُرجى من ابن أخيك لذهبنا إليه نستحثّه لنجدة بلش مالقة!».

يتنهّد الزغل، ويصمت برهةً قبل أن يتوجّه بحديثه إلى محمد العطّار في هدوء: «لو خرجت لأدافعَ عن بلش مالقة، فإن ابنَ أخي لن يتردّد في سرقة غرناطة كلِّها، حينها سيتركها للقشتاليّين كما فعل من قبل في لوشة، إنه أخرقُ لا يحسِنُ من أمره شيئًا إلّا أن يكون مطيّة لهؤلاء الكفرة. انظروا إليه في اللّسانة كيف خرج بجيشه يتبخْتَر، فهلك جيشه مهزومًا أمام بضع مئات من القشتاليّين، ويا ليت الهزيمة كانت بشرف، بأنّ ظلّ يقاتل حتى النهاية، بل إنّهم أخذوه رهينة بعدما وقعَ في الأسر حتى قبلَ أنْ تبلغ المعركة أوجَها! ثمّ تكرر الأمرُ بعد ذلك في لوشة. وكأنّ ابن اخي اعتاد أن يقع أسيرًا عند فرناندو وإيزابيلا!».

محمد العطّار: «أيها الملك، إن سقطتْ بلش مالقة فستسقطُ مِن بعدها مالقة نفسُها، ووقتَها لن تكونَ لك مملكة تحكمها، إنّ مالقة

الآن هي جسرنا الوحيد الذي يربطنا ببقية العالم الإسلامي، فإنْ سقطت وأخذها العدوّ فلن تصمدَ بعدها غرناطة، وقد فُصلت عن بقية بلاد المسلمين».

استمع الزّغل إلى حديث العطّار في صمتٍ ووجوم واضحيْن، ليبدأ عليم المصري الذي لاحظَ ذلك في الكلام قائلًا: «هل لي برأي أُعذرُ بعدَه أمام الله وأمام المسلمين؟».

الزغل (ينظر إليه، منتظرًا رأيه في اهتمامٍ شديد): «ماذا ترى يا عليم؟».

حامد: «تصالحْ مع ابن أخيك».

الزغل (متعجبًا): «وهل تظنّ أنني لم أعرضْ عليه أمرَ الصلح من قبْل؟!». (ثمّ ينظر إلى رضوان قائلًا): «أخبرهما يا رضوان».

رضوان: «نعم. نعم، لقد أرسل مولاي أبو عبد الله الزّغل منذ شهور، وقبل اشتعال هذه الحرب؛ رسالةً إلى ابن أخيه- وكان وقتها في بلش الأبيض- يعرض عليه فيها الصلحَ، وأنّ يتنازل مولاي الزّغل لابن أخيه عن تاج غرناطة».

عليم المصري (يفتح عينيه مشدوهًا): «وماذا كان ردّ أبي عبد الله محمد بن علي بن سعد؟!».

الزغل: «رفضَ الصلح، ثمّ استعان علينا بالقشتاليّين، كما شاهدتم وتشاهدون».

العطّار: «يا مولاي، إنقاذًا لبلش مالقة، أرجو أن تكرّر عرض الصلح على ابن أخيك، وإني لأقول لك هذا القول، وأعلمُ علمَ اليقين أنّ الحقّ معك، لكننا اليوم والآنَ نتحدث عن دولة الإسلام في الأندلس.. مَن ينقذها مِن الضّياع في مهبّ العاصفة؟».

نهضَ الزّغل من كرسيه، ورَنَا ببصره ناحية الحمراء مديرًا ظهره إلى الحضور، وهو يفكّر في هذا الكلام؛ إذ كان يوقنُ أن مصير هذا العرض بالصلح لن يلقى حظًّا أفضلَ من سابقه. وعلى رغم ذلك قرّر النزول على رأي الفقيه، وبعد لحظاتٍ من الصمت استدارَ الزغل، وقد ظهرت عليه علاماتُ التأثّر والحزن العميق فقال:

«إذًا، حِفظًا لمالقة وغرناطة، وصوْنًا لبيضة الإسلام، ونُصرةً لشعبي؛ أوافق على الصلح مُرغَمًا لإنقاذ البلاد؛ بلاد أجدادي وبلاد المسلمين في الأندلس».

(يبتهج الجميع)

عليم المصري: «جزاك الله خيرًا يا مولاي، لتقديمك مصلحةَ الأمة على مصلحتك الشخصية، وإنك لتثبتُ مجددًا أنّك الملك الأقوى في هذه الدولة، ولتكنْ على يقين يا سيدي، أنّ التاريخ لن ينسى لك فعلَك هذا».

الزغل: «أرسلوا إلى ابن أخي في البيازين، أخبروه للمرة الثانية أني أعرض عليه أنْ أتنازل له عنْ غرناطة وتاجِها، وأنْ أقاتل القشتاليّين

تحت لوائه، وأخبروه بحسرتنا على تلك الدّماء الطاهرة التي أُريقت في هذا الصراع المرير، وبأنّ صُلحنا- إن تحقّق- سيكون من أسباب الحياة لغرناطة وشعبها، وأنّ إنقاذ بلش مالقة الآن متوقّف على هذا الصلح، وأخبروه أيضًا أنْ لا عهد للقشتاليّين ولا ذمّة، وأنهم اليوم معه وغدًا سيكونون عليه».

العطّار (مستبشرًا): «إنْ سمح مولاي فسأحملُ أنا هذه الرسالة إلى ابن أخيكم».

الزغل (يعود إلى كرسيه في الخيمة موجهًا حديثه إلى العطار): «اذهب، ولا تتأخّر في الردّ علينا، فحياة مالقة قد أصبحتْ على المِحكّ».

خرج محمد العطّار، متخذًا طريقه صوبَ البيازين حيث أبو عبد الله الصغير محاصَرٌ هناك، بينما غاصَ الزّغل في تفكير عميق؛ فتخيّل نفسه خارجًا للغزو والانتقام من القشتاليّين؛ ليقتصّ من سابق أفعالهم معه، وخاصّة بعدما علم الخطأ الفادحَ الذي ارتكبه ملكُ قشتالة بإقامة معسكره بين جبليْن. استغرق الزّغل في الانشغال بالحربِ الآتية، وراح يفكّر فيها ويضعُ لها الخطة المناسبة، بينما محمد العطّار يُغذُّ السيرَ ناحية البيازين مستعجلًا الأمل، علّه يوقف شلالاتِ الدماء التي فاضت على شوارع غرناطة وساحاتها. إنّه لا يشك قيدَ أنْمُلة في أنّ الصغير سيقبل العرض والصلح، وكيف لا، والعرش غايتُه، وقد تنازل له الزّغل عنه.

ظلّ محمد العطّار يتطلّع إلى المستقبل، منشغلًا بالحلم الذي ملأ عليه طريقَ رحلته، الذي لم ينْتَبه إنْ كان طويلًا أو قصيرًا، فقد ظلّ مستغرقًا في آمالِ الصلح والانتصار على القشتاليّين، وإنقاذ دولة الإسلام، ولم يُفق إلّا وقد وصلَ إلى حيث أبو عبد الله الصغير، ليسارع من فوْره بإبلاغِه أنه يحملُ له رسالةً من عمّه الزغل، ولأنّ العطّار رجل ذكي فقد حاولَ جهْده أنْ يبلّغ الرسالة للصغير بعيدًا عن رفقائه من القشتاليّين، لثقته بأنّهم سيعملون على إفشال أيّ محاولات للصلحِ بين الطرفيْن، وكيف لا يفعلون وهُم يعرفون أنّ هذه الحرب العبثية الدائرة بين الصغير وعمّه تكفيهم الكثيرَ من القتال والدّماء والأموال الطائلة. ولكنْ على رغم محاولاته المتتالية فقد فشل العطّار في الانفراد بأبي عبد الله الصغير الذي ما كاد يسمع الرسالة حتّى كاد يفقد صوابَه، فلم يعدْ يستطيع بعدها استيعاب الأحداث؛ إذْ ألجمته الصدمة عن الردّ، عندها تدخّل قائد الفرقة القشتاليّة المعاونة له في حربِه، منبّهًا إيّاه إلى أنّ الصلح مع عمّه يعدّ بمنزلة إعلان حربٍ على قشتالة وأراجون!

تذكّر الصغير أيامه في الأسر عند القشتاليّين، فارتعدت فرائصه خشية تكرارها مرة أخرى، فآثر استمرار تحالفه مع القشتاليّين على توحيد غرناطة بالصلح مع عمّه؛ لذلك لم يكنِ الصغير ليحتاج إلى وقتٍ طويل كي يردّ على عرض الصلح بقوله: «كيف لي أن أثقَ برجُلٍ قتل أبي وإخوتي، وحاول غيرَ مرةٍ أن يقتلني بالسيف أو الغدر؟».

استمع العطّار لهذا الردّ الذي لم يكنْ يتوقّعه، فأُسقِط في يدِه، وطارت الآمالُ العريضة التي تردّدت في خاطره طوالَ رحلته وتبخّرت، وكاد يفقد عقلَه، وهو يرى ملكًا يطيح بدولتِه إلى الجحيم، ويرفض عرضًا لتوحيدها وإنقاذها.

هامَ محمدٌ علَى وجْهه، ولم يدرِ ما يفعل، مرّت عليه الدّقائق وهو يُفكّر علّه يجدُ قولًا يُكلّم به الذين أرسلوه بَشيرًا، ولكنْ دون فائدة! ومن ثمّ عاد مُبتئِسًا إلى المعسكر يجرّ أذيال الخيبة والحسرة، حتى إذا دخل على الملك الزّغل ارتفعتْ إليه الأعناقُ وتعلّقت بحركاته العيونُ، وتأهّبت الآذان لتسمع الخبر اليقين. ولكن محمد العطّار بدا متردّدًا ثقيلَ الخطو، كأنه يريد أنْ يتنصّل من مهمة الإدلاء بما يحمله من حديثٍ فبادره الزّغل مستحثًّا بالسؤال فقال له بصوتٍ مرتفع: «ماذا حدث؟».

تلعْثم العطّار ثمّ نظر في الأرض، وكأنما يستحي مِن هذا الملك الشّهم الذي تنازل بإرادته عن عرشه فلم يلقَ إلّا الإعراض: «ذهبتُ يا مولاي إلى ابن أخيك، وسلمتُه الرسالة فقرأها، ثمّ استشار فيها وزيرَه ابن كماشة وقائد القشتاليّين عنده غونثالو القرطبي، أمّا ابن كماشة فلم يعلّق، وأمّا غونثالو القرطبي فنصحه برفض الصّلح، وأخبر ابن أخيكم أنّ صلحَه معكم إنما هو بمنزلة إعلان حربٍ على قشتالة، مذكّرًا إيّاه أيضًا بمعاهدة لوشة».

الزغل: «ها، ليس هذا بموقفٍ غريب عن قائد قشتالي يعملُ لمصلحة مَلِكه ومملكته، ولكنّ الغريبَ هو أمرُ ابن أخي.. كيف يجعل مِن عدوّه مستشارًا له؟!». (يشير بيده إلى العطّار أنْ أكْمِل).

العطّار (يخفض وجهه ثانية قبل أنْ يقول): «لقد رفض ابنُ أخيك الصلح قائلًا: لا صلحَ مع قاتل أبي وإخوتي».

الزغل: (بابتسامةٍ امتزج فيها الأسف بالسخرية): «فلتشهد غرناطة وفقهاؤها أنّي ما تأخرت ساعةً عن الأخذ بأسباب حياتها وحياة شعبها. لقد استشار الصغير الأخرقُ القشتاليَّ في أمرِ الصلح معي. ألا ساءَ ما حكم، فهل كان ينتظر منهم أنْ يؤلفوا بين قلْبينا؟!».

عليم المصري: (متجهّمًا): «لقد أُعذَرْتَ أيها الملك».

الزغل: «كنتُ على يقين برفضِه.. ولكنْ لا بأس».

وفي هذه الأثناء يدخل أحدُ الحراس، ويخبر بوصول طلائع قوات وادي آش، فما كان مِن الزّغل إلّا أنِ ابتهج مُحتَسِبًا مجيء الحارِس بشارةَ خير له ولغرناطة كلها، ثمّ راح يقول: «لقد كنا نخاف أنْ نخرج لردّ القشتاليّين عن أسوار بلش مالقة، وكنّا نخشى أنْ ينتهز ابنُ أخينا فرصة خلوّ الحمراء من جنودنا فيُغِير عليها ثمّ يستعين بالقشتاليّين علينا، أمّا الآن فيمكننا ترك حاميةٍ قوية تحفظ الحمراء، ونخرج نحنُ على رأس بقية الجيش لردّ القشتاليّين عن المدينة».

عليم المصري (منفرجَ الأسارير): «الله أكبر، سيفي وروحي فداءُ مالقة وأهلها».

العطّار: «وأنا أوّلُ مَن سيخرجون معك يا مولاي».

الزغل: «افعلْ يا شيخ العطّارين». (يقولها ثمّ يصمت برهة ويتحدّث ثانيةً وقد أحياه العزم): «على رغم ذلك، فقد كنت أتمنّى الخروج بكامل جيشي لإنقاذ المدينة، إذْ يؤسفني أن أُضطرّ إلى تركِ بعضِه هُنا، كي أحمي به الحمراءَ من ابن أخي، قبل أنْ أحميها من القشتاليّين.. تجهّزوا بعدّتكم وعتادكم، فسنخرج الليلة إلى بلش مالقة».

العطّار: «إلى بلش مالقة على بركة الله».

الزغل: «إلى بلش مالقة وآخر جسور التّواصل بين الأندلس وبقية بلاد المسلمين».

***

.٧.

على أسوار بلش مالقة

أحْكمَ فرناندو الحصارَ على بلش مالقة، ولكنّه لم يهاجم المدينة لعدم وصول الأنفاط الثقيلة، ومع مرور الوقت تحوّل المخيّم إلى ثكنات من الوحْل والطين بسبب استمرار هطول الأمطار، ممّا جعل صدر فرناندو يضيق ذرعًا وهو يرى الطينَ يحاصر جيشه، لذلك

تعجل آمرًا بالهجوم الفوري على المدينة من دون انتظارِ وصول الأنفاط، ليستمرّ القتال نحو منتصف اليوم .

سقط الكثيرُ من الفرسان القشتاليّين قتلى وجرحى، فقد أبلى المسلمون بلاءً حسنًا في الدفاع عن مدينتهم، وفشلت محاولة فرناندو قطع الصلة بين بلش مالقة وجاراتها من القرى والمدن، لذلك فقد خشي على نفسه وجيشه، فأمر بزيادة الحراسة على ممرّات الجبال، وأرسل المزيد من القوات للحراسة والسّهر على حماية المعسكر، أمّا المسلمون فقد استفادوا غيرَ مرّة من معرفتهم العميقة بتلك الجبال الوعْرة، فاستغلّوا ذلك في مباغتة القشتاليّين مرّات عدّة، وإثارة الرّعب فيهم، ونجحوا أيضًا في السّيطرة على مؤن الجيش القشتالي، كما استطاعوا إحكامَ قبضتهم على بعض الأسرى، وقد أفلحَ المسلمون من خلال كلّ هذه الجهود في ضعْضَعة قوة الجيش القشتالي إلى حين وصول جيش بني الأحمر.

مضتْ عشرة أيّام بلياليها، ولمّا تصلُ الأنفاط إلى المعسكر القشتالي، ما أدخل في قلوب جنوده قلقًا وخوفًا شديديْن، حتى أنّهم راحوا يتهامسون بقرب فكّ الحصار والعودة إلى قشتالة. وبالقرب من الخيمة الملكية، جلس جنديّان يتحادثان، ويفضي كلاهما إلى الآخر عن رؤيته لما مضى وتصوّره لما هو آتٍ.

ألفونس (يتطلّع بنظره إلى أسوار المدينة وهو يقلب الحصى بأصابعه): «ترى كم ستصمدُ تلك المدينة الصغيرة؟».

فرويلة (بغرورٍ مُتَعجرف): «لن تصمد كثيرًا، بعدما انقطع كلُّ أمل لها في الحياة».

ألفونس: «أتمنّى ذلك يا صديقي، فوالله لقد مللتُ حياة الجبال بعيدًا عن النّساء». (يتنهّد بشدّة قبل أن يواصل): «قل لي يا فرويلة، هل سمعت شيئًا عن نساء تلك المدينة؟».

فرويلة (يتنفّس عميقًا ثمّ يتأوّه قائلًا): «جميلات جميلات يا صديقي، ولكنهنّ لسن كنساء مالقة في الحُسن والدّلال والخُيلاء».

يسترخي ألفونس ويستلقي على ظهره ناظرًا إلى السماء، قائلًا وهو يراقب نجومَها): «تعلم، لقد أوصتني زوجتي بألّا أقترب من النساء المسلمات-هههه- إذْ تغار عليّ منهن، إلى حدٍّ أنها ألَحَّتْ على الخروج معي في هذه الغزوة، ولولا علمُها بمكوث الملكة في قرطبة لكانت معي الآن».

فرويلة: «هذه معضلةُ المتزوّجين! أمّا أنا فلا زوجة لي تُحصي عليّ أنفاسي، وتحدّد لي مواضع قَدمَيّ».

تُسمع أصوتُ أقدام تقترب فيشير ألفونس مقاطعًا رفيقه: «صه فرويلة، هذا الفارس رودريغو آت في اتجاهنا».

يتقدّم الفارس رودريغو فينهضُ الجنديّان واقفين، ويؤديان له التحية، قبل أن ينهرهما بلهجةٍ صارمة: «أنتما.. ألَا تكفّان عن حديثكما الشهواني عن النساء؟».

فرويلة: «وهل هناك أجملُ من الحديث عن النساء في هذه الليلة الصافية، انظرْ أيها الفارس إلى هذا القمر، ألا يُذكرك حُسنُه واستدارته ببناتِ المسلمين اللاتي يخدمْن زوجتك وتتسرّى أنتَ بهنّ أيضًا؟!».

رودريغو (يزجرُ فرويلة بصوتٍ مرتفع): «اصمت. ثمّ ألّا تعلمان أنكما تحملان أسماء ملكين من أعظم ملوك المملكة؟ لذلك حريٌّ بكما أن تتحسّسا خطاهما».

فرويلة (يصمتُ بينما يحدّث نفسه فيقول): «ويح أمي، لماذا إذًا اختارت لي هذا الاسم، ولم تخترْ لي اسم «زير نساء؛ حتى أنعم بتحسّس خطاه». (مُصْدرًا ضحكة عالية).

رودريغو: «تابِعا مهمتكما في الحراسة، ولا تجعلا حديث النساء يُنسيكما أنّ العدو يتربّص بنا». (يُدير ظهره منصرفًا، فيعود الحارسان إلى الحديث).

فرويلة (ساخرًا): «أين هذا العدو الذي يتربص بنا؟ ألا يعلم هذا أن المسلمين مختبئون خلف تلك الأسوار اللعينة منذ عشرة أيام؟».

ألفونس (ساخرًا أيضًا): «أو ربما قصد الملِكين الأحمقين اللّذيْن يتصارعان في غرناطة، بينما نحن قابعون هنا».

فرويلة (خافضًا صوته): «لماذا حثّنا هذا القائد على التشبُّه بقدامى ملوك قشتالة، ولم يطلب منا التشبه بالملك فرناندو والملكة إيزابيلا؟!».

ألفونس (في استعجاب): «ماذا تقصد؟».

فرويلة: «جميعُنا يعلم تلك العلاقة المحرّمة بين الملكة وخليلها روي لوبيز»، (يقهقه قبل أن يكمل): «لذلك فضلت الملكة البقاء في دفء قصور قرطبة، بينما نحن هنا نحارب في العراء ونركب الأخطار!».

ألفونس: «اصمت، أيها الأحمق، حتى لا تُهلكنا بهذا الكلام».

فرويلة: (مستهترًا): «أوَ هل تظنُّ الأمرَ سرًّا؟!».

ألفونس (في جدية واضحة): «أعلم أنه لم يعُد سرًّا، ولكن الحديث فيه علنًا يعني الموت المحقّق، فاصمت، ولنعد الآن إلى حديثنا الأول».

يشير فرويلة بيدهِ معلنًا عدمَ الاكتراث، بينما يحاول ألفونس جذبه بعيدًا عن سيرة الملكة قائلًا: «لماذا لا تتزوج يا فرويلة، وقد بلغتَ من العمر عِتيّا؟».

فرويلة (يضحك عاليًا): «مِن أين أتيت بهذا السؤال؟!».

ألفونس: «ولِمَ الضحك والتعجُّب؟».

فرويلة: «لقد أعدتَني بسؤالك هذا خمس سنوات إلى الوراء- آه- فحينذاك وقعتْ في نفسي فتاةٌ من جيان، وقد همتُ بها حبًّا، فكنتُ أذهب إليها في مزارع الزيتون التي يملكها أبوها لأتلصّص عليها. وهل هناك في كلّ قشتالة أفضل من زيتون جيان؟».

ألفونس (يستحثُّه متلهفًا): «وكيف اندلعت شرارة القصة أيها العاشق؟».

فرويلة: «حاولت كثيرًا أن أجذب انتباهها، فكنت أتسكع أمام منزلها تارة، وحول مزارع أبيها تارة أخرى. كانت تأسرُني دائمًا بروعتها وجمال طلعتها وأناقتها، فقد كانت شديدة الإسراف على التحلّي بأغلى الثياب وأثمن الجواهر، ومع مرور الوقت، نجحت محاولاتي في جذب انتباهها، حتى التقيتُها وتحدثت إليها مرة ومرة، ثمّ صار لقاؤنا يتكرّر على مدار عامين كاملين...»!

ألفونس: «وفي نهاية المطاف؟».

فرويلة (يضحك مجددًا): «تركتُها وتركتُ كلّ جيان!».

ألفونس (متعجبًا): «لماذا بعد كلّ هذا الحب؟!».

فرويلة: «بسبب الملكة».

ألفونس: «الملكة!! وما علاقة الملكة بك أنت أيها الحقير! هل خفَّ عقلُك وتصورت نفسك من العائلة الملكية بمجرد حملك اسمًا من أسماء ملوكها مثلًا؟!».

فرويلة (متابعًا ضحكاته التي امتزجت بالسخرية): «أعلم- يا هذا- أنني لستُ من العائلة الملكية».

ألفونس: «إذًا، فما دخْلُ الملكة في أمرك أنتَ ومعشوقتك؟!».

فرويلة: «لقد أخذتْ حبيبتي من الملكةِ قدوةً لها، وأقسمت أن تموت من دون أن يلمس الماءُ جسدها، وبعدها علمتُ بالعلاقة السرية التي تربط الملكة بروي لوبيز، فأشفقت على نفسي أن أتزوج فتاة تقتدي بمليكتنا». (يستلقي على الأرض من فرط الضحك)... وبينما يواصل فرويلة ضحكه، إذ بأصواتٍ تتعالى فجأةً، وإذ بنيران كثيفة تضيء الجبال المحيطة بمعسكر القشتاليّين، وإذ بجلبة وحركة مائجة تتناهيان من بعيد إلى سمع الجنديين فرويلة وألفونس، متوازيةً مع صرخات متتالية لاهثة: «الزغل... الزغل... الزغل».

دخل الرعبُ قلبي الحارسيْن، فانطلقا إلى جوف المعسكر القشتالي يشيعان النفير، وينبّهان النائمين، ويستحثّان الغافلين، وسرعان ما امتلأت ساحة المعسكر بحركة الجند، يتهامسون في ما بينهم: «الزغل... الزغل»، ليعلو الهمس، ويصير هتافًا، فيَصِل صداه إلى الخيمة الملكية التي كانت تجمع الملك بمستشاريه، وهُمْ يتحدثون حول مجريات الأمور.

مركيز قادش: «مازلتُ عند رأيي يا مولاي، فموقعنا هنا يعرضنا لخطر مُحدق».

يبتسم فرناندو بثقة كبيرة، وينظر إلى مركيز قادش قائلًا: «لا تقلق يا رودريغو، فما عاد هناك أيّ سبب لخوفك وقلقك، فالمسلمون متفرّقون ومتصارعون، ولن يتخلوا عن صراعهم ليحاربونا، فضلًا عن توحّدهم ضدّنا».

مركيز قادش: «يا سيدي، نحن هنا بين بلش مالقة وجبالها، فإنْ تحرك أحدُهم من غرناطة؛ فسنكون محاصَرين بين بلش مالقة وأهلها ومَن يأتي مِن خلفنا، على أنّ النجدة إنْ أتت فستكون أعلى تلك الجبال»، (يشير بيده، ثمّ يكمل): «ووقتَها سيسهل عليهم حصارنا، ومن ثمّ سنتعرض لكارثة كبرى».

فرناندو: «أُقدِّر خوفك وقلقك يا رودريغو، كما أقدّر حرصَك على الجيش، ولكنّني على رغم ذلك لا أراك إلّا مبالغًا في تخوّفك، ثمّ كيف تطلب منا أن نتراجع الآن عن مواقعنا، فيظنّ أهل المدينة بنا الفزع، فتقوى نفوسهم ويشتدّ صبرهم على الحصار». (يتحرك وهو يُجيل بصره في الحضور، مستأنفًا): «أمّا مخاوفك من أنْ يتحرك أحدُهم من غرناطة ليحاصرنا وينقذ المدينة، فهذه أيضًا مبالغة لا يعكسها الواقع بل ينفيها! فمَن الذي سيتحرك مِن ملوك المسلمين ليحاصرنا ويحاربنا؟ هل الصغير صنيعتنا الذي يعمل برأينا ومشورتنا، ومعه قائدنا غونثالو القرطبي ينقل إلينا أخباره وتحرّكاته؟ أمْ عمّه الزّغل المشغول بحربِ ابن أخيه؟ وحتى لو فكّر الزّغل في نجدة المدينة

المحاصَرة فسيعيقه عن ذلك خوفُه على عاصمته مِن أن ينقضّ عليها ابنُ أخيه في غيبته!».

وبينما يجري الحديث بين الملك فرناندو وقادته، إذ يدخل دي قابرا مرتاعًا شاحبَ الوجه، فينحني أمام الملك، ثمّ يرفع رأسَه محاولًا التحدّث، فلا تسعفه أنفاسُه المتسارعة، فيضطر إلى الصمت لحظات ريثما يلتقط أنفاسه، قبل أن يقول: «الزغل.. الزّغل يا مولاي»، (تزداد أنفاسه توترًا وعُلُوًّا): لقد وصل جيش الزغل، وهو الآن يقبع أعلى الجبال المحيطة بنا».

صمت مركيز قادش، بينما ظهر العجب على وجه فرناندو الذي بادر بالتساؤل: «كيف خرج مِن غرناطة؟ بل كيف وصل إلى هنا من دون أن يصلنا أي إنذار من غرناطة؟ هل ربح الحربَ ونحن لا ندري؟ وإن كان كذلك فما مصير جنودنا هناك؟».

دي قابرا (يلتقط أنفاسه، ويبدأ في الحديث بهدوءٍ مَنقوص): «لم ينتصر يا سيدي، بل ترك خلفَه في غرناطة مَن يؤمِّن له الحمراء، ويقف في وجه ابن أخيه، بعدما وصلت إليه طلائعُ النجدات من وادي آش وبلش الأبيض وبلش مالقة، فاستقوى بهم وقرّر الخروج إلينا، سالكًا نحْونا أقصر الطرق وأكثرها وعورَة، لهذا لم يتنبّه لخروجه جواسيسُنا في الطريق، كما أنه قطعَ الطريق باتجاهنا في وقتٍ قصير جدًّا».

فرناندو (ينظر إلى مركيز قادش، ويربتُ على كتفه، قائلًا له): «لا أدري ماذا أقول لك يا رودريغو؟ فأنت دائمًا ثاقبَ النظر».

مركيز قادش: «لا تقل شيئًا يا مولاي، فإنما أنا أحدُ جندك».

(تُسمع جلبة وصيحاتٌ في الخارج)

فرناندو: «ماذا يجري خارج الخيمة؟».

دي قابرا: «لقد ارتاع الجندُ من الظهور المفاجئ للزغل يا سيدي!».

فرناندو (ينظر إلى هرناندو دي مندوسا آمرًا): «اخرج إليهم فهدّئ من رَوعهم».

يومئ دي مندوسا برأسه ثمّ يخرج، أمّا دي قابرا فيستأذن الملك في أن يبادر بالهجومِ على الزّغل ومبادرته، وذلك لتعويض هزيمتِهِ التي كان الزّغل قد أَلحقها به عند حصن «موكلين»، فينهرُه فرناندو الذي رأى أن الوقت ليس وقتَ مغامرات ومشاعرَ شخصية، فالملك يرى الزّغل مقاتلًا شجاعًا وليس مِن السهولة القضاء عليه، كما علمَ فرناندو أن أي هزيمة تلحق بجنده ستكون كارثيّة، وستمنح أهل بلش مالقة وجند الزّغل مزيدًا من القوّة والجرأة على مقارعة القشتاليّين، لذلك فقد أمرَ فرناندو جنوده وقادته بتوخّي الحذر وعدم المبادرة بالهجوم ريثما يستطلعُ أبعاد المشهد، ويستمع لكلّ الآراء.

أمّا الزّغل فقد قرّر- فور وصوله- إطلاقَ فرقة بقيادة رضوان بنغيش لمهاجمة القشتاليّين بحركة سريعة خاطفة، وحذّره من الدخول معهم في حربٍ شاملة، آمرًا إيّاه بالتزام قاعدة «اضربْ في قوة، واهربْ سريعًا»، وكان الزّغل يرمي من وراء هذا الهجوم إلى بثّ الرعب في قلوب القشتاليّين، ومعرفة مدى استعدادهم للمعركة الآتية. ومن فوره هاجم رضوان بنغيش مؤخرةَ الجيش القشتالي بشدّة قاسية، مُوقعًا عدة قتلى وجرحى، بل إنّ أحدَ جنوده نجح في إصابة الخيمة الملكية وقذفها بحزمة من السّهام، اخترق أحدها فخذَ فرناندو.

وهكذا نجح الزّغل في بثّ الرعب في نفوس الجيش القشتالي من وجوهٍ عدة، أولًا لأنه احتلّ المرتفعات بجيشه بينما القشتاليّون يقبعون أسفله، وثانيًا تمكّنُه من إزهاق أرواح كثيرٍ من فرسان القشتاليّين، إلى حدٍّ أن كلّ جندي قشتالي خُيّل إليه أن خلف كلّ صخرةٍ من صخور الجبل مسلمٌ يتربّص به، ويعتزم قتلَه!

جلس فرناندو وسط خيمته، بينما يضمّد أحدُ الأطباء الجرح الذي أصاب فخذَه، ليدخل عليه ماستر أوف كنترا بلباسه العسكري، فيخلع خوذته ويؤدي التحية لسيده الملك، قبل أن يقول: «لقد نجحت قوات ليون يا مولاي في وقف الهجوم الذي شنّه رضوان بنغيش على قوات المتابعة».

فرناندو: «أحسنتَ صنعًا أيها الكونت، لقد ظنّ هذا المسلم أننا لن نتنَبّه لخطّته». (يتألم بسبب ضماد الجرح).

دي قابرا: «لكن مع ذلك، يا سيدي، لم يختلف وضعُنا، ولا يزال الرعب يسود المعسكر، حتى ليكادَ الجنودُ يموتون فزعًا، فالمدينة الثائرة مِن خلفنا والزغل بجيشه أمامنا، ولا نستطيع الهجوم عليه، إذ إن موقعه أعلى الجبل جعله في موضع قوّةٍ بالنسبة إلينا».

(ينتهي الطبيب من ربطِ الجرح بعد تضْميده)

فرناندو: «لا أريد مزيدًا مِن الحديث عنْ هذا الخوف أيها الكونت».

(يدخلُ أحد الحراس، فينحني أمام فرناندو، ثمّ يقول: «سيدي، لقد حاول أحدُ المتسلّلين الوصولَ إلى أسوار المدينة، ولكنّ جنودنا تنبّهوا لموقعه، وقبضوا عليه، وقيّدوه بالسلاسل».

فكّر فرناندو في الأمر قليلًا، وقال في نفسه: «لا بدَّ أنّ في الأمر خدعة ما.. دعوني أرَ هذا اللّص المتسلّل».

دخل الجندُ ومعهم اللّص الذي تشي ملامحُه وهيئتُه أنّه قشتاليّ الأصل، فشعرُه الأصفر ولونُ جلده وطريقةُ كلامه تبيّن أنه ليس بعربي. حدقَ فرناندو في المكبّل أمامه، قبل أنْ يسأله مِن أينَ أتى، وما السرّ وراء محاولتِه الوصولَ إلى المدينة.

يتصبّب اللّص عرقًا وخوفًا، وهو يرسفُ في أغلاله، ثمّ يقول أنا أسيرٌ قشتالي، فررْتُ منَ الأسْر يا سيدي، وحاولتُ اللّجوء إليكم.

فرناندو: «حاولتَ الوصولَ واللجوء إلينا أمْ إلى المدينة؟».

حاول اللّص الدفاعَ عن نفسه فلم يجدْ طريقًا لذلك، فتدخّل مركيز قادش في الحديث، واستأذن الملك في تفتيش اللّص فأذنَ له.

فتّش مركيز قادش اللصَّ فوجد في طيّات ملابسه رسالة ففتحها وطالع سطورَها بإمعان.

مركيز قادش: «إنها رسالة من أبي عبد الله الزغل، إلى ابن عمّه حاكم بلش مالقة أبي القاسم بنكاس، يقول له فيها: لقد قيّمنا موقعَ العدو، ودرسنا كلَّ ممرّات الجبل، ورأينا أنّ القشتاليّين في موضع يسهل معه القضاءُ عليهم، بل وأسرَ مليكهم، لهذا فإنّي آمرك بالخروج من المدينة المحاصَرة وبكلّ قواتك، وذلك حين تأتيك إشارتُنا من الجبل، فتشغل بخروجِك جيش القشتاليّين، حتى إذا صارت وجوهُهم نحوكَ، انكشف لنا ظهرُهم، فنزلنا من الجبلِ وأعملنا فيهم القتلَ والأسْر».

فرناندو (غاضبًا): «يريد أسْري». (ثمّ يلتفت إلى اللصِّ الجاسوس قائلًا له بصوتٍ يغلي غضبًا): «وأنتْ، كيف تجرؤ على حمْل رسالة كهذه؟!».

الجاسوس: «العفوَ يا مولاي، فأنا لم أكنْ أعلم ما بداخلها، فأنا رجل مسيحيّ كنتُ أسيرًا عند ملك المسلمين، فلمّا حاولتُ الفِرارَ منه، أخبرني بأنّ ثمنَ حرّيتي هو إيصالُ هذه الرسالة إلى المدينة المحاصَرة، ولم أكنْ أعلمُ حرفًا ممّا تحتويه».

فرناندو: «كذبتَ، خذوه فاقْتلوه».

الجاسوس (متوسّلًا بأعلى صوته): «الرحمة.. الرحمة.. الرحمة».

فرناندو: «ليس لخائنٍ مثلك نصيبٌ مِن الرحمة».

وفي مساء اليوم التالي، وبعد أنْ هدأ المعسكر القشتالي، حتى لم تعُد تُسمع فيه إلّا أصواتُ الخيول، وبعدما لجَمَ الزّغل صبره وصبر جيشِه حتى مرَّ هزيعٌ من الليل، وبحلولِ ساعةِ البدْء المتّفق عليها، أمرَ الزّغل بإشعال النيران على مرتفعات بني تميز، ولكنّه لاحظ أن بلش مالقة لم تردّ عليه بإشعال نارٍ مُماثلة! فكّر الزّغل طويلًا، ولكنّه في النهاية قرّر الهجومَ بعد أنْ فرغَ صبره! فقال متحدثًا في جنوده: «الله أكبر.. لقد ساق الله هؤلاء القشتاليّين إلى قبضتنا، فسيكونُ مليكهم وخيرةُ فرسانهم طوعَ أيدينا وتحت رحمتنا قريبًا.

اليوم، تظهر رجولةُ الرّجال وشجاعةُ الشجعان، فنصرٌ واحدٌ كافٍ لردّ كلّ هزائمنا وتعويض ما خسرناه من قبْل، والسعيدُ مَن نال إحدى الحُسنيين، مَن يسقط مجاهدًا في سبيل الله فلَهُ جنة عرضها السماوات والأرض، وأمّا مَن ينال النصرَ فقد حاز الكرامةَ والشرف،

والعيش في غرناطة جنة الله في أرضه، وقد خلتْ مِن أعدائها؛ لتعود إلى مجدها السابق».

ما كادَ الزّغل يفرغُ من هذه الخطبة الحماسيّة حتى أمرَ قواته بالنزول إلى الجبل ومهاجمة القشتاليّين. ولأنّ منحنيات الصخور كانت شديدةً وكبيرة، لم تلبثِ القوات المهاجمة أنْ وجدت نفسَها في مواجهة مع الجنود القشتاليّين المتكدّسين خلفَ الصخور، فكانت المفاجأة قاسيةً على المسلمين، إذْ لم يكن قدْ دار بخَلَدهم أنّ خطتهم قدِ انكشفت، وافتضحَ أمرها، فتراجعوا نحو الجبلِ مُحاولين الاعتصامَ به في فوضى عارمة، وعندَها أيقنَ الزّغل بافتضاح أمْر خطّته، وعلى رغم ذلك فقد أمرَ قواتِه بمواصلة الهجوم، فاستجابَ الجنود ولكنْ في سرعة ويأسٍ وارْتباك، فكان القشتاليّون لهم بالمِرصاد، إذ ردُّوهم للمرة الثانية، ولكن بعدما كبّدوهم خسائرَ فادحة، فاضطرّ المسلمون بعدها إلى الانسحابِ نحو الجبال، بعدما وهنَ أمرهم وقوِيَ عزمُ عدوّهم، وهنا تقدّم هرناندو دي مندوسا وهو يتحدّث بكلّ فرح وسعادة، وقد غلبَ على صوته الضّحك: «لقد نجحنا في صدّهم، فهاموا في الجبال على كلّ وجْه»، (يقهقه مكملًا): «وتمكنّا أيضًا مِن احتلال بعض المرتفعات التي كانوا يُسيطرون عليها».

دي قابرا (ضاحكًا): «فوجئت وأنا أهاجمُ المسلمين بإلقائهم أسلحتهم وكلّ ما يُعيق هروبَهم، وقد تفرّقوا في شِعاب الجبال والوديان بشكلٍ مُثير للسّخرية وهُم لا يلْوونَ على شيء.. بلْ إنني

شاهدت ذعرَهم وخوفَهم من لَمْع حرابِ بعضهم البعض». (يكاد يسقط من كثرة الضّحك، ثمّ يمالك نفسه مكملًا): «ولم تفلح كلُّ محاولات الزّغل أن يجمع شعثَهم، فخاف على نفسه هو أيضًا؛ ليتّخذ طريقه فرارًا ناحية غرناطة».

مركيز قادش: «مَن يشاهد رعبَ المسلمين وانهزامهم من دون حرب، لا يشاهدهم وهُم يتوعّدون بأسْر الملك والقضاء علينا». (تتّسع على وجهه ابتسامةٌ ساخرة).

فرناندو (يتحدّث في جديّة): «دعونا لا نصدّق الهزيمة السريعة التي لحقت بالزّغل، فلربّما كانت خلفها مكيدة من مكائدِه، لذلك عليكم بتشديدِ الحراسة على المعسكر، وليكنِ الجميعُ على أهْبَة الاستعداد للقتال طَوال الوقت، وليقمْ على خيمتي ألفُ حارس، فلا أزال غيرَ مطمئنّ على رغم كلّ ما حقّقناه من نصرٍ لا تُخطئه العين.

بعد ليلةٍ ثقيلة على المسلمين، سعيدةٍ على القشتاليّين، أشرقتِ الشمسُ فكَسَا نورُها الأرض، كي يكشفَ لأهل المدينة من المسلمين حجمَ الكارثة، فأُسقِطَ في أيديهم، وزاغت عيونُهم، وحاصرهم اليأس، حتى بدأوا يبصرون النهايةَ قريبةً شاخصة تلوح نُذُرُها في الأفق!

وفي ضوءِ ما حدث، أمرَ فرناندو بإرسال التّهاني وأخبار الانتصار في المعركة إلى الملكةِ في قرطبة، كما أمرَ بأنْ تُدَق الأجراسُ ابتهاجًا

بهزيمة المسلمين، وأن ترتفعَ ترانيمُ الابتهالِ في الكنائس وأغاني النصر على الإسلام te deum وليشكرَ الجميع الربّ على هذا النّصر السريع، ونجاة الملك من الموت.

***

.٨٠

داخل بلش مالقة

في إحدى ساحاتِ المدينة الملاصقة للأسوار، بالقرب من بابها الرئيسي، حيث تزدحمُ الطّرقات ويكثر الكلام، وتعلو الأصوات، يقفُ رجلان في إحدى الزّوايا يتهامسان ويتبادَلان حديثًا خافتًا في حرصٍ وحذر.

سليم: «أكادُ أجنّ، ما الذي حدث؟ أيُعقَل أن ينامَ الرجل على حالٍ فيصحو على نقيضه بهذه السهولة؟! بالأمس كنّا نشاهدُ معسكر الزّغل يموجُ بقوّاته التي غطّت كلّ هضاب الجبل حتّى وصلتْ إلى بني تميز، وغربت الشمسُ تاركةً سيوفَ المسلمين لامعةً صقيلة، حتى إذا تنفّس الصباح فرغ المعسكر، وأصبح الزّغل ورجاله أثرًا بعد حجر.. أين ذهبوا؟». (يضرب كفًّا بكفّ، ماضيًا في حديثِه): «هل هُزم الزّغل بهذه السّرعة أم جَبُن عن اللّقاء فهرب، أمْ تراه باعَ المدينة وقبض ثمنَها ذهبًا؟ لقد شاهدتُ بالليل إشاراتٍ ضوئية، وسمعتُ هدير البنادق.. فهلْ كان كلّ هذا دليلًا على هزيمة الزّغل أم انسحابه؟».

زياد: «إنه شيء محيّر فعلًا، إذ إن كلّ الأخبار كانت تنبئ بضعفِ موقف القشتاليّين ورُجحان كفّة الزغل».

سليم (ينظر إلى مساجد المدينة ومناراتها الجميلة، ويقول في حزن عميق): «لقد بدأت أشعرُ بقرب النهاية». (يشير بيدِه إلى منارة قريبة منه، ويقول والدموعُ في عينيه): «هذه المنارة الجميلة ربّما تتحوّل إلى برج تتوج قمتَه الأجراس، وهذا المسجدُ ستمنعُ فيه الصلاة، وتمحى آياتُه ونقوشه، لتوضع محلَّها صورٌ وتماثيل». (ينخرط في بكاءٍ حارّ).

زياد: «لِمَ كلُّ هذا اليأس يا صديقي، وقد قال الوزير رضوان إنّ الزّغل سيعود بعد أن يجمع فلولَ جيشه مِن جديد، ولا تزال المدينة صامدة، وسنصبر حتى يدركنا الزّغل وينقذنا؟».

سليم (متهكّمًا): «الوزير رضوان، ها.. ولماذا لم يقاتل الوزير مع فرقَته جيشَ القشتاليّين؟ لماذا ترك الزّغل وفرَّ بفرقتِه إلينا؟ ثمّ هبْ ما قاله الوزير رضوان صوابًا، فهل سينتظر القشتاليّون عودةَ الزّغل وهُمُ القادرون على هدْم الأسوار واقتحامِ المدينة؟!».

زياد: «يا رجل، لقد حاول الوزير أنْ يكون معنا في حصارنا هذا، فاخترق بفرقتِه جيشَ القشتاليّين، وعرّض حياته للخطرِ من أجل المدينة وأجَلِنا، فلا يحقّ لك بعدَ هذا أنْ تتّهمه في نيّته».

سليم (يستمع إلى صاحبه مردّدًا): «اخترق بفرقته جيشَ القشتاليّين حتى وصل إلينا، ولم يفقد أحدًا من جنده- ممم- ألَا ترى أنّ هذا يكفي سببًا للرّيبة وسوءِ النية وإعادة التفكّر في الأمر؟!».

زياد: «كيف ذلك؟ فيمَ تفكر؟».

سليم (يخفضُ صوته وكأنّه يهمس): «ألَا تعلم أنّ رضوان هذا يتحدّر من أسْرة قشتالية قد دخلتْ في الإسلام، ثمّ انتظمت في خدمةِ أمَراء غرناطة حتّى وصلوا إلى ما وَصلوا إليه، ولهذا فأنا لا أشكّ في أنهم يحملون في قلوبهم حنينًا إلى أصولهم القشتاليّة، بل لربّما هُم بالأساس لم يسلموا إلّا حيلةً لإسْقاط غرناطة!».

زياد: «أيُعقَل هذا الكلام؟ والله ما أراك إلّا مبالغًا».

سليم: «ولمَ لا، ألمْ تسأل نفسك كيفَ ولجَ رضوان بسريّته الصغيرة من بينِ هذا الجيش القشتالي العظيم، مِن دون أن يفقدَ جنديًّا واحدًا، إلّا أن يكون متواطئًا معهم؟ والآنَ لم تقل لي: هل سينتظرُ القشتاليّون حتى ينقذنا الزّغل، أمْ تراهم سيستعْجلون باستغلال ما نحنُ فيه، فيهاجمون المدينة؟».

زياد: «سينتظرون، فهم لا يملكونَ أدواتِ هدم الأسوار، كما قال رضوان بنغيش، كما أنهم لا يستطيعون تسلّق الأسوار أو حتى الاقتراب منها، خشيةً منَ القنّاصة المنتبِهين وبنادقهم وسهامهم التي لا تخطئ». (يتنهّد ثمّ يتابع): «طِب خاطرًا، واستبشر خيرًا.. فليس الأمرُ على نحو ما تقول».

سليم (مردّدًا): «كما قال رضوان.. يبدو أنّك لا تعي ما تقول، وحتى لا تنصت إلى ما أقول أنا!».

وبينما سليم وزياد يُديران رحَى حديثهما إذْ يقرع سمعيْهما جندي ينادي صارخًا مِن فوق الأسوار: «أنفاط.. أنفاط.. صفوفٌ طويلة من الأنفاط تقتربُ من أسوار المدينة».

ومع ارتفاع صوتِ الحارس خرجَ الوزير رضوان وبصحبتِه أبو القاسم بنكاس حاكم بلش مالقة، فصعدا السور معًا، ونظرا إلى جيش القشتاليّين الذي يقترب، ثمّ هبطا وقد ملأتِ الحيرةُ وجهَيْهما، فقد كانَ الجميع يتوقّعون عدمَ وصول الأنفاط لوعورةِ الطّريق، وكانوا يعوّلون كثيرًا على ذلك، أمَا وقد وصلتْ فالأمر بكلّ تأكيد سيكونُ له وجهٌ آخر، وقبل أنْ يستفيق أهلُ بلش مالقة من صدمةِ وصول الأنفاط جاءهم خبرٌ آخرُ بإغلاق غرناطة أبوابَها في وجْه الزّغل، إذِ استغل ابنُ أخيه محمد بن علي غيابَه عن المدينة أولًا ثمّ هزيمته ثانيًا، فأشاع في الناس أنه هو مَن سينقذهم، وسيحفظ لهم غرناطة مِن هجمات القشتاليّين، فبايعوه وخلعوا الزّغل! وبهذه الأخبار، غاص الأملُ في وصول النّجدات في بحرٍ مُتلاطم من اليأس، وبدأ حاكمُ بلش مالقة يفكّر في الاستسلام.

أمّا فرناندو الخامس، فقد أحسنَ استغلال الوضع الجديد فأمر- فورَ وصول الأنفاط- بضربِ الأسوار وهدمها قبل أنْ يستفيق الزّغل من هزيمته، فراحتْ كُرات اللّهب تدقّ المدينة وتحرقُها،

وتقتل كلّ مَن تلاقيه، واختلط في المدينة عويلُ النّساء وبكاء الأطفال وصراخ الرجال، ومع مرور الوقت بدأت الأسوار تتهدّم وتتداعَى حجارتها، وعندها تقدّم رضوان بنغيش من حاكم المدينة متحدّثًا.

رضوان: «لو دخل القشتاليّون المدينةَ عنوةً فسيقتلونَنا جميعًا».

أبو القاسم: «وإنِ استسلمنا أيضًا فسوف نُقتل بلا كرامَة، فإنْ كنا مقتولين لا محالةَ فلنُقتل بشرف، مُقبِلين غيرَ مدبّرين».

رضوان: «لا مناصَ من الاستسلام أيها الأمير، فالاستسلامُ وحدَه هو ما سيضمنُ النّجاةَ لهذه المدينة».

أبو القاسم: «أأنت تقول ذلك؟».

رضوان: «نعم، أقولُ ذلك عندما أرى فيه مصلحةَ البلاد والعباد. لقد كنتُ أشجعَكم على الصمود على أملِ وصولِ النّجدات من مولاي الزّغل، وأيضًا كنتُ أعوِّل على عدمِ امتلاك القشتاليّين الأنفاط اللازمة لهدم الأسوار، أمّا الآن فلا أمل في نجْدةٍ تأتي من غرناطة، وقد سقطت في يدِ أبي عبد الله محمد بن علي، وهو كما تعلمُ مَدينٌ بالولاء والطاعة للقشتاليّين، كما لن تصمدَ تلك الأسوار طويلًا أمام تلك الأنفاط الثقيلة، وكما ترى فقدْ أطبق علينا القشتاليّون الحصارَ مِن كلّ حدبٍ وصوْب، حتى البحر تُرابِطُ فيه سفنُهم لتمنعَ عنّا أيَّ نجدةٍ قد تأتينا من المغرب».

أبو القاسم بنكاس (يخفض رأسَه وهو يعتصرُ ألمًا ويقول بصوتٍ حزين مكسور): «لا رادّ لقضاء الله، وإنّا لله وإنا إليه راجعون»، خرجت العبارةُ مِن بين شفتيْه يابسةً بلا روح، بينما انصرفَ عائدًا إلى قصره، موكلًا أمرَ المفاوضات لرضوان بنغيش الذي نادى أحدَ جنوده وأمرَه بحمْل رسالة إلى ملك قشتالة، بأنْ يرسل إلى المدينة مَن يتفاوَض على الصلح والتسليم.

خرج الجندي حاملًا رايةً بيضاء، متوجهًا بها إلى الجيش القشتالي، ثمّ ما هي إلّا ساعات حتى توقّفت الأنفاط عن دكّ المدينة، وإذا بالجندي يعود ومعه الكونت سيفيونتي الذي كلّفه فرناندو بأمْر المفاوضات، كما كلّفه بمعاينة المدينة من كثبٍ في حالِ فشلِ تلك المفاوضات.

دخل الكونت سيفيونتي، مرتديًا زيًّا عسكريًّا قشتاليًّا، وهو يحمل كتابًا دُوِّنت فيه شروطُ التسليم، فتحدّث بها إلى رضوان بنغيش.

الكونت سيفيونتي: «جئتُ للتفاوضِ معكم باسم مولاي الملك».

رضوان: «إنه لمِن دواعي سروري أن ألتقيكَ مرة أخرى أيها الكونت».

نظر الكونت إلى رضوان في استغراب شديد، فحاول رضوان تذكيرَه بسابق الأيام، وبعد محاولةٍ قصيرة تذكّر الكونت سيفيونتي

تلك الأيام قائلًا: «مرحبًا بصديقي القديم، وأنا أيضًا سعيدٌ بأن ألقاك بعد هذه السنوات، وهنا في بلش مالقة «وقد كان الكونت سيفيونتي قد وقع في الأسْر، زمن الأمير أبي الحسن، فأكرم رضوانُ وفادتَه، وعامَلَه معاملةً كريمة، وبعدها فكّه من أسْرِه».

تحرّك الوزير وصاحبُه إلى حديقة قصر الحاكم، وهناك اقترب الكونت من رضوان وجلس بجواره، ثمّ التفت بحذر يمينًا ويسارًا مسْتَطلعًا المكانَ قبل أن يتحدّث.

الكونت: «لقد أحسنتَ صنعًا أيها الوزير، إذْ أقنعتَهم بالتسليم، فأديتَ دورَك بأفضل ممّا كنّا نتوقع».

رضوان: «أنا في خدمة الملك والملكة».

الكونت سيفيونتي: «لكنك لم تقلْ لي أيها الوزير كيف استطعتَ أن تجعل هذا الأميرَ الأحمق يثقُ بك، ثمّ يقبل بالاستسلام؟ لقد كان الملك فرناندو في قلقٍ شديد خشيةَ أن يصمدَ أهلُ بلش مالقة، فيضطر إلى حصارهم، وهو الذي يريد مالقة، ويخشى إن طالَ الحصارُ أن يدخل الشتاء فلا يستطيع السيطرةَ على المدينة».

يبتسم رضوان في مكر، ويقول: «ثقْ بي أيها الكونت، وأخبر الملك أن رضوان لم ينسَ قَطُّ أن عائلته كانت كاثوليكية».

الكونت سيفيونتي (يبادله الابتسامة): «لكنّ المسلمين لم يُجبروا عائلتك على دينهم!».

رضوان: «هذا صحيحٌ يا صديقي، هُمْ لم يجبرونا.. ونحن بدورنا لم نُسلِم إلّا من أجلِ الحصول على الامتيازات، فإنْ ضاعتْ الامتيازات عُدنا إلى ما كنّا عليه».

الكونت سيفيونتي: «تفكيرٌ يعجبني ويخيفني في الوقت ذاته».

رضوان: «لا تقلق يا صديقي، وطِبْ نفسًا، وأطلعني على شروط الملك فرناندو للتسليم».

الكونت سيفيونتي: «لا بأس، هذه هي الشروط:

١- أن تُخلى المدينة من جميع سكانِها المسلمين.

٢- يُسمح لسكان المدينة بمغادرتها مع أمتعتهم كلها، عدا الأسلحة.

٣- يُسمح لَمن أراد منهم بأنْ يبقى في أي مكان في قشتالة أو أراجون بعيدًا عن البحر.

٤- لا يُسمح لأهل بلش مالقة بأنْ يذهبوا إلى غرناطة، فإمّا قشتالة وإمّا عدوة المغرب.

٥- يُطلق أمير بلش مالقة سراحَ كلّ الأسرى المسيحيّين لديه، لإظهار حسن نيته».

***

الفصل الرابع

هلْ ترضونَ بأن تصير مساجدكُم كنائس، ويدقّ الجرس فيها عاليًا، ويخفتُ الأذان؟ لا واللّه إنّ باطن الأرض وقتذاك سيكونُ أفضلَ من ظاهرها، ولأنْ يكون لي قبرٌ في مالقة لخيرٌ مِن أن يكونَ لي قصر وهي في حكم القشتاليّين، غيرَ أنّني قرّرتُ مجابهة النصارى، فمَن منكم مستعدّ للذّود عن شرف الأندلس، ومَن منكم يتوقُ إلى الشهادة في سبيل اللّه.

حامد الثغري

.١٠.

في حي البيازين، بالقرب من مسجد المدينة الكبير، تتزاحمُ الأرجل داخل سوق المدينة، وتتعالَى الأصوات والخلق كثير، والجوُّ ربيعي (أبريل/ نيسان من العام ١٤٨٧م)، يخرج الناسُ من صلاة العصر بملابسهم الغرناطية المميّزة، فإذا بمحمد العطّار يخرجُ من المسجد ويقف منتظرًا، وهو في حيرةٍ من أمرِه، وفي وجهه الكثيرُ من الحزن والألم، وما هي إلّا لحظات حتى تتابع خروجُ المصلين، ومنهم «عليم المصري» إمام المسجد الكبير الذي يتقدّم ناحية محمد ويحيّيه، ويسأله عن سرّ حزنِه وصمْته.

عليم : «ما لي أراك حزينًا؟».

محمد (يردّد الكلمة): «حزينًا! إنّ غرناطة كلها حزينة أيها الإمام».

عليم (يتعجّب ويستنكر ردّ محمد): «ها.. غرناطة! أوَ تظنّ ذلك حقًّا؟! إن غرناطة لفي شُغل عمّا يجول بخاطرك، فالعامّة يا محمد كما عهدناهم، لا يتعلّمون من أخبار الأمم السالفة، ولا يروْن منها إلّا القليل، لا يفكرون إلّا فى يومِهم وقُوتِهم ومعيشتِهم، لا يشغلهم من غرناطة إلّا أمنها المتعلّق بأمْنِهم ويومهم، أمّا بقية المدن والقرى المجاورة فلا تشغلهم ولا يهتمون بها، اللّهم إلّا القليل منهم! إنهم

سفهاء، لا يعلمون أنّ الدائرة يومًا ستدورُ عليهم، وأنّ سقوط المدن مِن حولهم إنّما هو بداية نهايتهم- ألا تراهم كيف حملوا أبا عبد الله بن علي فوقَ رؤوسهم، وأسكنوه الحمراء، ثمّ أغلقوا أبوابَ غرناطة في وجْه مَن خرج ليدافع عن بلش مالقة وعنهم! أَلَا تراهم مُسْتبشرين وفرحين بمعاهدة مليكهم مع القشتاليين؟!». قال هذا ثمّ ربتَ على كتفِ محمد، وقال: «هوِّن عليك يا محمد، فلا رادّ لقضاء الله».

محمد: «إذنْ يقتلني- والله- الحزن، فما تقولُه يعني النهاية، فالأممُ الجاهلة لا تستحقّ الحياة ولو اجتهدت».

استمرّ محمد وعليم في حديثهما، بينما يتحرّكان في شوارع وأزقّة البيازين الضيّقة، وبعدها يتفارقان، فيذهب محمد إلى شجرة الرّمان عند حافة نهر شنيل، يجلسُ تحتها ويستظلّ بأوراقها مستندًا إلى جِذعها ومتأملًا شمس غرناطة وهي تتوارى أو تكادُ عن الأنظار. يستغرق محمد في التأمل ويستعيد ذكرياتِه، ويفكّر مرارًا في كلمات عليم المصري، فيكتئب وجهُه ويرنو ببصرِه تجاه ماء النهر المتدفّق أمامه، فتأخذُه الذكريات والأحداث إلى موقعة اللسانة الشهيرة التي فقدت فيها غرناطة أشهرَ رجالها «علي العطّار»، فإذا به يناجي النهرَ في عتابٍ صامت: «كيف رضيتَ أنْ تبتلع جثمانَ علي العطّار، بينما أبو عبد الله الصغير مازال حيًّا؟ وكيف لنهرٍ يحمل الحياة لغرناطة أنْ يغدو مقبرةً لأحدِ أهمّ رجالها؟!». تردّد نظر محمد بين النهر والسماء، وغرق في صمتٍ عميق لم يخرجه عنه سوى وصول صاحبيْه إليه.

جلس عامر وعلي بجوار صاحبهما، وهُما يحاولان التخفيفَ عنه، بعد أحداث بلش مالقة التي شهدها.

عامر: «نحمدُ الله على سلامتك يا محمد».

علي: «كم كنتُ أتمنّى أن أكون معك في هذه الحرب».

محمد: «حقًّا..! أكنتَ تتمنّى يا عامرُ أن تشهد الهزيمة بأمّ عينيك وعشرون ألفًا من الرجال ينسحبون رعبًا وخوفًا من دون قتال، ويُلقون سلاحهم ويفرّون فرارَ المذعورين، بينما أهل بلش مالقة ينظرون، أو كانوا ينظرون إلينا على أنّنا المنقذُ لهم الذي أرسله إليهم القدر. واللهِ لقد تمنّيتُ الموت على هضاب بلش مالقة، فالموت أهونُ عندي من أنْ أعيش لأسمع أن المدينة التي خرجتُ مجاهدًا في سبيلها ومدافعًا عن حدودها، قد سقطت وتحوّلت مساجدها إلى كنائس».
(يعتصر وجهُ محمد حزنًا وألمًا).

علي: «هدّئ من روْعك يا أبا خالد، فما حدثَ قد كان، ولا رادّ لقضاء الله».

محمد: «إنّها الخيانة يا علي، فما لها وقضاء الله؟».

علي: «اخفضْ من صوتك، لا يسمعنّك أحدٌ تقول هذا الكلام».

محمد: «وهل هناك مَن يجهل ما أقولُ يا علي؟ الجميع يعلمون كيف سقطتِ المدينة، وكيف خرجتْ مِن حرز الإسلام. الجميع يعلمون كيفَ هُزمنا، ومَن الذي طعنَنا في ظهورنا».

عامر: «نعم، لا أحدٌ يجهل ذلك، ولكن أيضًا لا أحدٌ يجرؤ على الإفصاح به».

محمد: «أيُعقل أنْ تخلو الأندلس من رجلٍ صالح يقول كلمة حقٍّ في وجه سلطانٍ غادر خائن؟».

علي: «تتحدّث وكأنّك لا تعلم مَن الذين يحيطُ ابن عائشةَ نفسَه بهم. انظر إليهم، فوالله ما أظنّ خيرًا بإسْلامهم بالأساس فضلًا عن خوفهم على البلاد».

عامر: «يوسف بن كماشة ومِن قبْله رضوان بنغيش..!

وبينما الثلاثة يتحدّثون هكذا إذْ بصوتٍ عالٍ يصرخ، ويقول:

«غرناطة.. غرناطة.. غرناطة».

يلتفتُ الجميع إلى مصدرِ الصوت، فإذا هو صوتُ الدرويش «حامد بن زرعة»، وهو ينادي بصوتِه المرتفع وثيابِه البالية، والناسُ مجتمعون حوله ينظرونَ إليه ويُصيخون السّمع لكلّ ما يقوله في اهتمامٍ شديد، وهو يهتف: «غرناطة.. غرناطة.. قد انتهتْ أيامك واقتربت نهايتُك. وتوشكُ شمس دولتِك على الغروب، ستسْقطين يا غرناطة كما تسقطُ أوراق أشجار الرّمان في فصل الخريف. لقد دنا يومُك، وانتهى سعدُك».

وقع صوتُ حامد على الجميع وقوعَ الصّدمة، وربطوا الأحداثَ بكلامه، وراح بعضهم يتذكّر حديثَه يومَ حصن الزهراء، إذ ارتاعَ

الكثيرون وغمرتْهم الكآبة. تابع حامد كلامَه، وراح يخترق شوارعَ غرناطة، وهو يردّد الكلام نفسَه لا يبدّله ولا يغيّره، ولا يلتفتُ إلى مَن يخاطبه أو ينْهره، أو يكتَرِث لَمن يحاول إسكاتَه، ثمّ اخترقَ الصفوف، وصعدَ ناحية الجبال حتى اخْتفَت هيئتُه، ولكنّ صدى صوتِه المفزع ظلّ يتردّد في الأذهان والعقول، فألجَمَهم الصمتُ والخوف والحزن، وإذا بعامر يخاطبُ نفسه قائلًا: «ما زالَ هذا الدرويش يقول تلك الكلمات اللّعينة منذ خمسة أعوام أو تزيد».. ثمّ اتّجه عامر بوجهِه إلى صاحبيْه قائلًا: «والله لو أنّ الأمر بيدي لسجنْتُه أو قطعت لسانَه، فلسْنا في حاجةٍ الآن إلى كلماتٍ مثبّطة تنذر بالرّحيل والنهاية».

وفي تلك الأثناء، يمسك محمد بحجرٍ، ويلقمه للنهر وهو يقول: «لقد ضاقتْ نفسي برؤية هذا الدرويش وسماعِ عباراته المتشائمة التي لا تنتهي». أمّا عامر فقد راحَ يتذكّر تلك الليلة الموعودة التي لم ينمْ فيها أحدٌ مِن غرناطة، فقد كان الجميع يتوقُون إلى أخبارِ بلش مالقة، وراح الناسُ يتذاكرون أخبارَ الزّغل عند حصنِ «موكلين»، وانتصاره هناك على جيش القشتاليّين وشجاعته، وتوقّع الجميع أن يتكرّر المشهد، فشخصت العيونُ إلى أبواب غرناطة من جهةِ بلش مالقة، ينتظرون الأخبارَ السعيدة، فعمّا قريب يعود الزّغل وفي ذيل حصانه بضعةُ آلاف أسيرٍ يجرّهم خلفه، كما حدث من قبل، وكما هو متوقّع. تابع عامر قرصَ الشمس وهو يميل حثيثًا إلى الغروب.. ثمّ طرق قليلًا.. قبل أن يعودَ ببصره إلى النهر ويتنهّد، ثمّ يكمل

الأحداثَ في ذاكرته، فبينما ينتظرُ الجميع تلك الأخبار ويستعدّ بعضهم للاحتفال، إذِ الغبار يتعالى، وصهيلُ الخيل يقترب، فتوقّع الجميع اقتراب الخبر السعيد مُسْتبشرين بموكبِ النصر القادم، فلم يكنْ أحدٌ ليشكّ في انتصار الزّغل، لكن.. ما هي إلّا لحظات حتى اختلفت الحال، وسقطت الأحلامُ والتنبؤات، وظهر أنّ صهيل الخيول إنّما ينبئ بعودةِ المهزوم، وترنُّح فلول من الجيش الذي خرجَ بالأمس يتبخْتَر موقنًا بأنّ النصر قابَ قوسين، وها هو الآن عائدٌ يجرّ خلفه أذيالَ الهزيمة والانكسار.

وقفَ عامر بينما علي ومحمد جالسان، وإذا به يهتفُ بصوتٍ مرتفع مجَلْجل: «ألَا بئست الخيانة» ينظر محمد وعلي إلى عامر، ويسأله محمد عمّا دفعَه إلى تذكّر الخيانة الآن، فيجيبُه بصوتٍ مُضطرب:

«لقد تذكرتُ خروجَ الزّغل لنجدة بلش مالقة، ثمّ تذكرتُ الصلح ورفض ابن عائشة له، ثمّ تذكرتُ كيف كان محاصرًا في البيازين لا يجرؤ على الخروج منها، وتذكّرتُ نبأ هزيمة الزّغل في بلش مالقة، وانقلاب أهل غرناطة عليه»، ثمّ يعودُ محمد ويتذكّر ذلك اليوم، فبعد وصول نبأ الهزيمة سُقط في أيدي الناس، ولمْ يعودوا يعلمون ماذا سيفعلون، وبينما هُم كذلك إذْ خرجَ فيهم مَن ينادي ويقول: «عاش الملك.. عاش محمد بن علي بن سعد.. عاش الملك سليل الملوك.. والموت لكلّ خائنٍ ذليل مهزوم». مرّت لحظات فإذا بالصوت يتحوّل إلى خليطِ أصوات، وإذا بالجماهير التي كانت تنتظرُ

عودة الزّغل لتحتفلَ به، تنادي وتردّد خلف المنادي: «عاش الملك سليل الملوك.. والموت لكلّ خائنٍ ذليل»، وإذا بكلّ مناوئ لمحمد بن علي يتحوّل إلى مناصرته، ثمّ إذا بصاحبِ الصوت يجرّ الناس خلفه ناحية البيازين، وهُم يردّدون: «عاش الملك سليل الملوك.. عاش محمد الثاني عشر»، ثمّ توقّف الجميع أمام محمد بن سعد، وبايعوه ملكًا عليهم، وحملوه إلى الحمراء وأجلسوه على كرسي الحكم.

استفاقَ عامر من غفْوتِه فإذا به يقول: «ما أتعسَ هذا الشعب؟ كيف يتحوّل ولاؤه هكذا بين يومٍ وليلة؟ كيف يخونُ مَن خرج للدفاع عنه، ويولّي من خانَه وأدخلَ القشتاليّين إليه؟ كيف يأمنون لملكٍ اعتاد أن يكون حليفًا لأعدائهم، أو أسيرًا عندهم كيف؟!».

علي: «اهدأ يا عامر لا يسمعنَّ خبرَك أحدُهم».

عامر: «وهل تراني أخشاهم أو أُبالي بهم؟».

وفجأة يتناهَى إليهم من بعيدٍ صوتُ أجراس، وعلى رغم أنه يجيء خافتًا، فقدِ ارْتسمَت على وجوهِ الجميع ملامحُ الضيق والكدر، وإذا بمحمد يضعُ كفَّيْه على وجهه لحظاتٍ، ثمّ يقول: «أسمعتم؟».

فيردّ عامر قائلًا: «ماذا بكَ يا رجل؟ هذه الأصواتُ ليست في غرناطة، هذه الأجراسُ تدقّ من مكان بعيد».

محمد: «مكان بعيد؟!». (يحرّك رأسَه وهو يغمض عينيه متسائلًا): «وهل صارتْ بلش مالقة وبلش الأبيض والحامة وبنو

تميز وأربعون قرية تحوّلت بالأمس مساجدُها إلى كنائس، وغدت تدقّ بها الأجراس عوضًا عن الأذان معلنةً نهاية دولة الإسلام فيها؛ هل صارت مكانًا بعيدًا؟ هل أصبحت بلادُ المسلمين بالأمس لا تعْنيهم اليوم؟».

ينظر محمد إلى الأفق، مستطلعًا مصدرَ الصوت من خلفِ الجبال، ثمّ يتذكّر يومَ عودته برفقة الزّغل بعد الفرارِ من بلش مالقة، إذْ قال الزّغل لجنوده «لا تحزنوا، فلنْ يأتي الصباحُ حتى نجمعَ فلول جيشنا ونعود إلى بلش مالقة لإنقاذها، وفجأةً يضحكُ محمد في سخرية، بينما ينظرُ إليه عامر وعلي في استغراب، ولكنّ محمد لا يلتفت إليهما، بل يتابعُ في نفسه ما كان ويستعيدُ ذكريات هذا اليوم.

كان الزّغل يريدُ أن يجمعَ فلول الجيش، ويعودَ من فوْرِه لإنقاذ بلش مالقة، كي لا يتركها فريسةً سهلة لفرناندو الخامس، ولكنْ حدث ما لم يتخيّل الزّغل أو رجالُه، فلم يكدْ يقترب وجيشُه من أسوار غرناطة حتى أغلقت المدينةُ أبوابها في وجْهه، أدار الرجلُ عِنان جواده متجهًا إلى وادى آش وهو يكاد ينفطرُ منَ الحزن والألم، فهذه غرناطة تخونُه وهو الذي ما انْفكّ يدافع عنها وينتصرُ لها.

وفي وادي آش، حاول الزّغل أن يستنهضَ الناس من حوله؛ لإنجادِ بلش مالقة، ولكن أحدًا لم يستمعْ له ولم يُلقِ إليه بالًا، فأهلُ وادي آش قد خارتْ قواهم، وشعروا بأنّ في الحرب والجهاد نهايتَهم، وأن نجاتَهم إنّما هي في الصلح الذي عقده أبو عبد الله محمد

بن علي، فلماذا لا يفعلون مثل غرناطة ويهادنون؟ ولماذا لا يشترون أمنَهم وسلامتهم، ولو دفعوا ثمنًا باهظًا لذلك صمتًا وقعودًا؟!

لقد انتقلتِ العدوى إلى جميع أرجاء الأندلس! عدوى الخوف من الموت والتشبّث بالحياة ولو على حافّة الذّل. عدوى الخيانة ولو كانت عاقبتها مريرةً في نهاية المطاف. كلّ هذا بسبب ذلك الأرعنِ الذي لا يهمّه ولا يشغله مِن هذه الدنيا سوى الكرسي الواقعِ في الحمراء.

قطعَ علي صمتَ عامر، وشرودَ محمّد، بقوله: «هيه.. إلى متى هذا الصمت؟».

محمد: «ولماذا الحديث يا علي!، وهو طافحٌ بالخيانة والغدر، على كلّ حالٍ يجب عليَّ أن أترككما الآن لتوديع أهلي».

عامر (متعجّبًا): «توديع أهلك!».

محمد: «نعمْ يا عامر، فما عدتُ إلى غرناطة إلّا من أجل ذلك. لن أمكثَ هنا في ظلّ عهود القشتاليّين التي لا قيمة لها، وأترك إخواننا في مالقة يكابدون الحصارَ وآلام الحرب وحدهم».

عامر: «لكنّ مالقة ليست محاصَرة!».

محمد: «اليوم هي ليست محاصَرة، أمّا غدًا فنعم، فملك قشتالة لم يرضَ بهذا التّسليم من بلش مالقة، إلّا لأنّه في شوقٍ عظيم لما بعدها، وهل بعدها إلّا ذلك الثغر العظيم؟».

هزّ عامر وعلي رأسَيْهما، وفي صوتٍ واحد قالا: «سنذهب معك يا محمد، لن تخرج هذه المرّة وحدك، سنمضي معك كتفًا بكتف، وننضمّ إلى المدافعين عن المدينة، فإمّا حياةٌ بشرف وإمّا شهادةٌ تشفع لنا أمام الله».

وهكذا اتّفق الرّفقاء الثلاثة على الخروج من غرناطة باتّجاه مالقة، معاهدين الله على الثبات، فإمّا أن تُوهب لهم الحياة وإمّا جنةٌ عرضها السماوات والأرض.

مرّ يومان ليلتقي الأصحابُ مرة أخرى، بعد أن تجهّز كلٌّ منهم للحرب، وركبوا جيادهم خارجين في اتجاه مالقة، وكان آخرُ شيء سمعوه وتداوله الناسُ في غرناطة هو أمرَ تلك الرسالة الغريبة التي أرسلها أبو عبد الله الصغير إلى ملك قشتالة، يطلب منه الرأفةَ والحماية لكلّ السكان الذين نزلوا تحت حكمه، ولكلّ مكان يعلنُ تخلّيه عن حكم عمّه، مؤكدًا لملك قشتالة أن كلّ مملكة غرناطة سوف تعترف بهذه الطاعة، وهو سيقدم تلك الأماكن والقرى للتاج القشتالي! وقد قبِل الملكُ القشتالي هذا الطلب، وأعلن حمايتَه الفورية على سكان غرناطة، وسمح لهم بزراعة حقولهم بسلام، والتّجارة مع القشتاليّين في كلّ مناطقهم عدا تجارة السلاح، وقدّمت تلك الوعود نفسها إلى كلّ منطقة تعلن تخلّيها عن الزّغل، وبهذه الرسالة نجح فرناندو في تضييق الخناقِ على الزّغل، ودفع الناس إلى التخلّي عنه واللّحاق بركب الذّل والمهانة إلى حين.

***

٢٠

قلعة جبل فارو

في تأنٍّ شديد، كان يدور حامد الثغري داخل أروقةِ حصن جبل فارو، وكأنّه يعاينه أو يشاهده لأوّل مرّة، يتحرك هنا وهناك، يخرجُ من غرفة ليدخل الثانية، وهو يضع يدَه على الجدران وكأنّه يختبر صلابَتها ومدى استعدادِها لتلقّي الضربات، ثمّ يدخل أبراجَ الحصن برجًا برجًا، حتى إذا وصلَ أعلى البُرج المقابل للأسوار الخارجية، نظرَ وكأنه يعاين جيش الأعداء خارجه.

وقفَ الثغري يتخيّل شكل المعركة، دقّق النظر في الجبال والصخور المقابلة للحصن، وكأنّه يستنصرها للقتال معه.. ثمّ أخذته ذاكرته إلى أول يومٍ دخل فيه مالقة، وتعرّف فيه على حصن «جبل فارو»، وكان وقتها يتعجّب من سرّ التسمية، فقلعة جبل فارو تعني حصن جبل المنارة، فسأل عن سرّ التسمية فأخبروه أنّ هذا الحصن العظيم يرجع تاريخُ بنائه إلى القرن الرابع عشر، وكان الذي أمرَ ببنائه هو «يوسف الأول بن الأحمر» ملك مملكة غرناطة، وقد تم بناؤه على بقايا منارة فينيقية كانت تسمّى «بيت الضوء»، ومنها اشتق اسم القلعة gebel-faro أو «جبل المنارة».. تنهّد حامد وأخذَ نفسًا عميقًا، ثمّ التفت إلى ساحات مالقة من أعلى الحصن.. نظرَ مليًّا فإذا بجمْعٍ من الناس محتشدين وسط الساحة الكبيرة للاستماع إلى حديث رجلٍ سمين مربوعِ القامة طلْق اللسان، ذي تأثير في مستمِعيه، كان

هذا الرجل هو «علي دردوش» كبير تجّار المدينة التليدة، كان علي يتحدّث بأسلوبه المميّز وصوته الجَهْوري فيقول: «يا أهل مالقة، تعلمون جميعًا حرصي على مدينتكم وأرْواحكم، فهل ترضونَ أن تدمّر تلك المدينة الجميلة، وأنْ تُسبى نساؤها؟ اعلموا أنْ لا فائدة من مقاومة الجيش القشتالي الرهيب، ستُدمر مدينتُكم ويتَيَتّم أطفالكم وتهدم بيوتكم وتُحرق زروعكم، ثمّ بالنهاية يأخذون بالحرب ما لم نعْطِهم بالسلم، غير أننا سنخسر أرواحَنا وأموالنا بالحرب، أمّا الاستسلام فهو يجلب السّلام، وأنْ يحكمك ملك قوي يحفظك خيرٌ من ملك ضعيف يضيعك»! قال علي دردوش هذا الكلام وأتْبعه بنظراتٍ سريعة في وجوه الناس الذين ردّوا على كلامه بقولهم:

- «لا نريد إلّا سلامتنا وسلامة تلك المدينة».

- «إذًا.. استمِعوا إلى نصيحتي واعْملوا بها، لا فائدة من مناصبة قشتالة العداء، لذلك إذا أردتم تجْنيبَ مدينتكم ويلاتِ الحصار والدمار، فعليكم أن تعترفوا بأبي عبد الله الصغير ملكًا عليكم، فهذا سيضمن سلامة المدينة وأهلها».

تضجّ الساحة بالهرج والمرج، وترتفع الأصوات، وتعلو حدّة النقاشات بين مؤيدٍ للخضوع لأبي عبد الله الصغير، ومِن ثمّ التبعية لقشتالة؛ وبين معارضٍ لهذا التأييد ومستعدٍّ للحرب في سبيل مالقة.

يستمعُ علي دردوش إلى الجميع، ثمّ يقطعُ نقاشهم ويحسمُ أمرهم، إذ يتجه ومعه كوكبة من تجار المدينة إلى يوسف بن كماشة الذي أرسله الصغير ليحكم المدينة نائبًا عنه، فيبلغونه بوجوبِ التفاوض مع القشتاليّين وإعلان الخضوع لهم حتى تتجنّب مالقة ويلاتِ الحصار. وبعد نقاش لم يستمرّ طويلًا اتّفق الجميعُ على خروج ابن كماشة إلى حيثُ معسكر القشتاليّين القريب، يعرضُ عليهم التبعيّة، ويخبرهم بأنّ المدينة قد نبذت طاعةَ الزّغل، ودخلت في حلفِ الصغير وعهده.

حاول الثغري أن يفسّر بنظره ما يحدثُ أسفل حصنِه، ولكنه لم يتمكّن، إذ لم تكنِ الأصوات واضحة، ولكنْ على رغم ذلك فقد شعر بأنّ أمرًا جللًا قد يحدث! فهو يعرف علي دردوش جيدًا، ويعلم أنّه يبيع أي شيء وكل شيء لأجل المال، فقال في نفسه: «مالقة.. مالقة.. يجب ألّا تتكرر مأساة «رندة» ها هنا». قالها ثمّ تحرّك باتجاه سلم الحصن، حتى إذا وصل مخازنَ الطعام؛ أمرَ رجال الحصن بإعادةِ تخزين الطعام وعلفِ الدواب وخزانات المياه التي تكفي إن تعرّضت المدينة للحصار، فمعلومات حامد تقول إنّ جيش قشتالة في الطريق، لهذا وجب الاحتياطُ لكلّ الظروف. بعد هذه الجولة، نزل حامد إلى بهْو السفراء في قصره الكائن بالحصن، وقد كان الحصنُ لسِعَته يحوي مسجدًا وقصرًا للحاكم، وبضعة حوانيت، فيبدو كأنه بلدةٌ صغيرة.

بدأ الثغري يراقب تصرّفات يوسف بن كماشة عن كثب، ويتجهّز لأسوأ الظروف، وأيضًا لم يعترف الثغري بولاية يوسف، لذلك اتّخذ من قلعة حصن «جبل فارو» مملكةً صغيرة له ولقبيلته «قبيلة غمارة»، ثمّ راح يراقبُ يوسف ويحيطه بالجواسيس ينقلون إليه أخبارَه وما يحدث في قصره، فلمّا وصلته أخبار «علي دردوش» وحديثه إلى العامة ثمّ لقاء علي دردوش ويوسف بن كماشة، ثمّ خروج يوسف بن كماشة على رأس وفدٍ كبير ليتفاوض على شروط تسليم المدينة إلى القشتاليّين، تاركًا أخاه نائبًا عنه في حكم المدينة؛ استدعى الثغري كبارَ أصحابه وقادته، وعقدَ معهم مجلسًا تشاوروا فيه حوْل ما يجري من مستجدّات، وكان الجميع قد علموا بالمفاوضات القائمة بين يوسف بن كماشة وفرناندو الخامس لتسليم مالقة، فقال لهم الثغري:

- «أتذكرون رندة؟».

صالح الغماري (في لهجةٍ جادّة وصوتٍ مسموع): «وهل ينسى الرجلُ بلدَه التي وُلد فيها؟ ونحنُ وإن كنّا من غمارة، فإننا قد وُلدنا هنا ولا نعرف لنا بلدًا غيرالأندلس».

حامد: «وهذا ما أقصدُه يا صالح، فإن كانتِ الأحداث والظروف قد منعتنا يومًا من الدفاع عن «رندة»؛ فقطعًا لا شيء سيمنعنا من الدفاع عن مالقة.. بل يجب علينا ألّا نفوّت فرصة الثأر لرندة». (تتّسع عينا الثغري): «رندة التي سرقوها منّا ولم يعطونا حقّ الدفاع عنها».

يوسف الغماري: «أفصحْ أيها الأمير، أوَ مِنْ أخطارٍ تتهدّد مدينتنا؟ فمعلوماتنا أنّ الصغير حليف لملك قشتالة، ممّا يعني أنّ مالقة بعيدة عن أطماع قشتالة، ولو إلى حين».

حامد: «هذا ما أشاعه الصغير يومَ أن دعا المدن إلى اللّحاق بمعاهدته الملعونة وعهده المشئوم، حين قال إنّ كلّ مدينة أو قرية ستدخل تحت طاعته ستكون بعيدةً عن شرور القشتاليّين، وفي مأمَنٍ منهم». (يتكلم بسخريةٍ ويتابع): «لكنّ الصغير لم يكن يعلم أنّه مخدوع من ملك مخادع، لهذا لم يستطع ملكُ قشتالة أن يخفي أطماعَه، ولو إلى حين كما قلت يا يوسف، فطلب من الصغير تسليمَ المدينة مدّعيًا أن مالقة تحت حكم الزغل». ثمّ أشهر حامد سيفَه وقال: «إنْ كنّا لم نتمكن من الدفاع عن رندة، فها هي مالقة تدعونا إلى الدفاع عنها». (وقف الجميع بينما تابع حامد الكلام): «ها هي فرصتكم يا جندَ غمارة وجندَ الأندلس، فإمّا النصر وإمّا الشهادة».

حسن المالقي: «وماذا عن أهل مالقة وقد بايعوا صاحبَ غرناطة، ورضوا بتسليم المدينة؟! وماذا عن ابن كماشة وقد خرج للمفاوضات بينما نحن هنا في هذه القلعة بعيدون عن مالقة وما يجري فيها».

حامد: «أمّا أهل مالقة يا ابن زياد، فجلّهم يرفض التسليم، إذْ إنّ ألسنتهم مع محمد بن علي وقلوبَهم مع الزّغل، خاصة أولئك الذين دخلوا مالقة من مختلف المدن والقرى التي سقطت بيد القشتاليّين،

وهُم يتلهفون للعودة إلى أملاكهم التي نهَبَها القشتاليّون، لذلك فهُم مَوْتورون مثلنا، ولن يتردّدوا في دعمِ موقفنا إن نحنُ أظهرنا رفضَ التسليم ، أمّا ابن كماشة ومفاوضاته فهذه ليست قضيتنا، بل هي قضيتُه وصاحبه، أمّا نحن فلنْ نعترف بأي مفاوضات، بل لن نعترفَ بصاحب غرناطة ملكًا علينا، فالراعي هو مَن يحفظ الأرض والرعية، لا مَن يسلمها ويقبض ثمنها!».

يوسف الغماري: «لكن علي دردوش وأصحابه سيقفون بوجْهِنا!».

حامد: «إلى حين.. إلى حين يا يوسف، فهؤلاء وإنْ كانت كلمتهم مسموعة فهو لضعفِ الحاكم، أمّا إن سيطرنا نحن على الأوضاع، وأظهرنا رفضَ التسليم، فستجد هؤلاء يقبَلون رأينا، إنْ لم يكن عن اقتناعٍ، فهو الخوف من أنْ يفقدوا مكانتهم التي وصلوا إليها، فهؤلاء تحرّكهم مصالحُهم، ومصالحُهم تكون بقربهم من الحاكم أيًّا كان منهجه. هؤلاء التجار متقلّبون مع تقلّب السلطان، لهذا تجدهم يميلون إلى رأي السلطان ما دامَ فى سلطانه وملكِه!».

إبراهيم: «أوافقك الرأي يا شيخ غمارة، على أن نُعمل السيفَ فيهم إن هُم رفضوا ما نريد، إذْ يجب ألّا نناجز القشتاليّين وظهورُنا مكشوفة لهؤلاء المنافقين الخونة».

حامد: «سندعوهم إلى ما قرّرنا من رفض التسليم؛ فإنْ قبلوا فَبِها، وإلّا فأنت لهم يا إبراهيم». (يشير إلى رقبته).

اجتمع حولَ حامد الثغري مَن تبقّى معه من جند غمارة ومَن لحقهم مِن المغرب، والكثيرُ من المسلمين الفارّين من المدن الأندلسية المحتلة، والفارّين من ديون التحقيق الرهيب، وقد تيقّن هؤلاء تمامًا من عقم السلم مع القشتاليّين، فهم يعرفون ماذا يعني الاستسلام!

لذلك فقد قرّر حامد النزولَ من جبل فارو بهدوءٍ وبشكلٍ منظّم، واتّخذ من الليل ستارًا، ودخل إلى قصر المدينة، وقتل أخا يوسف بن كماشة، وكلّ مَن دافع عنه، وأصبح على مالقة الصباحُ وهي على غيْر ما نامت عليه.. وتقلّبت الأمور وصارَ الحاكم الجديد يرفضُ التسليم ويلحُّ على الدفاع.

وفي صباح اليوم التالي لقتل أخي سيد مالقة، كان خبرُ ذلك التغير لم يبلغ كلّ أهل مالقة، لهذا كانت أسواقهم وحياتهم تسير بشكلٍ عادي جدًّا، بل لم يصلِ الخبرُ إلى كبير تجّار المدينة «علي دردوش» الذي كان يتجهّز في هذا الوقت للذهابِ إلى قصر الحاكم ومعه واحدٌ من تجار المغرب الكبار، وقد دأبَ علي دردوش على مرافقةِ كبار التجار الزائرين لمالقة إلى الحاكم ليكرمهم، وفي زحمة السّوق وقف علي دردوش يخاطب عامّة المالقيّين:

«يا أهلَ مالقة، يا أهلَ مالقة، اسمعوا وعُوا.. فأنتم تعلمون أني أكثرُكم أموالًا، وسُفني راسيةٌ في كلّ الموانئ الإسلامية والقشتاليّة أيضًا، وقد كنت قادرًا- ومازلت- على ترك مالقة والذهاب إلى عدوة المغرب أو مصر أو الشام، والإقامة هناك في عزٍّ ورفاهية،

وكيف لا وأموالي تكفلُ لي ذلك!؟ لكني لنْ أفعل، لن أتركَكم تواجهون مصيرَكم بمفردكم، لنْ أرحل وسأبقى وفاءً لكم ولمالقة مدينتي، ولقد أحسنَ والينا يوسف بن كماشة حينما استمع إلى نُصحنا، فخرج ليتفاوضَ مع ملك قشتالة على عهود الصداقة والمودّة، فمحالفةُ القشتاليّين ومعاهدتهم، تكْفلان لنا رغدَ العيش والحياة في سلام وأمان».

يتحدّث حامد بن فرحون (وهو واحدٌ من عامّة أهل مالقة متسائلًا): «عهود الصدْق والمودّة أمْ عهودُ الخنوع والاسْتسلام يا علي!؟».

علي دردوش: «بل عهود السلم التي ستمنع عنّا حربًا وخرابًا نحن في غنًى عنه»، (يوجّه حديثه مرة أخرى إلى عامّة أهل مالقة): «ولكم أن تتخيّلوا ما ستنالونه من القصر القشتالي نظيرَ طاعته والدخولِ في ظلّه وحمايته ورايته». (يحرّك يديه في الهواء): «سننعمُ جميعًا بالسلام في ممتلكاتنا، وسيفتحُ لنا ذلك السلام أبوابَ التجارة مع القشتاليّين من دون مكوس أو مضايقات».

حامد بن فرحون: «لا أراك يا علي إلّا باحثًا عن المال، ولا أحسبك تحبّ مالقة.. بل تحبّ أموالها، وأنّك تفعل ما تفعل الآنَ خوفًا على تجارتك أن يصيبها الخرابُ والكساد».

علي دردوش: «وما الضيرُ في أنْ يحافظ الرجلُ على ماله؟!».

حامد بن فرحون: «لا ضير، إلّا إنْ كان ذلك على حساب دينِه ووطنه».

علي دردوش: «دعْكَ من هذه الشعارات الفارغة التي لن تقدّم أو تؤخّر».

حامد بن فرحون: «بل ستقدِّم يا علي. (ثمّ ينادي بأعلى صوته): «يا أهلَ مالقة، إنّني ذاهب إلى حصن جبل فارو لأبايعَ مولاي الزّغل وواليه هناك، فمَن أراد العزّة لنفسه ولدينِه ولأرضه فليتبعني، أمّا مَن أراد الذّل والهوان فليستمعْ إلى هذا المنافق».

تختلطُ الأصوات وتتعالى وتكثرُ الأحاديث وتتقاطَع، ويزيدُ الهرج والمرج، لا يُسكتُ ذلك كلّه سوى كوكبة من العساكر آتية من جهة قصر الوالي، يتقدّمهم شيخٌ طاعن في السن، وجميعُهم آتون صوبَ السوق. يصمت الجميعُ في انتظار المُقبلين، وما هي إلّا لحظات حتى تتّضح الوجوه، فإذا بحامد الثغري وإبراهيم الزيناني وحسن بن زياد ومعهم جمعٌ مِن العساكر.

يشدّ الثغري رسنَ جواده فيقف، ثمّ يتحدّث إلى جموع المالقيّين.

: «يا أهل مالقة، تعلمون جميعًا أنّ الخائن يوسف بن كماشة قد خرج من المدينة ليتفاوضَ على تسليمها للقشتاليّين، فهل ترضون أن تكونوا تبعًا للقشتاليّين؟ هل تقبلون أنْ تصير مساجدُكم كنائس، وتدنّسها سنابك خيلهم، وتدقّ فيها الأجراس عاليًا، ويخفتُ

صوتُ الأذان؟ لا والله. إنّ باطن الأرض وقتَها خيرٌ من ظاهرها، ولأنْ يكون لي قبرٌ في مالقة خيرٌ لي من أن يكون لي قصرٌ فيها وهي تحتَ حكم القشتاليّين، ألَا إني قد قرّرت مجابهةَ القشتاليّين وحربَهم، فمَن منكم مستعدّ للذّود عن شرف الأندلس ومَن منكم يتوقُ إلى الشهادة في سبيل الله؟».

تعلو الأصوات ويستبشرُ الجميع، بعدما سرتْ كلمات حامد في قلوبهم وعروقهم مسْرى الدم، فملأتْهم حماسةً للقتال والجهاد، لذلك نسوا كلامَ علي دردوش الذي وقف صامتًا، وراحوا يردّدون: «نحن معك يا شيخ غمارة، فاقضِ ما أنتَ به قاضٍ».

اكتأبَ وجهُ علي دردوش، ولكنّه حاول التظاهرَ بغير ذلك، بل واصطنع ملامحَ الاستبشار والسعادة، وبدا كأنه يباركُ الخروج إلى الجهاد!

إبراهيم الزيناني: «إنّ استسلام مالقة يعني أنْ يُقتَل الرجال وتُسبَى النساء والذرية.. ألا إنّي أول مبايعٍ لك يا شيخ غمارة، وخلفي جموعٌ من المغاربة الذين قطعوا البحر لينالوا الشهادة ها هنا، الشهادة فقط، وليس عرَضًا من عروض الدنيا الزائلة».

وبينما تتعالى هتافاتُ الجموع وهي تصدعُ مردّدة: «الله أكبر.. الله أكبر»، يظهرُ حسن بن زياد من بين صفوف الملأ وهو يهتفُ بصوت جَهْوَري: «وأنا أبايعك أيّها الأمير، فإمّا نصر يُعزّنا ويُعلي ديننا، وإمّا شهادة في سبيل الله».

توالت جموعُ المبايعين، وسرتْ في مالقة روحٌ جديدة من المقاومة وحبّ الجهاد، واستبشر الجميع بهذا الرجل الذي نزل من جبل فارو ليمسح عنهم العار الذي أوشك أن يلحقَ بهم إن سلَّموا المدينة بغير قتال.

ووسط كلّ هذا رمقَ إبراهيمُ الزيناني علي دردوش بنظرة تشتعل غضبًا حتى بدا كأنّما يريد أن يقتله، ثمّ نظرَ إلى حامد الثغري الذي بدوره كان يحدجُ في علي بنظرةٍ حادّة ووجْهٍ عَبوس، ما أدخل الجزع في قلبِ علي، فسَرت في جسده الرّجفة، ليبادره الثغري بالكلامِ هو وأصحابه التّجار، قائلاً لهم: «مَن منكم موالٍ لمولاي أبي عبدِ الله الزّغل ومبايعٌ له؟!».

علي دردوش (يتحدّث وهو مرتاع): «جميعنا تبعٌ لكم يا سيدي، ولمولانا الزّغل».

حامد الثغرى: «حسنًا، ومَن منكم مستعدٌّ لأن يثبت هذا الولاء لمليكه بالدّفاع عن مالقة حتى النهاية؟».

علي دردوش: «جميعُنا فداءٌ لها يا سيدي».

حامد الثغري: «فاعْلموا إذًا.. أنّ يوسف بن كماشة وأخاه قد خانا الملك وخانوكم، عندما تفاوضوا على تسليمِ المدينة، ولهذا فقد حقّ عليهم القتل، وقد قتلْنا أخا يوسف، أمّا يوسف نفسُه فإنْ عاد فسيكونُ عبرةً لكلّ خائن».

***

.٣٠

الجاسوس الخائن

عسكر فرناندو الخامس بالقرب من «مالقة»، حيث اجتمعتْ جيوش قشتالة وأراجون، وكانَ المعسكر يموجُ بالجنود والسلاح والعتاد والمتطوّعة من كلّ مكان، ووسط المعسكر أقيمتِ الخيمة الملكية يعْلوها الصليبُ الأكبر، وبالقربِ منها جلس جنديّان على الرّمال، وهُما يتجاذبان أطرافَ الحديث بصوتٍ مسموع.

فرويلة (يقلّب الحصَى بخنجره): «لقد خابَ أملي في بلش مالقة، فلمْ أظفر منها بأيّ شيء سوى القليل مِن المال، وأنا الذي حلمتُ كثيرًا بنسائها».

ألفونس (يجيبه وهو لا يزالُ ينظر إلى الأمام): «لستَ وحدَك يا صديقي، فأنا أيضًا لم أكنْ لأتخيّل أنّ الملك يؤمِّن أهلَ هذه المدينة، بل يسمح لهم بالخروج منها بهذه الطريقة، لكنْ زالَ استهجاني عندما علمتُ بنيّة مليكنا في الزّحف على مالقة، إذْ تيقّنت وقتَها أنه ما أعطى أهلَ بلش مالقة كلّ هذه الشروط والْتزم بها، إلّا ليخلُّوا بينه وبين مالقة نفسها، فهي الهدفُ الآن والغاية».

فرويلة: «لكنّ مالقة خرجتْ على الزّغل، ولحقتْ بأبي عبد الله الصغير، وهذا يعني دخولَها في الحلْف القائم بين مولانا فرناندو وبين ملكِ غرناطة، إذًا.. كيف لنا أن نغزوها وقدْ قرّر الملك مُسبقًا

أنه لن يغزو أرضًا تتبع ملك غرناطة وفقًا للعهود المكتوبة!؟».

ألفونس: «ليست كلّ مالقة مؤيدةً لأبي عبد الله الصغير، وهذا ما جعل ملكنا فرناندو يرفضُ هدايا صاحبِ مالقة، بحجّة أنّ صاحب حصن جبل فارو مؤيّد للزّغل، وهذا في حدّ ذاته يعدّ إعلانًا للحرب- يتنهّد- أبشر إذًا يا صديقي، فقريبًا ستحقّق ما ترنو إليه مِن نساء وجوارٍ، فنساءُ مالقة بارعات في الحسن والجمال».

فرويلة: «ما أجملَ هذا الحديث وأعذبَه (يتنهّد في شوقٍ عظيم ثمّ يتابع كلامَه): «أتعلَم يا صديقي.. إنّ كلماتك هذه هي التي تجعلني أصبرُ على المكوث في هذا المعسكر، وقد كنتُ ملَلْته».

يضحك ألفونس بصوتٍ مُرتفع ويقول: «إذًا، فلتأتِ إليّ كلما شعرت بالمَلَل؛ لأقدّم لك المزيد أُنعشُ به قلبَك اليتيم، فأنا أيضًا أحبّ الحديث عن النّساء؛ لأنهنّ يسرقن الوقتَ ويقتلْن الملل، ويشغلنَ القلبَ والعقل معًا، وهذا بالحديثِ عنهنّ، فكيف بوجودهن؟!».

وبينما يتجاذبُ الاثنان أطرافَ الحديث إذْ يمرّ أمامهم مركيز قادش، وهو يتّجه إلى الخيمةِ الملكيّة، فيقطع الصديقان حديثَهما ويتمرْكَزان كلٌّ في مكانِ حراسته.

أرسلَ أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة رسالةً إلى فرناندو الخامس، يجدّد فيها عهودَه، ويعترف بطاعتِه، ويعتذرُ في الرسالة عن قتلَى قشتالة الذين فتكَ بهم عمّه الزّغل، وينْعاهم ويذرفُ

لأجلِهم الدّموع، كما يدعوه في الرسالةِ ويرْجوه أنْ يغزو مالقة بعدما خرجت عليه، وأعلنت الطاعة لعمّه، ويتعهّد في الرسالة بتقديم جميعِ المُساعدات وتسهيل مُرور الجيش القشتالي عبْر أراضي مملكة غرناطة، وتوفير المؤن لكلّ قوات الجيش، والعلوفة لدوابّه. كان وقع الرسالة صادمًا للبلاط القشتالي، إذْ لم يتوقّع أحد منهم أن تصلَ الأمور بأبي عبد الله الصغير إلى هذا الحدّ.. إلى حدّ التشفي بعمّه والتّحريض عليه وعلى مُسلمي مالقة معه، ولكنْ على رغم ذلك، فقد أظهرت تلك الرسالة الحالةَ المثيرة للرثاء التي وصلت إليها أندلس المسلمين، واستحالة تجمّع كلمتهم، كما أظهرت أيضًا خُبث فرناندو، وسذاجة الصغير الذي وثقَ بالقشتاليّين وسلّم لهم، ووضع نفسَه في معزل عن الأحداث بعدما تصوّر أنّ القشتاليّين سيحفظون عهودَهم معه، وأنهم سيتركونَه حاكمًا باسمهم!

ناقش فرناندو أمرَ الرسالة مع كبارِ مستشاريه، فتحدّث كلّ واحد منهم برأيه، وبدأ دوق فيلا هيرموسا وهو الأخ غير الشرعي لفرناندو فقال: «ربّما في الأمر خدعة يا مولاي! إذْ إنه من الصعبِ تَصْديق رسالة كهذه، خاصّة أنّ مالقة- ماعدا حصن جبل فارو- تخضع للصغير، فهل يُعقل أن يضحي بكلّ المدينة مِن أجل ذاك الحصن الصغير؟! ربّما كان يجبُ علينا التّصديق لو أنّه دعانا إلى غزو حصن جبل فارو من دون بقية المدينة».

يبتسم فرناندو وهو ينظر إلى أخيه ويستمعُ إلى حديثه، ثمّ يقول له: «هذا لأنّك غير متابعٍ للأحداث أيّها الدوق، فقد خرج صاحبُ حصن جبل فارو على صاحب مالقة وقتلَه، ثمّ دعا للزّغل، ممّا أجّج مشاعر الصغير فراح يكيد لعمّه (يقهقه فرناندو ويسترخي على كرسيه، ثمّ يعاود النظر إلى دوق فيلا هيرموسا ويقول له): «مَن خبِر أبا عبد الله الصغير وتعامل معه، يعلم صدق تلك الرسالة».

مركيز قادش: «هذا يعني أنّ الصغير غضبَ من مالقة وسكانها فقرّر أن يعاقبهم بنا! ويعني أيضًا أنّ مالقة أصبحت صعبةَ المنال، فحامد الثغري لن يفرّط فيها بسهولة، ولن يتركها لنا من دون بذل عزيز الدماء!».

يتعجّب دوق فيلا هيرموسا من حديث مركيز قادش مستنكرًا، إذ إنه لا يرى سببًا لتفخيم حامد الثغري أو الخوف منه، وكيف يفعلون وقد هزموا سيده الزّغل من قبل، بل وأسروا الصغير أيضًا، فهل بعد كلّ ذلك يخشون الثغري أو غيره؟ فيردّ عليه مركيز قادش بقوله: «هذا الذي لو رأيته لتمنّيت أن يكون مثله معنا».

دوق فيلا هيرموسا: «ألا ترى أنّك تبالغ قليلًا يا رودريغو، أو ربما كثيرًا؟!».

مركيز قادش: «إطلاقًا، ومولاي يعلم أنني أعطي كلّ ذي حق حقّه، وإني أرى أنّ حامد والزّغل ومِن قبلهما علي العطّار هم رجالُ الجزيرة، فإن قُتِل علي العطّار فمازال هناك الزّغل والثغري!».

يتدخّل فرناندو في الحديث وهو يؤيّد كلام مركيز قادش قائلًا: «أمّا الزّغل، فسوف نشغله بالصغير، وبهذا نعزله تمامًا عن تلك الحرب، وأمّا الثغري فلنْ نعطيه الفرصة، وسنجهز عليه قبل أن يتمكّن من جمع قواته.. سنرسل إلى الصغير أنْ يستطلع الأخبار، ويقف في وجه عمّه الزّغل، إن هو فكّر أو قرّر الزحف علينا إذا طال بنا الحصار، حتى لا يفاجئنا كما فعلَ في بلش مالقة، وبهذا نستخدم الصغير ونحتاطُ من هجمات الزّغل، فنكون أحرارًا في حصارنا لمالقة!».

مركيز قادش: «هل يسمح لي مولاي الملك، فإن لديّ رأيًا مختلفًا بعض الشيء؟».

فرناندو: «تكلّم يا رودريغو، لا بأس عليك».

مركيز قادش: «إذا نحن تقدّمنا الآن وحاصرنا المدينة، فسوف نجمعُ الناس حول الثغري لقتالنا، إذْ إنهم سيثورون لكرامتِهم، وسيلتفون حول الثغري، كعادة المسلمين حين تشتدّ بهم الأزمات، لذلك يا سيدي أقترح أن نرسلَ إلى الثغري وقادته أولًا، نعرض عليهم الأموال والضياع والألقاب إن هُم تزحزحوا عن موقفهم وسلّموا لنا المدينة، مع عهدٍ من مولاي الملك أنْ يؤمِّن أهل مالقة في أموالهم ونسائهم، كما حدث في بلش مالقة؛ فإنْ وافق الثغري وقادتُه فبِها ونعمت، وإلّا فسنكون قد أضعفنا أنفسهم بأنْ أوجدنا لهم البديل عن الحرب يفكّرون فيه إذا اشتد الحصارعليهم، وهذا القسم الأول من الخطة».

يستمع فرناندو إلى الخطة، وكلّه إعجاب بحديث مركيز قادش، الذي يكملُ فيقول: «سيرفض الثغري وربما قادتُه أيضًا التسليم، لذلك سنتحوّل إلى الشعب، ونستخدم في ذلك كبار التجّار بعد أن نُغريهم بالأموال والضِّياع. نعرض عليهم أنْ يسلموا المدينة ويتحدّثوا إلى عامة الشعب في ذلك، ونبيّن لهم أن في الاستسلام سلامتَهم، وأننا إنّما نريدُ المدينة فقط، فإنْ سلّموها لنا فسنعفو عنهم ونتركهم يرحلون عنها، وإلّا فالقتل والتّنكيل جزاءُ من يرفض. وبذلك يا سيدي سينقسم الشعبُ بين مؤيّد للثغري وناقمٍ عليه، وهذا سيضعفه ويجعله لا يأمنُ كثيرًا لشعبه، فيفتُّ ذلك في عضدِه!».

يعود فرناندو إلى الوراء مسترخيًا في كرسيِّه، ويصمت لحظات متأملًا، قبل أن يقول: «نعمَ الرأي، وإن كان في تنفيذِه بعض المشقّة، إذ إن مِن السهل علينا أنْ نراسل الثغري، لكن كيف لنا أنْ نراسل تجّار مالقة وشعبها؟ كيف لرسولنا أن ينفذَ إلى التجار ويتحدّث إليهم ويكون في مأمن مِن عيون الثغري ورجالِه وشرطته؟».

مركيز قادش: «لقد تعوّدنا عند نزول الأزمات أن نرى ضعافَ النفوس من الشعوب المهزومة تطفو وتخرج وتحجزُ لنفسها المكانَ السهل، ولا تتردّد في بيع الغالي والنفيس مقابلَ المال والأمان، ولحُسْن الحظ يا سيدي فقد وقعتُ على رجليْن وضيعين من مدينة بلش مالقة يمكنهما أن يؤدّيا لنا ما نريد نظيرَ مبالغ مالية ندفعها لهم،

وهُما لا يجدان أيّ غضاضة في التعامل معنا مقابل المال.. لذلك سأستخدمُهما كرسولَيْن إنْ سمح لي سيدي الملك. واحدٌ منهم يذهب إلى الثغري، والثاني إلى التّجار، إذ إنه سيدخل المدينة كمسلمٍ عادي فارٍّ من بلش مالقة».

يطرب فرناندو من حديث مركيز قادش، ثمّ يقول له: «أرسل إلى الثغري، واعرضْ عليه إنْ هو سلّمنا المدينة، أن نمنحَه حصن ذكوين و٤٠٠٠ دينارًا ذهبيًّا، ولقادته نظيرُ هذا المبلغ من المال، أمّا أهل المدينة، فخيّرهم بين التسليم والحياة أو الرقّ والقتل إن أخذناها عُنوة. لقد خولتُك إتمام المهمة يا رودريغو، فأتِمَّ الاتّفاق عني».

أومأ مركيز قادش برأسه، ثمّ خرج لإتمام المهمة، وتحتَ جنح ظلام الليل، وعلى أحدِ جوانب المعسكر الْتقى مركيز قادش فارسًا ملثمًا لا يظهر مِن وجهه غيرُ عينيه، اقتربَ المركيز من الفارس، فبادر هذا الأخير بنزع لثامِه ودار حوار بين الاثنين بصوت خافت.

مركيز قادش (بنبرة تفيض خبثًا ودهاءً): «تعلم أنّنا قادرون على حصار مالقة، وإجبارها على التسليم، بل وقتْل كلّ أهلها إن أردنا، ولكننا لا نريد إراقة الدماء، لا نريد قتلَكم وترميلَ نسائكم، بل فقط نريد مدينتنا التي تحت أيديكم، وأنتم لا قِبل لكم بحرْبِنا، لهذا وحرصًا منّا على دمائكم أريدُك يا زياد أن تكون رسولَ سلام بيننا وبين أهلك في مالقة، أخبرهم بعبثية مقاومتهم لنا، وبأنّه يتعيّن عليهم التسليم لنا إذا أرادوا لأنفسهم الاحتفاظ بحياتهم، فالاستسلام وحدَه هو الذي سيصونُ أرواحكم ويُبقي على أموالكم».

زياد: «سأفعل كلّ ما في وسعي من أجلِ ذلك يا سيدي، سأحاول جاهدًا إقناعَ الثغري وقادته بالتسليم».

كان مركيز قادش يعلم أنّ الثغري يجلّه ويكنّ له الكثيرَ من الاحترام، لذلك نزل عن جواده وخلع رمحَه ودرعَه وسلّمهما لزياد، قائلًا له: «البس الدرعَ وأبرزِ الرمح، فسوف يسهّلان الأمر عليك».

زياد: «كما تأمرُ يا سيدي».

مركيز قادش: «بعد أن تلتقي الثغري عرِّج على كبير التّجار علي دردوش، واعرض عليه وبقية التّجار مثلما ستعرضُ على الثغري. هذا إن رفض الثغري الاستسلام. وبهذا تصلُ رسالة السلام للجميع، السلام الذي جاء به يسوعُ المسيح».

زياد: «نِعْم الرأي يا سيدي».

مركيز قادش: «خذ هذه الأموال معك (يشير بيديه إلى كيسٍ كبير من الذهب)، ووزّعه على قادة حامد وكبار مستشاريه، ولا تنسَ أنّك رسول سلام فأدِّ المهمة كما يليق، وتذكّر أننا لا ننسى مَن يحسن معنا صنعًا، وتذكّر أيضًا أنّك رسول للمحبة التي بشّر بها يسوع المسيح».

***

.٤٠.

بعد أنْ تخلّص من حاكم المدينة الموالي لأبي عبد الله الصغير، قام فخطب في الناس ليستحثّهم على بذل النفس والدماء دفاعًا عن مدينتهم وكرامتهم، فتشجّع الكثيرون منهم وحملوا السلاح. ارتفعت الروح المعنوية لأهل مالقة وأصبح الجهادُ مبلغَ همّهم ومحورَ حديثهم، وتسابق الجميعُ على حمل السلاح والتدرّب عليه، أمّا علي دردوش فقد حمل أيضًا السلاح، وأعلن طاعتَه لحامد الثغري، ولكنّها كانت طاعة في الظاهر فقط، أمّا في الخفاء فقد كانَ علي دردوش يُكن كلّ حقدٍ تجاه الثغري، وكلِّ مَن حملَ السلاح، وكان يرى في المقاومة كسادًا وخرابًا لتجارته.

بعد أيامٍ عجّت المدينة بحمَلة السلاح، وصارت مالقة وأبراجها الثمانون مسرحًا كبيرًا لكلّ الأسلحة والمعدّات، فهناك مجموعة من الجنود تسيطر على حصن جبل فارو وتراقب مِن فوقه الطرقات، ومعهم الكثير من قِرب القار والنفط المغلي، وهُم يستعدون لصبّ تلك الحِمَم على رأس أي قشتالي يقتربُ من حصنهم، وهكذا على بقيّة الأبراج والأسوار، أمّا حامد فقد كان يتنقّل من حصن إلى آخر، ومن برج لغيره، كي يراقب العمل، ويشدّ من أزْر الجند، ويضع الخطط المناسبة، وبعد تفكير ودراسة وصل الثغري إلى اقتناع بأنّ القشتاليّين لن يستطيعوا الوصول إلى المدينة إلّا من أحد طريقين هُما الممَرّ الضيّق أمام الأسوار أو البحر، لذلك أمرَ مِن فوْره قائده

«حسن بن زياد» بحماية الممرّ، فانطلق بن زياد ومعه ثلاثُ كتائب مختارَة ليغلق الممرّ في وجه القشتاليّين، وأقسمَ أنّ مرور القشتاليّين من الممرّ لن يكون إلّا فوق جثته هو وجنوده، ثمّ لإحكام الدفاع أمرَ الثغريُّ بأن يذهب المتطوّعة بقيادة «محمد العطّار» و«حامد بن فرحون» إلى الشاطئ، وأمرهم بأنْ يقيموا التّحصينات وينصبوا المدافع هناك، لإغراق كلّ سفينة تقترب من الشاطئ.

وهكذا وزّع الثغري رجاله، ثمّ راح يتنقّل بينهم، يتابع من قُربٍ حركةَ الأحداث، يرافقه في ذلك إبراهيم الزيناني

أمّا جيش فرناندو فقد تحرّك برًّا وبحرًا، إذ كانت الخطةُ تقتضي منع كلّ وسائلِ النّجدات من الاقتراب من مالقة، لذلك فقدْ خرجت كلّ السفن القشتالية مسلحةً بآلاف الرجال، والبنادق الطويلة والمدافع الصغيرة لحصار مالقة من البحر، إلى حدٍّ أنّ شاطئ مالقة اكتسى آلافَ الأشرعة، ومع ذلك ظلّت تلك السفن بعيدةً عن الشاطئ مخافةَ أن تُغرقها مدافعُ المسلمين المتربّصين لها.

أمّا على البر، فقد تقدّمت قوات غاليسيا وهي تحاول تسلّق الجبل القريب مِن البحر، في الوقت الذي كانت خيولُ الحرس الملكي تهاجم قواتِ المسلمين الرابضة لحماية المَمرّ.

اشتبكت قواتُ حسن بن زياد مع قوات القشتاليّين المتقدّمة لاحتلال الممرّ، ودافعَ المسلمون عن مواقعهم دفاعَ الأسود عن عُرُنها، وقاوموا ببسالةٍ شرسةٍ جحافلَ الغاليّين، فهزموهم، ودفعوهم

إلى التراجع مرارًا وتكرارًا، ولكنّ الغاليّين كانوا يعاودون الهجومَ مدعومِين بقوات مِن الفرسان مستغلّين زيادتهم العدديّة الهائلة.

وهكذا ظلّ الصراع على الممرّ إلى أن انقضى نصفُ النهار، حتى نفِدت الذخيرة من الجانبين، فألقى كثيرٌ مِن حملة البنادق بنادقهم، واشتبكوا مع المدافعين بالسّيوف والخناجر، والنّشاب، وعلى رغم تفوقهم عددًا وعدةً لم يستطعِ القشتاليّون أنْ يُحرزوا أي تقدّمٍ ملحوظ، وقد كان القتالُ على الممرّ قتالًا من دون أسر! إذْ عمدَ القشتاليّون إلى ذبح كلّ أسير أو مُستسلم حتى تكدّست الجثث من جنود وخيلٍ وبغال، لتغلق ذلك الممرّ الضيق الوعْر، وفشلت كلّ محاولات القشتاليّين لاحتلال الممرّ أو الإيغال فيه، بل صارَ احتلالُه ضربًا من الخيال، إذْ كان ضيقه يجبرُ القشتاليّين على القتال بأعدادٍ قليلة، فيتلقّفهم المسلمون ويُعملون فيهم آلةَ الفناء.

كان مركيز قادش يتابع مجريات الأمور، وقد ضاق ذرعًا بفشل جيشه في احتلال الممرّ، وما أثار حفيظته بشدّة كثرةُ القتلى في جيشه هناك، فامتطَى المركيز حصانَه، محاولًا الاقتراب من الممر، فرشقه أحدُ الجنود المسلمين بسهم ما كان ليخطئه لولا حالتْ درع المركيز دونه، فانسحبَ من فوْره وعادَ أدراجه إلى مكانه الأول، فإذا بالمتسلّق «أورتيغا» يتقدّم نحوه ومعه «دي موندیزا» و «دي لافيغا»، وعرض الثلاثة على مركيز قادش تسلّق الجبل المنحدر الذي يشرف على الممرّ، ثمّ تثبيت سلالم لتصعدَ كتيبة مختارَة، يفاجئ جنودُها المسلمين مِن خلفهم.

لم يتردّد مركيز قادش، بل أمرهم بالإسراع في إنجاز المهمّة، وبعد أقل من ساعة، نجح المتسلّقون القشتاليّون في تسلّق الجبل المنحدر الذي يشرف على الممرّ، وتقدموا وهُم يحملون سبعةَ أعلام لهم نحو المسلمين الذين فوجئوا بظهور القشتاليّين من تلك الناحية الآمنة، فأخذتهم الرجفة وزاغت أبصارُهم من المفاجئة، فقد جاءهم القشتاليّون من حيث لم يكونوا يحتسبون، وتحت وقع المفاجأة فرّ بعض المدافعين وتركوا أماكنَهم، فحاول حسن بن زياد أن يَثني المدافعين عن فِرارهم، ولكنّ محاولاته ذهبت طيَّ العاصفة، فلم يجدِ الرجل مناصًا من التقدّم بنفسه ليشتبك مع المتسلّقين بجسارةٍ وشجاعة لا مزيدَ عليهما، وضغط عليهم بشدّة، ومزقهم كلّ ممزَّق وقتل منهم جندًا كثيرًا، إلى أن قذف أحدُ الجنود القشتاليّين واسمه «لويس مازندو» بنفسه وسط الغماريّين ليغرز علمَه في مرتفع بينهم، فكان لهذا الفعل من لويس مازندو الأثرُ الكبير في القشتاليّين الذين انطلقوا في إثْره، وذهبوا يقاتلون فيثخنون في القتال.

أمّا جندُ المسلمين فقد سُقط في أيديهم، ورأوا أنّ غرز تلك الراية نذيرٌ بتراجعهم وإرهاصٌ لهزيمتهم، ففُتَّ في عضدهم. ونظرًا إلى الكثرة التي امتازَ بها القشتاليّون المهاجمون في العددِ والعدّة، فقد استطاعوا بمرور الوقت احتلالَ الممر، ولكنْ بعدما فقدوا زهرةَ جنودهم. وتحت هديرِ الطّلقات وكثافة المهاجمين القشتاليّين اضطرّ حسن بن زياد إلى التّراجع حيثُ حصن جبل فارو، وهو يكادُ يموت ألمًا وحسرة ممّا حدث.

ومع شروق الشمس، تدفّق الجيش القشتاليُّ نحو أسوار المدينة عبْر الممر، وهو ينظم صفوفَه ويأخذ مواقعه أمام كلّ مرتفع، بينما فرناندو المذهول بجمال المدينة وقفَ مع قادته، ليحدّد لكلّ قائدٍ منهم دورَه المقبل وموقعه، وهو لا يكاد يصدّق ما تراه عيناه من جَمال مالقة وروعتها وأبراجها الضخمة وقصورِها العظيمة، حتى امتلأت نفسُه بمشاعر المهابة والإجلال لهؤلاء المسلمين العظماء الذين بنوا تلك القصور وشيّدوها، لكنه عاد فحدّث نفسه بأنّ عظمة أولئك المسلمين السابقين كانت مرهونةً بهم أنفسهم، وليست سلسالًا متّصلًا عبْر أجيالهم، فقد مرّ الزمن، ولم يصبح الأحفاد بعظمة الأجداد؛ لذلك حقّ لقشتالة أن تسلبَسهم ذاك النعيم!

أفاق فرناندو من استغراقه، عائدًا لتخطيطِ الميدان للمعركة المقبلة، ولأهمية الممرّ فقد أمرَ بأن يكون مركيز قادش على رأس القوة التي ستغلقُه، فتوجّه المركيز على رأس ألفٍ وخمسمائة فارس وأربعة عشر ألف راجل أغلق بهم الممرّ تمامًا، كما أُوكلَ إلى المركيز أيضًا الجبل المطلّ على حصن جبل فارو. وبذلك طوّق القشتاليّون المدينة، وأقاموا عليها مخيماتٍ على شكلِ شبه دائرة، بينما ظهر الأسطولُ في البحر ليمنع أيّ نجداتٍ قد تأتي مِن عدوة المغرب إحكامًا للحصار. وانشغل الجيش القشتالي بمزيدٍ من الاستعدادات، فالكل يجهز نفسه للمعركة التالية. فالحدادون يُثبّتون المدافع، والنّجارون يُركِّبون العرادات التي ستقصف المدينة وتهاجم الأبواب، بينما يحضّر حَملة

النار الإغريقية الزيت في كُراتهم التي سيقذفونها على المدينة عازمين على حرْقها.

حاول الثغري مرارًا منعَ تلك التجهيزات، فكان يأمر قواتِه بإطلاق النار بكثافة على حفرة الخنادق، وقد استطاع بالفعل تأخير التجهيزات والقضاء على بعضها، بل إنّ فرناندو اضطر تحت كثافة ضربات المدافعين إلى أنْ ينقلَ خيمته الملكية، بعدما كادت تحترقُ من نيران مدافع المسلمين.

وبينما الثغري وإبراهيم الزيناني يطالعان جيش قشتالة من أعلى الأسوار إذا بعلي دردوش ومعه بعض التجّار يتقدّمون جهة الثغري، وهُم يرتدون ملابس الحرب.

علي دردوش: «السلام عليك أيّها الأمير».

حامد: «وعليكم السلام ورحمة الله، لمَ تركتم أماكنَ حراستكم؟».

علي دردوش: «لقد وجدنا أنّ مِن حق الأمير علينا النّصح، فجئنا له ناصحين، وذلك بعد أنِ استطاع جيش قشتالة السيطرة على الممر، ومن ثمّ الوصول بجيشهم إلى الأسوار».

إبراهيم الزيناني (يقاطعه بلهجةٍ حادّة تعكس نظرته لعلي كخائنٍ للدين): «أوجز في حديثك يا علي، فلا وقت لدينا لنقاشك».

علي دردوش: «أيها الأمير. ما الجدوى من هذه الحرب بعد أنِ احتلّ القشتاليّون الممر!؟ ألا نُسلِّم فنَسْلم ونحفظ أموالنا ونساءنا؟».

حامد الثغري: «أمَا والله لو أردتُ التّسليم وعرَضَ الدنيا لكنتُ قبلتُ عرضَ فرناندو يوم أرسل إلي يعرض عليَّ المال والضِّياع والذهب، إضافةً إلى حصن ذكوين لي ولأولادي من بعدي، ولكني آثرتُ الحرب في سبيل الله على أن أخون بلدي وديني».

علي دردوش: «لا نشكّك في نواياك يا سيدي، ولكنّ الوضع الآن مختلفٌ ويحتاج إلى الحكمة أكثرَ من الشجاعة!».

حامد الثغري: «الوضع كما هو يا علي، بل ربّما هو أفضل من قبْل، فقد نجح حسن بن زياد ومَن معه في إلحاق أولَى الهزائم بالقشتاليّين، وأزهقوا منهم المئات، فلم يصل القشتاليّون إلى الممرّ إلّا على جثث جنودهم ورجالهم».

علي دردوش: «أيها الأمير، لن يترك القشتاليّون المدينة مهما بلغت خسائرهم».

يحتدّ حامد غاضبًا، وقد كان من قبْلُ يتحدّث في هدوء، فيقول: «اسمع يا علي، لن يكون باطل القشتاليّين أشدَّ مِن حقنا، أمّا هذه الحرب فلن تتوقف إلّا بموتي، أو أنْ أُعذر أمام الله. إنني هنا للدفاع عن هذه المدينة لا لتسليمها، فاحذرْ أن تحدّثني مرة أخرى في أمرٍ كهذا».

ما كاد حامد يَفرغ مِن كلامه هذا حتى استدار معطيًا ظهره لعلي دردوش الذي ذهب مبتعدًا.

إبراهيم: «لقد أشرتُ عليك من قبلُ بقتلهم، فهؤلاء التجّار قلوبهم علينا، ولو استطاعوا لجمعوا سيوفَهم مع سيوف القشتاليّين».

حامد الثغري: «لا يا إبراهيم، لن نقتلهم فينقسم علينا مَن هو معنا اليوم، أو يتعاطف معهم مَن كان ضدّهم، فنخرج منها خاسرين، ولكن إنْ كتب الله لي لأبطشنّ بهم بطشة جبارٍ عنيد!».

إبراهيم: «كما ترى يا شيخ غمارة».

يعود القائدان ليتابعا أحوالَ الجيش القشتالي من أعلى السور، ويتشاورا حول الترتيبات المقبلة.

حامد الثغري: «أريدك أن تخرجَ هذه الليلة على رأس ألفيْن من جنودنا لتباغتَ بهم معسكر فرناندو، وتفتكَ بمَن وجدتَ ثمّ تعود مِن فورك، واحرصْ على السلامة ولا تُلقِ بنفسك وبمَن معك في التهلكة. إنّ القشتاليّين لن يتوقّعوا خروجنا لحربهم، لذلك وطّنوا أنفسهم على الهجوم فقط، ممّا يعني أنك ستأخذهم على غرّة، وستأتيهم من حيث لا يحتسبون».

إبراهيم (متنهّدًا): «اطمئن يا شيخ غمارة، سأحاربهم حربًا خاطفة سريعة، حتى إذا تنبّهوا لنا؛ عُدْنا. آهٍ، كم أنا في شوقٍ إلى هذا اللقاء».

حامد الثغري: «لا تنسَ أنك إنْ خرجت مرة أخرى ستفقد ميزةَ المفاجأة، فاحرصْ هذه المرة على أن تُوقع بهم أقصى ما تستطيع من الخسائر».

وبينما الاثنان يتحدّثان ويضَعان اللمساتِ الأخيرة على ما رسماه من الخطط المقبلة، إذْ بفارس آتٍ مِن بعيد، من جهة البحر، ولفرط السرعة التي يعدو بها فرسُه كان يثير خلفه عاصفةً من الغبار الكثيف. حاول الثغري والزيناني التحديقَ لمعرفة الفارس المقبل، لكن دون جدوى، اقترب الفارسُ أكثر فأكثر، فإذا هو صالح الغماري، الذي ترجّل من فوق جواده قائلًا، وهو يلهث من شدّة التعب: «لقد حاول القشتاليّون الاقتراب من الشاطئ، إذْ هجموا علينا بقوّات كثيفة، واستطاعوا إشعال النيران في البيوت القريبة من الساحل وهدْمَ بعضها، كما حاولوا النزول إلى الشاطئ فردَدْناهم غير مرّة، وأحرقنا لهم الكثيرَ من السفن والمراكب، فلمّا يئسوا منّا تحولوا ببعض سفنهم جهة حصن جبل فارو، فأيقنا أنهم يريدون الحصن بأي ثمن، وقد كانت السفن تحمل راية مركيز قادش».

استمع حامد إلى صالح، قبل أن ينطلقَ بجواده على الفور ناحية الشاطئ، ليطمئنّ على تحصيناته، وفوْر وصوله شرع يشدّ من أزْر الجنود الذين سرعان ما ارتفعت معنوياتُهم بوجود حامد معهم وبينهم، ثمّ أمرهم بمتابعة إطلاق قذائف اللّهب على كلّ سفينة تقترب من الشاطئ، أو تحاول الاقتراب.

أمّا في الجهة الأخرى فقد تقدّمت مجموعة من القشتاليّين محاولين هدمَ جزءٍ من الأسوار، فما كان من حَمَلة البنادق والسهام إلّا حصدهم بسهامهم وبنادقهم، ومن ثمّ أمر حامد بأن تكثّف المدفعية نيرانها باتجاه خنادق القشتاليّين وتجهيزاتهم، ملزمًا إيّاهم بوجوب متابعة القذف ليلَ نهار، وكان ردّ القشتاليّين أن فتحوا نيرانَ مدفعيتهم من البرّ والبحر في آن معًا، ومع ذلك فقد نجحَ المسلمون في إغراق الكثير من السفن إلى قاع البحر.

استمرّ تبادل إطلاق النيران إلى أن دخلَ المساء، حتى إذا جنَّ الليل ظهرَ ذلك المشهد المُريع، إذْ لا ضوء سوى لمع المدافع وومضات شهبِ العرادات وألسنة النيران المتصاعدة من البيوت المحترقة إلى عنان السماء، وكما لا صوت سوى صرخات الحرقى والقتلى من الجانبين.

لمّا اشتدت ضربات المسلمين؛ أمرَ فرناندو بإطلاق نيران مدافعه السبعة المسمّاة «أخوات أكزيمنس السبع»، فأوقعت نيرانُها خسائر فادحة لدى المسلمين الذين ردّوا بإطلاق النيران من فتحات الأبراج، وخاصة أبراج حصن جبل فارو المرتفع الذي غاب وراء أعمدة الدخان الكثيفة والمرعبة.

تجهّز إبراهيم الزيناني، وقد كان يتوقُ إلى الاشتراك في هذه الحرب من قرب، ومع دخول الليل أمرَ جنوده بالتجهز والتأهّب، وعند اللحظة المحددة، فُتحت الأبواب وخرج إبراهيم على رأس

ألفي فارس، وهجم بهم في إقدام شجاع على جيش القشتاليّين الذي لم يحسب حسابًا لمثل هذا الهجوم المباغِت، ولم يستعدّ له، فأوقع في قلوبهم الرعب، حتى أخذ النّبلاء الإسبان يرتجفون من مواجهة المسلمين في ميدان القتال، ويكرهون الهجوم على المدينة لكيلا يصطدموا بالمسلمين وجهًا لوجه.

أتمّ الزيناني هجومَه الرائع، واستطاع قتل وجرح ١٢ ألفًا من القشتاليّين دفعة واحدة، قبل أن يلوي عِنان حصانه ويقفل عائدًا إلى جهة مالقة، وقد كان حرسُ الأبواب يتابعون ما يحدث من كثب، حتى إذا وصل الزيناني إلى الأبواب فتحوها، فإذا دخل وجنودُه بكاملهم؛ أغلقوها.

وفي طريق عودته التقى الزيناني جمعًا من الصبية القشتاليّين يلعبون وهُم يظنّون أنهم في مأمنٍ من الخطر، فداعبهم بكعْبِ رمحه، قائلًا لهم: «اذهبوا، إنّ أمهاتكم ينتظرنَكم» ولم يفكّر في إيذاء أحدٍ منهم ولا أسْره.

كان يوسف الغماري موجودًا مع إبراهيم في تلك الغارة، وتعجّب، لماذا لم يأخذوا الصبية أسرى أو يقتلوهم، فقال له إبراهيم «لم أجدْ فيهم شاربًا».

وبعد الغزوة الناجحة، عاد الزيناني وفرقته إلى مالقة، وفوْر دخولهم أغلقت الأبواب، وقد كانتْ هناك فرقٌ مِن حملة البنادق فوق الأسوار لقنصِ كلّ مَن يحاول مطاردةَ الجنود العائدين.

وفي صباح اليوم التالي، وعند الشاطئ، شرع محمد العطّار، ومعه حامد بن فرحون يتنقّلان بين الجند، ليحثّاهم على الثبات واليقظة، بينما كانت سفنُ القشتاليّين تُرابط بعيدًا عن الشاطئ، وعن مرمى طلقات مدافع المسلمين، وكلّما اقتربت سفينةٌ أو حاولت؛ انْهالت عليها الضربات وأغرقتها النيران.

محمد العطّار: «الله أكبر. كم أنا سعيدٌ بأحداث الأمس وما قبله، فهاهم القشتاليّون على رغم عددِهم الكبير وعدّتهم الهائلة، قد عجزوا عن الاقتراب مِن أسورانا، فضلًا عمّا فعله بهم القائد إبراهيم وفرقته، إذ أفنوا منهم اثني عشر ألفًا ليلة أمس وحدها».

حامد بن فرحون: «الحمد لله، وأيضًا استطاع جندُ غمارة بقيادة الأمير حامد الثغري ليلةَ أمس أن يردّوا القشتاليّين على أعقابهم، بعد أن تقدّموا ناحية حصن جبل فارو، معتزِمين أن يحتلّوه، ففاجأهم الأمير وجندُه بما لا قبَلَ لهم به من الشجاعة والقوة، إذ أمرَ جنوده بأنْ يصبّوا عليهم حِمَم القار والأحجار، فانْهال عليهم الموت من كلّ مكان وصوب، فلم يكنْ من نصيب القشتاليّين إلّا الارتداد والفشل وخيبة المسعى».

محمد العطّار: «إنها لأخبارٌ عظيمة والحمدُ لله، لكنْ أتعلم يا حامد أنه لا يقلقني من تلك الحرب الجارية إلّا انقطاع الإمدادات، وكثرة الجرحى، والمسافة الطويلة بين المشفى وساحات الحرب، وهو ما يعرِّض حياة الجرحى للخطر، فضلًا عن نقص الذخيرة الذي يظهر أثرُه مضاعفًا مع طول الحصار».

حامد بن فرحون: «يا رجل، منذ لحظاتٍ كنتَ تتحدّث عن إنجازات القائد إبراهيم، فما لك بغيْر أي مقدمات تتحدّث عن الخوف مِن الخسارة!؟».

محمد العطّار: «يا حامد، يجب أن تكونَ بعيد النظر».

حامد بن فرحون: «وهل يتعيّن عليَّ أن أبتعد بنظري وأبتعد، حتى أتجاهل الواقع الذي يدور أمامي؟!».

محمد العطّار: «أنا لم أقل نتجاهل الواقع، ولكنْ علينا الحرص على دوامِه، ولذلك يجب علينا البحثُ عن مقوّمات ذاك النصر والحفاظ عليه».

حامد: «صدقت في هذه».

تتعاقب طلقات القذائف، وتتعالى الصيحات، وتعلو أعمدة الدخان، وإذا بعامرٍ يتقدّم جهةَ صديقه، وهو يجرُّ خلفه عربةً بعجلتين. ينظر محمد إلى صديقه، ويتعجّب من هذه العربة خلفه، فيبادره بالسؤال عنها.

عامر: «كنتم تشتكون من المسافة بين مواقع الحرب والمشفى، فها أنا أقرِّب لكم تلك المسافة وأختصرها».

وبينما يزدادُ تعجّب محمد وحامد، يواصل عامر حديثَه.

عامر: «لمّا كثر الجرحى من جرّاء تتابع القتال، وعجزت الخيول عن نقلهم بعيدًا عن مرمى نيران الأنفاط، فضلًا عن عدم قدرة

الجريح على امتطاء الخيل؛ فكّرت في وسيلة تسهّل علينا ذلك الأمر، واستفدت من وجود نجّارين مَهَرة في مالقة، فعرضت عليهم فكرتي، فصنعوا لنا تلك العربة؛ لتكون أول عربة إسعاف في التاريخ».

حامد: «وكيف تعملُ هذه العربة؟».

عامر: «سيجرّها حصان أو بغْل، وهنا على تلك القاعدة (يضرب بيدِه) سيُحمل الجريح ويُنقل إلى المشفى».

محمد: «مرحى.. مرحى يا عامر. فكرةٌ رائعة، خاصة أن تلك القاعدة تستطيع حملَ أكثر مِن ثلاثة جرحى دفعة واحدة، كم أنا سعيد بك يا صديقي، فقد أصبحت من المخترعين».

حامد: «ما رأيك الآنَ يا محمد؟ ألا ترى أننا على رغم الحصار نجد الحلول؟».

محمد: «أنا لا أميل إلى الإفراط في التفاؤل».

وبينما هُم كذلك إذْ بجندي يكادُ يقطع ظهرَ جواده، يتقدّم إليهم وهو يتساءل في عجلةٍ لاهثة: «أين محمد العطّار، وأين عامر الغرناطي؟».

محمد: «مَن أنت؟ وماذا بك؟».

الجندي: «لقد أصيب صديقكم علي بجرحٍ خطير، وهو يدعوكم إلى لقائه».

يذهلُ محمد وعامر، وإذا بمحمدٍ يصرخ بصوتٍ مرتفع وينادي:

«علي.. علي».

***

.٥٠

خارج أسوار مالقة

لم يستطعِ الجيش القشتالي، على رغم الحصار والإمكانات الهائلة، أن يحقّق نتيجة تدعو إلى الإعجاب. فقوةُ تحصينات مالقة وشجاعة الثغري ورجاله كانت عظيمة، والمدفعية الإسلامية نشطة، وتفتك بكلّ مَن يحاول الاقتراب من الأسوار، فضلًا عن تلك الحرب الخاطفة التي يشنّها إبراهيم الزيناني بين الفيْنة والأخرى، ممّا جعل الجيش القشتالي في حالة تأهب دائمة، وقد انعكس ذلك على معنويّات الجند، فضلًا عن الإرهاقِ الشديد الذي أصابهم من جرّاء ذلك.

ولأنّ الحصار قد طال، فقد خشي فرناندو من أنْ يتفشّى الملل والرعب في قلوب جيشه، لذلك فقد قرّر أن يهاجم الأبراج بكلّ قوته مهما كلّف الأمر، لذلك أصدر أوامرَه إلى الكونت سيفيونتي بتكثيف نيران المدفعية على برج الحراسة القريب منه، فتقدّم سيفيونتي وهو يأمر جندَ المدفعية بدكّ البرج الرئيسي للمدينة. ومع كثافة النيران

والقذائف تهاوى جزءٌ كبير من البرج، فأصبح لا يوفّر أي حماية لَمن به من المدافعين. شاهد الكونت البرج وهو يتهاوى، فقرّر ألّا يفوِّت الفرصة، وجمع قوةً من فرسانه ومن الحرس الملكي، لكي يأخذ موقعَه ويعصف بالبرج. تقدّم سيفيونتي ومن معه، وبحوزتهم أدوات التسلق والسلالم، فتسلقوا البرج وسيوفهم في أيديهم، بينما كان المسلمون داخل البرج قد نزلوا إلى الطابق الأرضي من البرج، ليقاوموا المتسلّقين ويرمونهم بالحجارة والسهام والنيران، فقُتل كثيرٌ من القشتاليّين، وأُحرقت سلالُهم، وأُجبر الكونت سيفيونتي على التراجع من أمام البرج، ولكنه عاد في اليوم التالي وقد ضاعف قواته وعدته، وأخذ يهاجم البرج مرة أخرى. وبعد عدة معارك، استطاع أن يغرزَ علمه منتصرًا فوق قمة البرج.

شاهد الثغري ما يحدث، فأمر سريعًا بوضع الأخشاب أسفل البرج، ثمّ أمر بإضرام النيران فيها. وبعد قليل، احترقت حواملُ البرج وانغرس أرضًا ليصير حطامًا، وحين سقطت جدرانه محدِثة صوتًا هائلًا، سقط معها الكثيرُ من جنود سيفيونتي ورؤوسهم إلى أسفل فحصدها المسلمون حصدًا، وهنا اندفع القشتاليّون لمساعدة زملائهم، واستمرّت المعركة متواصلة يوميْن ليلَ نهار، والقتالُ لا يكفّ بين كرٍّ وفرّ، حتى امتلأت الفتحة التي أحدثها سقوط البرج بالقتلى والجرحى.

أرهقت تلك الفتحة الجيش المدافع، بينما لم تترك في القشتاليّين إلا القليل من التعب، وذلك لوفرة الجند القشتاليّين من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن العبء الثقيل دائمًا ما يكون على المدافع لا المهاجم.

وفي اليوم التالي كرّر سيفيونتي هجومه بعدما أمدّه فرناندو بالعديد من الجنود، ودارت رحى معركة حامية حول البرج المهدوم، وكثر القتل في القشتاليّين. لكنْ مع ازدياد عددِهم اضطر المسلمون إلى الانسحاب نحو المدينة المحاصَرة مستَميتين في الدفاع عن كلّ شبر من الأرض التي روَوْها بدمائهم، لكن تراجعهم جعل القشتاليّين أسيادَ تلك الضاحية من المدينة.

سكنت المعركة، وساد الهدوء الأجواء، حتى ظهر الميدان وكأن حربًا لم تقمْ، واسترخى الجنود وراح كلٌّ منهم يحاول الترويحَ عن نفسه.

وبعد تلك المعركة الرهيبة، جلس فرويلة وألفونس يتحدثان.

ألفونس: «أتعلم يا فرويلة أني أفكّر في ترك المعسكر والعودة إلى زوجتي وبيتي؟».

فرويلة (مبتسمًا وساخرًا): «أمّا أنا فلا زوجة لي كي أعود إليها، وإن كنتُ مثلك قد مللتُ طول الحصار، وأصبحت أخشى على نفسي، ولكن ألا ترى أنّ ما فعله الكونت سيميونتي مِن أخذه البرج فألُ خير لنا؟».

ألفونس (متنهّدًا): «نعم يا صديقي، لقد أُسقط البرج.. لكنْ بعد كمْ من الوقت؟ وكم مِن التضحيات؟ ألا تلاحظ أنّ المسلمين قد أثخنوا بنا القتال أكثرَ من مرّة؟ وحتى البرج لم نأخذْه منهم إلّا بعد فناء آلافٍ منّا، على رغم قلة عددهم. إنني أخشى يا صديقي أنْ أفقدَ بيتي وزوجتي إلى الأبد إن بقيت طويلًا هنا». (ينظر جهة مالقة ثمّ يكمل): «هل تعلم يا فرويلة؟ لقد هرب كثيرٌ من الجنود وعادوا إلى قشتالة، عادوا خائفين بعد انتفاض القرى المجاورة وإعلانها الحرب علينا، فضلًا عن نقصِ الذخيرة الذي أصبحنا نعاني الأمرَّين بسببها، خاصةً مع صعوبة وصول الإمدادات من قشتالة بسببِ تلك الجبال اللّعينة، وهذا يعني أن المدافع ستسكتُ عمّا قريب».

فرويلة: «ربّما لهذا السبب يفكّر الملك في فكّ الحصار وترك كلّ شيء كما كان، ومن ثمّ بادر بعضُ القادة وغادروا قافلين إلى قشتالة».

ألفونس: «ولِمَ لا! ونحن مذْ أتينا هنا نخسرُ ولا نربح، نتأخّر ولا نتقدّم، إذًا فمن الطبيعي جدًّا أن يفكّر الملك في الانسحاب».

استمرّ الهدوء ساعات طويلة، لم يُسمع فيها إلّا صوتُ زمجرة الرياح، وقد كان الإرهاق والتعب قد بلغا أَوجَهُما بالقشتاليّين، إلى حدّ أنهم كانوا يتوقون إلى لحظاتٍ من النوم المشتهى، والذي صار بعيدًا جدًّا عن العيون، ولكن الهدوء لم يستمر طويلًا، ففجأةً زلزله صوتُ الأبواق وصراخ الصائح قائلًا: «المسلمون.. المسلمون».

اجتاح الرعبُ معسكر القشتاليّين، واصطكّت مفاصل الجنود، ليهرول الجميع في فوضى عارمة، فإذا بإبراهيم الزيناني يدْهَم معسكر القشتاليّين بجنوده الذين ينتشرون ضاربين هنا وهناك، في حركةٍ سريعة استغلّ فيها الزيناني تعبَ القشتاليّين بعد موقعة البرج الطاحنة، فأوقع فيهم القتل والجرح، ثمّ عاد بفرقته لم يفقد منها أحدًا.

فرويلة (يصيح غاضبًا بعدما نجا من الموت بأعجوبة): «لم أعدْ أتحمّل ما يحدث. الموت يأتينا من كلّ مكان، يجب أن يكون هناك حلّ يحمينا من ضربات المسلمين».

ألفونس: «اهدأ.. لا تكن هلوعًا أكثرَ ممّا يجب».

شجعت الانتصارات المتتالية التي حققها إبراهيم الزيناني القرى المجاورة والتي نجح القشتاليّون في إخضاعها، فأعلنت الانتفاضة على الجيش القشتالي، وخرجت من تلك القرى جماعات صارت تضرب أطراف الجيش القشتالي.

لم يتحمل بعض الجند ما حدث، ففرّ بعضهم قافلًا إلى قشتالة، كما أدت كثرةُ الخسائر إلى أنِ انتشرت في معسكر فرناندو الإشاعات التي تردّد أخبارًا عن قرب فكّ الحصار والرجوع إلى قشتالة، فبادر البعض بالرحيل قبل التأكد من صحة المعلومة، ووصلت تلك الإشاعات إلى مالقة، فارتفعت الروح المعنوية لسكانها، فتشجّعوا أكثر لتوجيه الضربات إلى معكسر فرناندو.

شغلت تلك الإشاعات فرناندو، فبدأ يفكّر في حلٍّ يبعثرها، ويقضي على آمال المسلمين في تصديقها، فقرر أن يكتب إلى الملكة في قرطبة، يخبرها بوجوب قدومها إلى المعسكر، إسكاتًا للإشاعات! وفي الوقت نفسه قرّر فرناندو ضرب تحصينات المدينة القديمة، وإرهاق المسلمين، فأمر الكونت دي قابرا بأن يوجه ضرباته إلى الأسوار والأبراج، محاولًا إحداث أكبر قدرٍ مُمكن من الخسائر فيها.

وبالفعل، بدأ الجيش المحاصر في ضرب أسوار المدينة بالمدافع والبارود، فكانَ القشتاليّون يقتربون من الأسوار واضعين أسفلها كميات كبيرة من البارود، ثمّ يفجّرونها، فتحْدث فتحات في السور يتدفّق من خلالها الجند القشتاليّون، فيهبّ المسلمون المدافعون لمقاومتهم، ويثخنون فيهم القتل والجرح، واستمرّ القتال إلى أن نجح المسلمون في سدّ تلك الفتحات وترميم ما تصدّع من الأسوار.

استمر الوضع هكذا، وأمر حامد قنّاصته بالحيطة والحذر، فأفشلوا خطط القشتاليّين إذ كانوا يرمون أي متقدّم نحو السور بالسهام وطلقات المدافع فلا يصل أحدٌ منهم إلى الأسوار إلّا قتيلًا.

عاد الكونت دي قابرا بعد عدة محاولات لنقْب الأسوار، ودخل الخيمة الملكية حيث يجتمع فرناندو مع كبار القادة كعادته كل يوم، ليقيِّم الوضع.

دي قابرا: «لقد نجحنا في نقب الأسوار، ولكنهم تفانوا في الدفاع عنها، ونجحوا في إغلاقها».

مركيز قادش: «لا بأس أيها الكونت، فإن فشلت محاولتنا اليوم فلن تفشل غدًا».

فرناندو: «إذًا، فلينتَبِه الجميع، حتى لا يفاجئنا المسلمون ككلّ ليلة».

مركيز قادش: «لقد أرسلتُ إلى كلّ القادة أوامر بوجوب أخْذ الحيطة والحذر، فاطمئن يا سيدي».

دوق فيلا هيرموسا: «ماذا بخصوص إشاعة تقول إن الملكة أرسلت إلى جلالة الملك تدعوه لرفع الحصار والعودة إلى قشتالة، وذلك حرصًا على حياته هو وجيشه؟».

فرناندو (غاضبًا): «لم يجرِّئ المسلمين علينا سوى تلك الإشاعات اللعينة، وإني أقسم بقتل مُصدِر تلك الإشاعات بيدي إنْ ظفرت به».

مركيز قادش: «لكن يا سيدي، وإلى أن نستدل على مَن أصدر الإشاعات ونقطعَ لسانه، يجب علينا محاربة الإشاعات ذاتها وقتلها».

فرناندو: «لقد فكرتُ في الأمر مليًّا، ووجدتُ أن أفضل وسيلة لقطع تلك الإشاعات هو حضور الملكة إلى المعسكر بنفسها».

مركيز قادش (مبتهجًا): «سيقطع وجود الملكة كلّ الإشاعات يا مولاي، وسترتفعُ الروح المعنوية لجنودنا، فضلًا عن انخفاضها عند المسلمين، عندما يشاهدون الملكة من خلف أسوارهم».

***

حضرت الملكةُ بعد أيامٍ قليلة، فأحدث حضورها أثرًا كبيرًا، إذ ارتفعت الرّوح المعنوية للجيش القشتالي، حين رأى ملكتَه قد جاءت لتشاركه خطر الحصار، وقد وصلت الملكة برفقة كلّ بلاطها لتؤكّد أنّ الزيارة ليست مؤقتة، وبمجرد وصولها توقّفت نيران المدافع في المعسكر، وأقيم لها استقبالٌ حافل، حرصَ فيه القشتاليّون على إظهار قوّتهم ومكانة الملكة فيهم. وأحدث وجود الملكة الطمأنينة في النفوس، فعاد إلى الجند الضحك بعد بؤسٍ طويل، وتأكد للجميع أن الحصار دائم، ولن يزول إلّا بزوال مُلك المسلمين في مالقة. ووسط حفلات صاخبة وطبول عالية وموسيقى متعددة النغمات ورقص واحتفال بوصول الملكة، وزجاجات خمر أحضرتها معها وفرَّقَتها على كلّ مَن حضر الحفل؛ وقف الجنديّان فرويلة وألفونس يتهامسان:

فرويلة (يرفع الكأس ويشرب، ثمّ يقول): «منذ حضور الملكة وتغيّر شكل المعسكر، عرفت أنا، وكذلك عرف الجنود؛ الطريقَ إلى الضحك بعدما بدا لنا كأنّنا لن نفارق البؤس أبدًا».

ألفونس: «صدقتَ، فقد ارتفعتِ الروح المعنوية، وذهب اليأس، وتأكّد للجميع أنّ الحصار المضروب على المسلمين لن يُرفع».

فرويلة: «يا رجل، أنا لا أتحدّث عن الحصار والحرب، بل حديثي عن النساء. ألا تَرَى الملكة قد أحضرت معها نساء القصر الجميلات، وهنّ يتبخترنَ في هدوءٍ ووداعةٍ داخل المعسكر، فيأخذْنَ

القلوب وتهفو إليهنّ النفوس، فننسى الحرب والنار ولا نتذكر إلّا وجوه النساء الحسناوات».

ألفونس: «والله إنك لزيرُ نساء (يقهقه عاليًا)، لكن منذ متى وأنت تحبّ القشتاليّات؟ كنت أظنّك كرهتهنّ بعد قصتك الأولى».

فرويلة: «إنها اللّوعة يا صديقي، إذ إنّ طول حرماني من النساء جعلني أحبهنّ جميعًا، فلم أعدْ أعرف الفرقَ بين القشتاليّات وغيرهن مِن النساء».

ألفونس: «أمّا هذه فأنا أوافقك فيها تمامًا».

يتحدّث فرويلة بشيء من السخرية، ويرمقُ صاحبه بنظرة خبيثة ويقول:

«ألم تلاحظ شيئًا مهمًّا في موكب الملكة؟».

ألفونس: «لا جديد فيه، ولا شيء يلفت النظر».

فرويلة: «لقد حضرتْ برفقة الكردينال مندوسا!».

ألفونس: «عدتَ إذًا إلى حديثك القديم».

فرويلة: «بل هو حديثُ الحاضر يا صديقي (يضحك بسخرية)، لكن العجيب في الأمر هو صمت مولانا الملك».

ألفونس: «اصمت، قطع الله لسانك».

فرويلة:«لا أعلم كيف يسمح الملك بأنْ تخونه زوجته، بل وتأتي برفيقها إلى هنا!».

ألفونس: «أمَا آن لك أنْ تصمت أو تبدِّل الحديث، وإلّا ذهبتُ وتركتُك».

فرويلة: «بل أبدِّله».

انفضّ حفل الاستقبال بعد ليلةٍ طويلة من الرقص واحتساءِ الخمر، فإذا بفرناندو يمسك بيدِ إيزابيلا ويهمس لها قائلًا: «ما كنتُ أحبّ أن يطول الحصار هكذا، حتى تضطري يا حبيبتي إلى تحمّل مشاق الطريق كي تأتي إلى هنا، ولكنّني في الوقت نفسه سعيد؛ لأنّ هذا الحصار جمعني بك مرّة أخرى، وقد طال بي الشوق إليك». هكذا حدّث الملك زوجته بوجْهٍ باسم وكلمات تفيض حبًّا، وإن كان مِن داخله يكنُّ لها كلّ كراهية وحقد، فهو على علمٍ بكلّ ما يحدث بينها وبين روي لوبيز، الذي أخذته خليلًا لها، ثمّ صارت تصطحبه كظلّها في كلّ مكان تذهب إليه، لذلك دأب الملك أن يطفئ نارَ نقمته عليها بأنْ يخونها، بل ويسرف في خيانتها.

تتحرّك إيزابيلا في دلال، وتحاول جاهدةً أن تبادل زوجَها الكلام الرقيق نفسه فتقول له: «وأنا أيضًا افتقدتك يا حبيبي، فلم أكدْ أسمع بدعوتك حتى تلقّيتها كما تتلقّى الصحراء العطشى قطراتِ المطر، وخرجت من فوري إليك، وأنا طوالَ الطريق منشغلةٌ بك عنك، فما شعرتُ بنفسي إلّا وأنا هنا بين يديك، وكنت كلّما مللتُ رؤية الجبال والفيافي والهضاب تذكّرت أني سألقاك في آخرِ المطاف، فيزيدُني هذا تحمّلًا لوَعْثاء الطريق، وشوقًا إلى لقائك».

انحنى فرناندو ليقبّل يدَها، ثمّ رفع رأسَه قائلًا: «لولا ما نحن فيه من حرب وأصواتِ مدافع ودخان ورائحة شواء، وبارود؛ لقضيت الليلة كاملةً أبثّك أشواقي ولوْعتي وحبي».

إيزابيلا: «لا بأس يا حبيبي؛ فالأيام الآتية كلّها لنا».

فرناندو : «هو كذلك يا حبيبة القلب والروح».

قضي الملكان القشتاليّان ليلتهما، وسط صمتِ أصوات المدافع، وفي الصباح، ومع بزوغ أول خيوط الشمس، خرج فرناندو بصحبة الملكة، ليعاينا المعسكر وما فيه من جنودٍ وعدّة وعتاد، وصحبهم في ذلك مركيز قادش ودي قابرا ودوق فيلا هيرموسا وكاردينال إسبانيا الأكبر إضافة إلى روي لوبيز.

سار الملكان وسط المعسكر المشرف على مالقة، ومن خلفهم رجالهم وقادتهم يتأخّرون عنهم قليلًا. فُتنت إيزابيلا بروعة مالقة وحدائقها وموقعها الفريد، وتناست أنّ قرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة ومرسية وشلب وبطليوس وبقية مدن الأندلس التليدة التي تمكنوا من إسقاطها؛ كانت قبل سقوطها تكتسي مثلَ هذا الجمال، وترفُلُ في ثوب الرّوعة والبهاء، بل إن قرطبة التي فقدت رونقها وزينتها وبهجتها بعدما آلتْ إلى حكم الكاثوليك، كانت يومًا جوهرة الدنيا وكعبةَ العلم والفن والذّوق الرفيع! لكنها فقدت معهم كلّ هذا الجمال، كما حدث وسيحدث في كلّ مدينة تليدة تسقطُ في أيديهم، وكأنهم كانوا أعداءً للرقي والحضارة والعمران

ورسلًا للخراب والدمار، وبينما تصمتُ المدافع وعيون المسلمين تراقب من بعيد، من أعلى تلك الأسوار إذْ بإيزابيلا تتوقّف لتتحدّث إلى قادة جيشها فتقول: «كلّ هذه القوات تقف عاجزة أمام تلك المدينة الجميلة؟ يجب أن يكون جمال تلك المدينة حافزًا لنا لسرعة انتزاعها».

ردّ عليها مركيز قادش فقال: «إنهم يقاتلوننا قتالَ مّن لا يرجو الحياة يا سيدتي، فلا نأخذ منهم شبرًا إلّا بعدما نصطلي بنارهم ويرووا أرضهم بدمائهم، يموتون ولا يستسلمون، وكأنّ الموت هو غايتهم وقتلهم لنا هو الطريق إلى جنّتهم».

تعجّبت الملكة من حديث مركيز قادش، وزادها ذلك حقدًا على مالقة وأهلها، فأقسمتْ أمامهم بالانتقام لهم ولمعاناتهم، كما أقسمت بالانتقام لكلّ قطرةِ دمٍ قشتالي سالت هنا.

شردَ ذهن فرناندو قليلًا، وأخذ يفكّر في أمر مالقة، فوجد أنّ الحيلة والحربَ النفسية هي أقصرُ الطرق للاستيلاء على تلك المدينة العنيدة، فهو يعلم أنّ المسلمين استفادوا كثيرًا مِن جرّاء الإشاعات، كما علم فرناندو أنّ الهزيمة النفسية للجيوش هي بداية انهيارها، لذلك وجبَ على قشتالة أن تريهم أنّهم لا قِبَل لهم بها، لذلك أمرَ من فوْره بأن تصبّ الأنفاط نيرانها ومن دون توقّف حتى إشعار آخر.

بعد ساعاتٍ من إطلاق النيران، أمر فرناندو قواته بالتوقف الكامل، وبعد تشاور مع الملكة قرّرا إرسال الرسل إلى الثغري

ورجاله، يخبرونهم أن الملكة إيزابيلا موجودة في المعسكر، وأنها لن تبرحَ حتى تمتلك المدينة.

وقد كان القصدُ من تلك الرسالة أنْ يعلم المسلمون أنّ قشتالة وأراجون لن يفكّا الحصار إلّا بعد سقوط المدينة، كما أمرت إيزابيلا أن تحملَ الرسالة شروط التسليم على أن تكون نفسَ شروط استسلام «بلش مالقة»، وتذيِّل الرسالة بالتهديد، فإمّا الاستسلام وإلّا فمصير كلّ المالقيّين القتل أو الأسر.

دوق فيلا هيرموسا: «لكن يا مولاتي، أما كان من الأفضل أن نرسل إليهم مع استمرار مدفعيتنا في دكّ أسوارهم؟».

إيزابيلا: «لقد أراد الملك وأردتُ أن أُظهرَ لهم صدق نوايانا».

تلقّى حامد الثغري رسالة الملكين الكاثوليكيّين بكلّ استياء، وصرف الرسول من دون أن يحمِّله أي رد، وقال لمستشاريه: «لقد قدّم هذان الملكان عرضهما هذا مِن فرط يأسهما، بعدما أرهقتهما الحرب، وليست لديهما أيّ وسيلة فعّالة لهدم أسوارنا، وإذا ظلّا هكذا فستغمرهم الأمطار الموسميّة، وتغرق معسكرهم بالطّين والوحل والمرض والجوع، وستمزّق أول عاصفة أسطولَهم الذي لا مرفأ له ليلجأ إليه في الجوار، وبذلك يفتح علينا البابُ لوصول الإمدادات من المغرب».

استبشرَ أصحاب حامد، وكبّروا «الله أكبر.. الله أكبر»، وزادتهم كلماتُ الثغري إصرارًا على إصرارهم، أمّا أهلُ المدينة- وبخاصة

التجار «علي دردوش وأصحابه»- فقد تمنّوا أن يقبل الصلح، وحثّوا حامدًا عليه، فهدّدهم حامد وطردَهم من مجلسه، معلنًا أنّ كلّ مَن يتحدث عن الاستسلام أو يعقد صفقة مع القشتاليّين من دون علمه؛ سيوضع عنقُه تحت السيف.

راقب حامد التجارَ وسلّط عليهم جواسيسه، واستطاع أن يوقف محاولات للخيانة أقدمَ عليها بعضُ الأفراد داخل المدينة، وهؤلاء جمعهم حامد في ساحة المدينة الكبيرة وأمرَ بضربهم بالسيف، ممّا أوقع الرعب فى قلوب البقية!

***

.٦٠

طلب النّجدات

عاد الرسولُ إلى مخيَّم فرناندو بالردّ، فشعر الملك بالإهانة، فأمرَ من فوْره بقذف المدينة بحِمَم النيران والأحجار الثقيلة والبارود، فتفجّرت الحرب في كلّ القطاعات، ممّا أوقع الاضطراب بين المالقيّين.

ارتفعت ألسنة اللّهب في ساحات المدينة التليدة، وزمجرت الرياحُ تحمل الموتَ معها ورائحة الشواء. وردًّا على فعلتهم، أمرَ الثغري جنوده بمتابعة قذف تحصينات القشتاليّين بشكلٍ مُتواصل، وبالفعل نجحت الخطة، وقلَّ خطرُ قذائف القشتاليّين، إذ اضطروا

تحت وقع ضربات المسلمين بسحب مدفعيّتهم بعيدًا عن مرمى نيران المسلمين، وبذلك ضعفت فاعليةُ تلك المدافع.

كان أمرُ الذخيرةِ وقربُ نفادها، والأقواتُ وفناؤها هو الشغلَ الشاغلَ لحامد الثغري، فقد كان يرى أنّ تلك المواد هي التي ستحدّد- بشكل نهائي- الخاسرَ والرابح في هذا الحصار اللّعين، فأسوار مالقة شديدةُ القوة، تستطيع تحمّل الضربات ما دام هناك مَن يدافع عنها، ولكن ماذا إن نفدت الذخيرة؟ وماذا إن شحَّت الأقوات؟ جلس الثغري يفكّر في مصير المدينة المجهول إنْ حدث شيء كهذا، ظل هكذا طوالَ الليل وهو يتفحّص الذّخيرة، ويعاين الأقوات والمؤن، ويحرِّض عمالَه على الاقتصاد في النّفقات إلى أنْ يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

شعر الثغري بالعجزِ يطوّقه، وهو يرى نفسَه وجنده قادرين على دحْر القشتاليّين، كما أنّ المدينة قادرةٌ على تحمّل ويلات الحصار لولا المؤن والذخائر، ثمّ أين أبو عبد الله الزّغل ممّا يحدث؟ ولماذا لم يتقدّم لنجدة المدينة، أو حتى يرسل إليها المؤن والذخيرة؟ دارت تلك الأسئلة في ذهن وتفْكير حامد، وانشغلَ بها ساعات طوالًا، وفي النهاية قرّر ألّا يقف مكتوفَ اليدين، وأنْ يحاول تعويض عجزه بكلّ ما يستطيع، فقرّر إرسال الرسل لطلب النجدات من ملوك المسلمين، علّه يجد منهم يوسف بن تاشفين، لكن مَن ذا الذي سيقوم بتلك المهمة ومَن الذي سيخرج ويكون حريصًا على مالقة

والعودة؟ وبعد تفكيرٍ عميق توصّل الثغري إلى نتيجة واحدة، وهي وجوب خروج محمد العطّار إلى ملوك المسلمين في عدوة المغرب، وقد كان حامد يعرف صدقَ وإخلاص محمد، كما كان يعلم حزنَه لاستشهاد صديقه «علي»، لذلك أراد الإفادة منه والترويح عنه بتلك السفارة، لذا أمرَ الثغري بسرعةِ خروج محمد لتأدية المهمة، وبعد أيام ظهر محمد العطّار في مدينة «تلمسان» ليستنجد بملكها وأهلها، وهو يغالب حزنَه على فراق صديقه، ويغالب قلقَه على مالقة وشعبها، وضراوة الحرب من حولها وعليها. ولّما لم يكن محمد سفيرًا بمعنى الكلمة، إذ لم يكن يحمل رسالة من ملوك غرناطة (الزّغل أو الصغير)، ممّا يعني أنه سفيرٌ بلا سفارة، لذلك فقد قرّر أن يستطلع قبل كلّ شيء أحوالَ المدينة وأهلها؛ فذهب إلى السوق، وتناول هناك طعامَه، وهو يتلقط الأخبار، فأحزنَه أنهم لا يعرفون شيئًا عمّا يحدث هناك، عمّا يجري في الأندلس، فقد انقطعت عنهم أخبارها وما يجري فيها وبها.

أمّا في قصر المشور «قصر الحكم»، فقد تابع الأمير «أبو عبد الله محمد الثابت بن المتوكل» أخبارَ مالقة من كثب، وذلك لأنّ فرناندو كان قد أرسل سفنَه تحاصر المدينة، لتحول بينها وبين محاولات قد تخرج منها لنجدة مالقة، والحقيقة أنه لم يكنْ في تفكير محمد الثابت أن ينجدَ مالقة أو يبدي تجاهَها أي مشاعر، فقد كان الرجلُ منكفئًا على نفسه، لا يهمّه إلّا مُلكه وعرشه، لا يشغله عنهما سقوطُ الدنيا

ما دام كرسيّه بخير ومؤمَّنًا له، لذلك كان يتابع الأخبار ويخشى أن يهاجمه الأسطول القشتالي أو يتحرش بشواطئه، كما حاول غير مرة أن يراسل أمير الأسطول يطلب صداقته وصداقة قشتالة، ويطمئنه ويخبره أن أمر مالقة لا يشغله ولا يهمه.

وبينما يُغرق محمد الثابت في تفكيره وخوفه، إذ يدخل عليه قائد شرطتة وبيده رجل مصفَّدٌ في الحديد.

أبو عبد الله: «مَن هذا؟ وما جريمته؟».

قائد الشرطة: «إنه رجلٌ من أهل مالقة، وجدناه وهو يحرّض أهل السوق على الذهاب معه».

أبو عبد الله: «أندلسي! وماذا تريد منّا يا أندلسي؟ وكيف تؤلب الناس علينا أيها اللعين؟».

الأندلسي: «لم أفعل يا سيدي، ولكني وجدتهم لا يعرفون شيئًا عن أخبار إخوانِهم في العدوة الأخرى، فهالني ذلك وأحزنني؛ لأنّ المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، واعلم يا سيدي أن بقاءكم هنا مرهونٌ بحياتهم هناك، فإنْ ذهبت الأندلس، فلن تبقى تلمسان، وانظر يا سيدي إلى أطماعهم، تجدْ أنّ مملكة البرتغال التي قامت على أشلاء غرب الأندلس، قد احتلت ميناء سبتة، ثمّ اتخذته مركزًا للهجوم على المغرب، وكذا ستفعل قشتالة وأراجون. غير أنّ

هاتين يمنعهما بقاء مملكة غرناطة سدًّا قويًّا في وجوههم، فإنِ انهار ذاك السدّ أو تزعزع؛ وصل الموتُ إليكم أسرع ممّا تظنون، وهُمْ يا سيدي لا يراعون في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمّة، وهُم إذا دخلوا قرية أزهقوا أرواحَ أهلها وقضوا على تراثها، ومحَوْا حضارتها، وهدموا المساجد أو حوّلوا المنارات إلى كنائس».

أعجب أبو عبد الله بحديث محمد العطّار، فسأله عن اسمه وعمله، فردّ الثاني وقال: «أنا محمد العطّار، مِن بيازين غرناطة يا سيدي».

أبو عبد الله: «غرناطة، مممم. وما علاقة غرناطة بمالقة أيها الرجل؟ فمعلوماتي أنّ مالقة تحت حكم الغماريّين المؤيدين للزّغل، بينما غرناطة تحت حكم أبي عبد الله محمد بن علي بن سعد، وأعلمُ أن بين الزّغل والصغير حروبًا يعلم بها كلّ المسلمين».

محمد: «إنها علاقة الإسلام يا سيدي، الإسلام الذي يربطنا ويؤلف بيننا، وليست الحدود التي تفرقنا وتشتتنا، وتشعل البغضاء بيننا! أنا يا سيدي من أهل غرناطة الرافضين لحكم أبي عبد الله الصغير، الرافضين لسيطرة قشتالة على المسلمين، وقد خرجتُ من غرناطة إلى مالقة مجاهدًا في سبيل الله».

أبو عبد الله: «خرجت إلى مالقة- مممم- فما الذي جاء بك إلى تلمسان؟ هل ضللتَ الطريق؟» (يضحك أبو عبد الله ومَن معه).

ينظر محمد إلى القصر المشيّد حوله وهو لا يعبأ بالضحكات، ويقول:

«قبل دخولي إلى قصركم هذا، عرفت أنّ جدكم «يغمراسن بن زياد» قد شيّد قصره هذا في المكان نفسه الذي نصَبَ فيه يوسف بن تاشفين المرابطي خيمته، حينما كان محاصرًا لتلمسان قبل أن يفتتحها ويضمّها إلى مُلكه سنة ١٠٧٩م».

أبو عبد الله: «هل جئت إلى هنا لتحكي لي قصةَ بناء القصر؟».

محمد: «بل أحكي القصة؛ لأذكّركم بجدّكم يغمراسن، وأذكركم بيوسف بن تاشفين الذي عبرَ البحر وهو في الثمانين من عمره، لينقذ الأندلس من بطش القشتاليّين، جئت إلى هنا مستغيثًا بكم لإنقاذ مالقة قبل هلاكها، بعد أن ضاقتْ بأهلها السبل».

أبو عبد الله: «قل لي يا محمد، لماذا لم تذهبْ إلى وادي آش، حيث أبو عبد الله الزّغل، فهو أقرب إليكم منّا وأحرص منّا على حفظ ملكه؟».

محمد: «لقد فعلت يا سيدي».

أبو عبد الله: «وماذا كانت النتيجة؟».

محمد: «لقد جمع الرجل بقايا جيشه المتناثرة، كما جمع المتطوّعين من كلّ الأندلس، وأعدّ كلّ ما يستطيع من قوة وخرجَ بهذا كله من وادي آش لإنقاذ مالقة بعد طول حصار، لكنْ ولسوء الحظّ فقد وصلت أخبار تلك الحملة الشريفة إلى الملك غير الشريف- أقصد

أبا عبد الله الصغير في الحمراء- فأعماه حقدُه على عمّه ورغبته في الظهور بمظهر الموالي للبلاط القشتالي، لذا أرسل قواته كي تقطع طريق النجدات، وتمنعها من الوصول إلى هدفها، وبعد معركة فاجرة وصراع عنيف تراجعت قوات الزّغل بخسائر كبيرة إلى وادي آش، فهي لم تكُ تعلم أنّ هناك مَن يتربص بها، لذا لم تأخذْ تلك القوات الحيطة إبّان خروجها، وكيف لا تكون بمأمن وهي في بلادها؟».

أبو عبد الله :«ماذا تقول؟ لقد سمعنا كثيرًا عن شجاعة الزّغل، فكيف نال منه ابنُ أخيه؟».

محمد: «لم يكن أكثر المتشائمين يتصوّر أنّ ملك غرناطة تصل به الوضاعة إلى هذا الحدّ، لهذا فقد خرج جيش الزّغل وهو غير متوقّع للخيانة، ولا مستعدٍّ لمواجهتها! ويا ليته اكتفى بهذا، بل أرسل إلى ملكة قشتالة- وهي تحاصرنا في مالقة- بالعديد من الهدايا الفخمة من الحرير الوثير وصناديق العطر العربي وكئوس الذهب الغالية مع أربع جوارٍ من أجمل جواري الحمراء، كما أرسل إلى زوجها فرناندو أربعة خيول عربية بسروجها الفاخرة المزركشة بكلّ نفيس مع سيفٍ وخنجر مطعمَيْن بالجواهر الغالية، إلى جانب مجموعة من الأثواب الفاخرة» (تنهمر الدموع من عيني محمد قبل أن يتابع حديثه): «يفعل هذا بينما أهلُ مالقة قد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وصاروا يأكلونَ لحوم الخيول والقطط والكلاب، بل إنّهم صاروا يصطادون الفئران ليقتاتوا بها».

أبو عبد الله: «ألهذا الحدّ ضاقت عليكم مالقة؟».

محمد:«بل أكثر مِن هذا يا سيدي، وممّا يحزّ في النفس أن نشاهد بأعيننا سفنَ المسلمين وهي تحمل المؤن والأغذية، ليس لإيصالها إلى أهل مالقة، بل إلى أعدائهم، فبينما نتضوّر نحن داخل مالقة جوعًا، إذ بأبقار المسلمين وأغنامهم تُهدى طوعًا إلى القشتاليّين المحاصرين لنا... يا سيدي إنّ البندقية تزوّد قشتالة بالبارود، بينما تزوّد صقلية والبرتغال وجنوة القشتاليّين بالرجال، ولكن هذا لم يزعجنا، لكنّ ما أزعجنا هو إسهام ملك غرناطة في مضاعفة معاناتنا بكلّ ما يستطيع. سيدي لقد تركت أهلي في غرناطة وذهبت إلى مالقة لإنجادها، ولمّا رأيت ما رأيت مِن تكالب الأوروبيّين علينا وتجمّعهم ضدّنا، وجدت أنّ الأصلح لنا أن نستغيث بملوك المسلمين، وما وجدت فيهم أقربَ منكم.. كنتُ أنتوي جمعَ ما أستطيع من رجالٍ متطوّعين ودخول مالقة بهم، أما وقد علمتم نيتي فأرجو أن يكون الغوث أكبرَ ممّا جئت من أجله».

أبو عبد الله محمد الثابت: «أتريدني أنْ أخرج بجيشي لإنجادكم؟».

محمد: «مثلما بنى جدُّكم قصره مكان خيمة ابن تاشفين، فحريّ بكم يا سيدي أن تفعلوا فعلَ ابن تاشفين، وتنقذوا ما تبقّى من الأندلس».

أبو عبد الله: «يفعل الله ما يريد»، ثمّ أمرَ بفكّ القيود عن محمد والإحسان إليه.

ومِن تلسمان توجّه العطّار إلى تونس، كي يكمل ما بدأه من الاستنجاد بملوك المسلمين، علَّ الغيرة على إسلامهم تتحرّك فيفعلوا ما فعله ابن تاشفين قبلهم.

أمّا أبو عبد الله الثابت بن المتوكل، فقد استشار وزيرَه ابن غنّام فيما سمعه من محمد العطّار فأجابه الثاني بقوله: «إنّ هذا رجل نبيل يا مولاي، لكن لا علمَ له بالسياسة، فمالقة ساقطة لا محالة، ولن يستطيع أحدٌ، كائنًا مَن كان أن يقف في وجْه القشتاليّين والأراجونيّين، فما بالك يا سيدي وقد اجتمعت كلّ أوروبا لإسقاطها! لذلك لا جدوى ممّا يفعل، فضلًا عن تربّص محمد الشيخ الوطاسي بنا مع سابق عداوتنا مع الحفصيّين أصحاب تونس، إذْ مازالوا يروْن أنّ تلمسان جزءٌ من مملكتهم، فنحن يا سيدي محاصرون بالحفصيّين في تونس وبني وطاس في المغرب الأقصى وسفن القشتاليّين المرابطة في شواطئنا».

أبو عبد الله (بعدما اكتأب وجهُه): «إذًا فلنتركه يجمعُ ما استطاع من متطوّعة».

ابن غنام: «إني أخشى يا مولاي أن يعلمَ ملكُ قشتالة بخروج بعض المتطوّعين من تلسمان، فيَعُدّ ذلك إعلانَ حربٍ عليه، ونحن لا طاقة لنا به، خاصة مع وجود كلّ تلك السفن الرابضة أمامنا، لذا يا سيدي علينا أن نمنع خروج المتطوّعة من أرضنا، وبذلك نبعدُ الشبهة عنا! وللمزيد من الحرص والحيطة أرجو أن يسارع مولاي بإعلان تبعيّته لقشتالة، وبذلك نضمن الأمان لنا وللمملكة».

أبو عبد الله: «فكرة صائبة أيها الوزير، إذًا أرسلْ إلى ملك قشتالة بعزمنا عقدَ الحلف معه، وأننا نعمل هنا بمقتضى إرادته، واطلبْ إليه أن يرسل لنا حاميةً قشتالية يضعها في أيّ مكان أراد في تلمسان، وأخبره أيضًا أننا نقبل أهلَ مالقة نازحين لدينا».

***

.٧٠.

المعسكر القشتالي والسفراء

كانت رائحة الدخان مخلوطةً بالشواء تملأ المكان، والحرائق منتشرة هنا وهناك، وألسنة اللّهب تطلّ من كلّ مكان، والمدفعية القشتالية تصبّ حَمَمَها على أهل مالقة، وبينما الأمرُ كذلك إذ يصلُ إلى معسكر القشتاليّين وفدٌ آتٍ عبر البحار من بلاد المسلمين خلف المتوسط. في أول الأمر شكّ فرناندو أنه وفدٌ جاء ليتفاوض لفكّ الحصار، أو يقدم مغريات تسوِّغ له رفع الحصار أو محاولة رفعه! ولكنّ الحقيقة كانت مختلفة تمامًا، فالوفدُ جاء لينصر قشتالة ضدّ مالقة، ينصرُها على الرغم من أنّه يمثل بلادًا تتفق مع المدينة المحاصرة على دين واحد. وكانت هذه هي المعادلة المؤلمة التي تكرّرت في تاريخ الأندلس مرارًا!

استقبل الملكان القشتاليّان وفد «تلمسان» بحفاوة بالغة، وحاولا إظهار تلك الحفاوة لأهل مالقة الرابضين والمراقبين من فوق الأسوار، وكان ردّ فرناندو على تلك السفارة أنْ قال للرسول:

«أخبر مولاك أنّنا نقبل منه طلبَ الحماية، وعمّا قريب سنرسلُ إليه فرقة من الجيش القشتالي تعمل معه وبأمره، أمّا الهدايا فقد قبلناها، ثمّ أمسك فرناندو بسيفٍ من سيوفه وأعطاه للرّسول، وقال له: هذا السيف هديةٌ مني لملك تلمسان مع هذه القطعة الذهبية. وسنبلغ جنودَنا في البحر، باحترام العلم التلمساني وعدم الاعتداء عليه أو مسّه بسوء».

غادر السفير التلمساني المعسكر، وهو يشهد حصارَ أهل مالقة وعذابهم، بل إنه وسيده أصبحوا من أسباب عذاب مالقة وأهلها!

لم يكد فرناندو يفرغ من لقائه بوفدِ تلمسان حتى وفدَ عليه زائرٌ آخر، ولكنه هذه المرّة زائر من بلاد قريبة. إنه وفدُ أبي عبد الله الصغير ملك غرناطة، الذي لم يكدْ يسمح له باللّقاء حتى انحنى جميعُ رجاله، وقبّلوا يدَ فرناندو وهُم صاغرون، بعدها تحدّث كبيرهم فقال: «قد علم مولاي أنّ أميرنا خرج لصدّ جيش عمّه صاحب وادي آش، ومنعه من إنقاذ مالقة، مظهرًا بذلك كلّ الإخلاص لتاج قشتالة. لكنّ فعلته تلك أفقدته ولاءَ أقرب الناس إليه، وصار الناس في غرناطة يتداولون كلامًا قاسيًا عنه، إذْ يتهمونه بالخيانة، ممّا أفزع مولاي وقضّ مضجعه، ولأنه تابع لكم يا سيدي، إذ يعتبر نفسَه عاملَكم ويَحْكُم باسْمِكم، فقد أرسلني إليكم لأبلغكم بحاجته إلى المساعدة العسكرية، كي لا ينتفضَ الشعبُ عليه، ومولاي الملك يعلمُ أن الانتفاضة قد تعني عودةَ الأمر إلى أبي عبد الله الزّغل».

فرناندو: «إنّ قشتالة لا تنسى مَن أحسن إليها، لذلك فعُدْ إليه أيها الرسول، وبشِّره بأنّنا عمّا قريب سنرسل إليه قوةً من ألفي رجل بقيادة فرناندزغوانزافو أوف قرطبة فارس قشتالة الأكبر. فليستعنْ أميركم به وبقوته، وليطرد كلّ مناوئ له».

تمّت الرسالة، وخرج السفير يحمل البشرى إلى سيّده القابع في الحمراء، فإذا بعلامات الحزن تظهر على وجْه مركيز قادش، وقد لاحظ فرناندو ذلك فبادره بقوله: «ما بك يا رودريغو؟ أما زلت حزينًا على مقتل أورتيغا؟ أم هو جرح أخيك فونس دي ليون؟».

مركيز قادش (متنهّدًا): «أمّا أخي فقد قارب الشفاء، وأمّا أورتيغا فقد قدم حياته شهيدًا من أجل قشتالة، وسأظلّ أمدَ الدهر أتذكّر أنه صاحب الضربة الأولى في مملكة غرناطة، عندما تسلّق بحباله أسوار الحامة، فقصمنا بأخذها ظهور المسلمين».

فرناندو: «ها، فلمَ السكوت إذًا؟».

مركيز قادش: «إنه التفكير يا مولاي في أمرِ هؤلاء المسلمين الذين نحاصرهم هنا في مالقة ويكبدوننا خسائر يومية فادحة، ونعرض عليهم التسليم مقابل الأموال فيرفضون في إباءٍ عظيم متخيّلين ومتصوّرين أن بقية المسلمين مِن حولهم سيتعاطفون معهم أو ينقذونهم، بينما أولئك لا هَمّ لهم إلّا ممالكهم وعروشهم.. يا لتفاهتهم، يتكرّر معهم الحدث فلا يستفيدون منه ويصرّون على أن يكرّروا أخطاءهم!».

وبينما ينشغل مركيز قادش مع الملوك الكاثوليك بأخبار المسلمين، إذْ نجح حامد الثغري وقواته في إغراق عدّة سفن قشتاليّة، وقتل المئات من الجنود، وجرح الكثير منهم، وما كادَ الخبر أنْ يصل لفرناندو حتى استشاطَ غضبًا على غضب، وأقسم فوقَ أيمانه القديمة ليحرقنّ المدينة وأهلها.

***

أوشكت الأقواتُ أن تنفد داخل المدينة التليدة، واضطرّ أهلها إلى أكل الخيول والقطط والكلاب، بل إنّهم اصطادوا الفئران وسلخوها ثمّ اتّخذوها طعامًا. حدث ذلك بينما ينعم القشتاليّون خارج الأسوار بكلّ النعم، ويمدّهم حاكم غرناطة «أبو عبد الله الصغير» بالمؤن بين الفيْنة والأخرى.

أصدرَ الثغري أوامره بأن تكون كلّ مصادر المدينة من حقّ الجيش، لذا فقد أمرَ بجمع الحنْطة والشعير من مخازن التجار وبيوتهم، وعمدَ إلى توزيعها بالتساوي على أهل المدينة، وقد أثار هذا التصرف حقدَ التجار والأغنياء على السواء، وبدأ التذمّر يشيع بينهم، ويتحدّثون في أمر إنهاء الحصار قبل أن يموتوا جوعًا خلف هذه الأسوار، وكان عميدُهم في ذلك هو علي دردوش الذي كان يجتمع مع أقرانه من التّجار والأغنياء ليؤلّبهم على الثغري ورجاله في اجتماعات سريّة بعيدة عن أعين الوشاة والعسَس، أمّا في الظاهر فقد كان علي دردوش دائماً ما يلبس الحديد ويتسلّح بالسهام ويدّعي أنه مستعدّ للموت في سبيل مالقة وتحت أسوارها.

كان علي دردوش دائمَ التفكير في تخليص المدينة من الثغري وقبيلته، ولكنّه كان في الوقت نفسه يخشى سيوفهم، وكان أيضًا يرى أن في استمرار الحرب كسادًا عظيمًا لتجارته، فجلس يحيكُ المؤامرات والدسائس ويشتري ضعافَ القلوب مِن أهل مالقة، ويبثّ فيهم دعواته إلى الاستسلام، ويبثّ فيهم أنّ الثغري ورجاله هُم سبب تعاستهم وبؤسهم، فكان يتحدّث في مجالس سرّه وخاصّته ويقول لَمن يثق بهم: «لماذا يتعيّن علينا أن نجعل مِن مدينتنا ساحة حربٍ لهؤلاء البرابرة الغرباء من الشاطئ الأفريقي من شذاذ الآفاق؟ فليس لدى هؤلاء عائلات ليرعوها هنا ولا أموال ليخسروها ولا هُم يحبّون مدينتنا، ولا حتى يحبّون حياتهم وأرواحهم، فهُمْ يقاتلون تعطشًا للدّماء أو رغبة في الثأر، ممّا سيفضي بمالقة إلى الخراب والدمار، وسيقود شعبها إلى الذّل والرّق، لذا يجب علينا أن نفكّر بخلاص أنفسنا وأولادنا، فنفاوض القشتاليّين قبل فوات الأوان».

زياد المالقي: «لقد فتكَ الجوع بالأطفال والنساء، ولم يبقَ في المدينة شيء يصلح لسدّ رمق الجوعى، حتى ورقُ الشجر لم يعدْ متاحًا لهم، وجلود الخيل ولحوم الكلاب نفدت.. فإلى متى نظلّ هكذا، نموت جوعًا مِن أجل لا شيء؟!».

قرّر علي دردوش أن يتفاوض بشكلٍ سرّي مع القشتاليّين، فجمع مِن حوله مَن يثقُ بهم، كما تحدّث إلى إبراهيم الحارث فقيه الجامع الكبير، فوجدَ فيه ميلًا إلى التسليم، بل ذهبَ إلى أكثر من

ذلك حينما ادّعى أنّ في الحرب إلقاءً بالنفس إلى التهلكة! ممّا يعني أنّ عدم التسليم يحمل تحدِّيًا لأوامر الشرع وخروجًا على أحكامه!

استغلّ علي دردوش فتوى إبراهيم الحارث، وبثّها في عموم الشعب، وفي الوقت نفسه اتّفق مع الجاسوس «زياد المالقي» على خطة ينفّذانها، وكانت الخطة تقتضي أنْ يراسلا الملكيْن القشتاليّين يخبرانِهما أن علي دردوش وكبار معاونيه من التّجار سيسمحون لجيشهما بأنْ يدخل المدينة، إذا هُما أعطياهما الأمانَ على أرواحهم وممتلكاتهم، مستغلّين حراستهم لهذا القطاع من السّور، إذ سيفتحون لهم الأبوابَ في غفلةٍ مِن رجال الثغري، وكان القرارُ أن يخرج زياد المالقي حاملًا بنفسه تلك الرسالة الخطيرة، ذلك لأنّ عليًّا ورفاقَه لا يمكنهم الوثوق بغيره، كما أنّ زيادًا قد أبلغ من قبلُ رسالةً لمركيز قادش، وهو كذلك يعرف القشتاليّة جيدًا، كما أن له أصحابًا في المعسكر القشتالي يسهّلون مهمّته.

وهكذا تمّت الخطة، وقد كان الجميع يعلمون أنّ موتهم سيكون قريبًا جدًّا إن اكتشف الثغري أو رجالُه خطتهم، لذلك حرصوا على وضعها تحت ستار كثيفٍ من الكتمان.

وبعد أيام، خرج الجاسوس «زياد المالقي» مِن قطاعهم بأمان، حتى وصلَ إلى خيمةِ فرناندو وإيزابيلا، الرّاغبين في أخذِ المدينة من دون مزيدٍ مِن سفكِ دماء جنودهم، لهذا فقد أعطيا ذلك الجاسوس أمانًا خطيًّا له ولأصحابه، وأُبرِم الاتفاق على أن تكون اللّيلة المقبلة

هي موعدَ التنفيذ، إذ ستتقدّم مجموعة من أشجعِ فرسان قشتالة، يقودُهم مركيز قادش، وعند منتصف اللّيل سيقفون أمام الباب المكلّف بحمايته علي دردوش ورفاقه، وبإشارة محددة ستُفتَح الأبوابُ ليدهمَها القشتاليّون، وبذلك تسقطُ المدينة.

خرجَ زياد المالقي من معسكر القشتاليّين، واتّجه عائدًا أدراجَه إلى أسوار مالقة، محاولًا عدمَ لفت أنظار حُراس الأسوار من المسلمين، لكنّ عودته إلى المدينة وافقت دوريّة كان يقوم بها جندُ غمارة الذين كانوا يسْهرون على مراقبة أطراف الحصن، فظنّوه جاسوسًا أتى من معسكر الأعداء، فألقوا القبضَ عليه وسحبوه أمام مَن أرسله، وعند باب الحصن فرّ منهم متجهًا إلى معسكر القشتاليّين، فأطلق عليه الجنودُ سهمًا وقع بين كتفيه فسقط صريعًا، وحين ركضوا خلفه قام مهزومًا متّجهًا ناحية القشتاليّين وهو ينزف، فتوقّف المسلمون عن مطاردته، ليشكر «علي دردوش» وأصحابُه التجار ربَّهم على إنقاذهم من هذه الكارثة التي كانت ستفضي إلى قتلهم لا محالة إنِ انْكشف اللثام عن أسرارها، وظهر مدبّروها وانكشفت نواياهم.

حاول القشتاليّون معالجةَ زياد من جرحه الغائر، ولكن دونَ جدوى، فقد لفظ آخرَ أنفاسه متأثرًا بجراحه بعد بضع ساعات من وصوله إليهم، ليلقى ربّه خائنًا لم ينعم بخيانتِه، خاسرًا دنياه وآخرته في آن.

تناهت أخبارُ فاجعة مالقة إلى أسماع كلّ بلاد المسلمين، وصلت إلى مماليك مصر، وإلى بني وطاس في المغرب الأقصى وإلى الحفصيّين في تونس، وإلى العثمانيّين في إسطنبول، ولكن أحدًا منهم لم يأبَهْ بالفاجعة ولم يحرك لها ساكنًا، فالكلّ منشغلون بمصالحهم الشخصية وعروشهم، أمّا بنو وطّاس فقد انشغلوا بأنفسهم وحروبهم البائسة مع جيرانهم، فضلًا عن فشلهم الذريع في استرداد «سبتة» المحتلّة من قبَل مملكة البرتغال، أمّا الحفصيّون في تونس فقد هرِمت دولتهم، ولم يكن الهِرم وحدَه هو السبب وراء عدم انتفاضهم لنجدة مالقة، فهم قديما وفي أوْج فتوّتهم لم ينقذوا إشبيلية أو بلنسية، فلماذا يفعلون الآن؟ أمّا مماليك مصر وأتراك إسطنبول فتحجّجوا ببعدِ الشقة وطول المسافة وعدم وجود طريق بريّ بينهم وبين الأندلس!

سمع الجميع النداء، وأداروا له ظهورَهم، بل وضعوا أصابعهم في آذانهم، ولم يلبِّه غيرُ شيخٍ مسنّ، من جربة في تونس، يُدعَى إبراهيم الجربي. كان الجربي يعيش في وادي آش، وقد شهد بنفسِه محاولات الزّغل لإنقاذ المدينة، وبارك الجيشَ الخارج لتلك المهمة العظيمة، لكنه ما لبثَ أنْ رآهم عائدين ممزّقين يطردهم ويمنعهم أبناءُ جلدتهم من جيش الصغير، لذا فقد قفلَ الجربيُّ إلى بيته حزينًا وأغلق بابه على نفسه، ولم يعدْ يريد أن يلتقي أحدًا.

كان إبراهيم الجربي من أقطاب التّصوف في زمنه، وكان خفيفَ الشحم دقيقَ العظام والملامح، يقضي جلّ وقته في الصلاة والتأمل،

ولهذا كان سكان وادي آش يعتبرونه من الرجال الملهَمين، يسمعون كلّ كلامه ويطيعونه ويطلبون دعواته ويتبرّكون به، وكانوا يطلقون عليه لقب «القطب».

حاصرت الأحزانُ الجربي، وضربت حوله طوقًا من العزلة عمّا يجري من حوله، وكادت تفضي به إلى حافة الاكتئاب والإحباط، فكيف ببلد مسلم يحاصره الأعداء بيد الأصحاب وبمعاونتهم؟!

لاحظتْ زوجة الجربي حالتَه، وانقطاعه عن الدنيا، وبعد عدة محاولات بدأ ينصتُ لحديثها، فقالت له: «ما الذي سيستفيدُه أهلُ مالقة من عزلتك وحزنك عليهم؟».

الجربي (مطرقًا لا يكاد يفتح عينيه): «وكيف لا أحزن وأنا أرى إخواني يحاصَرون ويموتون عطشًا وجوعًا، بينما لا يشعر بهم أحد، بل نحن ساعدْنا في حصارهم بما فعله ملوكُنا تجاههم، فهذا يراسل ملك قشتالة يشتري ودّه، وذلك يرسل إليه بالمؤن والعلوفات، ولا أحدٌ منهم تذكّر مالقة ولو بكلمة، على أني لو أملك غير الحزن لقدّمته، ولو كانت حياتي ثمنًا لحياتهم لفدَيْتهم بها».

زوجته: «بل تملك. فالناسُ مِن حولك يُجلونك ويقدّرونك، ولو أمرتهم بالخروج لخرجوا، فلماذا لا تفعل؟».

قالتْ له هذا الكلام، وخرجت بعدما لاحظتْ أنه مُصرّ على إطراقه وسكوته مِن دون أن يحير ردًّا.

أمّا الجربي فقد كان سكوته- الآن- يخفي وراءَه تفكيرًا عميقًا في كلام زوجته، فكأنّه كان يحتاج إليها كي تدير وجهَه- ولو عنوةً- إلى الجهة الأخرى ليفكر بطريقةٍ مغايرة، وسرعان ما تفحّص الأمر، مسائلًا نفسه: «كيف لم أفكّر في أمرٍ كهذا من قبْل؟». اتسعت عينا الجربي، وطال صمتُه، لكنّه هذه المرة صمتُ المفكّر الثاقب، المقلِّب الأمورعلى كلّ وجوهها، المنصرف بكليّتِهِ إلى تأمّل وتوقع الأحداث في الأيام المقبلة، بل والمشاركة في صنعها!

لقد كان حديث زوجته له كالطارق الذي يأتي فجأة، وبلا موعد، فيغير مفردات الواقع أمامك، حتى ليبدو جديدًا كأنّك تراه أول مرة، أو كالإلهام الذي يشرق بغتة فيغيّرك ويأخذ بيدك إلى طريق آخر غير الذي تعودتَ السيرَ فيه من قبل!

فجأة، ظهر الجربي مرة أخرى في شوارع «وادي آش»، وقد زاد تجردًا، وزادت عيناه تألقًا، ونادى بصوت جَهْوَري في الملتفّين حوله الذين يثقون بحديثه: «مَن منكم يبايع على الموت في سبيل الله؟».

قالها ولم ينتظر كثيرًا، وهو يطالع وجوهَ المجتمعين، حتى بايعه أربعمائة رجلًا من أهل وادي آش على الموت في سبيل الله، وعلى السمع والطاعة له.. فقرّر الجربي أن يخرج بهؤلاء النّفر لإنقاذ مالقة، وإثارة الذّعر والخوف في صفوف الجيش القشتالي!

قطع الجميع شعابَ الجبال الموحشة، وهُم يختبئون نهارًا ويسيرون ليلًا، ليتجنّبوا عيونَ الجواسيس المُناصرين لقشتالة، وليتخفّوا أيضًا

من كشافة فرناندو وطلائع جيشه. وبعد ليلتيْن وصل الجربي ورجاله إلى حيث معسكر القشتاليّين، ومن فوق أحدِ الجبال المطلّة على مالقة ومعسكر القشتاليّين، وقف الجربي ورجاله يشاهدون المدافع، وهي تدكّ المدينة بقذائفها، والدخان يتطايرُ من الأسوار، فمسح الجربي على وجهه، وفكّر في كيفية الوصول إلى المدينة المحاصرة، فهداه تفكيرُه إلى أن يصلَ إليها عن طريق مخيم «مركيز قادش»، أو بالقرب من الشاطئ.

قضى الجربي ليلةً أخرى في دراسة الموقف، وقرّر الهجوم على المدينة وقت الغروب. وفي الساعة المحددة انطلق رجال الجربي ناحية الأسوار، ونجح ٢٠٠ منهم في اختراق صفوف المحاصرين والدخول إلى المدينة، لكن الجربي لم يكن معهم ولم يكن أيضًا ممّن فشلوا في اختراق الصفوف، إذ إنّه وقت المعْمَعة هامَ في أعالي الجبال المطلّة على معسكر القشتاليّين! واستغرق في الدعاء لله مبتهلًا أن تنجح خطتُه، ويُكتب لها النصر.

بعد انتهاء هذه المعركة الصغيرة، ركض القشتاليّون بحثًا عن الفارّين، والتأكد ممّا إذا كان يتبعهم أحد، أمْ أنّ هؤلاء هُم جميع المهاجمين. ووسط بحثهم وجدوا الجربي فلم يحرّك لهم ساكنًا، ولم يأبَه لوجودهم، وتعمّد تجاهلهم وكأنّه حجر ثابت، فأثارت ردّة فعله الجنود القشتاليّين، فاقتادوه إلى مركيز قادش وهُم مندهشون من ثباته وشجاعتهِ، بينما يلقي إليهم بنظراتهِ في غير اكتراث أو مبالاة.

ما كاد الجندُ يقفون بالجربي أمام مركيز قادش، حتى نظر الأخيرُ إليه في ارتياب محاولًا أن يفهم مَن هو، لذا فقد بادر بالسؤال:

مركيز قادش: «مَن هذا؟».

الجندي: «بينما كنّا نطارد الفارّين، ونبحث عنهم في منعطفات الجبال، وجدنا هذا العربي وهو يصلّي ويرفع يديه إلى السماء، فلّما اقتربنا منه لم يأبَه بنا ولم يحرّك ساكنًا، ولم ينبس ولو بكلمة واحدة، فارتبنا فيه، ووجدنا أن نحضرَه إليك سيدي».

مركيز قادش: «آه.. خيرًا فعلتم».

ينظر مركيز قادش إلى الجربي في اهتمام، ويدور حوله يشاهد هيئته، لكن الجربي لا يبادله الاهتمام ذاته، بل لم ينظر إليه بالأساس، ثمّ يسأله مركيز قادش:

«مَن أنت أيّها الرجل؟ وما الذي أتى بك إلى هنا؟».

الجربي: «أنا واحدٌ من أولئك البشر الذين لا يريدون شيئًا من هذه الحياة».

مركيز قادش :«ولِمَ جئت إلى هذا المكان؟».

الجربي: «جئتُ لأشاهد المستقبل كيف يُصنَع!».

يردد مركيز قادش كلمة «المستقبل» في تعجّب، ثمّ يقول له: «وكيف لك أن ترى المستقبل؟ ولماذا هنا بالذات؟».

الجربي: «أمّا لماذا هنا؛ فلأن المستقبل يُصنع هنا، أمّا كيف لي أن أراه فهذا سرٌّ بيني وبين ربي».

مركيز قادش: «هل أنت مِن أهل هذه البلاد؟».

الجربي: «وهل سيختلف الأمرُ معك إن كنتُ من الأندلس أو مِن المغرب؟».

مركيز قادش: «لا. ولكنّ ثيابك تشي بأنّك مغربي».

الجربي: «لا تسألني عن أشياء لن تفيدك».

مركيز قادش: «إذًا، إن كنتَ ترى المستقبل حقًّا، فأخبرني متى ستسقطُ هذه المدينة؟». (يشير بيده تجاه مالقة).

الجربي:«لا أستطيع أن أخبرك بشيء عن هذا الأمر، فإن أردتَ أن تعلم متي فأوصلني إلى الملكيْن القشتاليّين، فإني في شوقٍ إلى رؤيتهما».

فكّر مركيز قادش في الأمر، ولم يهتمّ به كثيرًا، فهو لا يصدّق المنجّمين والسحرة، ولكنّه في الوقت ذاته قال في نفسه: «لن أخسر شيئًا إن التقى هذا الرجلُ الملكيْن، فلعله يخبرهما بما يسرّهما، لذا فقد أمر مركيز قادش حرّاسه بأخذ الجربي تحت حراسة مشدّدة إلى خيمة مجاورة لخيمة الملك، لأنّ الملك كان نائمًا، ولا يصحّ إيقاظه، فلينتظر هذا المسلم حتى الصباح. ولمّا كان الجربي لا يفقه القشتاليّة فلم يدركْ أنه ذاهب إلى خيمة مجاورة للملك، وليس إلى خيمة الملك نفسه.

ظنّ الجربي من فخامة الخيمة أنّها الخيمة الملكية، خاصة مع الاحترام الكبير الذي أبداه مَن أحضروه إلى الدّون الفارو أوف بورتوغال صاحب الخيمة، والذي كان وقتها مجتمعًا مع نفرٍ من أصحابه، لذا فقد توهّم الجربي أنّ هذا هو الملك فرناندو، وبعد قليل ظهرت امرأةٌ في الخيمة ظنّ الجربي أنها إيزابيلا، وجلس ينظر إليها وإلى الدون الفارو في اهتمام وترقّب. وبعد قليل، طلب الجربي الماءَ ليشرب، ويروي ظمأه، حيث كان القيظ شديدًا، فقام أحدُ الجند بفكّ قيوده، وناوله قربةً من ماء، وبينما كان يتظاهر برفع الماء إلى فمه، رمى برنسه المغربي وانقض ساحبًا سيفًا كان يُخفيه، ومع سقوط الجرّة إلى الأرض سقط سيفُه بقوة على رأس الدون الفارو ليقعَ على الأرض مفارقًا الحياة، ثمّ التفت إلى الجارية ليضربها لكنّها نجتْ بفضل ارْتباكه، قبل أن يهجم عليه الجنود ويقطعوه إربًا.

أحدثَ هذا الأمر صخبًا كبيرًا، وصل إلى خيمة الملك، الذي خرج من فوْره ليعلم ما الأمر، فإذا بالدّماء تنساب هنا وهناك، ولمّا قصوا عليه القصة ارتعَب، ولم يكدْ يبلعُ ريقَه من هول معرفته أنه وزوجته كانا هُما المقصوديْن مِن هذه المحاولة، لذا أمر بأنْ يقذف جسدُ هذا العربي عن طريق عرادة إلى داخل مالقة، ومِن ثمّ صدرت الأوامر الملكية بتشديد الحراسة، وبألّا يدخل على الملك أيّ غريب قبل تفتيشه، وألّا يدخل عليه أحدٌ بسلاحه مهما كان شأنه!

***

٨٠

استشهاد مالقة

على الرغم من تفوّق الجيش القشتالي الظاهر في العدة والعدد، وعلى رغم الإمدادات الهائلة التي تأتيه من كلّ مكان، فإنه فشل في التقدّم نحو مالقة، وكانت كلّ محاولاته لاقتحام المدينة تعودُ عليه بخسائر فادحة، وفي كل تقدّم يخسر آلاف الجنود والمعدات، لذلك أرسل فرناندو إلى كلّ أنحاء قشتالة وأراجون يطلب المددَ، ويحفز المتطوّعة على المجيء والمشاركة في هذه الحملة المقدسة، التي طالت أكثرَ ممّا كان يتوقّع. فهبّت إليه أعداد غفيرة من المتطوّعة من البرّ والبحر، وكان فيهم أعدادٌ كبيرة من اليهود، الذين قدّموا عشرين ألف قطعة ذهبية، وطلبوا إلى الملك أن يقدّمها لحامد الثغري، ليسلم المدينة كي تُحلّ تلك المسألة، وبالفعل راسل فرناندو الثغري، ولكنّ هذا الأخير كعادته رفضَ بكلّ إباء.

على رغم كلّ هذه الإمدادات فقد استهلّ فرناندو حربَه بهزيمة أخرى، كما نجحَ المسلمون في إغراق بعضِ قطع من الأسطول القشتالي المرابط قبالة مالقة، وذلك عن طريق السبّاحين المسلمين، الذين نجحوا في ضرب تلك القطع بالبارود المتفجّر.

قرّر فرناندو التضحية بجزءٍ من جيشه، إذ رأى أنه لا بدّ من اختراق تلك التّحصينات الشديدة للمسلمين، وما دامت أبراج المدينة قائمة فستقاوم إلى الأبد، لذا فقد قرّر فرناندو هدمَ الأبراج

مهما كلّفه الأمر، فأمر قواته بالتقدم ناحية الأبراج وضربِها بالمدافع ووضع البارود أسفل جدرانها، ثمّ تفجيرها.

استماتَ المسلمون في الدفاع عن أبراجهم، وأوسعوا القشتاليّين قتلًا وجرحًا، ولكنّ القشتاليّين لم يلتفتوا لقتلاهم، بل تقدّموا على جثثهم والبرك التي سالتْ مِن دمائهم، وتحتَ وابلٍ من النيران وطلقات المدافع والسهام؛ نجحَ القشتاليّون على رغم كلّ هذه الصعاب في الوصول إلى أحدِ الأبراج وفجّروه بمَن عليه من المسلمين، الذين أصابهم الهلع فتدافعوا مذعورين إلى الأبراج التالية، وكانت معركة لم يشهد التاريخ مثلها، مئات من المسلمين يحاربون آلافًا من الجنود القشتاليّين المدجّجين بالدروع والبنادق الطويلة، ومع ذلك فقد رجحتْ كفّة الجيش القليل، لولا نجاح القشتاليّين في تفجير البرج في نهاية المطاف.

***

شحّت الأقوات داخل المدينة، وتفشّت المجاعة بصورةٍ مُخيفة، واختفتْ الخيلُ والحمير والقطط والكلاب وكلّ أنواع الحيوانات مِن المدينة، ومات البعض جوعًا، وفرَّ البعض واستسلم للقشتاليّين نظيرَ لقمة أو كسرةِ خبز يطعَمها، وأخيرًا اجتمع الكثيرُ مِن أهل نساء مالقة وبعض رجالها، والْتفّوا حول «علي دردوش»، وطلبوا منه أنْ يمثلهم ويتوسّط لهم عند الثغري كي يستسلم، بعد أنْ فتكَ الجوع بهم وأطاحَهم إلى حافة الهلاك، متخيّلين أن القشتاليّين سيمنحونهم الحياة والنعيم!

كانت هذه اللحظة هي الأهمَّ في حياة علي دردوش، فلأول مرة منذ الحصار يشعرُ بأنه سيّد الموقف، وأنه ندٌّ للثغري، وكيف لا والشعب يقف معه ويلتف حوله.

عرّج علي دردوش على الفقيه «إبراهيم الحارث»، وتحدّث الاثنان في مطالب أهل مالقة، وقرّر كلاهما الذّهاب من فوْرهما إلى حيث الثغري، الذي كان وقتها يتابعُ أمورَ الحرب والناس، وقد ظهرت عليه ملامح الضعف والجوع والهزال.

إبراهيم الحارث: «لقد عينّاك باسم الله لا لتقاتل قتالًا يائسًا يؤدي إلى دمارنا، بل للدفاع عن المدينة إلى أنْ تصلها النّجدات، فكم من محاربينا قد سقط بالسّيف من أجل الجهاد، لكنّ الذين يقتلهم الجوعُ من نساء وأطفال يطلبون كسرةَ خبز فلا يجدونها، ونحنُ نراهم يهلكون أمام أعيننا بينما تتكدّس الحنطة عند العدو على مرأى منّا وسط معسكره!! فلماذا نقاوم ولأي هدف؟ وهل أسوارُنا أمنع من أسوار رندة؟ وهل نأمل في أي عون؟ ومِن أين سيأتينا؟ لقد ذهب وقت الأمل، فغرناطة قد فقدت قوتها، ولم يعدْ فيها من فرسانها وقادتها سوى الصغير، وهذا عميلٌ للقشتاليّين وتابعٌ لهم، أمّا مولاي الزّغل فطريدٌ محصور في وادي آش. وهكذا فالمملكةُ منقسمة على ذاتها وقوتها ضائعة بضياع كرامتها، مما يعني أن وجودها كلّه في مراحله الأخيرة، لذلك نستحلفك بالله وبالأمانة التي حملناك إيّاها ألّا تتحوّل أنت نفسُك إلى عدوٍّ لنا، وسلم هذه الخرابة- التي كانت

في يوم من الأيام تسمَّى «مالقة»- لتخليصنا من هذا الرعب الذي لا يطاق، ثمّ ما الفائدة من المقاومة والحرب إن مات أطفالنا ونساؤنا جوعًا؟ لَمن سنحيا إن فقدنا الأهل والولد؟».

استمع الثغري إلى كلمات إبراهيم الحارث في صمتٍ عميق، وبذل أقصى جهدِه كي يتمالك نفسه، وأنْ يسيطر على ما يعتملُ فيه من غضب، لأنه كان يُجلّ العلماء ويحترم الفقهاء، لكنْ على الرغم من كلّ تلك الكلمات التي اجتهد الحارث في تدبيجها وتنميقها لم يتأثر الثغري، الذي يعرف وحدَه أنّ المعاهدات التي تُكتب بالحبر القشتالي مصيرُها الضياع أدراجَ الرياح، فهو يعلم أنّ حبر القشتاليّين باهتٌ ضعيف لا قدرة له على البقاء إلّا سويعات قليلة! لذا فقد قال لهؤلاء الذين يطالبونه بالاستسلام: «صبرًا عدّة أيام، وستنتهي كلّ هذه الشرور، فما زلنا نوقِعُ بهم الضربات تلو الضربات حتى ملّ جندُهم وتسرّب إلى قلوبهم الرعب، ونحن بعدُ نمتلك بعضَ القوة، فلماذا نستسلم قبل أن نُعذَر؟».

امتعضَ علي دردوش من حديث الثغري، وصمتَ على مضض، وازداد حقدُه على الثغري وتمنّى هلاكه، أمّا الفقيه فقد حذر الثغري من أنّ صبره ربما سينفد، وإن حدثَ فسيكون أولَ مَن يحاربه إنقاذًا لأطفال مالقة من هلاكٍ محتوم!

أيقنَ حامد أنّ نهاية الحرب باتتْ وشيكة، فإمّا نصرٌ حاسم وإمّا تسليم سريع، فقد ضجّت المدينة، وهو لا يريد أن ينفد صبرُ أهلها

فيحاربونه فتكون فتنةً عظيمة، لذا فقد جهّز نفسه وجندَه، وقرّر الخروجَ في حرب ومهمّة مستحيلة، وبحلولِ المساء أعطى الثغري الإشارةَ لحمَلة البنادق والسّهام والمدفعية كي يفتحوا نيرانَهم على معسكر القشتاليّين، ولا يتوقّفوا حتى تنفدَ ذخيرتهم أو يستشهدوا، ثمّ اصطحبَ إبراهيم الزيناني وحسن بن زياد، وشجعان مالقة والمتطوّعة، وفُتحت الأبواب، واندفع رجالُ المسلمين يقتلون كلّ مَن لاقوه مِن القشتاليّين، فاجتمع حولَهم أعدادٌ كبيرة تدافعُ عن المعسكر، واستمرّت المعركة طاحنةً لا مستسلمَ فيها ولا جريح، فكلّ مَن سقط جريحًا من المسلمين رفضَ الأسر وأخرج خنجرَه وراح يضرب كلّ مَن يقترب منه مِن القشتاليّين حتى يُقتل.. تساقط أبطال مالقة من حول الثغري، لذا قبضَ على عنان جوادِه وأداره صوبَ باب مالقة، بعدما أثخنَ في قتال القشتاليّين، وما كاد يدخل من باب المدينة حتى واجهته نساءُ مالقة وأمهات وأخوات وأقرباء القتلى والجرحى.. لاقينه بالصراخ والعويل، وهنّ يصبُبْن عليه اللّعنات حين يمرّ بينهن، إلى حدّ أن واحدة منهن ألقت بأطفالها الجياع أمامه قائلة له: «اذْهسهم بسنابك حصانك، فنحن لا نستطيع إطعامَهم ولا تحمُّل صراخَهم وبكاءهم الذي يقطّع أكبادنا». حينها شعر الثغري باستحالة تحمّل عويل النساء ولعناتِهن، وأدرك أنّ مهمته العسكرية قد شارفتْ على نهايتها، خاصة بعدما فقدَ معظم قادته وأصحابه، وقُتل في المعارك صالح ويوسف الغماريان وحسن بن زياد، لهذا فقد ترك الثغري المدينة كي يقرّر أهلُها مصيرها، ثمّ

ذهب مع مَن تبقّى من فرسانه إلى حصن جبل فارو معتصماً به، ورافضًا التسليم والاستسلام.

التفّ أهل مالقة حولَ علي دردوش ظانّين أنه حريصٌ عليهم وعلى حياتهم، واضعينَ مصيرهم ومصيرَ مدينتهم بين يديه، وفي ميدان مالقة الكبير اجتمع الناسُ حول علي دردوش ينتخبونه سيدًا عليهم ومخلِّصًا لهم وواهبًا الحياة لهم ولأسرهم! أو هكذا ظنّوا، وكان في الحضور إبراهيم الحارث الذي افتتح الحديث قائلًا:

«لقد أضحى مصيرُ المدينة بين يديك يا شيخ التّجار».

علي دردوش: «إنها لأمانة ثقيلة أيّها الفقيه» (يقولها ثمّ ينظر إلى عامة أهل المدينة قائلًا): «سنعرض على الملك فرناندو الاستسلامَ بشرط أن يؤمّننا على حياتنا وممتلكاتنا».

استمع أهلُ المدينة إلى كلام علي دردوش بكلّ بشرٍ وسعادة، وهتفوا باسمه عاليًا، وصبّوا لعناتهم على الثغري الذي اعتبروه قد دمّر مدينتهم وقتل رجالهم في حربٍ لا ناقة لهم فيها ولا جَمَل!

بدأ علي دردوش يباشر منصبَه الجديد، وكان أول شيء فعله أنْ بادر بتكليفِ وفدٍ الخروجَ لملاقاة ملك قشتالة، والبدء في مفاوضات التسليم!

خرج الوفدُ رافعًا رايات الرسل، واخترق معكسر القشتاليّين في حراسة مشدّدة، وعند خيمة فرناندو توقّف الوفد طالبًا الإذن

بالدخول لملاقاة الملك، فردّ عليهم «فرناندو» بكلّ تكبّر وتجبّر قائلًا:

«ارجعوا إلى مدينتكم، وأخبروا أهلها بأنّ أيام المنّة والشفقة قد ولّت، فدفاعكم اللامجدي اضطرّنا إلى إسقاط بلدكم بالحرب لا بالاستسلام، لذا فعليكُم الآن أنْ تستسلموا مِن دون شرطٍ أو قيد، ومِن ثمّ الخضوع لقدركم المحتوم، بأنّ تدمَّروا، فمَن يفضّل منكم الموت فسيلاقيه، ومَن يفضل ذلّ الأسر فسيعانيه».

وقعتْ هذه الكلمات على مسامع الوفد وقْعَ الطامّة الكبرى، فاهتزّت الأرض تحت أهل مالقة، واسودّت الدنيا في عيونهم، وضاقت عليهم أنفسُهم، وظنّوا أنْ لا ملجأ مِن ملك قشتالة إلّا إليه، لذا فقد تحوّلت أحلامهم وأهدافُهم من مفاوضته إلى استرْضائه، وبكلّ الوسائل حتى يقبل التسليم منهم! هذا التسليم الذي رفضة الثغري مرارًا وتكرارًا، بل وتمنّاه فرناندو، ولكن بمجرد علمِه بما فعلوه في الثغري، انْقلب عليهم، وعلمَ أن ليس فيهم خير، فمَن يقتل أبطالَه تأكله نعاجُ الغير!

عاد الوفد إلى مالقة بوجهٍ غير الذي خرجوا به، فسادَ الوجومُ أهل المدينة ولاحَ لهم قُرب نهايتهم، وموتٌ محتوم ينتظرهم، وغدرٌ يلوح لا مناصَ منه!

خاف علي دردوش من عاقبة ردّ الملك على الوفد، إذ قد يغضب ذاك الردّ أهل المدينة، فيعودون إلى إعلان الحرب، ويستجيرون

بالثغري المرابط في حصن قلعة جبل فارو؛ لذا قرّر علي دردوش الذهابَ بنفسه إلى الملك للتفاوض والاستسلام، فردّ عليه فرناندو من دون أن يلقاه، بقوله: «أرسلوه إلى الجحيم، وأخبروه أن يعودَ إلى مدينته يتحصّن فيها حتى يأتيه الموت على أسنّة رماحنا وسيوفنا، لا أريد رؤية أي مسلم، إذْ لا مجال الآن إلّا لمحْوهم من فوق الأرض».

ولكي يؤكد أقواله هذه فقد أمر- في الحال- بإمطار المدينة وابلًا من النيران، فزأرت المدافع عاليًا، ولكن مدافع المسلمين ظلّت ساكتة، فلمْ تزأر ولم تردّ!

فشلت سفارة علي دردوش للمرة الثانية، وذاقَ أهل مالقة مرارةَ الخضوع والذّل والهوان قبل أن يلاقوه. وظلّت المدينة يومًا آخر تعاني ويلات الهزيمة النفسية التي تسبّب فيها شعبٌ جاهل، وفقيه من فقهاء الدنيا لا الدين، وتاجرٌ خائن يسعى إلى مصالحه ودنياه بأي ثمن، ولو على حساب دينه ووطنه!

لم ييأس علي دردوش، وفكّر في إرسال وفدِه مرة أخرى، وفي هذه المرة استطاع الوفدُ مقابلة الملك، فقالوا له: «أيها الملك الرحيم، لا نطلب منك سوى الحفاظ على أرواحنا كي نسلّمك المدينة، وأن نخرج منها أحرارًا، فهذا رجاؤنا الذي نتمنّى أن تحققه لنا، وإلّا فسوف نشنق على أسوار المدينة كلّ الأسرى لدينا، وعددهم ١٥٠٠، وبعدها سنودّع النساء والأطفال، ونحرق المدينة ثمّ نخرج إليكم نقاتلكم قتالَ مَن لا يرجو الحياة».

فرناندو: «إن أنتم فعلتم ذلك، وجرحتم أي أسيرٍ مسيحي مجردَ جرح طفيف، فاعْلموا أنه لن يبقى على وجْه مالقة مسلمٌ واحد حيٌّ بعدها، وسنذبحكم جميعًا ذبْحَ النعاج».

وهكذا فشلت محاولات التّسليم الذّليل للمرّة الثالثة، فانقسمَ أهلُ مالقة من جرّاء ذلك إلى قسميْن:

الأول: الجنود، وهؤلاء فضّلوا الموت على الحياة الذّليلة، ورأوا أن يقتلوا الأسرى ويحرقوا المدينة، ويخرجوا للانتقام من القشتاليّين وقتلهم قائلين: «إن كنا سنموت لا محالة فلتكن ميتَتُنا غيظًا لأعدائنا».

أمّا القسم الثاني فنظرَ إلى الأطفال والنساء آملًا الحصول على الحياة.

بعد أن استمعَ للجميع وقفَ علي دردوش خطيبًا فيهم قائلًا لهم:

«فليمتْ بالسيف مَن يريد الحياة به، أمّا نحنُ فسنلجأ إلى ومْضة الشّفقة التي ربّما تكون لا تزال موجودةً عند القشتاليّين، رجاءَ أن يمنحونا الحياة».

قال هذا ثمّ خرجَ إلى المعسكر القشتالي مرةً أخرى، وفي هذه المرة أذِنَ له فرناندو بالمثول بين يديه، وما كانت موافقة فرناندو للتفاوض غير المشروط إلّا نتيجة لخوفه مِن أن يفعلها أهلُ مالقة

فيذبحوا الأسرى، ثمّ يخرجوا ليقاتلوه هو وجنودَه قتالَ مَن لا يرجو الحياة، وفي ذلك خسارة كبيرة له ولجيشه مِن هذه الفئة اليائسة التي ربّما تفعل في جيشه ما لم يفعله غيرها.

وفوْر لقائه الملكيْن القشتاليّين، انحنى علي دردوش وقبّل يدَ الملك، ثمّ بدأ يتملّقهما معًا بادئًا حديثه بالقول:

«أرجو من مولاي ومولاتي التّعطف بقبول هديّتي المتواضعة إليهما، من عطورٍ وجواهر وبضائع شرقية وأحجار ثمينة وأغراض جمعتها في رحلاتي السابقة إلى المشرق، ولم أجد مَن يستحقّها في هذه الدنيا سوى مولاي ومولاتي».

إيزابيلا تنظر إلى الهدايا، وتعاينها، وبعدها تعلن قبولها.

علي دردوش (مواصلًا التملّق): «إنه لكرمٌ منك سيدتي أن تقبلي هدية خادمك علي».

فرناندو (بصلَفٍ ظاهر): «ماذا بعد قبولنا هداياك؟».

علي دردوش: «أرجو من مولاي أن يقبل رجائي بالعفو عن أهلِ مالقة وقبول استسلامهم».

فرناندو: «أمّا العفو عن أهل مالقة فلن نمنحَه لأحد كائنًا مَن كان، لكن عرفانًا منّا بأفعالك ومحاولاتك الحثيثة من قبل لتسليمنا المدينة، فسوف نمنحُك عفوًا خاصًّا بك وبأربعين أسرة تختارها بنفسك من دون أهل مالقة».

تهلّل وجه علي دردوش فرحًا، وتجاهل بقيةَ أهل مالقة، وخرّ على يدِ فرناندو مقبّلًا وحامدًا، بينما يكمل فرناندو:

«لكنْ عليك ترك عشرين من كبار أهل مالقة، رهائن عندنا ضمانًا للاتفاقية».

وافقَ علي دردوش على ذلك، وتنازل عن حقّ أهل مالقة في الحياة أو الخروج الكريم من مالقة، وافتدى نفسه وأهلَه بهم، غير ناظرٍ إلى أطفال ونساء مالقة، ولا حتّى مَن نصَّبوه ملكًا عليهم!

أرادَ أهل مالقة مِن علي دردوش أن يمنحهم الحياة باستسلامهم، فباعهم ليفتدي نفسه، وكأنّه يعاقبهم على تفريطهم في الثغري والتجني عليه، وهو الذي وهبَ نفسه وجنوده للدفاع عنهم وعن كرامتهم.

بعد خروج علي دردوش من مجلس فرناندو، تكلّم مركيز قادش قائلًا: «بهؤلاء الأنذال نفتح البلاد، وتنتهي الحروب، ويقتل الشجعان».

وقد كان مركيز قادش يحتقرُ الخونة ولا يثقُ بهم، ويراهم عبيدَ مصالحهم لا مبدأ لهم ولا كلمة، وكان يرى وجوبَ قتلهم بعد الإفادة منهم!

تحدّد يوم الثامن عشر من أغسطس/ آب سنة ١٤٨٧م للتسليم. وفي الموعد المحدد، كان الفرح يرفرف براياته على أرجاء المعسكر القشتالي، والجنود ينتظرون بفارغ الصبر أنْ يعاينوا تلك المدينة

العنيدة التي أفنت منهم عشرات الألوف، وكان أولُ مَن دخل إلى مالقة من القشتاليّين دون غويتري دي كارديناس قائد جيش ليون على ظهر حصانه، وتسلّم المدينة مع قواتِه باسم ملكي قشتالة وأراجون، وتبعته قوات المشاة ثمّ القادة والفرسان، وبعد قليل رُفع علم الصليبِ مع علم سانتيغو والأعلام الكاثوليكية على صارية برج القصبة، وبمجرد أنْ رأت الملكة الأعلام هناك ركعت لإعطاء الشكر لمريم العذراء وسانتيغو على هذا النصر العظيم، بينما كان الكاردينال الأعظم يغني أغاني النصر على الإسلام (de deum laudamus) أي المجد للصليب في السماء (Gloria in excelsis) ولا للإسلام والهلال.

وبمجرد الاستسلام، تصارع أهلُ مالقة لشراء الغذاء من معسكر القشتاليّين فسمحَ لهم بعد توسّلات ذليلة، وتقدّم الملكان الكاثوليكيّان إلى مسجد المدينة الكبير، وكان قد سبقهم إليه كاردينال قشتالة الأكبر فوضع فيه مذبحًا وطمس المحراب، وحوّله إلى كنيسة في الحال.

شاهد المسلمون تحويل مسجدِهم إلى كنيسة، بقلوبٍ مقهورة، وعيون غارقة في الدموع، وتمنّى كثيرون منهم لو كانوا قضوا نحبَهم قبل أن يروا هذا المشهد، ثمّ دخل فرناندو وإيزابيلا المسجد وهُما يشكران العذراء، لمنحهم هذا النّصر الكبير، وبعد ذلك خرج الملكان إلى قصبة المدينة ومعهم كبار القادة والشخصيات.

أمّا الثغري فقد كان ينظر إلى المشهد مِن أعلى حصن جبل فارو، ويشاهد قوات القشتاليّين وهي تعيثُ في المدينة فسادًا، فاسْودت الدنيا في عينيه وهو يشاهد الصليب يُرفع أعلى المسجد ويحرق الهلال، والترانيم تعلو وتعلو، والأجراسُ تُضرب من حوله حتى تكاد تصمّ الآذان، فنظر إلى إبراهيم بجواره قائلًا له: «لقد وضع أهل مالقة ثقتهم في تاجرٍ عبدٍ لمصلحته، فباعهم بنجاتِه، أمّا نحن فلن توضع في أيدينا الأغلال لنكون جزءًا من صفقته، فحوْلنا حصون منيعة وأسلحتنا قوية بأيدينا، فلنقاتل حتى ندفنَ تحتَ هذه الأسوار، أو نخرج منها لقتال هؤلاء المشركين الذين يدنّسون شوارع مالقة.

لم يردَّ إبراهيم على الثغري، بل التزم الصمت، أمّا بقية الجنود المغاربة، فقد انخفضت معنوياتهم إذ يجدونَ أنفسهم جوعى وعطشى، كما أن مدافع العدو صارت أسفلهم، ويمكنها أن تعصف بهم وتتحوّل القلعة إلى مدفن كبير لهم.

بعد القدّاس الذي حضره الملكان الكاثوليكيّان تحوّلا إلى قصبة المدينة ليتخذاها مقرًّا لإدارة شئون المدينة الجديدة، وبمجرد ولوجِه القلعة أصدر فرناندو عدةَ قرارات ملكية كان أهمها منع كلّ الجنود من الاعتداء على أهل المدينة، حتى يتمّ تطهير المدينة من الثغري الرابض في حصن قلعة جبل فارو.

ضاقت الدنيا على الثغري، وانخفضت الروح القتالية عند أصحابه، خاصة بعدما نفدت الأقوات، وبدأ البعض يموتون جوعًا

وألمًا، كما أن وجود المدفعية الكاثوليكيّة أسفل جدران الحصن، إنّما يعني أن الملكين قادران على إبادة حامد ورفاقه متى أرادا، لذلك وبعد تفكيرٍ طويل قرّر الثغري النزول من حصنه، آملًا أن يكون استسلامه كافيًا ليعفو فرناندو عن أطفال ونساء مالقة، إذْ شعر حامد بأنّ حياته قد أصبحتْ بلا قيمة، فأراد أن يهبَها لفرناندو علّه يرحم أطفال مالقة ونساءها، لذا فقد بادر وأرسل رسوله إلى فرناندو ليفاوضه في أمر التسليم، لكن فرناندو الذي لم يكن يعرف معاني الفروسية ردّ الرسول بكلّ عجرفة وتكبّر، بل أراد أن يتشفّى في الفارس الذي أصلاه نارًا وقتلَ مِن جيوشه الآلاف، وعلى العكس من ذلك فقد كان مركيز قادش يرى حامد الثغري بطلًا مغوارًا يستحقّ أن يعامل بأفضل ما يكون، وعلى كلّ حال فقد ردّ فرناندو الرسول، وقال له: «أبلغ سيدك أنه لن يحظى لدينا بأي شرطٍ مختلف عمّا أعطيناه لمالقة». قالها هكذا بينما كان يقول في نفسه: «متى ألمحُ الهزيمة في عيني الثغري، وأراه مذلولًا».

مرّت الأيام بطيئة، وصبر فرناندو فلم يضربِ القلعة بالمدفعية، وانتظر أن يقتل مَن بها الموتُ قبل النار، أو يفعلوا مثلما فعلت مالقة، فيسلموا الحصن ويسلّموا الثغري معه.

ماتَ الكثير داخل حصن جبل فارو من الجوع، كما نفدت ذخيرتهم، فما عادتْ أنفاطهم تعملُ ولا بنادقهم تضرب، كما أنّ الجوع بلغ بهم أنهم فقدوا قدرتَهم على حمل السيف، ولهذا قرّر الثغري

الاستسلام آملًا في نجاة الأطفال والنساء معه بالقلعة، ولذلك خرج واستسلمَ بين يدي دي قابرا الذي كان يضطلع بمهمةِ حصار القلعة وحراستها، فأخذَه دي قابرا إلى حيث الملكان الكاثوليكيّان، بعدما وضعَه في السلاسل الثّقيلة.

ومن فوْره أرسل إلى الملكيْن بالخبر، فما كانَ منهما إلّا أن أرادا أن يستمتعا برؤية الثغري، وهو يطلبُ الصّفح منهما والرّحمة، لذا فقد أمرا بأن يدخل الثغري عليهما ولكنْ في قيوده، وبالفعل دخل الثغري وهو يرسفُ في قيودِه الثقيلة، وقد عضّه الجوع فشحبَ وجهُه واصفرّ لونه، وخارتْ قواه.

انتشى فرناندو وهو ينظرُ إلى الثغري بكلّ عجرفة وشماتة ثمّ وجّه حديثه إليه قائلًا:

«كيف تصمد في دفاعٍ لا طائل منه كلّ هذه المدة؟».

الثغري (متحدثًا في إباء وشمم): «لقد أقسمتُ حين تولّيت المسئولية على الموت أو الأسر دفاعًا عن شريعة ربي وشرف مَن كلفني بذلك، وعلى هذا كنت أطلب من الرجال أن يقفوا معي، ولقد كان الأجدرُ بي أن أموت وأنا بيدي السيف من ذلّ الاستسلام، لولا المجاعة والخوف على هلاك الأطفال والنساء».

ينظر مركيز قادش إلى الثغري نظرةَ إكبار وإعجاب، بينما يرمقه فرناندو وإيزابيلا بنظرةِ غيظٍ وحسدٍ وحقْد.

كاردينال قشتالة: «إنّ الحقدَ الشيطاني عند هذا اللا مؤمن ضدّنا، يحتّم على مولاي الملك أن يوقّع عليه الجزاء العادل الذي يستحقّه».

فرناندو: «لقد قلتَ ما في نفسي أيّها الأب، والآن ضعوه في أغلظ الأغلال، واذهبوا به مسجونًا إلى سجن قرمونة، وضعوه في زنزانة محاكم التفتيش، وأنزلوا به أشدّ ألوان العذاب، أمّا بقية جنوده فحوّلوهم إلى عبيد ما عدا إبراهيم الزيناني فاتركوه لأنّه رفض قتل أطفالنا حين تمكّن من ذلك».

ينظر الثغري في إباءٍ وأنفة ولا يتكلّم ببنت شفة، بينما يخيّم الحزن على وجه مركيز قادش، وهو الذي يقدِّر الفرسان ذوي الخلق الرفيع، وكان يتمنّى أن يعفوَ الملك عن حامد الثغري المقاتل الشّهم.

انتهى كلّ أملٍ للمقاومة باستسلام الثغري، وأمن فرناندو وإيزابيلا على وجودهما في مالقة، لذا فقد قرّرا الاحتفال بهذه المناسبة العظيمة، كما قرّرا إظهارَ ما حاولا إخفاءه منذُ الاسْتسلام، إذ إنّهما إلى الآن لم يخبرا أهل مالقة بمصيرهم، فقد كانت الاتفاقية سريّةً لا يعلم بنودَها من المسلمين غير «علي دردوش».

في مساء الليلة التي أعقبت استسلام الثغري، شيّد القشتاليّون لفرناندو وإيزابيلا خيمةً ملكية كبرى، وكانت على شكل كنيسة، وذلك وسط أكبر ميادين مالقة، وبدأ الاحتفال بتلاوة الترانيم ونشيد الانتصار على الإسلام، بعد ذلك جِيء بالأسرى القشتاليّين فخُفف عنهم، وتلقّوا التكريم اللازم، ورُدّوا جميعًا إلى العمل في

الجيش الملكي، ثمّ أمر فرناندو فأحضروا كلّ مسلم كان نصرانيًّا فأُوقعت بهم أقسى أنواع العذاب، فربطوا بالأخشاب أمام الساحات، وبعدها جرّتهم الخيول إلى أن ماتوا وسط سعادة بالغة واستمتاع كبير من الحضور.. ثمّ أمر فرناندو بإقامة محرقةٍ كبرى أمام الخيمة، ثمّ ربط فيها عددًا كبيرًا من المسلمين من أصل نصرانيّ أو من المسلمين الذين تنصّروا خوفًا من محاكم التفتيش، ثمّ لجأوا إلى مالقة وعادوا إلى إسلامهم، وهؤلاء أشعل فيهم فرناندو النيران بيده، وراح والمقربون منه يطلقون ضحكاتهم اليابسة المجلجلة، بينما أصوات صراخ الحرقى تعلو وتملأ فضاء المكان، ورائحة الشواء تكاد تزكم الأنوف.. كما قرّر الملكان أنّ كلَّ مَن لجأ إلى مالقة من غير أهلها سواء فرارًا من المدن المفتوحة حديثًا أو مَن جاء إليها ليدافع عنها، أنْ يتحوّلوا إلى عبيد، ولهذا أمرَا بتقسيمهم إلى ثلاث مجموعات:

أولًا: تعطى مجموعة منهم لأبناء القشتاليّين كخدم لهم.

ثانيًا: تعطى مجموعة منهم لِمَن ساعد في الفتح من الجيوش الأوروبية غير القشتاليّة.

ثالثًا: تباع المجموعة الأخيرة في الأسواق ويعطى ثمنُهم إلى البابا «إينوسنت الثامن» على أن يساقوا في شوارع روما قبل بيعهم.

كما أمرت الملكة بانتخابِ خمسين امرأة من أجمل نساءِ مالقة، كي يقدَّمن كهديةٍ إلى ملكة نابولي في إيطاليا لأنّها أخت الملك فرناندو، ويجب تكريمها، كما أرسل فرناندو ثلاثينَ حسناء أخرى إلى ملكة

البرتغال، ثمّ قرّرت إيزابيلا أنّ للعاملين في البلاط الملكي الحقّ في اختيار أجمل الأسيرات المسلمات ويتمتّعن بهنّ، ومَن أعجبته امرأة مسلمة مِن مالقة، له الحقّ في استعبادها أو اغتصابها متى وأين شاء! ويُقتل كلّ مَن يحاول تعطيل الأوامر الملكية. أمّا اليهود فقد قرّر فرناندو استعبادهم جميعًا، إلّا إذا قدموا أموالًا تفتديهم، ولا يحقّ ليهود قشتالة افتداؤهم، ومَن سيقدم مِن يهود قشتالة مالًا لافتداء يهود مالقة فسوف تذهب تلك الأموال إلى خزانة المملكة، وأمّا بقية مسلمي مالقة فقد قرّر فرناندو أنّهم يخفون الكثير من المال، لهذا أعلن أنّ مسلمي مالقة أمامهم أحدُ خيارين، فإمّا البيع في الأسواق، وإمّا أن يفتدوا أنفسَهم في فترةٍ قصيرة من الزمن، وعلى مَن لا يملك مبلغَ الفدية أنْ يراسل أهلَه في غير مالقة على أن تكون الفدية جماعيّة، بمعنى إمّا أن يستطيع كلّ السكان دفع الفدية، أو أن يسترقُّوا جميعًا!

وبعدَ هذا المشهد المرعِب قرّرت الملكة أن تسكنَ مع رفيقها «روي لوبيز» في قصبة مالقة الرائعة، بينما قرّر فرناندو أن يسكنَ في قصر جبل فارو!!

وفي المدينة السليبة تحوّل أهل مالقة إلى محاولات جمْع الفدية، ولهذا كان الشيوخ والشباب والنساء الحسناوات يذهبنَ إلى القصبة محمّلين بالمال ثمّ يعودون إلى بيوتهم خالي الوفاض، ويقفون في الطرقات بعيون دامعة تنظرُ إلى السماء في تضرعٍ وتوسّل شديدين

وهُم يندبون مدينتَهم ويقولون «يا مالقة، يا أجمل المدن وأبعدهن صيتًا! أين منعة حصنِك؟ وأين عظمة أبراجِك؟ وماذا أفادت أسوارك القوية في حماية أبنائك؟ سيرثي بعض هؤلاء الأبناء لبعض وهُم غرباء مشتّتون في أرض غيرِ أرضهم، ولكن هذا الرثاء لن يلقى مِن الناس إلّا سخرية وهزؤًا».

بعدما تأكّد فرناندو من أنّ المسلمين قد أعطوه كلّ ما يملكون من أموال، أمرتْ إيزابيلا جنودها باستباحة مالقة ونسائها، كما أمرت دوق فيلا هيرموسا بانتخاب أجمل ٥٠٠٠ امرأة مسلمة، وسيقت هؤلاء النسوة إلى البابا في روما وهنّ شبه عاريات وحافيات، ولمّا وصلن إلى روما رفض البابا أن يتسلّم الهدايا ما لم يطفْنَ في شوارع المدينة.

أمّا في القصبة فقد أعطت إيزابيلا أوامرَها بأن تقام حفلةٌ للاغتصاب الجماعي في الشوارع والطرقات، وبخاصة في بهْو القصبة، وجلست مع رفيقها يستمتِعان بسماع أصوات النساء وهنّ يصرخن مُسْتنجدات، إذ يُغتصبْنَ أمام أزواجهنّ وآبائهن، بينما الملكة تطلق هي وخليلُها العنان لضحكاتهما كي ترتفع عاليًا، وكأنها أرادت أن تثبتَ لنفسها أنها ليست وحدَها في ميدان الرّذيلة، فأرادت أن تلطّخ براءة البريئات! ولكن هيهات.. فليست المغتصَبة كمَن زنَت بمرادها، ثمّ ادّعت القداسة.

***

الفصل الخامس

«أين العز؟ وأين المجد الذي كان، والبطولات والفتوحات؟ أين بلاد طارق بن زياد وموسى بن نصير؟ أين نخلة الداخل وقنطرة السمح بن مالك وغزوات المنصور؟ أين زهراء الناصر وشِعر ابن زيدون؟ أين سيف غالب الناصري وسيف المنصور؟ أين رمح علي العطّار وحامد الثغري؟ أين جيوش بن تاشفين تعبرُ البحر وتنقذ الأندلس؟ أين جيوش المنصور تتخطّى المستحيل وتضرب في الآفاق، فتُلقي بصليل نصرها في عنان السماء؟ أين مسجد قرطبة ومسجد طليطلة ومسجد الزهراء والحمراء وإشبيلية وسرقسطة؟ أين قصر الجعفرية وقصور ابن ذي النون؟ أين ذهبت تلك السيوف؟ وأين غاصت تلك الرماح؟ ولماذا لم تصهل الخيل؟ ولماذا يلفّ الأجواءَ كلُّ هذا السكونِ المرعب؟ لماذا انقطع الآذان وانطفأت جذوته، بينما تجلجل الأجراس فوق المنارات، وتشتعل الشموع في صحون الكنائس؟ ولماذا يُكبتُ المسلمون، فتغرز السيوف في صدورهم وظهورهم إلى الجدار؟!».

الزّغل

١٠

في خيمة صغيرة، بالقرب من شاطئ قرية «بني المدينة» ظلّ عامر الغرناطي نائمًا فترة طويلة. ثمّ بدأ يتقلّب كثيرًا في نومه كأنّ كومة من الشوك تُقِض مضجعه، بينما تشي حركات وجهه العابسة بأن نومته توجعه أكثرَ ممّا تريحه. مرّ الوت بطيئًا، وواصل عامر تقلّبه يمينًا ويسارًا، ثمّ فتحَ عينيه بصعوبة، ليرى رجلًا مسنًّا أبيض اللّحية، وهو يغذّي نارًا أسفل قدْرٍ يرعاه، يستفيقُ عامر مِن نومه، ويتساءل مذهولًا: «مَن هذا الرجل؟ ولماذا أنا هنا؟». ثمّ تابع بصوتٍ خافت: «وماذا حدثَ بمالقة؟».

تثيرُ حركات عامر الشيخ، فيتقدّم نحوه ويخاطبه:

«أخيرًا استيقظت، لا بدّ أنّك لم تنمْ منذ وقت طويل».

حاول عامر لململةَ شتاتِه، وتجميع أفكاره، ثمّ قال:

عامر: «لم أنمْ منذ أنْ مات علي».

الرجل: «ومَن يكون علي هذا؟ أهو ابنك؟».

عامر: «لا.. بل صديقي».

لاحظ الشيخ نظرات عامر المستفهمة فسبقَه بالقول:

«اسمي أبو هشام. وهذه الخيمة الصغيرة هي كلّ ما أملك في هذه الحياة، فقد فقدت أسرتي منذ زمن بعيد». (يكمل بينما يواصل إذكاء النار تحت القدر): «كنّا من سكان مدينة جبل طارق، لا نعرف لنا بلدًا سواه، وقد كنتُ أبًا لولدين عندما سقطت المدينة في قبضة القشتاليّين، كان ذلك في أغسطس ١٤٦٢م حينما هاجمتنا قوةٌ صغيرة من القشتاليّين تحت قيادة ألونسو دي اركوس، حاكم مدينة طريفة، وكان الهجوم مباغتًا وداهمًا لنا. بدأ القشتاليّون هجومَهم بينما كان كبارُ قادة جبل طارق وسكانُه يقدمون الولاء لسلطان غرناطة الجديد». (توقف الرجل هُنيهَة عن الحديث كأنما أعاقتْه غصّة مفاجئة، وعادَ ليكمل وهو ينظرُ إلى الأفق البعيد): «وبعد هجومٍ قصير ألحقَ خسائر جسيمة بالمحاربين، وكنت واحدًا منهم، لم تجد الحامية في وسْعها سوى الاستسلام الذي أعقبَه طردُ المسلمين مِن المدينة بأعدادٍ غفيرة، ليحلّ القشتاليّون مكانَهم». (تتكاثف على وجْه أبي هشام ملامحُ الكآبة، بينما ينْصت إليه عامر في انتباهٍ عميق، ثمّ يتابع) «كان هذا هو الهجوم الثامن على المدينة، فقد واجهت سبعة قبله لم ينجحْ أحدها في كسر شوكةِ المدينة، أو زعزعة كبريائها».

(صمتَ أبو هشام ولمعتْ عيناه بالدموع، فبادره عامر متسائلًا):

عامر: «ماذا حدث لولديك؟».

- «حاولت تهريبَهما إلى عدوة المغرب، وركبنا جميعًا سفينة شقّت المضيق نحو العدوة، لكنّ السفن القشتاليّة أبت إلّا أن تُغرقها بمن كانوا على متْنها، ليسقطوا إلى قاع المياه غرقى، وكنت أنا الناجي الوحيد من ركابها، فما دريتُ بحالي إلّا وأنا مُلقًى على هذا الشاطئ، ومِن وقتها لم أغادره، ولم أختلط ببشر».

عامر: «أعتذرُ منك يا سيدي، فقد ألَّبتُ عليك ذكريات موجعة لم تعدْ في حاجة إلى مزيدٍ منها».

- «لا يا ولدي، أنت لم تفعل شيئًا، وأمّا الذكريات فأنا هنا أعيش عليها، وأقتات بها».

ينظر عامر إلى النجوم اللامعة، ولم تكن الليلة مقمِرَة، فبدتِ السماء كأنها ثوبٌ حالكُ السواد مرصعٌ بدراهم فضية، ثمّ لفّ يده حول رجليه، بينما وضعَ أبو هشام الطعام أمامه، قائلًا له:

- «لقد نمتَ وقتًا طويلًا يكفي لأنْ يصل منك الجوع مبلغَه».

عامر: «أنا منذُ يومين لم أذُق الزّاد، ولم يلامس النومُ عينيّ». (يصمت عامر).

- «إذًا، إنْ أردتَ فقصَّ عليّ قصتك».

أدارعامر وجهَه جهة البحر، وتنهّد مستنشقًا نسماته ليقول: «إنها ليست قصتي يا أبا هشام! بل قصة مدينة تليدة بيعت على رؤوس الأشهاد. وبِيع أهلها واستُعبدوا. إنها قصة تجعل الحليمَ حيرانًا،

وتطير بعقل الحكيم! قصة الشعوب عندما توالي الخائن وتثقُ به وتهتف باسمه، وتُخوِّن الأمين وتتّهمه بالباطل، وتنفضّ من حوله، وتجبره على ما يكره. قصة بدأت مع خروج أصحاب ثلاثةٍ من غرناطة، وانتهت بتفرّقهم وضياعهم. نعم، فقد تفرّقت بهم السبل، وتباعدت الهوّة بينهم إلى الأبد».

- «لا شيء يا بني يدومُ على حال، فلا تيأس من رحمة الله».

عامر: «نعم، لا شيء يدومُ على حاله، فها هُم الأصحاب الثلاثة، الذين لم تعرفْ غرناطة لصحبتهم مثيلًا؛ قد تفرّقوا».

واصل عامر حديثَه فقال: «دخلنا المدينةَ لندافع عنها، إذ إنّ ثلاثتنا من غرناطة، دخلناها معًا، وها أنا أعودُ منها بعدما فشلت في الدفاع عنها، وبعدما فقدتُ فيها صاحبَي عمري، فقد استُشهد علي، وخرج محمد طلبًا للنّجدات وانقطعت أخباره، فلا نعلم أحيٌّ هو أمْ ميت؟». (ينهمر عامر في بكاء مرير).

- «هوّن عليك يا ولدي، فإن كانَ علي قد استُشهد فهذا شرفٌ ليس بعده شرف، فهو الآن مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، أمّا صديقك الآخر، فلعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرًا، ويجمع بينكما بعد طول فراق، فلا تيأس يا بني، فلعلّك سمعت قول الشاعر: ويجمع الله الشتيتيْن بعدما يظنّان كلّ الظن ألّا تلاقيا».

مسح عامر دموعَه، ثمّ تابع الحديث وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

- «صدقت يا أبا هشام».

- «أكمل لي الآن ما بدأته يا بني».

عامر: «وثقَ أهل مالقة بعلي دردوش، فقدّموه وأبعدوا الثغري، فما كان من علي دردوش إلّا أن سلّم المدينة للقشتاليّين، فانحاز الثغري ومن معه إلى حصن قلعة جبل فارو المطلّة على البحر، رافضًا التسليم والاستسلام، لكنّ القلعة كانت خاوية على عروشها، فلم يكن بها أي مؤن أو ذخيرة، فتمكّن الجوع منا، وقطع القشتاليّون عنّا كلّ أسباب الحياة، حتى كان الرجلُ فينا وهو لا يبدو عليه أي شيء، فما هي إلّا دقائق حتى ينهار من فرط الجوع ويسقط ميتًا أمامنا، ومع نفاد الأقوات استحالت أصوات استغاثة النساء والأطفال إلى سيوفٍ تقتلنا وجرحٍ نازف يعذبنا، كما تهاوت قدرتُنا على حمل السلاح، كنّا نظهر من فرط الجوع سكارى وما نحن بسكارى! عندها قرّر مولاي الثغري أنْ يستسلم، وقد كان يمنّي نفسه بفداء أطفال مالقة ونسائها».

تنهّد عامر، محاولًا التغلّب على صعوبة الحديث، فأخذ شهيقًا عميقًا قبل أن يتابع: «كان الثغري يتمنّى أن يرضي استسلامه غرورَ فرناندو فيعفو عن أطفال ونساء مالقة، كان يمنّي نفسه بأن تكون حياتُه ثمنًا لحرية أهل مالقة، ولكنّ اللّعين فرناندو لم يفعل! بل

بمجرد استسلام الثغري وتيقّنه بموت كلّ وسائل المقاومة، أصدر قرارًا ملكيًّا باعتبار كلّ أهل مالقة المسلمين رقيقًا يجب عليهم افتداءُ أنفسهم وأمتعتهم، وفرض على كلّ مسلم أو مسلمة، مهما كانت سِنُّه وظروفه، الأحرار منهم والعبيد الذين في خدمتهم؛ فرض عليهم فديةً للنفس والمتاع، وقد قدّر الفدية بثلاثين دوبلًا من الذّهب الوازن اثنين وعشرين قيراطًا، أو ما يوازي هذا القدر من الذهب والفضة واللآلئ والحليّ والحرير، على أن يسمح لَمن أدّوا هذه الفدية- إذا شاؤوا- بالعبور إلى المغرب وتعدّ السفن لنقلهم، وأنه لا يُسمح للمسلمين ذكورًا أو إناثًا بالعيش أو الإقامة في مملكة غرناطة، ولكن يسمح لهم بأن يعيشوا أحرارًا آمنين فى أي ناحية من نواحي قشتالة، وأنه لا يتمتّع بهذه المنح بنو الثغري وزوجاتهم وأولادهم، وبعضُ أفراد أشار إليهم القرار. لم يستطع أهلُ مالقة تأدية الفدية فانتهى المطاف باستعبادهم جميعًا، ودخل القشتاليّون المدينة دخول الفاتحين، وعاثوا فيها فسادًا، وسبَوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال والمتاع، واغتصبوا الحرائرَ والإماء، بل إنّهم اغتصبوا حتى الأطفال تحت سمع مليكتهم التي اتّخذت من قصبة المدينة مكانًا لها تتسمّع فيه آهاتِ المسلمات، وتتمتّع فيه بأنينهنّ وهنّ يقعن ضحيةَ الاغتصاب». (يغلبه البكاء مجددًا).

حاول أبو هشام التغلّب على عبراته قائلًا: «إنّ هذا التصرف من إيزابيلا وفرناندو إنّما هو نموذج لما يُضْمرانه بشأن معاملة المسلمين

المغلوبين، ولما تنطوي عليه سياستُهما من نكثٍ للوعود والعهود، بل هو تكرار لما فعله أجدادُهم عندما احتلوا قرطبة وبلنسية وإشبيلية وغيرهم من المدن، غير أنّهم فاقوا كلّ مَن سبقهم في النذالة والدناءة».

بكي عامر وهو يقول: «لولا الخونة يا سيدي لما تعرّضنا لكلّ ما حصل لنا. قاتل الله علي دردوش ومَن معه».

- «لكنك لم تخبرني أيّها الغرناطي، كيف نجوتَ بينما غيرك لم تُكتب لهم النجاة؟».

عامر: «بعد وقوع الكارثة ألقيتُ بنفسي من فوق الحصن إلى الماء، ثمّ سبحت طويلًا، وأنا أصارع الموج، إلى أنْ أدركتُ الشاطئ بعد مشقة بعيدة، فاستلقَيْت على رماله وأنا لم أعدْ أشعرُ بشيء، حتى أيقظتني أنت».

- «وماذا كان مصير الثغري؟».

عامر: «لقد أمرَ به السفاح جنودَه، فكبّلوه بالسلاسل الثقيلة، ثمّ اقتادوه إلى سجنٍ في قبو أسفل قلعة قرمونة، بعد أنْ ساموه شرَّ العذاب، وبعد أن شهد بنفسه هلاكَ أهلِ مالقة الذين أرادَ لهم النجاة باستسلامه».

يبدو التأثر عميقًا على وجه أبي هشام، فيقول: «لقد كان الثغري رجلًا عظيمًا، وإنّي والله لما حزنت منذ فقدانِ أسرتي كحزني اليوم،

لكن إنْ كان فرناندو قد غلبَه بالسيف وكثرة الرجال، فقد غلبه حامد بصبْره وقوة عزيمتِه وخلود اسمه في التاريخ بحسبانِه رجلًا في عداد العظماء، قلَّ أنْ يجود الزمانُ بمثله».

عامر: «نعم يا سيدي؛ فهو رجلٌ لنْ يتكرّر».

أمضى عامر ليلتَه في كنفِ أبي هشام، ومع أول خيوط الصباح، تأهّب للرحيل وسط محاولات من مُضيِّفه أنْ يظلّ معه عدة أيام أخَر، لكن عامر أبى إلّا إن يعود إلى غرناطة، يتنسّم فيها ذكريات أصحابه وأيامهم معًا، وفوقَ ذلك يريد أنْ يعود أولاد صاحبِه محمد، ويعوّضهم عن أبيهم، ويبرّ بصديقه الغائب في أولاده.

وهكذا قفلَ عامر إلى غرناطة، تصحبُه ذكريات مؤلمة، ومستقبل مجهول في ظلّ ملك لا يرى أمامَه من غاية سوى نفسِه وعرشه ومنفعته الخاصة فقط.

***

اهتزّ الشعب الأندلسي بأخبار الفاجعة، وصارَ الجميع يتحدّثون عن المأساة وأسبابها، وعن ضعف المسلمين وهوانهم، وغدر القشتاليّين وخداعهم، واستعبادِهم رجالَ مالقة واغتصابِهم نساءها، وأصبحت المجالس لا تخلو من حديث عن مالقة وما جرى لها، حتى مجالسُ النساء والصبية لم تكن لتخلو مِن كلام عن مالقة الشهيدة، فكأنّ قصة مالقة ساقية عتيقة لا يكفّ ثورٌ منهَكٌ عن الدوران بها في كلّ ناحية وصوب!

أصيب الناس بالحسرة والألم، وراحوا يلقون التّهم ويكيلونها لَمن تسبّب في الكارثة، وكادوا يُجمعون على إدانة أبي عبد الله الصغير، ذلك الملك الخائن الذي منع النجدات من الوصول إلى المدينة المحاصرة، بل قدّم المؤنَ للجيش الغازي، إضافةً إلى الهدايا والتهاني المتبادلة بينه وبين فرناندو الخامس، وقد شاعت أخبار الصغير في كلّ الأندلس وصارت حديثَ الساعة الذي ملأ الدنيا وشغَلَ الناس!

أمّا الزّغل فقد تغلّب على حزنه وحسرته، لضياع عاصمته القديمة وشريان قوته، وقرّر أن يردّ للقشتاليّين الصاعَ صاعيْن، ولكنه دائماً كان يخشى من ابن أخيه المتربّص بالحمراء، إذ كيف سيخرج لقتال القشتاليّين وظهره مكشوفٌ لابن أخيه الذي يتأهّب للغدر به في أول فرصة تسنحُ له؟ لقد وصلت العداوة بينهما إلى طريقٍ مسدود، كما بلغت عمالة الصغير لقشتالة حدًّا مؤلمًا لكلّ مَن وثق بالصغير يومًا واتّبعه، لذا فقد انتهز بعضُ ولاة المدن ما حدث، كما انتهزوا دعوةَ الزّغل إلى الجهاد، وخلعوا الصغير وتبرّأوا منه والتحقوا بخدمة مولاي الزّغل، محاولين بذلك محوَ العار الذي لحقَهم بتأييد ملكٍ لم يحفظ ما اؤتُمِن عليه، وكان مِن هؤلاء أحفادُ «علي العطّار» صاحب لوشة، إذْ وفدوا إلى وادي آش والتَقوا الزّغل وبايعوه وخلَعوا الصغير، وكانت دعوةُ الزّغل يومَها قدْ وصلت الآفاق حتى أصمَّت سمْع الصغير داخل الحمراء.

والحقيقة أنّ الزّغل لم يقصّر في الدفاع عن مالقة، بل لقد جهّز لها جيشًا وأرسله إليها ليفكّ عنها الحصار، بيْد أنّ الصغير شتّت هذا الجيش ومنعَه من الوصول إلى غايته، فما أغبَى الصّغير وما أخسّه وأنْذله، ما أغبى رجلًا تصوّر أنّ القشتاليّين سيَفون يومًا بعهودهم، ما أحقر رجلًا أرسل لعدوّ أمته يهنّئه بالانتصار عليها وسحقِ كرامتها!

انتشرت أخبارُ دعوى الزّغل في الأندلس الصغيرة الباقية، وقدم إلى وادي آش كلّ مُتطلّع إلى الجهاد ومتشبّث بالانتقام لمالقة، وكان مِن بين هؤلاء أحفادُ علي العطّار الذين وفدوا على الزّغل وهو يجهّز جيشه للقتال، وكان الزّغل من ذلك النوع الذي يقدّر الرجال ويرُوز معادنهم، لذا فقد رحّب بأحفادِ الشهيد وذكّرهم أنّ جدهم كان مِن أبطال الحرب وصناديد الأندلس.

وقف الأحفاد بين يدي الزّغل مُعلنين خلعَ طاعتهم لزوج عمّتهم، بل وأعلنوا البراءة من عمّتهم ذاتها إن كانت تسير على خطى زوجها، فمَن ذا الذي يرضى بأنْ يتبع ملكًا باع أهله وشعبَ دولته، بل وباع دينه لما نسي أن المسلمين جسدٌ واحد، فراح يطعنُ هذا الجسد ويمزّقه، وكان ممّا قاله يزن العطّار للزّغل:

- «نخلعه يا سيدي بعدما علمنا بوقوفه أمامك عندما أردت إنقاذَ مالقة.. نخلعه بعدما علمنا برسالتِه المؤسفة التي أرسلها إلى فرناندو وإيزابيلا يهنئهما فيها باحتلالهم مالقة واستعبادهم أهلها..

نخلعه ونتبرأ مِن عمّتنا إن هي أقرّت بما فعل الخائن زوجها، هذا الأحمق الذي أرسل إلى فرناندو رسالةً مطوّلة يهنئه، ويقدّم له الهدايا الثمينة من الخيول المزيّنة النفيسة والذهب والعطور، ويبارك له انتصاره على مالقة واستيلاءه عليها، ونسي أنها بلادُ المسلمين، وليست بلادَه يبيع من جسدها كيفما يشاء».

كان الزّغل مطرقًا في عنق حصانه يسمع كلامَ الرجل، فيستشعرُ فيه الصدقَ والعزيمة واستقامة الهدف، الذي بدا أكثر قربًا من قبل، وإذا بيزن العطّار يكمل: «بعد خيانة محمد بن علي، صرتَ أيها الملك محل آمال الأندلسيّين».

بعدها نزل الزّغل من فوق ظهرِ حصانه، متجهًا ببصره ناحية جنده ثمّ قال:

- «لن نترك الأندلس تضيع هكذا، لن نتركها يا أحفادَ صاحب لوشة، لذا أعلنوا النّفير العام، وأرسلوا الفقهاء والخطباء والشعراء إلى كلّ مناطق الأندلس الخاضعة لنا، وليستعدّ الجميع لردّ الصفعة للقشتاليّين».

وبعد أيام جمع الزّغل ما استطاع من رجال بعدما استنفرَ الحدود، وأشعل نيران الحرب التي لم يتوقّف عنها القشتاليّون يومًا، وقد كان القشتاليّون بسببِ صداقتهم مع أبي عبد الله الصغير صاحبِ غرناطة، قد أهملوا حصونَهم معتبرين أن الزّغل بعيدٌ عنها، وظنّوا أن متاعبَه الشخصية ستشغله عن الإغارة عليها، لذا فقد استغلّ

الزّغل ذاك الوضع وخرجَ إلى تلك الحصون بعدما عبَرَ الجبال بسرعة كالصاعقة، ففتح منها الكثير، ثمّ قفل عائدًا إلى وادي آش بغنائم عظيمة.

استفاق القشتاليّون من غفوتهم، وخشي فرناندو من صحوة الزّغل وسيفه، فبادر في العام ١٤٨٨م، بالخروج على رأس جيش قوامه أربعة آلاف فارس وأربعة عشر ألف راجل، وكان برفقتِه مركيز قادش، فاخترق بهذا الجيش الحدودَ الإسلامية من جهة البحر، ناشرًا الذّعر والرعب وسط الناس، فاستسلم له عددٌ من القرى منها بلش الأبيض وبلش الحسناء وقرية أشكر وبيرو من دون مقاومة تُذكر، ثمّ تقدّم حتى وصل إلى أسوار المرية التي كان يحكمها «سليم النصري» قريب الزّغل.

وفي المرية خرج الأمير سليم بكلّ جرأة، ووقف في وجه جيش القشتاليّين، وأرغمه على التّراجع، خاصة أنّ فرناندو كان قلقًا من أن يقع بين مطرقة سليم من أمامه وسندان الزّغل من خلفه!

وعلى رغم حرصِه فقد وقع الجيش القشتالي فى كمين أعدّه له الزّغل، فبينما كان الجنود القشتاليّون ينسحبون باتّجاه إشبيلية، وبينما هُم في قلب وادٍ سحيق، كان الزّغل قد أعدّ رماتَه وزوّدهم بالنشّاب والبنادق الطويلة، ووضعهم أعلى الجبل، وما كاد القشتاليّون يمرّون حتى فاجأهم الزّغل ورجاله بالهجوم فقتلوا منهم الكثير، ووقع بقيةُ الجيش في فوضى عارمة، إذْ لم يسمح الزّغل للجيش القشتالي بالتراجع، بل تصدّى له بقوة، فقاد فرقة من فرسانه،

وهاجم مؤخرةَ القشتاليّين، مهلّلين ومكبّرين بهتافات مرتفعة ملأت قلوبَ الأعداء بالفزع، واستبشرت بالنصر القريب فحصدوا الكثيرَ من جنود فرناندو، وعلى رأسهم «دون فيليب أوف أراجون» قائد الخيّالة الذي ألقى موته حزنًا كبيرًا في قلب فرناندو، إذ إنّه الابن غير الشرعي لأخي الملك بالسفاح «دون كارلوس».

وبهذا البلاء الحسن في الكفاح صار الزّغل قدوةً لكلّ رجال الأندلس، فاحتذوا حذْوه، وخرج أحفادُ علي العطّار وهاجموا البلاد الموالية للصغير والبقاع التي خضعت أخيرًا للقشتاليّين، لتخليصها من أَسْر الاحتلال، كذلك هاجم مسلمو المرية القشتاليّين، وتحرّشوا بهم، ممّا شجّع بعض القرى التي كانت قد أعلنت استسلامها على الانتفاض، وفتكوا بالحاميات القشتاليّة المقامة بينهم، أو القريبة منهم، وشاعت في الأندلس بهذه الأفعال روحٌ جديدةٌ قادها الزّغل الشّهمُ الشّريف، ولهجت الألسنة بالثناءِ عليه والدعاء له.

لكنْ هل تستمر بطولات الزّغل؟ وإن استمرت فهلْ سيترك الصغير عمّه بطلًا للأندلس مشعلًا لحماسة شعبها، بينما يبقى هو «صغيرًا» في عينيها خائنًا لها، وهل تمضي هنا سُنّة الناس والتاريخ أنه في لحظة ما يتدخّل كارهو الانتصار وأعداء النجاح، ليفسدوا أفراح الشعوب بقادتها الكبار؟ ومِن ثمّ هل يجرُّ الصغير عمّه المنتصر بعيدًا عن نصره، ويستدرجه إلى مستنقع آخر، ليفسد عليه ما أنجزه؟!

***

.٢٠

أثار نجاح الزّغل في حروبه، أحقاد فرناندو الخامس، الذي خشي- إن هو لم يُجْهز على أحلام الزّغل المتصاعدة في أسرع وقت ممكن- أن تثور عليه البلدان المفتوحة حديثًا، ويخرج الأمرُ عن سيطرته، كما خشي أن يثورَ شعب غرناطة على أبي عبد الله الصغير ويخلعه، ويخلُص الأمر للزّغل الذي فتن الجميع بشجاعتِه، وأصبحت الألسنُ تلهج بالثناء عليه والدّعاء له، وفي الوقت ذاته رأى فرناندو أن حليفَه وعميله وصنيعتَه «الصغير» أصبح محلّ احتقار من شعبه وجندِه الذين يعرفون سابق أفعاله ومجمل خطاياه.

لذا قرّر الملك القشتالي أن يقصم ظهرَ «الزّغل»، وأن يحسن الاستعداد له، لهذا وبمجرد انتهاء فصل الشتاء للعام ١٤٨٩م، وتأهّب الأجواء لتنسّم تباشير فصل الربيع، وعلى رغم هطولِ الأمطار وتوحّل الطرق، وفيضان الأنهار، وكلّ ذلك من شأنه أن يعيق حركة الجيش ومدفعيته؛ قرّر فرناندو أن يقطع حبل الصبر، فأعلن النفيرَ العام في كلّ الأراضي الخاضعة له (أراجون وقشتالة)، كما أرسل وفودَه إلى أوروبا يستحثّون المرتزقة، ويعدونهم بخيرات المسلمين والغنائم التي تنتظرهم، ونساء الأندلس الجميلات اللاتي سيكنّ سبايا لهم حالَ وفودهم ومشاركتهم في حروب جنوب الأندلس! وفي خلال فترةٍ وجيزة، اجتمع لفرناندو ثلاثة عشر ألف فارس وأربعون ألف راجل تحرّك بهم ناحية ما تبقّى من أرض الأندلس!

كانت الخطة أن يهاجم فرناندو بهذا الجيش مناطقَ الزّغل، على أن ترابط الملكة «إيزابيلا» في مدينة جيان، لتجمعَ مِن حولها المتطوّعة، وترسل إلى فرناندو الإمداداتِ متى احتاج إليها، وتحمي ظهرَه إن اضطر إلى التراجع!

وقع الاختيارُ على مدينة «بسطة» التي اعتبرها فرناندو مفتاحًا لكلّ ما بقي في حوزة المسلمين من الأندلس، فإذا نجحَ في احتلالها فسيُتبعها بوادي آش والمرية، وبذلك ينتهي نفوذ الزّغل إلى الأبد!

في سريّة تامة، تقدّم فرناندو بجيشه مخترقًا أراضي المسلمين حتى وصل إلى أحواز بسطة، وهناك قرّر فرناندو إرسال سرايا من جيشه للسيطرة على القرى الصغيرة المجاورة لبسطة، وذلك كي يؤمِّن ظهره، ولكي يستعينَ بها في تلك القرى من مؤنة لجيشه.

نجحتِ القوات القشتاليّة في إخضاع معظم القرى، غير أنّ القائد «حبوس بن عبد العال» حاكم قرية «القصار» نجح ولعدّة أيام في الدفاع عن بلدته بكلّ شجاعة وبسالة، إذْ شحنَ أبراج وأسوار قريته بالجندِ والمدافع، فكانوا يُمطرون عدوّهم بالقذائف من كلّ نوع، كما ربط حبوس مراجلَه التي تصبّ الزيت الحارق على المهاجمين، وفشلتْ محاولات القشتاليّين في أخذ المدينة عدّة أيام، ولكنْ وتحتَ وقْع الحصار الشديد اضطرّ القائد البطل إلى الاستسلام والانحياز إلى بسطة.

كانت هذه الأيام التي تعطّل فيها الجيش القشتالي عن محاصرة «بسطة» فرصة للزّغل ليجهّز نفسه وجيشَه للصمود وتقوية مراكز الدفاع في المدينة، وقد كان الزّغل في قرارةِ نفسه يعلم أنه يهيئ آخرَ صمود لدولة الإسلام في الأندلس، وكان يقول في نفسه: «هذه المعركة ستقرّر مصيري، فإمّا أن أظل ملكًا، وإمّا أن أتحوّل وجنودي إلى عبيد لفرناندو وإيزابيلا!». وعلى رغم معرفته بأهمية بسطة، فقد خشي الزّغل أن يدافع عنها بنفسه، وذلك خوفًا من أنْ يهاجمه ابن أخيه من ظهره، ويحتل وادي آش إن هو تركها، فقرّر الزّغل أن يمدّ المدينة بكلّ وسائل الدفاع والقوة، بل وأرسلَ مَن ينادي في الناس أنْ أنقذوا بسطة وجاهدوا فيها، وتكفّل أيضًا بتجهيز كلّ مُتطوع للجهاد، فخرجتْ جموع المتطوّعين يحْدوهم الأمل في النصر أو الشهادة، ثمّ أرسلَ إلى أحياء غرناطة سرًّا مَن ينادي في الناس ويخبرهم بهجمة القشتاليّين على بسطة.

ولأنّه كان يثق بيحيى النيّار ثقةً عمياء، ويراه عينه التي يبصر بها، فقد أرسل إليه في «المرية» رسالةً حملها حفيدُ علي العطّار، أن اتركها والتحقْ أنت وجيشك بمدينة بسطة، وتولَّ الدفاع عنها، وقد كان النيّار فارسًا شجاعًا خبيرًا بشئون الحرب مجربًا لدروبها ومسالكها.

لم يتردّد النيّار، لذا فقد جمعَ خاصة جيشِه المكوّن من عشرة آلاف مقاتل، وزحف بهم في سرعةٍ متّجهين نحو بسطة، فاستقبلهم أهلُها بسرور واستبشار وأملٍ في النصر، بل إنّ الزّغل نفسه شعرَ بشيء من

الثقة بوجودِ النيّار على رأس المُدافعين عن المدينة العظيمة.

كان السكونُ يضرب خيمتَه الهائلة فوق كلّ شيء في مدينة وادي آش، وقد تسرّب هذا الهدوء إلى قصْر الزّغل هناك، بعدما أرسل إلى بسطة كلّ رجاله ومستشاريه، وجلسَ هو وحيدًا يفكّر في مقبل أيامه وأيّام دولة آبائه وأجدادِه.

كان الزّغل يقولُ في نفسه: «كمْ كنتُ أتمنّى أن أتحرّك لنجدتها وأنا حرُّ اليدين، بعدما كبّلني ابنُ أخي الأحمق، لكن سيكونُ عزائي الوحيد في ابن عمّي وصهري يحيى النيّار، فهو خبير بشئون الحرب، وهو المشهور بشجاعتِه وقوة ضرباته، كما أنّ تحت يديه عشرة آلاف مقاتل مِن الأشداء فلا أحدٌ يعادلهم في المبارزة والإقدام. فإنْ أرسلنا فائض جنودنا هنا، واتّحدت مع جنود النيار؛ سيكون عددُ مَن دخل إلى بسطة يدافع عنها أكثرَ من عشرين ألف مجاهدًا، فضلًا على مَن تطوعوا لها من غرناطة ووادي آش وبقية المدن التي ترفض الاستسلام». كان الزّغل في واقع أمرِه يحاول طمأنة نفسه بنفسِه، بعدما شعرَ بأنّ سقوط بسطة يعني نهايته.

***

كانت روائح أشجار الياسمين تملأ المكان، ومشهدُ مدينة بسطة التي تقع في وادٍ خصيب؛ تحيط بها الجبال التي تندفع منها الجداول وتجتمع إلى نهريْن يسقيان هذه البلاد العامرة التي تحيط بها كذلك مجموعةٌ من القلاع القوية والأسوار العالية. وللمدينة ضاحية من

جهة السّهل محميّة بجدار طيني، وأمام هذه الضاحية مصاطبُ مزروعة بالحدائق، وبها زراعات كثيفةٌ تجعلها تبدو كغابةٍ عظيمة، تُسقَى بجداول مائية صناعية تتحكّم فيها عبارات من الماء الذي يأتي مِن جانب الأبْراج الدفاعية للمدينة، ويمكن التحكّم فيها من خلال مجموعةٍ مِن الأقفال تشكل نوعًا من الحماية لهذا الجانب من المدينة الذي يمكن إغراقه إذا فتحت الأقفال، فيستحيلُ المرور من تلك المصاطب.

وفي داخل المدينة، اجتمع قادتها لينصِّبوا النيّار قائدًا عامًّا لهم، وكان هؤلاء القادة هم:

محمد بن حسان الملقب بمحمد المجاهد، وذلك لخبرته الطويلة في الحروب.

حامد أبو حلي المقدّم وقائد القوات في كلّ المدينة.

حبوس بن عبدالعال بطلُ القصار.

انعقد الاتفاق على طاعة النيّار؛ لأنّه ابن عمّ الزّغل وموضع ثقته، كما أُبرِم الاتفاق على الشورى بين القادة، وبخاصة محمد بن حسان لسنّه المتقدمة وخبرته الطويلة.

أمّا فرناندو فقد وصل بجيشه متأخرًا بعضَ الشيء، ممّا جعل في مقدور أهلِ المدينة الإسراع في جني ثمارهم وحصادِ محاصيلهم، وإدخالها إلى المدينة حتى لا يستفيدَ منها القشتاليّون، كما أدخل أهل

المدينة الماشية بأنواعها، وبهذه التّجهيزات صارت بسطة مستعدّة لتحمل الحصار على مدى خمسة عشر شهرًا.

وقف فرناندو- كعادته قبيل احتلال أي مدينة أندلسية- يتغزّل في بسطة ويملأ عينَه من جَمالها، وكأنّه على يقين باقتراب زوال هذا الجَمال، وهذه الحدائق والجنان!

وأخيرًا أمرَ فرناندو بإقامة المعسكر للحصار، وبدلًا مِن أن يدخل المسلمون معَهم في حربٍ طاحنة، ويمنعوهم من إقامة معسكرهم، مع أنّ الأعدادَ داخل المدينة كبيرةٌ لا يُستهان بها، إذا هُم يلجئون إلى الأسلوب الذي لم ينجح معهم من قبل، وهو الدفاع، وكأنّهم نسوا القاعدة الذهبية أنه «ما غُزي قوم في عقر دارهم إلّا ذُلوا».

فرغ جنود فرناندو من نصب الخيمة الملكية في الوادي فيما وراء خطّ حدائق المدينة، فنزل فرناندو من فوْق صهوة جواده، ودخل الخيمة ومعه مركيز قادش ورودريجو دي مندوزا، ابن الكاردينال الأعظم من السفاح!

وبعد مشاورات قرّر فرناندو أن يعاجلَ المسلمين بما يفتُّ في عضدِهم، ويشلّ فكرهم ويشتّت شملهم، ويغوي ضعيفهم ويوهنُ قويّهم، لذا فقد أرسل مِن فوْره رسلَه يطلبون من أهل بسطة التسليم، على أحسنِ الشروط وإلّا فلن يكون مصيرهم أفضل حالًا من المالقيّين!

وهكذا صار التّشبيه بأهل مالقة، وما تعرّضوا له مثارًا للتهديد والوعيد، وفزّاعة للتخويف وإثارة الرعب. بعدما صاروا إثرَ العزّ رمزًا لمذلّة التسليم!

شعر القادة المسلمون بالإهانة الشديدة من جرّاء الرسالة، حتى إنّ يحيى النيّار نفرتْ عروقه من فرْط الغضب، فقال للرسول في حماسةٍ سافرة:

- «قل لسيدك إن الحامية لن ترفع راية الاستسلام، حتى لو دُفنت تحت أنقاض هذه الأسوار، وعلى كلّ حال فإعلانك هذا تكذّبه أفعالك. فما تهدّدنا به سنبادرك به نحن، وسنريك أنّه أكبرُ مِن تهديدك».

كان محمد بن حسان حاضرًا، فنصح الأمير يحيى النيّار بأن يردّ بلباقة وكياسة، فلا داعي لردّ عنيف كهذا، وفي النهاية الحربُ أفعال لا أقوال، لذا فقد عُمد إلى تعديل الردّ ليصبح: «شكرًا على عرضكم وشروطِكم الجيدة، لكنّنا مرابطون هنا للدفاع عن المدينة لا لتسليمها».

***

ما كاد الرسول يعودُ إلى فرناندو ليقرأ عليه الردّ، حتى ضحك الملك قائلًا:

- «لا بأس أن يهدّدني هذا الرجل في ردّه، فمنذ قرون فقدَ هؤلاء المسلمون القدرة على الأفعال. فصرْنا لا نسمع منهم غيرَ طَنينِ

التّهديدات التي لا يقدرون على تنفيذها، فتصير جعجعةً بلا طِحن آخرَ الأمر». قال ذلك وهو يضحكُ بسخرية، وما كاد يكفّ عن ضحكته وسخريته حتى أمر مِن فوْره بالترتيب لدكّ أسوار المدينة وأخذِها بالقوة.

قرّر فرناندو البدء في حصار المدينة، والتّشديد على ذلك، ولأنّ المعسكر كان بعيدًا عن المدينة بينما المصاطب والحدائق تحمي أسوارَ المدينة، فقد قرّر فرناندو أن يتقدّم بقوّاته إلى ما وراء الحدائق في الحدّ الفاصل بينها وبين ضواحي المدينة، حيث يصيرُ في مقدور المدافع ضربَ الأسوار وتدميرها، لكن صوتًا خرج ليحاول أن يردّ فرناندو عن رأيه، وقد كان الصوتُ لمركيز قادش الذي قال للملك:

«سيدي، نحن هنا في مأمنٍ مِن مدفعية العدو، لكنْ إنْ تقدّمنا أكثر فسنكون في مرمى قذائفهم!».

فرناندو: «لا بديل من ذلك. لا مَحيص من تشديدِ الحصار والاقتراب من الأسوار، وإلّا فسنظلّ هنا أبدَ الدهر، ولن تسقط بسطة».

أَلجمَ هذا الردّ مركيز قادش، فلم يتفوّه ببنت شفة. وفي هذه الأثناء، تدخّل رودريغو دي مندوزا عارضًا على الملك فرناندو أن يكون في الطلائع، فأذنَ له فرناندو وأمرَه أن يصطحب معه سيد سانتياجو، قائلًا له: «اعمل برأيه ولا تندفعْ خلف حماسة الشباب».

ألقى رودريغو دي مندوزا التحيةَ واستأذن منصرفًا ليقود قوات الطلائع المتقدّمة ناحية الأسوار، تدفعُه حماسة الشباب، فقد أرادَ أنْ يثبت أنه جدير بأنْ يكون ابنًا للكاردينال الأعظم، وأن يُنسب إليه!

حاول سيد سانتياجو أن يُلجم الشابَّ المندفع، وراح يذكّره بوصية الملك، لكن مِن دون جدوى، إذ ما كادت هذه القوات تطأ أرضَ الحدائق حتى ضربت أبواقُ النفير وطبولُ الحرب ممزوجة بهتافات التكبير في كلّ ضواحي المدينة، وبعدها بدقائق فتحت بسطة أبوابَها، لتندفع منها كتيبةٌ من مشاة المسلمين، لتنصبَّ أمامَ الغزاة بقيادة يحيى النيّار، الذي رأى أنّ احتلال القشتاليّين للحدائق يمثّل خطرًا كبيرًا على دفاعات المدينة، لذلك قال لجنوده بصوتٍ جَهْوري ملأ الفضاء المحيط بهم:

«يا جندَ الله، نحن نحارب من أجلِ أهلِنا وأنفسنا وبلادنا وديننا، ولا عونٌ لنا في هذه الحرب سوى أنفسنا وشجاعة قلوبنا وحماية الحقّ لنا بإذنه تعالى، فاصبروا وصابروا.. إنّ نصرَ الله قريب».

لم يكدِ النيّار يفرغ من كلمتِه الصغيرة، حتى ارتفعت الحناجرُ بالتكبير: «الله أكبر.. الله أكبر».

ثم سلّ النيّار سيفَه ولوَّحَ به عنيفًا في الهواء، ثمّ اندفع كالريح العاصف باتّجاه القشتاليّين، الذين على رغم عددِهم الهائل هالَهُم هذا الهجوم العارم غيرُ المتوقّع، وفي وسط الحدائق فوق الزروع وبين الأشجار، بدأ الصراع المرير، بالرماح أولًا والبنادق الطويلة

الثقيلة والسّهام والنّشّاب، ثمّ بالسيوف التي تلألأت نصالُها برّاقة تحتَ أشعة الشمس، ولمّا كانت الأرض تقطعها الجداولُ والأقنية والأشجار الكثيفة، فقد أعطت المسلمين ميزةً على القشتاليّين الذين دخلوها على ظهورِ الخيل، بينما دخلها المسلمون مترجّلين، كذلك كان المسلمون يعرفون الأرضَ ومكامنها وممرّاتها لأنّها بلادهم، وإن غلبوا عليها، لذا فقد تمكّن المسلمون من إحكام حركاتِ الكرّ والفرّ، وامتلاك القدرة على المناورة من دون أن يُجرح منهم أحد!

كانت المعركة تدور رحاها بعنف، بينما تراقب العيونُ نتائجَها من فوق الأسوار، أمّا فرناندو فوقف يشاهدُ من قُرب، ومعه مركيز قادش، تطوراتِ المعركة، فلاحظا أنّ أرجل الخيل تنغرزُ في الوحل، وأفرع الشجر تعيقُ حركةَ الفرسان. عندها، نادى مركيز قادش بصوتٍ مرتفع:

«ترجّلووا.. يا جنودَ قشتالة وحماة الصليب، ترجّلووا».

سمع الجندُ صوتَ ماركيز قادش فترجّلوا، واشتدّت المعركة أكثرَ وأكثر، وبهتت كلّ الأصوات، وارتفع صوتُ الأسنة وامتزجتْ بأنين الجرحى وزمجرةِ الرياح التي صارت عاتيَة، وكان الناظرُ إلى المعركة مِن بعيد لا يرى فيها ومِنها غيرَ لمعانِ الأسنّة وومضات الخُوذ بين الأشجار، ولا يسمعُ سوى صوتِ حشرجات الجرحى، ومع تداخل الصفوف سقط الكثير من القشتاليّين صرعى، وبفعل طلقات البنادق، اشتعلت النيران في أحد الأبراج القريبة من ساحة

المعركة، ممّا أضفى على المشهد غيومًا كثيفة من الدّخان واللّهب، ووسط هذه الغيوم قُتل حاملُ راية قشتالة، فسقط العلم من يدِه، فإذا بابن الكاردينال الأعظم يتدخّل ويندفع ويحملُ الراية بنفسه، ويهزّها بقوة، ثمّ يندفع بها ناحيةَ المسلمين ومِن خلفه كوكبةٌ من جنودِه.

كان فرناندو يراقبُ المعركة من قريب، وكان يشجّع جنودَه ويرسل إليهم التعزيزاتِ بين الفيْنة والأخرى.

وهكذا دفع القشتاليّون بتعزيزاتٍ كبيرة لمواجهة شجاعة المسلمين، لكن هذه الأعداد لم تحُلْ دون إصابة جندِ قشتالة بالرعب والذّعر من جرّاء هجمات المسلمين، فتراجعوا في فوضى مدمّرة، وهنا صاح الصائح بأنّ ابن الكاردينال الأعظم سقط قتيلًا؛ فاكتأب وجهُ فرناندو لسماع الخبر، لكنّه تمنّى ألّا يكون مقتلُه من أسباب الهزيمة.

على الجهة الأخرى، كان الأمير «محمد بن حسان» يراقب المعركة من جانب المسلمين، وهو محاطٌ بزعماء القبائل العربية التي جاءت لنصرة بسطة، وفي الميادين خلفَ الأبواب وقفت النساء يبكينَ أزواجهنّ وأولادهنّ أو يطبّبن المصابين منْهم.

مرّت اثنتا عشرة ساعة، والمعركة متواصلة بلا انقطاع أو راحة، وأخيرًا تراجع المسلمون نحو أسوارهم بسببِ دخول تعزيزاتٍ هائلة إلى القشتاليّين، لكنّ تراجعهم لم يكن سلبيًّا بلا قتال، بل كانوا يقاتلون حتى تحصّنوا بمتاريس لهم هناك.

ثمّ خرج محمد بن حسان بقوّاته ليشدّ من أزْر يحيى النيّار وقواته، وليمنع القشتاليّين من إقامة المتاريس في هذا الموقع المهمّ، لكنّ اللّيل كان قد أرخى سُدولَه، وفرّق الظلام بين الفريقيْن، وعلى رغم ذلك ظلّ المسلمون يطلقون أبواقَ الإنذار، وهو ما أزعجَ الجنود القشتاليّين وأرّقهم طوال الليل.

ومع انبعاث أول خيوط النهار، كانت حدائقُ بسطة قد تحوّلت إلى حدائق للموت، فالجثثُ ما زالت هناك ملقاةً في الوحل، وأعمدةُ الدخان لا تنفكّ تتصاعد من الأبراج المحترقة، والأقنية المائية تغيّرت ألوان مياهها إلى لون الدم. أمّا فرناندو فقد هالَهُ ما حدث بالأمس، وانزعج من كثرةِ قتلاه الذين تناثرت جثُثهم في أرجاء الميدان، لذا قرّر عقد مجلس حربٍ سريع للتشاور حول مستقبل الحصار.

في خيمته الملكية المحاصَرة بروائح الحرب وأشباح الموت، اجتمع الملك فرناندو بقادته، وبدأ يستعرضُ وإيّاهم الأحداث، ثمّ طلب إلى كلّ واحد منهم أنْ يبدي رأيه، وكان مركيز قادش أسرعَ المتكلمين وأولَهم، إذ انبرى قائلًا:

مركيز قادش: «يجب علينا، وبشكلٍ مؤقّت التراجع بعيدًا عن الحدائق، حتى لا نكون في مرمى نيرانِ عدوٍّ متحمّس شجاع لا يهابُ الموت».

دي قابرا: «لكنّ ترك الحدائق والتراجع سيُطمع العدوَّ فينا، ويجعله يظنّ بنا الضعف والخوف، فيتجرّأ علينا. وربما ترك أسواره ليحاربنا».

فرناندو (موجهًا كلامه إلى دي قابرا): «إنّ حماية جنودنا من الموت هي الغاية القصوى الآن والهدف الأخير، أمْ تريدنا أن نبقى في مرمى نيران العدو فنهلك جميعًا؟!».

دي قابرا: «لكنّ تراجعنا سيُفقدنا هيبتَنا يا سيدي».

فرناندو: «لا تكن قصيرَ النظر، فهيبتُنا لن تهتز إنْ تراجعنا، لكنّها ستضيع إن هُزمنا».

دي قابرا: «كما ترى يا سيدي».

اقتنع الجميع بوجوب التراجع قليلًا، ولأنّه صاحب الفكرة، فقد بدأ مركيز قادش في شرح خطتِه الكاملة للقادة قائلًا:

«ستتقدّم قوات إضافية لتأخذَ مواقعها في الحدائق بموازاةِ المدينة، وبذلك يعتقدُ العدوّ أنّنا سنهاجمه بقواتٍ كبيرة وجديدة، مع الأخذِ في الاعتبار أننا لن نرفع أي خيمة من مكانها، وفي الوقت نفسه سنسحبُ كلّ الأمتعة إلى مكان المعسكر الأول، وبذلك ننقل كلّ معداتنا الثقيلة من دون أنْ ينتبهَ العدوّ لنا، حتى إذا فرغت الخيامُ هانَ علينا هدمُها ونقلها، على أن نفعل هذا ليلًا».

استحسنَ فرناندو الخطّة ووافق عليها، ثمّ أمرَ بفرقة مِن الخيّالة تقف بإزاء أبواب المدينة لتهاجم المسلمين إنْ هُم فتحوا أبوابَهم.

تنبّه دون غويتري حاكمُ لوشة، وكأنه لم يستمعْ إلى النقاش من أوّله، لذا نظر إلى الملك وسأله قائلًا:

«عذرًا سيدي الملك، هل سنغيّر مكان الحصار أم سنفكّ الحصار ونرحلُ عائدين إلى قشتالة؟».

نظر فرناندو إلى مركيز قادش، وكأنّه يستنطقه فإذا بالثاني يردّ قائلًا:

مركيز قادش: «يجب علينا الآنَ التراجع إلى مكاننا الأول، حتى إذا اطمأنّ العدو، وعلم أنّنا على الحصار قائمون، يكون الرأي حينئذٍ لسيدنا الملك، فإن رأى أنّ الخير في فكّ الحصار فسنفعل، وذلك لأنّ المدينة شديدةُ التّحصين كما ترون، ومِن ثمّ سيصعبُ علينا أخذها بالقوة، كما لا يمكن أخذها بالحصار، خاصّة أنّنا قد شاهدنا جميعًا قوةَ حامية المدينة، كما أن وجودَنا في مكان المعسكر القديم سيجعلُ معسكرنا بعيدًا عن المدينة، ممّا يعرّضنا لكلّ أنواع الأمراض، مع اقتراب موْسم الشتاء والأمطار، وإنْ رأى مولانا الملك أنْ نقيم على حصارنا فسنفعلُ بكلّ يقين».

لم يأتِ كلامُ مركيز قادش على هوى فرناندو، لذا قال له في استهجان واضح:

«أتريد يا رودريغو أنْ يقال إنّنا عجزنا عن مدينة صغيرة، وإن كانت حصينة، فتهتزّ ثقة جنودنا، ونحن مَن عوّدناهم النصر في كلّ حرب خضناها؟».

مركيز قادش: «لن تهتزّ ثقة الجند يا مولاي. ومنذ قليل كان جلالتُكم يقول إنّ حياة جنودنا هي أهمّ ممّا سواها، على أننا لن نعودَ

إلى قشتالة خالي الوفاض، بل سنضع خطّة طويلة الأمدِ لاحتلال كلّ مقاطعات الزّغل، إذ سنتركُ حاميات صغيرة تُغِير على كلّ قرى المسلمين القريبة من وادي آش والمرية وبسطة، وبذلك نستنزفُهم فلا تظلّ قرية واحدة تتبَعُهم، وبذلك نُخضع المدن جوعًا، فنحن نعلمُ أنّ تلك المدن إنّما هي قائمة بالأصل على ما في القرى مِن طعام».

يتحَمْحَم دون غويتري قبلَ أنْ يقول:

«العفو يا سيدي مركيز قادش، ولكنّي أرى عكسَ ما تراه، إذْ إنّ فكّ الحصار سيفسره المسلمون ضعفًا منّا، الأمرُ الذي يُذكي من روح الزّغل ورجاله، ويجلبُ له المزيدَ من الرعايا، الذين قطعًا سيتخلّون عن أبي عبد الله الصغير، وبذلك لن نخسرَ بسطة وحدها، بل سنخسرُ عميلًا لنا هو الصغير، ونكسب عدوًّا طالما أرهقَنا وهو الزّغل، لذلك يا مولاي الملك يجبُ إسقاط هذه المدينة، ولو بعدَ حصار سنة».

فرناندو: «أصبتَ يا دون غويتري، ونطقتَ بما يجول في نفسي، إذْ من المذلّة العودة إلى قشتالة من دون تسديدِ ضربة موجِعة لتلك المناطق الإسلامية. لذلك لن نفكّ الحصار». (ثمّ نظر إلى مركيز قادش مكملًا): «ومع ذلك، سننفّذ الجزء الأول مِن خطة المركيز بتغْيير موقع معسكرنا».

وبينما يجري الحديثُ في هذا المجرى، إذْ بأحدِ الحرّاس يدخل الخيمة، وينحني أمام الملك قائلًا: «رسالة من الملكة يا سيدي».

ما كادَ الحارس يسلّم الرسالة للملك، حتى فضّ عنها الأخير ظرفَها، قبل أن يقول: «ها هي الملكة تخاطبنا من جيّان وتبلغنا أنها تتعهّد أمام الرب، بأن تستمرّ في تزويدنا بالمال والعتاد والرجال، وأنْ تمدّنا بكل ما نحتاج إليه حتى تستسلم المدينة أو تسقط بالقوة».

لذا وبناءً على تصميم الملكة فقد قرّر فرناندو الاستمرارَ في الحصار حتى تستسلم المدينة أو يحرقَها!

***

.٤٠.

كانت فرحة الأمير يحيى النيّار كبيرة عندما علم مِن عيونه الكثيرة، باختلاف القشتاليّين فيما بينهم، في حين لم يتأثّر بالقدر نفسه الأمير «محمد بن حسان»، بل إنه جزمَ بأنه مجردُ اختلاف لن يفسد لهم قضية، وكان ردّه حينما أخبره الأمير يحيى بكلامِ جواسيسه أنْ قال له:

«أمّا أنْ يختلفوا فهذا أمرٌ طبيعي، وكذا الشورى، خاصة بعد أحداث الأيام الماضية، لكن أن يرحلوا...» (يصمت محركًا وجهَه يمينًا ويسارًا، ثمّ يقول بحسم): «لا.. ثمّ لا».

كان الأميران يتابعان أحوالَ الجند ليطمئنا على تأدية كلّ فردٍ لما عليه، كما كانا يراقبان الأبواب، ويؤكّدان على سلامتها، وقد كانا يقضيان معظمَ النهار معًا، كما يعاودان اللّقاء إن جدّ بالأمور جديد.

كان النيّار على ثقةٍ كاملة بقرب فكّ القشتاليّين لحصارهم، خاصّة بعدما أثخنَ فيهم القتلَ والطّعن، لكنّ مفاجأة أخرى حدثتْ في تلك الليلة جعلت الأميرَ يحيى يوقن بقربِ فكّ القشتاليّين حصارَهم والرحيل من الميدان، ذلك أنّ مراقبي الأسوار قد لَمَحوا حركةً غير طبيعيّة في مخيم القشتاليّين، حركة ظهرت وكأنّ الجيش ينسحب الآن، فقد فُكّت الخيام وحُمِّلت المدافع ورُبطت عجلاتها، ومِن ثمّ بدأ الرحيلُ والابتعاد عن أسوار المدينة التليدة!

قضى الأمير يحيى ليلتَه وهو يفكّر في كيفية الاحتفال غدًا بفكّ الحصار وهزيمة فرناندو وجيشه، وراح يُمنِّي نفسه بكبار الأماني، إلى أنْ غلبَه النوم، ليستيقظ في الصباح، ويرتدي من فوْره ثيابه العسكرية ويلتقي الأمير «محمد بن حسان»، ويخبره بما كان مِن أخبار الليلة البارحة.

غير أنّ الأمير محمد استقبل هذه الأخبار باستنكارٍ شديد، وقرّر من فوْره الصعود ومعه الأمير يحيى إلى أعلى البرج المواجِه للحديقة المطلّة على معسكر القشتاليّين، وما هي إلّا لحظات حتى تأكّد الخبر، فقد فكّ القشتاليّون خيامَهم وتركوا المكانَ مُبتعدين عن أسوار المدينة! لكن ليس ليرحلوا حقًّا، بل ليعيدوا تمركُزَهم قربَ الجبل بعيدًا عن مرمى نيران بسطة!

سُقط في يدِ النيّار، وثارت حفيظتُه على القشتاليّين، لهذا سلّط نظره عليهم يراقبهم من بُعد ثمّ قال:

«انظر.. لقد قسّم القشتاليّون جيشَهم إلى قطعتيْن كبيرتين، القطعة الأولى يقودُها مركيز قادش ومعه ألونزو دي غويلار ولويس فرناندو بيترو كاريرو، ومعهم نحو ٤٠٠٠ فارسًا، وضعف هذا العدد مِن المشاة، أمّا القطعة الثانية فيقودها فرناندو ومعه بقيّة الجيش».

محمد بن حسان: «لقد قسّم القشتاليّون جيشهم، وبهذا فقدوا وحدةَ قوّاتهم، خاصّة مع بُعد المسافة بين المعسكريْن- يشير بيده- ووقوع المدينة بينهما، فضلًا عن المصاطب المشجّرة، ممّا يعني أن هناك فاصلًا طبيعيًّا يحول بين اتّحاد القسْميْن عند الضرورة.. أوْ لنقل: يحول دون سرعة اتّحاد القسمين، ممّا يعنى انعدام التعاون بينهما تقريبًا».

وبينما الأميران يراقبان الوضعَ ويضعان الخطط، إذ فجأة تتناهى إلى سمعهما أصواتُ الفؤوس وهي تدقّ الأشجار الضخمة وتقتلعها من جذورها.

كان قطعُ الأشجار وتساقطها (كجنودٍ استُشهدوا غدرًا) مشهدًا محزنًا لكلا الأميرين، فهُما يعتبران الأشجار الكثيفة المحيطة ببسطة هي أولُ خطّ في دفاعاتهم، وقطعها يعني انهيارَ طليعة هذه الدفاعات. لذا فقد قال الأمير محمد في تسرّعٍ وتوتّر:

«يجب علينا أن نحمي حديقتنا، ونحول دون اتّحاد قسمي الجيش القشتالي، ونمنع سقوطَ خطّ دفاعنا الأول».

وبردّة فعل سريعة، أيّد يحيى النيّار فكرة الأمير «محمد بن حسان»، وفجأةً امتطى القائدان جواديْهما وخرجا من فوْرهما لمنع قطع الأشجار ومهاجمة الحطّابين القائمين على ذلك، ولكنّ الحطّابين كانوا محميّين بقواتٍ كبيرة من الجيش القشتالي، ممّا حال دون وصول المسلمين إليهم، ومن ثمّ فقد استمر تقطيعُ الأشجار، كما استمرّ القتال بين المدافعين والمهاجمين طوال أربعين يومًا، وفشلت كلّ محاولات المسلمين لوقف تخريب حديقتهم وتقطيع أشجارهم، وبعد نجاحهم في مهمتهم، أضحت مدينةُ بسطة عاريةً من حدائقها العظيمة، وفقدت بساطَها الأخضر الجميل رمزَ سعادتها وفخامتِها، واستفاد الجيش القشتالي من الوضع الجديد، وصار قسْمَا الجيش بعيديْن، ولكن أصبحَ في مُكْنة كلّ منهما أن يُنجد الآخر.

بعد نجاحِه في تعرية الميدان من كسائِه الأخضر، فكّر فرناندو في قطع المياه عن المدينة، خاصّة أنّ أحدَ أحباره شجّعه على ذلك بقوله: «إن هؤلاء اللامؤمنين أهمّ شيء عندهم هو الماء، فهو أهمّ من الخبز؛ لأنّهم يغتسلون به يوميًّا من أجل وضوئهم الذي يجعلهم لامِعين، فيتمتّع بذلك رجالُ دينهم الشياطين بألفِ طريقة وثنية بالحمّامات وسواها من مقرّات اللّذائذ التي لا نهتمّ بها نحن المسيحيّين!». وبالفعل حاول فرناندو قطعَ المياه، ولكنّه فشل في ذلك، خاصّة بعدما اتّخذ المسلمون خطوةً استباقية فانطلقوا ليلًا وحَفروا النبعَ بشكلٍ استحال على القشتاليّين تحويله عنهم.

اغتمّ أهل المدينة للمجزرة التي أحدقتْ بأشجارهم، وأزعجهم وأرّقهم إحكام الحصار عليهم، ورأى الأمير يحيى وجوبَ طلبِ

النّجدات من الزّغل، فأرسل له ينبئه بجديدِ الأحداث وبطلبِ النّجدات، ولكنّ الزّغل كان مقيّدَ الأيدي والأرجل، ولم يستطعْ مدّ يدِ العون لبسطة، ذلك أنّه خشي أن تفرغ بسطة مِن رجالها، فيستغلّ الصغير ذلك ويغْزوها، ومَن يدري وقتَها فلعلّه يقتل عمّه أو يسلمه لفرناندو الخامس، لذا وبعدَ تفكيرٍ عميق قرّر الزّغل الاستنجادَ بأبطال غرناطة المغاوير، يؤلّبهم على ابن أخيه، ويطلب نصرتَهم، لذا فقد جهّز على عجَل مَن يثقُ بطلاقةِ لسانهم، وأرسلهم إلى غرناطة ليلتَقوا كبارَ أهلها في غفلةٍ مِن الصّغير، وبالفعل نجحتِ الخطّة، بعدما شعرَ قادة غرناطة بالخجل ممّا يحدث، فها هي بلادُهم تُغتَصب وتُنتَهك بينما هُم يجلسون بينَ النساء، يطيعون «دميةً» تقبعُ بالحمراء تحرّكهم كيف تشاء، لكنّهم انقسموا فيما بينهم، فقرّر بعضُهم الخروجَ إلى الزّغل بينما قرّر البعض الآخر اغتيالَ الصغير لتتوحّد المملكة، لذا فقد وضَعوا الخطة، وقرّروا التّنفيذ، وكانتِ الخطة تقتضي أنْ يتسلّل بعضهم ليقتلوا الصّغير في مخْدعِه، بينما يقتل الآخرون يوسف بن كماشة، وبعدها يخرجون بكلّ الجيش بقيادة الزّغل لإنجادِ بسطة بعدما يكونون قدْ أمّنوا ظهورَهم! لكنْ حدثَ أنِ اكْتشف الصغير المؤامرة، فأمرَ بقطع رؤوس قادتها وكلّ مَن تعاطف معهم، ثمّ علّق هذه الرؤوس على أسوار الحمراء، بتوجيهٍ مِن مُستشاريه مِن القشتاليّين، غيرَ عابئ بما يتركُه ذلك مِن جراح في عائلاتِ هؤلاء القادة.

***

كان خالدُ بن سراج وعامر الغرناطي مِن هؤلاء القادة الذين نجَحوا في دخولِ بسطة للدّفاع عنها، وفورَ وصولهم أعلنوا تبرؤهم مِن الصّغير وأفعاله وسطَ ثورةٍ عارمة كانت تختلج في ثنايا أرْواحهم، إذ إنّ كثيرًا من قتلى مذبحة غرناطة كانوا مِن أصدقائهم وأهْليهم.

التقى القائدان الأميرَ يحيى، وطلبا الانْخراط سريعًا في كتائب الفرسان التي تخرجُ بين الفينة والأخرى للإغارة على معسكر فرناندو المقابل لبسطة، وقد رحّب بهما الأمير يحيى كما رحّب بكلّ مُنضمٍّ إلى جيشه يؤازرُه في محْنَته، وقدْ كان الأمير يحيى يتألّم وهو يشاهدُ قوافلَ القوات الأوروبيّة تتدفّق على معسكرِ فرناندو ليلَ نهار مِن كلّ الدول المجاورة، بينما يرزحُ مسلمو بسطة تحتَ الحصار، ولا يهتمّ لهم أحد، بلْ إنّ صاحب الحمراء مُشارك في حِصارهم بأفعالِه وتخاذلِه وحمْقه!

وقد لاحظَ الأمير «محمد بن حسّان» حزن النيّار وتألّمه فقال له مواسيًا:

- «لا تحزن. إنّ الله معنا، وسيجعل سبحانَه بعدَ عسرٍ يسرًا».

يحيي النيّار: «آمنتُ بالله».

محمد بن حسان: «بعد كلّ هذا الوقت مِن الحصار، لا شكّ أن قوات القشتاليّين، على رغم تفوّقها العددي، سيصيبُها التعبُ والملل، لذلك يجب أن نُظهر لهم أنّ روحنا المعنوية عالية، يجبُ أن

يروا أنّ بأسنا شديد، ويعلموا أنّنا سنقاتل بقوةٍ إلى أنْ نفنيهم أو نفنَى دون ذلك».

تدخّل عامر الغرناطي وخالد بن سراج في الحديث، وطلبا أنْ يكون لهما نصيبٌ قريب من هذه الحرب، وأنْ ينالا شرفَ القتال تحتَ رايات يحيى النيّار فردّ عليهم الأخير بقوله :«بلْ ستخرجان معي، لننصبَ الكمائن لهم ونوقعَ بهم في كلّ مكان ونصليهم نارًا لا قِبَلَ لهم بها».

وهكذا اتّفق زعماءُ بسطة على الخروج ومباغتة القشتاليّين والإيقاع بهم، فنجَمَ عنْ ذلك إراقةُ الكثير من دماء القشتاليّين في صراعاتٍ ضارية تميّز فيها من الجانب القشتالي دي غويلار، ومِن الجانب المسْلم تميّز عامر الغرناطي وخالد بن سراج والأمير يحيى ومحمد بن حسان، وفي إحدى تلك المرّات لاحظَ الفارس المعروف مارتين غاليندو أنّ المسلمين يُنزلون بقواتِه ضرباتٍ قاسية مباغِتة، وهُم يوقعون بين صفوفه الكثيرَ من الخسائر، لذا فقد تقدّم غاليندو نحو قائدِهم خالد بن سراج وتحدّاه في معركة منفردَة، فنظر إليه خالد بن سراج باستهتارٍ واحتقار، وأغلق فتحةَ خوذته على وجهِه وخفض رمحَه الطويل إشارةً إلى بدءِ الهجوم، وكذلك فعلَ غاليندو، ثمّ اندفعَ الاثنان كلاهما نحْو الآخر بكلّ عنف، لتصيبَ حربة غاليندو وجهَ خالد بن سراج، وتطيحَ به مِن فوق فرسه، ولكنه سرعان ما عاد إلى الوقوف على قدميْه قبلَ أن يدير خصمُه عنقَ حصانه باتجاهه

ثانية، وتناول رمحَه الطويل واندفع نحو غاليندو ليجرحَه في رأسه وذراعِه، بعدها سقطتِ الحربة مِن يد غاليندو وصارَ ينزف بشدّة، وعندئذٍ اندفعتْ كوكبةٌ من القشتاليّين لإنقاذه خارجين على قواعدِ الفروسية، ممّا حدا خالد بن سراج إلى التّراجع ببطء نحْو أصحابه، وهُم يُكبرون ويهللون لانتصار قائدهم، بينما حلّ الضيق بفرسان قشتالة، لذا فقدْ ذهبوا إلى محاولةِ التعويض وتحدّي المسلمين مرةً أخرى، وهنا خرج عامر الغرناطي، وهو يتذكّر ثارات الثغري ومقتله، فنظرَ إلى خصمه نظرة محْدِقة، ثمّ رفع رمحَه وهزّه بشدة، وانطلق كالسّهم تجاه الفارس القشتالي، الذي هالتْه سرعةُ عامر وشجاعتُه وعدم ارتدائه الخوذة!

انطلق الفارسان متقابلين في سرعةٍ هائلة، ككرتيْن من اللّهب، وما هي إلّا لحظات حتى اخترقَ الرّمح جسدَ القشتالي، وأسقطَه عن فرسه مخضبًا بدمائه، وبعدها ترجّل عامر من فوقِ جوادِه، واستلّ سيفه ليهوي به على عنقِ القشتالي، وهو يصيحُ بصوتٍ مرتفع: «مالقة.. مالقة».

***

.٥٠.

بينما كان الجيشُ القشتالي يشدّد حصاره على مدينة بسطة، إذ وفدَ على المعسكر رسولان غريبان عن بلادِ الغرب، وطلبا المثولَ بين يدي صاحب قشتالة، وبعدَ التّعريف بنفسيْهما اصطحبهما الجنودُ حيث

الخيمةُ الملكية، التي يرفرفُ عليها علمُ قشتالة، فإذا بالملك فرناندو، ومعه مركيز قادش وهُما يتحاوَران حولَ الحصار وهوائله.

نزلَ فرناندو من فوقِ كرسيّه، وتحدّث وهو ينظرُ إلى باب الخيمة، قائلًا:

«لقد أرسلت إلينا الملكةُ من جيان الكثيرَ والكثيرِ مِن المتطوّعين، إضافة إلى الأموالِ والعلوفات والمؤن التي لولاها لقضيْنا نحْبَنا جوعًا» (يصمت برهة ثمّ يستديرُ باتّجاه مركيز قادش، ليقول له، بعدَ أن أمسكَ بكأسٍ مُترعَة بالخمر) «أتعلم يا رودريغو، لقد باعتِ الملكة ذهبَ القصر وفِضّته والكثير من مجوهراتها الشخصيّة لتجّار من برشلونة وبلنسية لتغطّي نفقات هذه الحرب». (يقولها بينما يتجرّع من الكأس).

مركيز قادش: «هي فخرٌ لنا جميعًا سيدي الملك، وإن قشتالة كلها اليوم لَمدينة لملكتنا الأمّ إيزابيلا».

وبينما هُما يتحدّثان ويحْتسِيان الخمر، إذْ دخل أحدُ الحرّاس وانحنى أمام فرناندو قائلًا:

«على باب خيمتِك يقف راهبان شرقيّان، يقولان إنّهما يحملان إلى جلالتك رسالةً من صاحب بابليون».

يردّد فرناندو مستفسِرًا:

«صاحب بابليون!».

تدخّل مركيز قادش ليشرح لسيّده فقال:

«بابليون هي الاسمُ القديم للعاصمة المصرية، سيدي الملك».

تعجّب فرناندو وعاود التّرديد:

«العاصمة المصرية.! وما الذي يريده منّا صاحبُ بابليون هذا؟ على كلِّ حالٍ، ائْذن لهما بالدخول».

ثمّ أشار بيدِه إلى الحارس، بينما عادَ هو إلى كرسيّه داخل الخيمة.

خرجَ الحارس ثمّ لمْ يلبث أن عادَ وخلفَه الراهبان، أحدُهما طويل القامة ذو هيئة قياديّة، ومبحوح الصوت، والآخرُ صغير الحجم شاحبُ الوجْه رقيق، يتحدّث وكأنّه يهمسُ بطريقةٍ مُتواضعة، يُحني رأسَه أغلب الوقت إلى حدٍّ أنّ الجلوس ظنّوا أنه لا يكاد يرفعه.

الرّاهبان: «طابَ صباح مولاي الملك حامي الصليب وقاهرِ المسلمين».

فرناندو: «مرحبًا بمَن قدم إلينا من أرض الربّ المباركة، مرحبًا بكما في أرض قشتالة المسيحية».

الرّاهب الطويل: «اسمي أنطونيو ميلان، وأنا مقدّم الفرنسيسكان في المدينة المقدّسة، وهذا رفيقي الرّاهب برنابا».

فرناندو: «أهلًا بكما أيّها الرّسولان من عند الربّ».

أنطونيو ميلان (بصوتٍ مبحوح): «لقد أرسلَنا الأشرف قايتباي إلى جلالتكم برسالةٍ مفادها أنْ تترك جلالتكم أهلَ الأندلس وترحل

عنهم، وتكفّ يدَك عن الاعتداء عليهم، وغزو أراضيهم، وسفْك دمائهم. كما يخبرُك الأشرف قايتباي أنّ رعاياه النّصارى في مصر وبيت المقدس، وهُم ملايين، يتمتّعون بجميع الحريّات، والحمايات، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم. ولهذا فهو يطلبُ إلى ملكي قشتالة وأراجون التوقّف عن هذا الاعْتداء، والرحيل عن أراضي المسلمين، وعدم التعرّض لهم، وردّ ما أخذ مِن أراضيهم، وكذلك يطلب إلى قداسة البابا في روما وملك نابولي أن يتدخّلا لدى ملكي قشتالة وأراجون، لردّهما عنْ إيذاء المسلمين والبطشِ بهم، هذا وإلّا فإنّ ملك مصر سوف يضطرّ إزاء هذا العدوان، إلى أنْ يتبع حيالَ رعاياه النصارى سياسةَ التنكيل والقصاص، ويبطش بكبار الأحْبار في بيتِ المقدس، ويمنع دخولَ النّصارى كافّة إلى الأراضي المقدسة، بلْ ويهدم قبرَ المسيح ذاته وكلّ الأديار والمعابد والآثار النصرانيّة المقدسة».

يهزّ فرناندو رأسَه ويقول:

«وهل عرَّجتما أيضًا على البابا في روما؟».

أنطونيو ميلان: أجل يا سيدي الملك، لقد عرجنا أولًا على البابا إنوصان الثامن في روما، وأعطيناه رسالةَ ملك مصر، فأخبرنا البابا أن الجواب لديكَ أيّها الملك وحدك، كما عرجنا أيضًا على صاحب نابولي، فزوّدنا برسالة إليك».

ثمّ قدّم أنطونيو رسالةً ورقيّة إلى فرناندو، الذي فتحَ الرسالة وقرأ ما جاء فيها: «مِن فرناندو الأوّل ملك نابولي إلى فرناندو الثاني ملك أراجون، كيف هي الحرب لديكم مع المسلمين؟ أرجو منْك أيها الملك أن تتوقّف عن اضْطهاد المسلمين، وتكفّ عن أذاهم، وهذه نصيحةٌ أقدّمها إليك، حتى لا يتعرّض نصارى المشرق لقصاص السلطان قايتباي».

فرغَ فرناندو من قراءة الرسالة، ثمّ نظرَ إلى الراهبين، مديرًا بصره إلى مركيز قادش قائلًا لهم:

«ما ردّكم أنتم يا أبناءَ الصليب المخلصين على تلك الرسالة؟».

أنطونيو ميلان: «الردّ هو ما يراه مولاي ملك قشتالة».

حاول مركيز قادش استخراجَ ما في نفوس الرّاهبين، بعد أن ذكّرهما الملك بأنّهما معه في كفّة واحدة، فإنِ اختلفت الأقطارُ والبلاد فقد وحّدهُم الدّين، والانْتماءُ إنّما يكون للدّين قبل كلّ شيء، لذا قال لهما: «إنّ مولاي الملك يستطلعُ رأيكما، فأنتم مسيحيّون مثلنا، وقطعًا تهتمّون ويهمّكم أمر قشتالة، كما أنكم تعلمون أكثرَ منّا أحوال مصر والمسيحيّين فيها، لهذا فإنّ مولاي الملك يعوِّل على وفائكم للمسيح في مساعدته على الردّ المناسب لهذه الرسالة، علمًا بأنّ ملكنا العظيم فرناندو حريصٌ على مسيحيي المشرق بقدر حرصِه على مسيحيّي الأندلس، ولهذا طلبَ رأيكما».

أنطونيو ميلان: «ونحن خدمُ المسيح، وفي خدمة مولانا الملك».

فرناندو: «إذًا، أيّها الأب فلتخبرني، هل تري قايتباي محقًّا في تهديده؟».

أنطونيو ميلان: «لا يا سيدي، فدينُه يمنعه من التّنكيل بنا، وكيف يفعل ونحن مُقيمون بينهم دونَ أدنى اضطهاد منذ أكثر من ٨٠٠ عامًا».

فرناندو (معجبًا بحديث الرّاهبين، ومحاولًا استنطاقهما): «إذًا، فبماذا تنْصحان؟».

أنطونيو ميلان: «أكملْ يا سيدي ما بدأتُه من تطهير هذه الأرض مِن هؤلاء المسلمين، ولا تعبأ بمثل هذا التهديد».

فرناندو: «الحمدُ للرب، كم أنا فخورٌ بك أيها الأب العظيم المخلص للمسيح».

أنطونيو ميلان (مبتسمًا): «جميعُنا فداءٌ للعذراء يا سيدي».

وهنا بدأتْ تراود فرناندو فكرةً تتعلّق بالراهبين، فأطرق متسائلًا بينه وبين نفسه: لماذا لا يستفيدُ هنا بهذين المخلصَين للمسيحيّة، يجب ألّا يعود مثلهما إلى بلادِ الشرق، بل يجب أن يمكُثَا معه في قشتالة حتى تتحرّر كلّ الأندلس، ومَن يدري.. فلربما يستخدمُهما بعد ذلك في غزو الشّرق نفسه، وقد كانت خطةُ فرناندو تقضي بأنّه متى احتلّ غرناطة، فسيعبُر المَضيق ويحتلّ المغرب، ثمّ الجزائر فتونس فليبيا،

حتى ينتهي بقطف مصر ويستعيد المَقدس، ومثلُ هذه المغامرة تحتاجُ إلى خبير بتلك الأرض.

راقتِ الفكرة لفرناندو، فرفع رأسَه عائدًا مِن تفكيره، موجّهًا سؤاله إلى الرّاهبين: «لماذا لا تمكثان معنا وتخدُمان المسيحية بحرية كاملة هنا، ومَن يَدري لعلّي أحتاج إليكما في مشاريع مستقبليّة أخطط لها؟».

أنطونيو ميلان:«لا نستطيعُ يا سيدي، لقد خرجنا من مصرَ في مهمّة خاصة، بعد أن وثقَ بنا سلطانُ مصر، ونلنا حظوة عنده».

فرناندو (يطرب مبتسماً من كلام الأب أنطونيو): «مممممم، أراك على صوابٍ أيها الأب، أحيِّي سعة أفقك، بُوركت وبورك مَسْعاكم».

انْحنى أنطونيو ميلان، ثمّ طلبَ من الملك ردًّا على رسالة قايتباي.

فرناندو: «إذًا، أخبِرا سيّدكما أنّ الملكيْن الكاثوليكيّين فرناندو وإيزابيلا لا يفْرقان في المعاملة بين رَعاياهما المسلمين والمسيحيّين، ولكنّهما لا يستطيعان الصّبر، في الآن نفسه، على ترك أرضِ الآباء والأجداد في أيدي الأجانب، وإنّ المسلمين إذا شاؤوا حياةً في ظلّ حكمنا راضين مُخلصين، فإنّهم سوف يلقون منّا نفس ما يلقاه رعايانا الآخرون من العناية والأمن».

(يبتسمُ الرّاهبان ولا يتحدّثان)

فرناندو: «أيها الأب الطيب، عرِّج وصاحبك على الملكة في جيان، فسوف تجِدان منها كلّ احترام وترحيب».

أنطونيو ميلان: «سنسعَى إلى لقائها أيّها الملك العظيم، وسنسعد به».

فرناندو: «اذهبَا في رعاية الرب».

خرج الأب أنطونيو ميلان وصاحبُه، بينما بقى مركيز قادش في مجلس الملك.

مركيز قادش: «هل تَراهما صادقين يا سيدي؟».

فرناندو: «بكلّ تأكيد، وإنّي لفخور بأمثالهما مِن الذين لم ينْسوا مسيحيتهم، وأخوّتهم لنا تحتَ الصّليب المقدس، فصدقوا معنا في القول، وأخلصوا لنا في النّصح».

مركيز قادش: «ولكنْ سيدي، ماذا إنْ لم يكن الأب أنطونيو ميلان موفّقًا في توقّعاته، ونفّذ قايتباي خطته واضطهد المسيحيّين في أرضه؟».

فرناندو: «لن يَثْنينا أيُّ شيء عن خطتنا، ولو قُتل كلّ مسيحيي المشرق، على أني أرجو ألّا يتهوّر هذا الملك، وينفّذ تهديده، ولمزيدٍ من الحرص، وتأكيدًا على سفارة الرّاهبين، أرسل إلى بيترو مارتيز جليريا أن يذهب إلى مصرَ سفيرًا لي، وأنْ يحاول ثنْي صاحب مصر عمّا يمكن أن يفعله مع نصارى المشرق، وأخبره أنْ يزور كنيسة القيامة وقبرَ الرب ويحصل لي على التّبريكات من هناك».

مركيز قادش (مبتسمًا): «فكرةٌ رائعة يا سيدي، إذْ نحن هنا في معسكرنا لا يَثنينا عمّا نريد أيُّ شيء، وفي الوقت نفسه نعمل بالسياسة والحيلة والتّدبير، ونحافظُ على أرواح إخوتنا في المسيحية في المشرق والمغرب».

فرناندو (وقد أضاءت في وجهه آياتُ الاستبشار): «أتعلم يا رودريغو، إنّ طالَ بي العمر، فسأستردّ أورشليم، وأحرّر قبر الرب».

مركيز قادش: «أطالَ الله عمرَك يا سيدي، واعلم أنني وقتَها سأكون في رِكابك».

خرجَ مركيز قادش ليؤدي مهمَّته في إرسال سفارة إلى سلطان القاهرة، بينما خرجَ فرناندو من الخَيمة، مرسلًا بعينَيْه إلى أسوار بسطة المنيعة، ومردّدًا النّظر بينها وبين السماء التي لم تكنْ صافية، إذ بدأت السحب في التّجمع مشيرةً إلى اقترابِ موسم الشتاء، وبينما هو كذلك اقتربَ منه ألونزو دي غويلار، وقال له:

«إنّ موسم الأمطار يطرقُ الأبواب، وسينزل الفيضانُ من الجبال، وستمتلئ الأنهار والوديان بالماء».

فرناندو: «أعلمُ هذا يا دي غويلار، ولهذا أفكّر في حلٍّ يَقينا شرَّ هطول الأمطار».

دي غويلار: «ترَى المسلمين يَصْبرون على مشقّة الحصار، من أجل بلوغ هذه اللّحظات».

فرناندو: «ولهذا سأُخيِّب ظنّهم».

***

مرّت شهورٌ على الحصار الأليم، ولم يكنْ ثمّة أي مؤشر يدلّ على نهاية قريبةٍ له، فما زالتِ البضائعُ والمؤن تتوالَى على المعسكر القشتالي، بينما المحاصرون خلفَ الأسوار بدأت مؤنُهم في النفاد. أمّا الأمير يحيى فقد بدأ يفقدُ روحَ المغامرة، بعدما تسرّب اليأس إلى قلبه، لذا صار يجوبُ بين الأبراج وهو حزينٌ عَابسُ الوجه، لا يتحدّث إلّا قليلًا، ولكنه يصمت كثيرًا، وقد لاحظَ الأمير «محمد بن حسّان» ذاك المزاج السيئ لأميره، لذا راح يرفعُ معنويّاته بقوله: «إنّ موسم الأمطار اقترب، وعمّا قليل ستهطل الأمْطار، وينزل الفيضان من الجبال وستمتلئ الودْيان بالمياه، لتعصفَ بذاك المعسكر أو تُحيل الحياةَ فيه إلى جحيم».

وهكذا صارَ الجميعُ داخل المدينة يترقّب فصلَ الشتاء وموسم الأمطار، وكأنّهم ينتظرونَ معجزةً مِن السماء ترفعُ عنهم ذاكَ الحصار، بعدما فشلت سواعدُهم في رفْعه، وتقاعست طاقتُهم عن دفْعه!

مرّت الأيامُ وتجاوز الحصارُ الشهرين، استطاع خلالهما القشتاليّون استبدالَ خيامهم القماشيّة الضعيفة، بأكواخٍ من الحجارة والآجر، وبهذا تحوّل المعسكر إلى ما يشبِه المدينة، التي يمكِنها الصمودُ في وجْه الأمطار والشتاء، وتعصف بكلّ أملٍ للمسلمين في فكّ الحصار.

لكنّ ما تمنّاه المسلمون قدْ حدث، فما كاد القشتاليّون ينتهونَ من بناءٍ وتشييد مدينتهم التي توهّموا فيها حمايتهم، حتى هطلَ المطر الموسمي مباغتًا وغزيرًا، وراحَ الماء يتدفّق من كلّ صوب، فغرقَ المعسكر في سويعات معدودَة، وذابَ الآجر وتداعتِ البيوت وغرقت في الوحْل، وخسر الكثيرون دوابّهم وحياتهم، ولم تقفِ الطامة عند هذا الحدّ، بل حالت دون وصول المعونات إلى المعسكر؛ لأنّ المطر قد قطع الطرق، وجعلَ اجتياز الممرّات والأنهار أمرًا شبْه مستحيل، واستبشرَ المسلمون بعد يأسهم خيرًا، وتمنّى الجميع أنْ تهطل الأمطار مدرارًا، ولا تنقطع!

***

خشي فرناندو مِن دوام هطول الأمطار، لذا فقدْ ناور أهل بسطة وهادنَهم برسالةٍ حملها إليهم أحدُ رسله، وقد فسّر الأندلسيون هذه الرسالة بأن اليأس قد بلغ أشُدَّه بالقشتاليّين، لذا فقد قال الأمير محمد بن حسّان: «إن اليأس قد بلغ من القشتاليّين كلَّ مبلغ، فأرسلوا إلينا بمزيدٍ من التنازلات على أملٍ أن نسلم لهم، لذا فأفضل ردٍّ على

رسالتهم أنْ نباغتهم بهجمة تروِّعهم وتجبُرهم على أن يسارعوا إلى الانسحاب».

يحيى النيّار: «لقد أرهقتْهم العاصفة الأخيرة ودمّرت مواردهم، فأصبح هذا الجيش الضخم يعاني الجوعَ كما نعاني، غير أنّنا لن نستسلم».

محمد بن حسّان: «لن يمضي وقتٌ طويل قبل أن نرى هذه الغمامة من جراد القشتاليّين تنقشع بعيدًا أدراجَ عواصف الشتاء، وبمجرد أن يديروا ظهورَهم سيأتي دورُنا لنضربهم، ضربةً قاصمة لظهورهم هذه المرّة، وستكون ضربتُنا حاسمةً بعون الله».

وعلى أثر هذا الحديثِ وتلك المستجدّات خرج ٣٠٠ فارسًا مع ٢٠٠٠ راجلًا لمباغتة القشتاليّين والنّيل منهم، ووسط ظلامٍ مُدقع ووحْل وأمطار غزيرة، فاجأت السريّة، قطعة من قوّات الكونت دي تنديلا وغوانزافو دي قرطبة، فنزلوا عليهم بكلّ عنف، ممّا دفع هذه القوات إلى الفرار، ثمّ ارتدّ المسلمون بعدَ ذلك إلى أسوارهم بعدما أثخنوا في عدوّهم.

***

عوّل المسلمون كثيرًا على اسْتطالة وقتِ هطول الأمطار، لكنّ ذلك لم يحدث، بل انقطعتِ الأمطار، وعادتِ الحياة إلى طبيعتها، لهذا وفَوْر تحسّن الطّرقات؛ سارعت إيزابيلا إلى إمدادِ معسكر فرناندو

بالمؤن والعلوفات والمتطوّعة، كما زاد مِن سوء الأحوال أنّ الجند المرتزقة داخلّ بسطة، قد بدأوا التمَلْمل في وجودِهم وحركاتِهم، بل وذهبوا إلى الإعلان بأنّهم لن يحاربوا ما لمْ يتقاضوا أُعْطياتهم!

وردّ الأمير يحيى النيّار لهم هو القول: «لقد فرغت الخزانة، وقُطع عنا المددُ، ولا سبيلَ أمامنا الآن إلّا العمل التطوّعي، والجهاد في سبيل الله مِن دون انتظار حسنةِ الدنيا».

محمد بن حسّان: «فلنُشِع في الناس أنْ يتبرعوا بأموالهم من أجل حماية المدينة».

وبالفعل، ما كادَ الناس ينمَى إلى سمعِهم هذا الحديث حتى اسْتجابوا من دون إبطاء، وسارعوا بالتبرّع بما يملكون من ذهبٍ وفضة ومتاع، بل إنّ النساء قدَّمن ما لديهنّ من فضّة وذهبن طالبين إلى محمد بن حسّان أن يصهرَها ويدفع بها رواتبَ الجند، كي يستمرّوا في حمايتهنّ وحماية أسَرهن، وكنَّ يردَّدن قائلات: «إذا سقطتْ بسطة فلا حاجة لنا بأي حُلي، يفرح بها ناهبوها ونحن سبايا لهم».

ظلّ محمد بن حسّان يشجّع أصحابه، ويدفع لهم الهواء في شراع الأمل، مردّدًا أنّ رفع الحصار قريب، ودأب على أن يخرجَ بهم، اليوم بعد الآخر، ليوقع خسائر في معسكر القشتاليّين. ومرّت الأيام بينما بقي الوضعُ على ما هُوَ عليه، فلا أهل بسطة تظهر عليهم علاماتُ الاستسلام، بل ظلّوا صابرينَ على الحرمان والجوع، ولا القشتاليّون

يُبدون نيّة للرحيل أو عزمًا على فكّ الحصار، وبينما الأمورُ مستقرّة هادئة، إذْ بمعسكر فرناندو تعلو فيه دقاتُ الطبول، وتُسمع فيه الهتافات، ممتزجةً مع قذائف المدفعية التي يُعتاد إطلاقُها تحيّة لكبار الزائرين، ما يشي بأنّ زائرًا مِن هذا الطراز قد حضرَ الآن.

كان الأميران محمد بن حسّان ويحيى النيّار يراقبان ما يحدثُ في معسكر الأعداءِ من كثب، وعندما سمعوا الضجيجَ الذي اندلعَ في معسكر فرناندو سارعا بصعودِ الأسوار، وحدّقا بأنظارهما تِجاه الخيمة الملكيّة، فإذا بالملكة إيزابيلا قد وصلت مِن فورها- وفي رفقتها جيشٌ كبير- إلى أرض المعسكر. نظر محمد بن حسّان إلى المعسكر وظهرتْ على وجهه ملامحُ الحزن واليأس والانْكسار، وتغيّر وجهُه وقال مخاطبًا يحيى النيّار: «أيها الأمير، لقد حسم أمرُ المدينة».

أمّا في أسفل السّور فقد تجمّع أهالي بسطة وراحَ كلّ واحد منهم يحاول أن يشاهدَ ما يحدث في معسكر القشتاليّين، فهذا ينظرُ من أعلى منزله، وذاك يسترقُ النّظر من ثقبٍ في السور.

خيّم الحزن على المدينة الجميلة، وتسرّب اليأس إلى قلوب الجميع، وأيقنَ الشعب أنّ القشتاليّين لن يفكّوا حصارهم، وأنّ النهاية اقتربت، ووسط هذا اليأس اقترحَ بعضُ الفرسان أنْ يخرجوا بسرعةٍ لمهاجمة موكب الملكة علّهم يصلون إليْها! لكنّ الأمير يحيى

رفضَ وعارض، بل ومنع المدفعية مِن أنْ تطلق أيّ قذيفة تجاه القشتاليّين، وبرّر ذلك بأنّ شخصية الملكة تظلّ امرأةً، ولهذا يجبُ مراعاة ذلك من كلّ الفرسان مهما كان موقعها وموقفُها.

***

.٦٠

اكتسى وجهُ الأمير الزّغل بكلّ علامات الحزن، وانْهارت روحُه المعنوية، وصار قلبُه ملعبًا لليأس يجوب أرجاءه كيف يشاء، وبينما أخذ الزّغل يتأمّل مستقبله الغامض، كان يجلسُ في غرفة منعزلة شبه مظلمة في قصر وادي آش، وحيدًا مُطرقًا بوجهِه إلى الأرض وقد دفنَ خدَّيه في باطن كفّيه، لا يكادُ يرفع عينيه، ولا يكاد يحرّك أيّ طرفٍ من أطرافه. جلس الزّغل قانطًا وسطَ هذا الجوّ الكئيب يفكّر في حاضره وماضيه، ذاك الماضي الذي انْقطعت صلتُه بالحاضر، كأنّما شُيِّد بينهما جبل عازل، حتى صارا على طرفي نقيض! ماضٍ كان فيه الزّغل يحكمُ مملكة قويّة مهيبة، استطاعت غيْرَ مرّة أن تُنزل أشدّ الهزائم بالقشتاليّين، وحاضر يائس ضائع تقطّعت فيه السّبل. الزّغل يسائل نفسه: «أين سأذهبُ الآن؟ وماذا بعد مالقة وبسطة؟ هل الدورُ آتٍ على وادي آش والمرية؟ وهل أسلّم نفسي لابن أخي كي يقتلني ويمثّل بجثتي، أو أفرّ إلى عدوة المغرب؟ قاتلَ الله ابن أخي، فهو السببُ الحقيقي وراءَ ما أعانيه الآن! هو الذي مَنعني من إنجاد

مالقة، وهو الذي تسبّب في سقوط لوشة، وهو الذي حالَ بيني وبين إنْجاد بسطة.. هذا الأحمقُ الذي لا يُبصر أبعدَ مِن ظلّه».

استمرّ الزّغل رهينَ غرفتِه ساعاتٍ طوالًا، وهو لا ينبسُ بكلمة، ولا يكاد يتحرّك فكأنما تحوَّل تمثالًا من حجر، لا يلتفتُ لأحد، ولا يتحاورُ مع أحد، إلى أنْ قطع عليه خلوتَه الصامتة صوتُ الحارس قائلًا:

«لقد وصل الأمير محمد بن حسّان وهو يطلبُ المثول بين يدي مولاي».

رفع الزّغل بصرَه، فظهرتْ آثار أصابعه منطبعةً على جانبي وجْهه، ونظرَ إلى الحارس، وهو يتمتمُ بصوتٍ غيرِ مسموع: «حان الوقت إذًا»، (ثمّ أردف): «دعْه يدخل».

دخل محمد بن حسّان وسلّم على الزّغل، الذي بادره متسائلًا:

«كيف تمضي الأمور في بسطة؟».

محمد بن حسّان: «لقد وصلنا بها إلى نقطة النّهاية يا سيدي، إذ لم يعدْ ثمّة مجالٍ للمقاومة، بعد أن شدّد القشتاليّون الحصارَ عليها، بينما بسطة لم تتلقَّ أي مساعدات منذ بدأَ الحصارُ، وقد نفدت المؤن ومات الكثير منّا جوعًا، ونحنُ يا سيدي طوعُ أمرك، وقد حمّلني صهرك الأمير يحيى النيّار رسالة يصفُ لكم فيها ما آلت إليه حالُ المدينة، وكذلك الحال بيننا وبين معكسر فرناندو، والوضع البائس

التعيس الذي وصلنا إليه، واستحالة الاستمرار في المقاومة من دون نجداتٍ خارجية سريعة، كما أن الرسالة تحمل أيضًا الشروط التي عرضها القشتاليّون نظيرَ الاستسلام».

الزّغل (يتحدَّث بصوت بدا على نبراته القهر): «لا غالب إلّا الله».

أمسك الزّغل بالرسالة الثقيلة جدًّا عليه، وأخذ ينظر إليها قبل أن يفتحها، حتّى إذا همَّ بفتحها شعرَ كأنه يفتح قبرَه بيده! لذا فقد ظلّ مُمسكًا بالرسالة دقائق من دون أن يجترئ على فتحها، بينما ساد الصمت المكان، فمحمد بن حسّان ينظر إلى الزّغل، والزّغل ينظر إلى الرسالة بعينين حزينتَين ودموعٌ غالية لا تريد أن تنسكب، ثمّ حدِّث الزّغل نفسه، وتمتمَ بصوتٍ لا يسمعه غيره، وقال وهو يخاطب الرسالة: «لو أنّ أحدًا غير يحيى النيّار هو مَن أرسلك إلي؛ لمزقتُكِ وما صدّقت ما بك من كلمات! لكن لأنك من يحيى صهري وموضع ثقتي فأنا مضطرّ إلى أن أُكابد مشقة قراءتك، وأنا أعلم أنك لَتحملين بين كلماتك ما يقتلني». (خاطب الرسالة هكذا ثمّ بعد تردّد فتحها، لتغوص عيناه في كلماتها القاتلة وشروطها الموجعة، وحديثها عن مُلكٍ زالَ وهي الشاهدة على ضياعه. قرأها بعينه وتوقّف مرّات ومرّات عند كلّ حرف منها، ثمّ شرد ذهنه طويلًا، وظلّ في صمت مُطبق ورأسُه منحنٍ على صدره. وأخيرًا، وبعد صمت طويل، طلب الزّغل من محمد بن حسّان أن يقرأ له ما كان ويقرأ له شروط التسليم.

محمد بن حسّان: «كنّا يا سيدي نفضّل الموت على الاستسلام، حتى قال الأمير يحيى إنه على استعدادٍ لأن يضحي بحياته وحياة جنوده لو كان في ذلك أي حصيلة تُرتجى، أو ثمرة يمكن قطفُها، وبهذه الروح استمرت مقاومتنا وأنزلنا بهم هزائمَ عدّة، وقتلنا منهم أبطالهم وصناديدهم، وأطاحت رياحُنا بأشلائهم طيَّ الهَباء.. ولكن بعد وصول الملكة بجيشها تأكّد للأمير يحيى- ونحن معه- أنّ المقاومة لا طائل من تحتها، فنحن وبانقطاع المدد عنّا ونقْص المؤن في نقصانٍ وضعف، بينما الإمدادات تتوالى عليهم من كلّ أنحاء أوروبا وقشتالة وليون وأراجون، وذخيرتنا قاربت على النفاد، ومن بعدها ستتحوّل مدفعيتنا إلى قطعٍ مِن الحديد تأكلها الرطوبة والصدأ». (توقف الزّغل برهة، كأنما يريد أن يستريح من صخرةٍ ظلّت تثقل كاهله دهرًا، ثمّ أشار أن تابع قراءة الرسالة): «.. لقد تمثل لنا مصير مالقة، فخشينا على النساء والأطفال، لهذا رضِينا بالتسليم بعد أن استبدّ بنا اليأس مِن أن تمتدّ لنا يدُ بالعون، فتشكّلت هيئة مفاوضات تكوّنت من الأمير يحيى، وأنا معه، بينما حضر مِن القشتاليّين سيد كوماندرا أوف ليون المسمَّى دون غويتري دي كارديناس. اجتمعنا في مكان بين معسكر القشتاليّين وأسوار المدينة، وبمجرد اللقاء تحدث إلينا دون غويتري محذّرًا من عواقب التحدّي، ومذكّرًا إيّانا بما حدث لمالقة.

دون غويتري: لقد تقطعتْ بكم السبل، ولا أحد في بلادكم ينظر إليكم، ورسائلكم التي أرسلتموها إلى صاحب القسطنطينية

وصاحب القاهرة، لم تُغنِكم منا شيئًا، وصاحب الحمراء تابع لنا، وصاحب وادي آش عاجز عن نصرتكم، وسيوفُنا الآن موجَّهة إليكم وحدكم، فانظروا حالكم وأحوالكم، وإني أعدكم باسم الملك الذي أمثله بأنكم إذا سلّمتم فورًا، سيعامل الملك فرناندو سكانَ بلدكم كرعايا ويحمي أملاكهم وحريتهم ودينهم، أما إذا رفضتم فستكونان أنتما أيّها القائدان سبب كلّ خراب وعبودية سيعانيهما سكان بسطة.. وتذكّرا مالقة وما حلّ بها!

وهنا انتهى يا مولاي كلام دون غويتري، أو بالأحرى وعيدُه، وقد رأينا يا سيدي أن نطلعَكم على ما كان، والأمرُ راجعٌ إليكم».

الزّغل (يتردّد نظره بين السماء والأرض): «لا غالب إلّا الله.. ولا حول ولا قوة إلّا بالله». ثمّ صمت مرة أخرى وكأنّه يراجع ذاكرته وسالف أيامه، وبعد ذلك أمر محمد بن حسّان أن يبقى معه، ثمّ أرسل إلى فقهاء وادي آش يطلب إليهم المشورة بعدما أبلغهم بأحداث بسطة وظروفها، وكيف أن ابن أخيه يمنعه من إنجادها مثلما فعل مِن قبل في مالقة، وقال لهم إنه لا يريدها مالقة أخرى، ولا يريد أن تُسبَى نساؤها، ويُستعبد رجالها.

تحدّث الفقهاء وأهل الحلّ والعقد، فما كان حديثهم إلا بمنزلة زيادة البلل إلى الطين، وإضفاء للتشويش والتنافر على ما يدور في الجلسة، إذ لم يخرجوا برأي واحدٍ سديد.. لهذا صرفهم الزّغل من مجلسه بيأس شديد، وأبقى على محمد بن حسّان وحده، وبعد تفكير

تلاه تفكير، وصمت تكاثف فوقه صمت، ويأسٍ قد بلغ من الثقل ذروته، قال الزّغل وكأنه يسحب الكلمات من قاع جُبّ عميق: «لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، عُد إلى ابن عمي وأخبره أنني لا أملك القوة التي أستطيع بها أن أساعده، لهذا فليفعل ما يراه ملائمًا، لقد أثبت أهل بسطة بصمودهم ما يستحق أن نفخر به أمدَ الدهر، ولا أستطيع أن أطالبهم بالمزيد من التضحيات في دفاع يائس»!

***

استسلام بسطة.. «ردّة الحاكم والأرض»

كان يحيى النيّار رجلًا غامضًا، من ذلك الطراز الذي يفعل كل شيء، وأي شيء من أجل الحفاظ على سلطته وثروته، راهن على الوقوف في صف المنتصِر منذ بداية الحرب الأهلية في غرناطة، لذا وقف مع أبي الحسن ضدّ ابنه الصغير، وبعد موت أبي الحسن راح يؤيد الزّغل ويتبعه، حتى وثقَ به الزّغل وصاهره، ولكن الأمور الآن قد تغيرت، فقد خسر الزّغل غرناطة لمصلحة ابن أخيه، كما خسر مالقة التي آلت إلى القشتاليّين، والآن سيخسر بسطة.. ممّا يعني نهاية الزّغل، وزوال دولته على وجْه الحقيقة.

فكّر يحيى النيّار كثيرًا في هذا الأمر، فهو من جهةٍ لن يستطيع الانضواء تحت رايات الصغير، إذ كان يراه ملكًا بلا مستقبل! ومن جهة أخرى ليست له أي مصلحة في الوقوف بعد اليوم مع الزّغل، وقد طاشت سهامُه وضاعت مملكته، فبعد سقوط بسطة لن يبقى

في حوزة الزّغل غير المرية ووادي آش، وهُما مدينتان صغيرتان لن تصمدا طويلًا في وجه القشتاليّين، لذا وبعد تفكير قليل قرّر النيار الانضواء إلى جانب القوي الذي يحفظ له مكتسباته وثرواته ومكانته.. ولكن كيف يصل إلى هذه المكانة وهو الذي كان- منذ أيام فقط- يحارب الملكيْن الكاثوليكيّين ويثخنُ الطعن في جنودهما؟!

كان هذا السؤال هو الشغل الشاغل ليحيى النيّار، ليست بسطة هي ما يشغله.. فقد حسم أمرَ تسليمها، وليس الزّغل صهره ومليكه القديم، فقد نفضَ يديه منه.

بعد تفكيرٍ قرّر النيّار أنه إذا استطاع أن يسلم الملكين الكاثوليكيّين وادي آش والمرية، ويقنع الزّغل بالتسليم فسيكون قد قدم لهما الكثيرَ الذي يستحق به أن يحوز المكانة الرفيعة والحظوة الواسعة لديهما.

عاد الأمير محمد بن حسّان إلى بسطة، والتقى النيّار فور عودته، واتفق الاثنان على شروط التسليم وكانت تدور حول أربعة بنود:

أولًا: يُسمح للجنود والفرسان الذين جاؤوا للدفاع عن المدينة من أماكن مختلفة بأن يغادروا بسلاحهم وخيولهم وكل عتادهم، أو أن يبقوا في الضاحية ويتمتعوا بدينهم وقوانينهم بعد حلف اليمين للملك ودفع الضرائب له.

ثانيًا: يتسلّم قائد ليون خمسة عشر طفلًا من أبناء وجوه المدينة حتى يتم التسليم.

ثالثًا: يؤدي أهل المدينة فروض الطاعة للملك إن أرادوا البقاء فيها.

رابعًا: تسلُّم المدينة وقلعتُها خلال ستة أيام، يستطيع خلالها مَن أراد الخروج مِن أهل المدينة أن يغادر بسلام تجاه ما تبقى من بلاد المسلمين أو إلى قشتالة إن أرادوا.

قرّر النيّار أن يكون وحيدًا في توقيعه شروط التسليم مع الملكيْن الكاثوليكيّين، وأن يشرف على ذلك بنفسه، لذا فقد خرج للقائهما بتنسيق مُسبق مع دون غويتري، وفي الخيمة الملكية، قوبل الأمير يحيى بحفاوة بالغة، وقدّمت له الهدايا من المال والثياب والخيول والذهب، فامتنّ النيّار بذلك، وشعر في قرارة نفسه بأن مهمّته ستكون ميسرةً موفقة، لذا وبمجرد عرض الهدايا عليه، بادر بتقديم الشكر للملكيْن الكاثوليكيّين على كرمهما الفيّاض وعطفهما الحاني، بل تمادى في تملقه حدَّ قسمِه بأغلظ الأيمان أنه لن يرفع سيفَه مرة أخرى ضد هذيْن الملكيْن الكريمين! أمّا إيزابيلا وفرناندو الداهيتيْن فقد رأيا في عين النيّار ما ينمّ عن دخائله، فبادرا بإطرائه والإفراط في مديحه، فتحدّثت إليه إيزابيلا أولًا:

«هناك مِن الأعداء مَن يفرض علينا أن نحترمَه، وأنت مِن هؤلاء يا يحيى، فقد علمنا برفضك مهاجمة موكبي كما علمنا بنبلك وشجاعتك».

نظر النيّار إلى الأرض مصطنعًا لونًا من الخجل، ومستعظمًا المجاملات الكبيرة التي غمرَتْه بها إيزابيلا وفرناندو، واستشعر أيضًا أنّ أيام سعده قد اقتربت، وبدأت بشائرها تلوحُ قاب قوسين، فلم يُرد أن يفوِّت الفرصة السانحة ويقطع الحديث، فبادر بردّ جميل الكلمات وإطراء الملكيْن:

«لم أكن أعلم أنّ الملكيْن الكاثوليكيّين يحوزان هذا القدر الرفيع من الإنسانية والاحترام».

تُلمح إيزابيلا إلى زوجها بنظراتٍ معينة، وكأنها تطلب منه أن يساعدها على ما يدور في رأسها تجاه هذا العربي الذي أصلاهم نارًا منذ أيام، ثمّ بنظرة سريعة ماكرة قالت له في خبثٍ ودهاء:

«علمنا أيّها الأمير أن أصول والدتك كاثوليكيّة، وتعجّبنا من ذلك! لكن وعلى كلّ حال نحن سعداء بك، على رغم تركِك دينَ أمّك وأسلافك، واتباعك محمد، لكن هذا لا يمنعنا مِن أن نتمنّى أن يكون مثلك معنا، مع مَن يعرف قدرك ومنزلتك».

تنفّس يحيى النيّار الصُّعَدَاء، فقد وافق حديث إيزابيلا ما في نفسه، لذا فقد بادرَ وبحماسة شديدة قائلًا:

«إنه لشرفٌ لي أن يكون سيفي في خدمتكما أيّها الملكان العظيمان».

تنفرج أساريرإيزابيلا بابتسامةٍ امتزج فيها الدلال بالحنكة، وتساءلت:

«وكيف يحدثُ ذاك وأنت على غير ديننا؟».

يحيي النيّار: «سأستعمل كلّ نفوذي لإقناع الزّغل بأن يسلم لكم مدينتي وادي آش والمرية، وأن يكفّ عن عدائه لكما، وبهذا أكفِّر لكما عما فعلته في بسطة من مقاومة وحربٍ ودمار! والزّغل يثق بي ثقةً عمياء، لذا فسوف ينصتُ إلى نصحي».

نظر فرناندو إلى النيّار مُظهرًا الحسرة وخيبة الأمل، وفهمت إيزابيلا مقصدَ زوجها بتلك النظرات، فأسرعت متسائلة عن السبب وراء تحسّره، فأجابها فرناندو:

«كيف لا أحزن وأنا أرى، أنّ أمثال هذا القائد (يشير بيده إلى يحيى) ليسوا على دين المحبّة.. أنا حزين لأنه موجودٌ بين قوم لا يعلمون أقدار الرجال! إني لأراها خسارة كبرى لنا ولنفسه».

سمع النيّار هذه الكلمات، فوقعت في نفسه، وطير بها عقله، وشعر بأن الفرصة قد واتته ليضمن مكتسباته ومكانته بالقرب من ملكين مظفَّرين، فقال بحماسة وإصرار، بعد أن قام من مجلسه وتوجّه إليهما:

«مولاي الملك، مولاتي الملكة.. لقد أثبت لقائي معكما أنكما الملكان حقًّا، وأنّ سواكما إنما هو لا شيء، مولاتي... أنا أطلب إليكما باسم مريم العذراء أن تعمّداني وأنْ تقبلاني خادمًا لكما».

عُمِّد يحيى النيّار في المعسكر الملكي خارج بسطة، واعتُرِف له بممتلكاته. كما أطلقوا عليه سيد مسلمي بسطة والمرية وقائدها. وكان كلّ ما تم الاتفاق عليه بين يحيى والملكيْن يشكّل معاهدة خاصة أو مكرمة ملكية قُدمت ليحيى جزاءً له على خدماته التي وعد بها، وما هو منتظَر منه بعد اعتناقه النّصرانية. وتضمن الاتفاق أو المقابل الذي استحقه يحيى نظيرَ تنصّره العناصر التالية:

أولًا: سيعتبر يحيى زعيماً تحت حماية الملكين الكاثوليكيّين، وهو أمر يشمل أبناءه مِن بعده، وجميعُهم سيلقون معاملة الفرسان الكبار للمملكة، ويتعهّد الملكان الكاثوليكيّان بأن يدافعا بكلّ قواهما عن يحيى ومناطقه وممتلكاته ضدّ أعدائه.

ثانيًا: أمام طلب اعتناقه النّصرانية، يرى الملك فرناندو أنه من الأفضل أن يبقى الأمر سرًّا؛ لأنّ المساعدة المنتظرة من يحيى وأنصاره قد تكون في خطرٍ لو أعلن تنصره. هكذا اتُّفق على ألّا يعلن تنصره إلّا بعد تسليم وادي آش.

ثالثًا: الاعتراف له بميراثه من الكروم والحصون والقرى، والتي كانت ملكًا لأسلافه يتصرّف فيها كيف يشاء. هذه الأراضي لا تضمّ تلك التي تحصل عليها بعد وقف الحرب بين ملك وادي آش صهره الزّغل وملك غرناطة، بل فقط تلك التي ورثها عن أسلافه.

رابعًا: هذه المدن والقرى والحصون، التي ستصبح في ملك يحيى، لن يكون بإمكانها استضافة الجنود ولا السماح لهم بدخولها

من دون رغبة يحيى إلّا في حالة الضرورة القصوى، وفي هذه الحالة ستكون إقامة الجنود على حساب الأمير يحيى، حيث تُعتبر في خدمة العرش.

كما أنّ أقرب مقرّبيه، كابنه وأبناء أشقائه وأحفاده وخدمه سيستفيدون ممّا يستفيد منه زعيمهم، فلا يدفعون أي مغرم أو جزية.

كما بإمكانه استخدام ٢٠ فردًا من الحرس الشخصي يحملون ما شاؤوا من الأسلحة الدفاعية والهجومية التي يحتاجون إليها.

أمّا فيما يتعلق بالامتيازات الاقتصادية، فإذا تنازل صهره ملك وادي آش عن نصف الملاحات الموهوبة إليه، فإن الملك سيهبه دخلًا قدره ٥٥٠ ألف دينارًا ذهبيًّا في ملاحات دلاية. و فضلًا عن ذلك، فإنه إذا تم تسليم وداي آش في الموعد المتفق عليه، فمكافأة له على جهوده في خدمة فرناندو لدى الزّغل وغيره من القادة، يهبه ١٠ آلاف دينار، ويقدم له كل البراءات اللازمة بها تقدم.

بعد تعميده غيّر يحيى النيّار اسمه، إلى الدون بيدرو الغرناطي، وذلك في معسكر الحضرة، وكان العرابان هما الملكيْن الكاثوليكيّين. كما أن بعض أفراد أسرته المقرّبين وبعض معاونيه فعلوا الأمرَ نفسه. وبالمثل عُمِّدت زوجته السيدة مريم التي تحوّل اسمها إلى مرية بنغيش، وكذلك ابنه عمر الذي أصبح يُدعى دون ألونسو الغرناطي بنغيش، ثمّ ابنتاه اللتان سميتا إيزابيلا وبرياندا.

هكذا أصبح الأمير يحيى واحدًا من كبار المتعاونين مع الملكين الكاثوليكيّين، كما غيرت الحربُ طبيعتها منذ أن انضمّ يحيى إلى صف الملكين الكاثوليكيّين؛ فقد انقطعت الحروب الضروس، والمعارك الدامية، والحصارات الطويلة، والحصون لم تعد تُعتلى، فحكامها يسلمونها.

وهكذا ترك يحيى النيّار دينه وخان وطنه وأهله، وتبعه في الاستسلام محمد بن حسّان الذي تحوّل أيضًا إلى النصرانية، وفعل فعلهما الكثيرُ من الفرسان، طمعًا في الدنيا، وانحرافًا عن الآخرة، وتخليًا عن حَبْلِي الدين والوطن، وضمانًا لأن يكونوا مع الجيش المنتصر حفظًا لمصالحهم وتشبثًا بمكاسبهم، وهكذا هوى قادة بسطة الذين كانوا بالأمس مثلًا للشجاعة والفداء في قاع وادٍ سحيق، بينما تتلطخ أرواحهم بالخيانة والردّة، أمّا نفوسهم المشوّهة فتظلّ تحترق بلسعات الضمير!

وهكذا، وبعد حصار استغرق ستة أشهر وعشرين يومًا، استسلمت بسطة في ٢٤ ديسمبر من العام ١٤٨٩م، وتوافق استسلامها مع عيد القديسة باربرا التي تعتبر عند الكاثوليك قاهرة الرعد والبرق والنار والبارود ومختلف الانفجارات، ودخل الملكان المدينة في اليوم التالي، وأخرجا منها ٥٠٠ أسيرًا قشتاليًّا.. وتبع بسطةَ في الاستسلام كلٌّ من «المنيصرة» و«تافرناس» ومعظم حصون «البقصار»، وتوافق تسليم تلك المدن والقرى والحصون استسلام قادتها جميعًا ما عدا السيد «علي بن فهر» الذي كان تحت

إمرته الكثير من القطاعات العسكرية، وقد حزن علي بن فهر حزنًا شديدًا على تفريط قادته الكبار في الأندلس، فوقف صامتًا حين التسليم، بينما اصطف زملاؤه يأخذون من ملكي قشتالة أجورهم مقابل ما أقدموا عليه من خيانة وتفريط، فقد وضع الملك الجوائز الضخمة لَمن يأتيه بمفتاح قريته ومدينته، حتى إذا جاء دور «علي بن فهر»، ووقف أمام الملك، قال له: «أنا مسلم، ومن أصول عربية مغربية، وسيد مدينتي برشينا وباترنا اللتين كنتُ أدافع عنهما بعهد من مولاي الزّغل، الذي فقد كلَّ قوته وشجاعته وطلب الأمن والدعة فقط، وهذه الحصون قد صارت إليك أيها الملك، لأنه لم يعد بحوزتي ما أدافع به عنها، ولك أن ترسل من تشاء لأخذها فقد تركتها الحاميات التي كانت بها».

فرناندو (ينظر إليه طويلًا، قبل أن يجيبه قائلًا):

«سآمر لك بمال كثير أيها العربي، نظير هاتين القلعتيْن».

علي بن فهر: «لم آتِ إلى هنا لبيع ما لا أملك لَمن لا يستحق، ولكن لأخضع بعدما خضع سادتي.. فتأكّد يا صاحب الجلالة أنه لو تركت لي الفرصة لاخترتُ الموت دون هذا الموقف المهين ببيع قلاعي، فلا حاجة بي إلى ذهبك».

إيزبيلا (تنظر إليه نظرة تجمع بين الدهشة والحسد): «لا أخفي إعجابي بشجاعتك أيها العربي، وكم أتمنى أن تغيّر رأيك وتنضم إلى خدمتنا».

علي بن فهر:«لا أخدم أبدًا أعداء ديني وبلدي».

إيزابيلا: «كيف نكافئك إذًا؟».

علي بن فهر:«لقد تركتُ في الوادي والبلاد التي كنتُ أحميها الكثير من العائلات التعيسة مع أبنائها وشيوخها، الذين لا يمكن قلعهم من أوطانهم.. وكلُّ ما أريده هو وعدٌ من جلالتكم بأن يُبقوا أحياء، وتحموهم، وتُبقوا لهم على دينهم وبيوتهم وحياتهم».

إيزابيلا: «لك هذا».

فرناندو: «ألا تطلب شيئًا لنفسك؟».

إيزابيلا: «نعم، اطلبْ ما تريد لنفسك».

علي بن فهر: «لا شيء سوى الإذن لي بأن أغادر إلى إفريقية، من دون أن أُنهَب أنا وحصاني هذا».

إيزابيلا: «اذهب وغادر في أمان، وخذ هذا الذهب فهو هديتي إليك». (تُمسك بكيس كبيرٍ من الذهب تحاول دفعه إليه».

علي بن فهر: «أشكركِ أيتها الملكة على هديتكِ التي لا أستحقها».

إيزابيلا: «بل اقبلها.. فأنت تستحقها وزيادة».

علي بن فهر: «لو قبلتُها فسأكون قد أجرمتُ في حق نفسي وأهلي وديني».

إيزابيلا: «إذًا، لك ما تريد أيها العربي الشهم».

وهكذا خرج علي بن فهر، واكتفى بجواز سفر من الملكين الكاثوليكيّين، فتحرّك مع حشمه وخدمه ودروعِه وكلّ أدواته الحربية، مودّعًا أصحابه وبلاده، وكأنّ قلبه يسبح في فراغ، وقد تحجّرت عيناه، فمضى من دون أن يذرف قطرةَ دمع واحدة!

***

.٧٠

وداعًا، أيها المحارب القديم!

تقطّعت السّبل بالزّغل، وانقطع هو عن الدنيا، فلا صار قصرُه موطنَ الوزراء والزّوّار، ولا صارت الأخبار تتوالى إليه، ومِن أين تأتيه الأخبار ولماذا، بعدما فقد مالقة وبسطة ومعظمَ أرجاء مملكته؟ لقد أيقن الجميع بنهاية الزّغل وضياع مملكته، لذا فقد رغب عنه أهلُ المطامع والشرور، حتى إنّ الحمام الزاجل الذي كان في السابق يحلّق آتيًا بالأخبار إلى الزّغل وحاملًا إيّاها منه، قد توقف عن التحليق، فلم يعد يأتي أو يعود، كأنما كسّر اليأس أجنحته، أو أصابه ما أصاب الجميع من شلل وضياع!

سيطر الحزن والكآبة على الزّغل، الذي صار سجينَ قصره وهزائمه، تلك الهزائم التي لم تصنعها يدُه، بل قُهر عليها قهرًا، يوم أُجبر على عدم خوض تلك الحروب بنفسه وبسيفه، وراحت

الإشاعات الباطلة تُنسَج عنه، ثمّ لا تلبث أن تعصفَ به، والناس يردّدونها ولا يأبهون أنهم في كلّ مرّة يردّدون إشاعة عن الزّغل إنما يقتلونه ألفَ مرة. وراحتْ أخبار الحصون المستسلمة من دون أمره تطعنُه في جنبه وظهره وفؤاده.. لقد تطوَّع الكثير من حكام الحصون بالتنازل عنها لفرناندو، بتشجيع من «يحيى النيّار»، ومن دون الرجوع إلى الزّغل.

صارت الأحزان والآلام أمواجًا عاتيةً تُحكم قبضتها على الزّغل، وتطيح به في كلّ اتجاه، وتسطّر نهاية قصته، بينما قصص مَن حوله لم تنتهِ بعد.. جلس الزّغل وسط كلّ هذا يفكّر في مصيره ونهاية دولته ودولة أجداده والتي كتب الله عليه أن يبصر بنفسِه نهايتها، ويكون شاهدًا على استشهادها. جلس يفكّر كأنما يسأل نفسه، أو لعلّه كان يسأل محاورًا وهميًّا يتخيّل أنه يقاسمه المكان، أو ربما كان يسأل التاريخ: «أين العز؟ وأين المجد الذي كان، والبطولات والفتوحات؟ أين بلاد طارق بن زياد وموسى بن نصير؟ أين نخلة الداخل وقنطرة السمح بن مالك وغزوات المنصور؟ أين زهراء الناصر، وشِعر ابن زيدون؟ أين سيف غالب الناصري وسيف المنصور؟ أين رمح علي العطّار وحامد الثغري؟ أين جيوش بن تاشفين تعبرُ البحر، وتنقذُ الأندلس؟ أين جيوش المنصور تتخطى المستحيل وتضرب في الآفاق، فتُلقي بصليل نصرها في عنان السماء؟ أين مسجد قرطبة ومسجد طليطلة ومسجد الزهراء والحمراء

وإشبيلية وسرقسطة؟ أين قصر الجعفرية وقصور ابن ذي النون؟ أين ذهبت تلك السيوف؟ وأين غاصت تلك الرماح؟ ولماذا لم تصهل الخيل؟ ولماذا يلف الأجواءَ كلُّ هذا السكونِ المرعب؟ لماذا انقطع الآذان وانطفأت جذوته، بينما تجلجل الأجراس فوق المنارات، وتشتعل الشموع في صحون الكنائس.. ولماذا يُكبتُ المسلمون، فتغرز السيوف في صدورهم وظهورهم إلى الجدار؟!».

طوفانٌ من الأسئلة طرق رأس الزّغل وأرَّقه وقضّ مضجَعه، وبقدر ما تتابعت علاماتُ الاستفهام على عقله كشلال لا ينقطع، لم يكن في مقدوره العثور ولو على إجابةٍ لواحدة منها.. فقد ضاعت الإجابات والردود، وتهشمت الكلمات وتشوّهت الحروف.. وبقي اليأس يحْدو الزّغل ويرافقه كظلّه، بينما تتآكل مِن حوله حدودُ مملكته، مفسحةً في الأرجاء كي تتسع ممالك أعدائه وتتعاظم قوتهم.

ولفرط حزنه وشروده، لم ينتبه الزّغل لدخول صهره عليه، فقد وصل يحيى النيّار مِن فوره متزينًا بأردية فخمة أخذَها من سيّديْه الجديدين.. لم يعلن النيّار ارتدادَه، فقد اتفق مع فرناندو وإيزابيلا على أن يظلّ الأمر سرًّا إلى حين!

وبمجرد دخوله، راح النيّار ينظر إلى الزّغل محاولًا أن ينبهه لوجوده، وما كاد الزّغل يُفيق منتبهًا حتى نهض من مجلسه، ليحتضن النيّار بشدةٍ، كملاحٍ تائه منذ زمن، وفجأةً عثرَ على الشاطئ، وهو يقول:

«لم يبقَ لي أحدٌ غيرك يا يحيى، لقد خانني الجميع وخلعوا طاعتي، ولم يبقَ لي غيرك سندًا وناصحًا أمينًا».

بعد تبادل التحية راح النيّار يؤكّد ولاءه وطاعته للزّغل، وبنهج المجرم الذي يسرف في تصنّع البراءة من جريمته، راح النيّار يبالغ في أن يؤكد للزّغل أنه مستعدٌّ للموت دونه ودفاعًا عنه، وعمّا تبقى من مملكته، ولكنه في الوقت نفسه أخذ يردّد للزّغل أن لا فائدة من المقاومة والحرب. كانت كلمات النيّار تتأرجح- بطريقة محسوبة- بين مقاومة القشتاليّين والتسليم لهم، ثمّ راح المخادع يُذكّره بابن أخيه الخائن الذي حفظ ملكه بطاعته لفرناندو، بينما خسر الزّغل ملكه بعدائه للقشتاليّين!

استمع الزّغل إلى كلام النيّار، وكأنه لم يكن يعلمه، ولهول الكلمات صمت الزّغل، واستسلم على كرسيّه، فواصل النيّار بثَّ سمومه في آذانه قائلًا:

«لقد حاربْنا في مالقة، وبسطة وحصن موكلين، وقدمنا الدّماءَ الطاهرة للدفاع عن هذه البلاد والعباد، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد خرجت لإنقاذ بلش مالقة فعُدتَ منها وقد خسرتَ غرناطة وأهلها، بل إن أهلها اتهموك بأنك السببُ في ضياعها، لذا فقد نادوا بابن أخيك ملكًا.. وفي مالقة ألم تجهّز جيشًا لإنقاذها، فجاء ابن أخيك وصدَّ الجيش وشتّته، ومنع النجدات من إنقاذ المدينة؟ ثمّ ماذا بعد؟ لقد حاربْنا في بسطة، وتحمّلنا الحصار والجوع والمرض،

بينما يجلس ابن أخيك وسط لهْوِه وخمْرِه وجواريه، فحفظ هو مُلكَه بخضوعه، وضاع ملك الزّغل بشجاعتك ومقاومتك وكلِّ حروبك، والدماء التي سُفكت فيها؟ إن الظروف كلها تقف ضدّك أيها الملك، بل وتقف ضدّ جيوشنا بالمرصاد، بدءًا من لعنة ابن عائشة وحظّه العاثر وطالعه السيئ الذي أصاب المملكة بالدمار والخراب، فكلُّ جهودنا كانت الظروف تقف ضدّها حجر عثرة واضعة أمامنا مصائب متتالية، وكأنّ مُلك غرناطة قد كتب عليه منذ الأزل، أن يكون بيد القشتاليّين. وتلك مشيئة الله».

كانت كلُّ كلمة ينطقُ بها النيّار تهوي كسيفٍ مُصْلَت يُمعن في تمزيق جسدِ الزّغل وتحزمُ قلبه بحبلٍ أقسى مِن الفولاذ، وبينما طال صمت الزّغل وهو يقاسي وجعًا جهنميًّا، ظلّ النيّار يواصل إفكَه، حتى صنع منه سحرًا أنزله في عقل الزّغل الذي استسلم في نهاية المطاف، وشرع يردّد كلام صهره، في صوتٍ مثقَلٍ بالمرارة والحسرة والألم:

«الحمد لله، ولتكنْ إرادة الله، نعم يا يحيى؛ يبدو أنها إرادة الله، وهو فعّال لما يريد، وهو تعالى لو لم يشأ سقوطَ مملكة غرناطة لاستطاعت هذه الذراع (يلوِّح بذراعه عاليًا) بالسيف الذي تحمله، أن تُبقي عليها وتدافع عنها».

وها هنا سنحت الفرصةُ للنيّار كي يواصل دورَه القبيح، فبادر بالطَّرْق على الحديد وهو ساخن، قائلًا للزّغل:

«بقي أن ننقذَ ما يمكن إنقاذه ممّا تُرك لنا من هذه المملكة المحطّمة، فاستمرار الحرب يعني جلبَ المزيد والمزيد من الدمار والخراب والموت على المسلمين، وفي النهاية سيأخذها العدو، وبمساعدة من ابن أخيك، ووقتها يا سيدي، (يصمت برهة ثمّ يتابع)، تذكر الثغري».

قال يحيي تلك الكلمات محاولًا- بمكْر ثعلب- أنْ يُذكّر الزّغل بمصير الثغري، وكيف كانت نهايته بائسةً بعد مقاومته وبطولاته، ثمّ لا يلبث أن يتخابثَ ويصطنع الحزن واللؤم، فيصمت مستنطقًا الزّغل.

الزغل: «إذًا، أشرْ علي».

النيّار: «سلِّم ما في يديك من القلاع والحصون والمدن إلى ابن أخيك محمد بن علي بن سعد، فهو الذي سيحميها لأنّه في الأصل تحت حماية قشتالة».

تلمع عينا الزّغل وتبرقان، ثمّ يضع قبضته على مِقبض سيفه بشكلٍ لا شعوري ويقول وهو يعضّ بأسنانه: «لن أفاوض هذا العبدَ الذليل، فلأن أرى أعلام قشتالة ترفرف فوق هذه القلاع أهونُ عليَّ مِن أن أعطيها لذلك الجبان العميل».

أظهرَ النيّار الأسف، واصطنع الحسرةَ بخبث شديد، وبحركات خادعة قائلًا:

«إذًا، إنْ لم تكن هناك سبيلٌ أخرى، يمكنك أن تثقَ بأقوال ملكي قشتالة ووعودهما، فممّا لا شك فيه أنهما سيضمَنان لك شروطًا مشرفة، لذا فالأفضل الخضوع لهما كصديقٍ بدلًا من أن يُخضعوك بالقوة في نهاية المطاف كعدو، ووقتها لن يراعوا فيك قاعدة: ارحموا عزيزِ قومٍ ذل».

كاد الزّغل يُصعق ممّا آلت إليه الأمور.. فهو الفارس المغوار، البطل الذي لا يهاب الموت ولا يخشاه، أيعقل أن تكونَ هذه نهايته وخاتمة بطولاته وشجاعته؟!

وكأنّ النيّار كان يدرك الطاحونة المهلكة التي تهرسُ الأفكار في رأس الزّغل بأقصى سرعتها، فاصطنع الرأفة به، وربتَ على كتفيه قائلًا: «إنها إرادة الله تعالى، ولا مدبِّر للأمر سواه».

كلّ الطرق أُوصدت في وجه الزّغل، أو هكذا بدتْ له الأمور، فلم يجد مناصًا من الخضوع، فوافق على التسليم، بينما النار تتأجج في صدره حقدًا على ابن أخيه، فهو يراه سببَ كلّ بلائه الذي وقع فيه نهاية حياته، بل ويراه سببًا في انقطاع دولة الإسلام في الأندلس، وتحوّلها هشيمًا تذروه الرياح، بعدما استوقفت التاريخ طويلًا ليروي الحكايات الأسطورية عن مجدها التليد وثرائها الواسع وحضارتها الزاهرة.

فوّض الزّغل رفيقه وقائده القديم يحيى النيّار أن يفاوض عنه ملكي قشتالة الكاثوليكيّين، ثمّ وقف ليودّعه. وقد كان النيّار يحاول أن يصطنع الحزن والألم، بينما يتراقص قلبُه فرحًا، بعدما أيقن أنه

نجحَ في مهمته، وهو الآن ينتظر الجائزة التي يستحقّها من الملكيْن فرناندو وإيزابيلا على ما قدّم لهما ولدولتهما.

وبخطواتٍ مُتسارعة وصل النيّار إلى بسطة، حيث الملكان الكاثوليكيان اللّذان استقبلاه بكلّ ترحاب، وأُبرما معه الاتفاقَ على التسليم بشروط معينة، وبأموالٍ وهدايا حملها النيّار عائدًا بها مرة أخرى إلى وادي آش، وقد تمَحْورت الشروط في عدة نقاط:

أولًا: تظلّ مناطق أندروش ووادي الحوراني للزغل وسلالته من بعده، مع نصف ساليناس، ومجمع الملح على أن يحمل لقب ملك أندرش ويكون تحت إمرته ٢٠٠٠ جنديًّا من المسلمين.

ثانيًا: سيؤدي الـ ٢٠٠٠ جنديًّا قسَمَ الولاء لقشتالة.

وقد تحدّد وقت التسليم في السابع عشر من ديسمبر من العام ١٤٨٩م.

وفي السابع عشر من ديسمبر، كان الزّغل منتظرًا على أبواب المرية، بينما كان فرناندو قد اقترب بجزءٍ كبير من جيشه، وهو يمرّ مرور المنتصرين بالمدن التي أخذها بالسياسة والتّدبير وليس بالحرب والتدمير، وحين اقترب فرناندو من المرية خرج الزّغل للقائه ومعه النيّار ورؤوس البلد على ظهور الخيل، وقد أبتْ كبرياء الزّغل إلّا أن تستشعر المهانة في كلّ ما يحدث، فاستبد به غمٌّ ثقيل، وكانت شفتاه تتحرّكان بين الفينة والأخرى من دون أن يقول شيئًا، بحركة تنمّ على

نفاد الصبر، فقد كان الفارس الصعبَ المراس يعتبر نفسَه مهزومًا، لكن بإرادة الله لا بقوة خصمه، فبدا كأنّ شفتيه تردّدان عبارة «لا غالب إلّا الله».. لهذا فقد قبل بقدره المحتوم.

وصل موكبُ ملك قشتالة إلى المكان المحدد للتسليم، وهنا تقدم الزّغل نحوه بينما كان يشعر بروحه الأنفة تكادُ تزهق مغادرة جسدها فرارًا من هذا الموقف المزري حين ترجّل الزّغل عن حصانه، وتقدّم ناحية فرناندو ملك قشتالة، وقبَّل يده، والملك لا يزال فوقَ صهوة جواده، في مشهدٍ يطفح بالذّلة والخضوع، ولم يخفّف من وطأته إظهار فرناندو قليلًا من الاحترام للقب «الملك» الذي كان يحمله الزّغل، فقد مال إليه منحنيًا بدرجة محسوبةٍ، وهو فوق حصانه وقبّله، داعيًا إيّاه أن يعود ليمتطي مُهْرَه، وتبادل معه كلماتٍ «بروتوكوليةً» جافة لا تقدّم ولا تؤخر، قبل أن يستدير فرناندو بجواده آمرًا، في خُيَلاءَ عارمة، ببدْء الاحتفالات بالنصر، وبنهايةٍ فاجعةٍ للزّغل، ذلك الفارس المسلم العنيد..

***

الفصلُ السادسُ والأخير

«إذًا، دعوه يعرفُ أنّ المسلم يولَد بين سيفٍ ورمح يؤنسانِه في المهد، فإذا حُرم منهما حُرم مِن الحياة. وإذا كان ملك قشتالة يرغب في سلاحنا، فليأتِ ويأخذْهُ بحدِّ سيْفه».

موسى بن أبي غسّان

.١٠

في ساحة باب الرملة، أكبرِ ميادين غرناطة وأشهرِها، وقف جمعٌ كبير من الناس، يشاهدون بشغفٍ وحبّ كبير صراعًا بين فارسين، كلاهما مدجّج بالحديد ويحمل رماحًا طويلة، وبينهما حاجز يفصل بينهما، وما هي إلّا لحظات حتى اندفعَ الفارسان كسهميْن، كلٌّ منهما تجاه الآخر، وسط صيحاتٍ من الشعب وصرخات وتشجيعٍ من النساء والأطفال، وكان من المتابعين لتلك الاحتفالية محمد العطّار الذي عادَ إلى الأندلس بعد عام قضاه في التعريف والإشهار لقضية الأندلس، ساعيًا إلى جلب الإغاثة لها، وبجانبه صديق عمره «عامر الغرناطي».

كان الفتى موسى بن أبي غسّان قد سحر قلوبَ أهل غرناطة، وصار مضربَ الأمثال في الشهامة والشجاعة، لذا قال محمد العطّار مبديًا إعجابه به:

«لله درّ ابن أبي غسّان، لا يترك فرصة إلّا وأظهر شجاعتَه وفروسيته».

عامر (مؤمِّنًا على كلامه): «لقد أصبح بأفعاله معشوقَ الشباب، فذهبوا يقلّدونه ويردّدون كلماتِه في جلساتهم وحواراتهم».

محمد العطّار: «الحمدُ لله أنْ وجد الشعب الغرناطي مَن يأخذ بيده بعيدًا عن صاحب الحمراء».

تتعالى الأصواتُ أكثر وأكثر، ويُسمع صوتُ ارتطام شديد نتج عنه اختراق الحربة لجسد الفارس القشتالي، الذي كان يصارع موسى بن أبي غسّان.

نزل موسى من فوق صهوة جوادِه ليعاين الفارس القشتالي، إن كان لا يزال به رمقٌ مِن حياة.. رفع عن وجهه الحديد فوجده جثةً هامدة.. خلع موسى خوذتَه وألقى برمحِه جانبًا، متوجّهًا بكلامه إلى جموع المشاهدين.

«أرأيتم؟ ها هُم فرسان قشتالة وأبطالها لا يصمدون أمامنا.. أرأيتم.. نحن لا نحتاج إلى معجزةٍ لكي نحقق النّصر عليهم ، بل نحتاج إلى قلوبٍ قوية وشجاعةٍ لا تهاب الموت»، (يضرب بقبضة يمناه على صدره مواصلًا) «ونفوسٍ لا تعرف اليأس والهزيمة»، (يتحرّك قليلًا مُجيلًا عينيه وسط الجموع) «لقد أرسل ملكُ قشتالة رسالة يطلب فيها أن نستسلم ونسلّم له غرناطة، فهل يظنّ ملكُ قشتالة أننا جمْع من العجائز أو الأرامل يمكن أن نخضع للتهديد؟!».

يُجيب العامة بحماسةٍ مشتعلة على موسى مردّدين بصوتٍ موحّد ترددت أصداؤه في المكان كزئيرِ أسود!

«لا، لن نخضع له، الموت لصاحب قشتالة».

موسى :«إذًا، دعوه يعرف أنّ المسلم يولَد بين سيفٍ ورمح يؤنسانه في المهد، فإذا حُرم منهما؛ حرم مِن الحياة، وإذا كان ملك قشتالة يرغب في سلاحنا، فليأتِ ويأخذْه بحدِّ سيفِه، لكي نهيئ له قبرًا أمام أسوار غرناطة، فساحةُ الموت أشرف مِن أفخم القصور مع الخضوع والذّل والعبودية لهؤلاء الأعداء».

الجمهور (بلسانٍ واحد): «الموت لفرناندو وإيزابيلا».

أنهى ابن أبي غسّان كلمتَه وسط هتاف الجمهور وتهليله وحماسته، لكن صوتًا نشازًا عاكسَ اتجاه الناس، فقطع هتافهم، وحاول أن يجدَ لنفسه مكانًا وسط المشهد الملتهب.. التفتَ الناس لصاحب الصوت فإذا هو رجل تُظهر ملامحُه وثيابه أنه مِن تجار القيصرية الأغنياء، تقدم الرجلُ بخطوات وئيدة إلى مقدّمة المشهد، قبل أن يتحدّث بنبرة جمعتْ بين الاستنكار والسخرية قائلًا:

«لكنّ الحرب يا بن أبي غسّان ستجرّ علينا الويلات، وستُلحق بنا عار المقاومة الفاشلة، التي ستنتهي بنا إلى أسواق العبيد»، (ثم التفت إلى الشعب المتوثّب حوله متسائلًا) «أمْ إنكم نسيتم أحداث مالقة، وما حلّ بأهلها نتيجة مخالفتهم العهود مع قشتالة ورفضهم التسليم والاستسلام؟».

موسى بن أبي غسّان (مبادرًا بالردّ على الرجل): «إن أسواق العبيد تموج بالنّساء وبأشباه الرجال، أمّا الرجال فيمنعهم سلاحُهم عن أسواق العبيد!! وأمّا مالقة فلم تخُنِ العهد، بل إنّ فرناندو هو مَن غدر بهم، وبمساعدةٍ من تاجرٍ مثلك هو علي دردوش، الذي اشترى نجاتَه بهلاك المدينة، ووالله الذي لا إله إلّا هو، إن علي دردوش وأمثاله لهم أشدُّ شرًّا علينا من القشتاليّين وأمثالهم».

الرجل: «أتّتهمني بالخيانة يا بن أبي غسّان...؟».

موسى (بصوتٍ عال ولهجةٍ حازمةٍ زاجرة): «أنت ذكرت أحداثًا، وأنا رددتُ عليها، فلا تضعْ نفسك مرة أخرى موضعَ الرّيبة أيها الرجل».

استفزّت كلمات التاجر واحدًا من الشباب الملتفّين حول موسى فقال:

«هذا رجلٌ قد ذاق حلاوة التّجارة مع القشتاليّين، فخرج يتحدّث وكأنه ممثلُ الشعب، بينما هو أبعد ما يكون عن هذا الشعب وغاياته العليا»، (ثم يوجّه حديثَه إلى الرجل): «إن كان لأحدٍ الحقُّ في الحديث بلسان أهل غرناطة فهو نحن، نعم نحن الذين فقدنا الأحبة والأصحاب في حروبنا مع قشتالة، ونحن الذين نطلب الثأر لقتلانا، ولن ترتاح قلوبنا إلا إذا أطفأنا غضبَنا من أجلهم بدماء أعدائنا!».

وقعتْ كلمات الشابِّ في نفوس أهل غرناطة، وزادت حماستهم، فأطلقوا حناجرهم بأقصى مداها هاتفين: «الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر».

موسى (يشير إليهم بيديه فيخْفِضوا أصواتهم، فيخاطبهم): «سنُهزَم إنْ كان الدافعُ وراء حروبنا هو الثأر!».

ردّ الشابّ على موسى وهو لا يزال على حماسته فقال: «لماذا يا ابن أبي غسّان؟».

موسى: «لأنّ حربنا وقتها لن تكون من أجل الإسلام.. بل انتقامًا لأحبائنا وتنفيسًا لغضبنا من أجلهم! دعونا نحارب في سبيل الله والدفاع عن دينه، وعن هذه الأرض التي كانت يومًا منارة للإسلام، فأصبحت مدنُها تغصّ بالكنائس والأجراس. إن هُزمت غرناطة؛ فستكون هزيمتها نهايةَ دولة الإسلام في الأندلس»، (ينظر إلى الجمهور حوله قائلًا): «لهذا سيكون الموت حينذاك أهونَ عندي مِن أن أعيشَ على أرضها، إنْ ذهب منها الإسلام، إذْ لا خير فيها وفينا مِن دونه».

أنهى موسى حوارَه، وبدأت جموعُ الشعب في الانصراف، كلٌّ إلى بيته أو عمله، انصرَفوا وهُم يحملون في صدورهم جذوةً متأجّجة من الحماسة ورفيقًا متوفّزًا من الأمل.

غادر الجميع.. لكنّ محمد العطّار وعامر الغرناطي ظلّا كما لم يبرحا مكانهما، فاقترب منهما موسى، ليبادره محمدٌ بالحديث.

«إذًا، وصلك نبأ الرسالة يا بن أبي غسّان».

موسى:«نعم يا أبا خالد، فقد هانت أسوار الحمراء فما عادت تحفظ أسرارها».

محمد:«وماذا ترى فيها؟».

موسى:«أرى فيها ذئبًا يتربّص بفريسته، وشجرةً سقطت كل أوراقها، ولم يبقَ فيها إلّا الجذع، فإن حافظَتْ عليه بقيت وعادت إليها أوراقها في فصل ربيعي قد يأتي، أمّا إنْ هلك الجذع فقد هلكت الشجرةُ كاملة، ولن يأتي ربيعُها مرة أخرى إلّا أن تُستبدَل بها شجرةٌ غيرها!».

عامر: «فريسة!! وأي فريسة؟ إنها الفريسة التي قتلت كلّ مَن كان بالأمس يساعدها، وشجرة سقطت أوراقها كما تسقطُ في الخريف أوراق الأشجار».

موسى: «الأخطاءُ كثيرة يا عامر، فمنذ فُتحت هذه البلاد ونحنُ ننتقل من خطأ إلى غيره، ونخرج مِن سقطة لنقع في خطيئة.. انظرْ إلى الصخرة كيف أهملَها الفاتحون، ثمّ انظر إلى طليطلة كيف سقطت، ثمّ كيف انتهت الزّلاقة والأرك مِن دون أن يستطيع أحد- أو ربما يريد- استردادَها».

عامر: «لكن على رغم كلّ شيء، يظلّ وجود هذا الملك في قصر الحمراء أكبرَ أخطائنا».

محمد: «هدئ مِن روْعك يا عامر، فما كان قد كان، والآن علينا أن نصلح مِن حالنا، بعدما فقدنا الفرصَ لتصحيح الأخطاء، المرة تلو المرة».

عامر: «وما الحلّ الذي تراه؟».

موسى: «ربما نتّفق جميعًا على أنه لا حلَّ غير السيف».

محمد: «لكن صاحب الحمراء لا يريد السيف!».

عامر (مستهزئًا): «بل إنّ صاحب الحمراء لا يحسن استعمال السيف».

موسى: «تعلمون- كما أعلم- أنه تابع لقشتالة، لكنه موقنٌ أيضًا أن الشعب رفض الاستسلام، وسيظل رافضًا له، لهذا فسوف نجبره على المقاومة والجهاد.. وها أنتم تروْن بأعينكم أنّ عدد الشباب الغرناطي الذي يسعى إلى حمل السلاح يتزايد دقيقةً بعد أخرى، وهؤلاء سيحسبُ لهم صاحب الحمراء ألفَ حساب».

عامر: «الشعب.. لكَمْ هو سعيدٌ اليوم بانتصارك يا موسى».

موسى: «الشعب مقهورٌ يا عامر، ولقد وجد في انتصاري هذا متنفسًا له ولسعادته، أو لعلّه وجدَ فى نصري هذا عزاءً له عن هزائم كبيرة ألّمت به».

محمد: «صحيح أنّ الذي أسعد أهل غرناطة هو تذوُّقهم طعمَ النصر، بعد سلسلة من الهزائم التي انتهت بسقوط بلش الأبيض وبلش مالقة ومالقة وبسطة ووادي آش والمرية والمنكب... فوجد الشعب أن انتصاره في منازلة بين فارسين هو انتصار مظفّر للأمة كلها، حتى مع كونها بين فرد من عندنا ونظير له من قشتالة. فالشعب يحتاج إلى رمز يُيمِّم إليه وجهه، ويتبع كلماته وخطاه.. وقد يئس شعبُنا طويلًا من أن تحقق جيوشه نصرًا كبيرًا، فراحت عيونُه المتلهّفة تتشبث بشعاعٍ من الانتصار، ولو تحقق في صراع بين رجليْن!».

موسى: «لذا علينا أن ننمّي فيهم هذا الشعور بالنصر والعزة،، ونعمل على شحن روحهم المعنوية، ونبني آمالًا كبارًا فوق ما صنعناه قبل قليل، حتى إذا وقع اللقاءُ وجاء ملك قشتالة بجيوشه، وجدَ شعبًا تشرئب أعناقه إلى النصر، ومتحمّسًا للدفاع عن دينه وأرضه، مقبلًا على الموت، قد هزم اليأس قبل أن يواجه أعداءه».

محمد: «السلاح.. لا بدَّ من توفير السلاح، فهو أحدُ الأضلاع المهمة والفاعلة لرفع الروح المعنوية لدى الشعب، خاصة الشباب، فامتلاك أسباب القوة من أهم أسباب النصر، لهذا يجب توزيع الأسلحة والبنادق على عامة الشعب، استعدادًا لما هو آتٍ».

***

.٢٠

حفلةُ تنصيبِ الأمير خوان فارِسًا

أرادَ فرناندو وإيزابيلا أن يجعلا من العاصمة الأموية القديمة، رمز الأندلس زمن فتوَّتها وعزتها؛ رمزًا للتدبير والكيد والمكر على غرناطة واحتلالها، هذه المدينة العظيمة التي كثيرًا ما خرجت منها جيوش الأمويّين والعامريّين لتثخن القتالَ في قشتالة وليون وشانت ياقب، باتت اليوم مقرًّا لجيوش قشتالة الساعية إلى الإجهاز على دولة الإسلام في الأندلس، لذا قرّر الملكان الكاثوليكيّان الاحتفال بتنصيب ابنهما خوان فارسًا في قصر قرطبة بجوار المسجد القديم، الذي أصبح منذ قرنين كنيسة كبرى!

وجَّه الملكان الدعواتِ للقادة والأمراء وكبار التجار، لحضور الحفل في قرطبة الأبيّة. كانت أصوات الموسيقى تصدح في أرجاء المكان، وزجاجات الخمر تسفحُ ما بجوفها من شراب ليعبث بالرّجال، بينما تتبختر إيزابيلا بين الحضور بردائها الطويل، توزّع عليهم التحية وتنشرُ بسماتها الملكية بين أولئك وهؤلاء، وتشاركهم كؤوس الخمر المتباينة الأشكال والألوان، تدور ويدور معها المدْعُوّون وسط ضجيج مختلطٍ امتزج بنغمات الموسيقى، وكان يصحبها في الحفل ويسير بجانبها عشيقها «روي لوبيز» الذي لم ينقطع يومًا عن المثول بين يديها.

كان الجمع مبتهجًا، والأمير خوان قد ظهر في الحفل مرتديًا بزّة الفرسان، ولكن مِن دون سيف! فقد كانت العادة تقتضي أن يتقدّم خوان ليقلّده الملك السيف، فيصبح بذلك فارِسًا.

وسط نظرات الجميع تقدّم خوان تجاه أبيه، الذي قلّده سيفًا عظيمًا، وما كاد يفعل ذلك حتى ضجّ الحضور بالتصفيق، على وقع الموسيقى، بينما احتسوا جميعًا نخْبَ الفارس الجديد..

كان وجه فرناندو يشعّ فرحًا وسعادة عندما نصَّب ابنه فارسًا، فقد شعر أخيرًا بأنّ هناك مَن سيخلفه في حكم قشتالة، لذا فقد وقف مخاطبًا الحضورَ بكلّ سعادة قائلًا:

«اليوم نحتفل وتحتفل كلُّ قشتالة وأراجون، بتنصيب الأمير خوان بن فرناندو فارِسًا مِن فرسان هذه البلاد... اليوم يحملُ الأمير خوان علمَ قشتالة، ليكمل ما بدأه والداه».

اسْتلّ خوان سيفَه، وقال بحماسة:

«وأنا يا مولاي سأضعُ حياتي وسيفي فداءً لهذه المملكة العظيمة».

ابتسمت إيزابيلا، وقالت:

«واليوم يا أميري، ستكمل ما بدأه والداك، وستمحو بهذا السيف كلَّ مظاهر الكفر من هذه الجزيرة، وسيتكفَّل نصلُ سيفك بوضع النهاية الظافرة لحروب الاسترداد التي بدأت منذ قرون».

ينحني خوان بهيئةٍ محسوبة أمام والدته الملكة، قائلًا:

«ثقتك يا مولاتي شرفٌ عظيم لي».

وفي هذه الأثناء، وبينما يتابع الجميعُ وقائعَ الاحتفال، إذ دخل مركيز قادش، وكان في مهمة منعته من الحضور في مُستهَلّ الحفل، لذا وبمجرد وصوله تقدّم جهة الملك والملكة، وقدّم لهما التحية، ثمّ اتجه إلى الأمير الصغير وربتَ على كتفه مباركًا تنصيبَه، ومتمنيًّا له الخير، ثمّ وقف أمام فرناندو قائلًا:

«مولاي، لقد جاء الردّ من غرناطة، ورفض الشيكو تسليمَ المدينة، كما رفض التّجار التعاون معنا، وقد تعلل فى ردّه على جلالتكم، بأنه يريد مزيدًا من الوقت يستطيع فيه تطويعَ الشعب الغرناطي، وإجباره على التسليم، إذ يقول إنّ الرعية هائجة عليه، ولن يستمعوا له إنْ هو نادى بالتسليم، بل لربما قتلوه إن أراد أو حتى حاول الإقدام على هذا الفعل».

يبتسمُ فرناندو بشيء من السخرية وهو يقول: «جاء اليوم الذي يرفض فيه الشيكو التّسليم! فليعزلوه أو يقتلوه، فهذا ليس قضيتنا أو ما يشغلنا.. أمْ هل ظنّ هذا الشيكو أننا قد نأبَه لحياته أو موته! لقد آنَ الأوان يا رودريغو لإنهاء الدور السياسي لهذا الذليل، ومتابعة ما بدأناه، حتى نجلس معًا على كرسي الحمراء، وحتى يُقام حفلُ زفاف الأمير خوان في قصر الحمراء كما سبق أنْ وعدته».

مركيز قادش: «جميعنا رهنٌ لإشارتك يا سيدي».

اتّجه فرناندو ببصره ناحية الحضور، ثمّ تحرك ناحية الملكة فحدثها بكلام غير مسموع، وبعد حوارات بينهما عادَ فرناندو لإكمال الحفل، واحتساء زجاجات الخمر، أمّا الملكة فقد واصلت توزيع تحيّتها على المدعوّين. وفي اليوم التالي للحفل، اجتمع الملكان الكاثوليكيّان بمجلس حربهما، وبدأ فرناندو الحديث إلى الحضور بلهجة جادّة صارمة فقال:

«بالأمس، نُصِّب الأمير خوان فارِسًا لقشتالة، وقد رأيتُ أنا والملكة، وبمناسبة ما كان، أن نعلنَ لكم عزمنا على إنهاء تلك المملكة الصغيرة في جنوب بلادنا والقضاء عليها. لقد حان الوقت يا سادة، لتحقيق حلم بلاي والفونس السادس والفونس الثامن وفرناندو الثالث. لقد حان الوقت لإلقاء هؤلاء المسلمين في البحر بعد قرون من صراعنا معهم. لقد خان مليكهم الأحمق العهود التي قطعها على نفسه يوم دخولنا لوشة، وأَسرِنا له، إذ كتب على نفسه المواثيق التي تؤكد خضوعه لنا وتسليمه الحمراء فور سقوط عمّه الزّغل، وها هو ذا يتنصّل من وعوده وعهوده، وينكص على عقبيه متخيّلًا أننا سنتركه يحيا بعدما يفعل هذا. لقد استحقّ هذا الشيكو ما سنُنزله به وبقومه من شديدِ العقاب، لذا عليكم بحشدِ الحشود والاستعداد للزحف تجاه غرناطة».

إيزابيلا: «أشعر بأنه عمّا قريب ستنتهي قرونٌ من حروب الاسترداد».

مركيز قادش: «نعم سيدتي، فكلّ شيء ينبئ بقرب النهاية التي طالما حلمنا بها وعملنا من أجلها».

فرناندو: «وأنت يا رودريغو ستكون أسعدَ الناس بهذه النهاية القريبة، فأنت أحدُ أهم أبطالها».

مركيز قادش: «إنما أنا خادمكم يا سيدي ».

كان مجلس الحرب يرى ضرورة إرجاء أي هجوم على غرناطة إلى ما بعد فصل الشتاء، الذي لن يسمح بتشكيل المعسكرات أو فرض الحصار، فضلًا عن كونه موسم الأمطار وفيضان الأنهار، لكن الملك قطع في هذا الأمر برأيه، فقال:

«سنستغلّ فصل الشتاء في الإعداد لما بعده، سنرسل الحاميات القوية إلى الحصون القريبة من غرناطة لتتدارس أحوالها، وتكون على مقربةٍ من الزحف»، (ينظر إلى إنغو لوبيز دي مندوزا، موجهًا إليه كلامه أمام الحضور): «لقد استطاع دي مندوزا مع بداية الحرب مع الجيش الإسلامي أن يحتفظ- على رغم محاولاتهم- بحصن الحامة الذي قصم ظهورَ المسلمين، وشتّت مملكتهم، لذلك وكما كان دي مندوزا في بداية الحرب، سيشارك معنا الآن في وضع نهايتها، وسيذهب إلى جيان ويتولّى أمر الجيش هناك».

لم يكن من دي مندوزا إلّا أن أدّى لقائده التحية العسكرية في هيئة فارس صلبِ العزيمة، من دون أن يتفوّه بأي كلمة!

فرناندو: «حاولْ أن تستغلّ قلعة لاريلا القريبة من غرناطة في أنشطتك العسكرية».

دي مندوزا: «سأجعلها مقرًّا لقيادتي».

فرناندو: «تعلمون صعوبةَ أخذ غرناطة عنوة والعصف بها، وذلك لأنها محميةٌ بمجموعة من أقوى الحصون المملوءة بالعرادات والمواد التموينية التي لا يؤثر فيها الحصار، لذلك عليكم أن تتحلّوا بالصبر في حربها، فإذا هاجمنا القرى والحقول المحيطة بالمدينة هذه السنة فسوف نُلحق بها نقصًا في الغذاء السنةَ المقبلة، عندها يمكن أن تضرب المجاعة المدينة وتسهل علينا إسقاطها».

إيزابيلا: «سنصبر، وذلك لأنّ السلام الذي نعمت به غرناطة كلّ هذه المدة جعل منها مدينة غنية نضرة مرة أخرى، فالحقول خضراء وقطعان الماشية تملأ السهول والوديان، لهذا عليكم بتخريب غرناطة قبل الاستيلاء عليها».

فرناندو (ينظر إلى الملكة بإعجاب شديد ويردّد خلفها): «الخراب. نعم هذه هي كلمةُ السرّ في حروبنا مع المسلمين». (ينظر ناحية دون ألونزو دي غويلار قائلًا له): «عليك أن تنتخب ٥٠٠٠ فارسًا من خيرة فرسان قشتالة، حتى إذا جاء الربيع عصف بقرى غرناطة وخرِّبها، وما لا تستطيع أن تأخذه؛ بادرْ بحرقه».

دون ألونزو دي غويلار: «سنحرق أخضرها ونحوّلها إلى رماد».

وهكذا بدأت حروب غرناطة، وكان الخراب والدمار هو أكبر أسلحة القشتاليّين في هذه الحرب العنيفة، ولم يكن دون ألونزو دي غويلار وحده في ميدان غرناطة، بل كان معه أيضًا مركيز دي فيلينا الذي تسابق معه في الحرق والخراب، ثمّ لحق بهما سيدهما فرناندو، ليكمل بيده الخراب والدمار.

فى ربيع سنة ١٤٩٠ م (٨٩٥ هـ) خرج ملك قشتالة في قواته وهو يضطرم سخطًا، وزحف على بسائط غرناطة فعاث فيها، وانتسف الزروع واستاق الماشية، وخرَّب الضياع والقرى، ووصل في عيثه وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها، وبرز المسلمون لقتاله، ووقعت بين الفريقين في ظاهر غرناطة عدةُ ملاحم دموية ارتحل القشتاليّون على أثرها، ولم يستطيعوا الدنوَّ من المدينة (وكان ذلك في رجب ٨٩٥هـ - يوليو ١٤٩٠م)، وعمدَ فرناندو حين العودة إلى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة، وشحنها بالرجال والعتاد استعدادًا للمعارك المقبلة.

***

.٣٠.

جيشُ المرتدين يحتلّ حصن رومة

كانت الحسرة والنّدم يحاصران أبا عبد الله الصغير، بينما تظهر عليه كلّ علامات الاكتئاب، وهو يختلس النظرَ من شرفته العالية نحو سهوب المدينة الخضراء، ويُجيل النظر بين الجنان المحيطة بالقصر وحي البيازين الكبير. كانت هذه اللحظات مؤلمةً إلى حدّ شعوره بأن قلبه يتمزّق، وبأنّ رياحًا عاتية تعصف برأسه فلا يملك السيطرة على أفكاره.

استعاد الصغير في هذه اللحظات اليائسة شريطَ حياته الذي أخذ يعبر أمام عينيه، سريعًا تارة ومبطئًا تارة أخرى، فمرّت بخلده أحداثٌ جسام «خروجه على أبيه، وقوعه في الأسر، نبوءة الدرويش بأن نهاية دولة بني الحمر ستكون على يديه، خضوعه لقشتالة، إرساله التهاني إلى فرناندو الخامس يبارك له احتلال مالقة ومن بعدها بسطة»... كانت لحظاتٍ قاسية، جعلته يتمنّى لو كان كلّ هذا كابوسًا يمكنه الاستيقاظ من قبضته، أو حتى واقعًا يمكن الخلاصُ منه. مرّت به اللحظات ثقيلةً مريرة، لم يقطعها سوى دخول مريمة بنت علي العطّار عليه، لتقطع بدخولها لحظاتِ يأسه وصمتِه

مريمة: «إلى متى ستظلّ هكذا يا محمد؟».

التفت الصغير إلى مريمة بعينيْن حزينتين كسرَهُما اليأس، ثمّ قال في غير اكتراث:

«إلى أن يشاء الله».

مريمة: «لا يجدر بك، وأنت ملك الأندلس، أن تحمل كل هذا اليأس والانهزام!».

ينظر الصغير إلى زوجته، ولا تزال نظرةُ الحزن تملأ عينيه، ثمّ يجلس ولا يتكلم.

تستفزّ نظراتُ الصغير وصمتُه زوجتَه، فتقول له بلهجةٍ جادّة:

«إلى متى ستظلّ هكذا؟ إلى متى ستظلّ سجين قصرك بينما موسى بن أبي غسّان يصول ويجول فيها حتى صار الملكَ دونَ الملك، فلتعلم أنّ بقاءك هنا لن يغير من الوضع شيئًا، كما أن بقاءك هكذا لن يحفظ لك الملك أو حتى حياتك».

ظهرَ الضجرُ والتملْمُل على وجه الصغير، فتأفّف متحدثًا إليها بصوت مرتفع وقال: «وماذا تريدين مني أن أفعل يا بنت علي العطّار؟ لا يوجد أحدٌ في غرناطة يطيق رؤيتي، فهل وصل هذا الأمر إلى أهل بيتي!».

مريمة: «هدئ مِن روْعك، بل حياتي فداءٌ لك، وإن ضاقتْ بك الدنيا وسعكَ قلب مريمة».

قطعت عائشة الحرّة حديث الزوجين وطرقت البابَ بعدما تناهى صوتهما إليها في غرفتها.

عائشة: «لا يجدر أن يسمعَ خدمُ القصر ما يدور بينكما من نقاش، كما لا يجوزُ أن يرى الخدم سيدَهم في حال يائسة هكذا».

مريمة: «انظري إليه يا عمّتاه، فمازلت أحاول التخفيفَ عنه ولكنّه يتأبى ويستعصي».

عائشة (تنظر إلى ابنها بعينيْن لم تستطيعا أن تكونا حانيتيْن بكفاية): إلى متى ستظلّ هكذا يا ولدي؟ ألم يحنِ الوقتُ لتخرج إلى شعبك وتتدبّر حالَ مملكتك؟!».

ظلّ الصغير محتفظًا بصمته.. يتنهّد ولا ينبسُ بكلمة.

عائشة: «لقد اختلف حالُ الشعب يا محمد، ولم يعدِ اليوم هو الشعب الذي يلعنك وينفرُ منك، بل لقد أصبح الكثيرون منهم يلهجون بالثناء عليك والدّعاء لك».

يظهر التعجّب على وجه الصغير، بينما تتابع عائشة حديثَها.

«لقد كان الزّغل هو الحاجزَ بينك وبين أهل غرناطة، بحروبه وقوته وشجاعته ونجدته، وقد سقط هذا الحاجز اليوم، لقد كان شعب غرناطة يرى في عمّك رمزًا للكفاح والمقاومة والإقدام، بينما هذا الشعب نفسه كان يراك جبانًا خائنًا تابعًا لقشتالة، ولهذا كرهك الغرناطيون ونفَروا منك، وقصدوا عمّك بالثّناء والدعاء.. لكن قلوب الناس يا ولدي تتقلّب ولا تدوم على حال، فالعاطفة تركب ريحًا ثائرة لا تستقرّ في مكان واحد، ألا ترى أنّ قلوب أهل غرناطة قد اختلفت اليوم عمّا قبل، فصاروا يثْنون عليك ويلعنون الزّغل».

يزدادُ تعجّب الصغير ويقاطع أمّه قائلًا:

«لكن لماذا؟ لماذا حصل هذا الانقلاب من النقيض إلى النقيض».

عائشة: «لأن بطلَهم الهمام قد خرج بمَن تبقّى معه من جند إلى معسكر قشتالة ليساعدهم عليك، فسقط في أيدي الشعب الغرناطي، وعدُّوا ذلك خيانة لهم ولدولة الإسلام في الأندلس، ولذلك نادى المنادي بحياة محمد بن على بن سعد، وبسقوط الزّغل وخيانته».

مريمة: «إذًا، لقد تعلقت بك آمالُ الناس يا محمد».

عائشة: «نعم يا مريمة، لقد تعلقت كلّ آمال الشعب الغرناطي بملكها الشاب»، (تلتفت إلى محمد): «لذلك يجدر بك يا ولدي أن تكونَ عند حسن ظنّ شعب غرناطة بك، وأنْ تستفيد من تعلّقهم برايتك، فتدافع بهم عن مُلْكك ومُلك آبائك، وعن دولة الإسلام في الأندلس».

تتبدّل ملامحُ الصغير، وتظهر عليه علامات الدهشة، وكأنه لا يستطيع أن يصدّق أن عمّه الذي ظلّ سنينَ يحارب القشتاليّين قد فاوضهم، وكأنه لم يصدّق أن أحدًا غيرَه سينافسه في الخيانة والغباء، اللذين ظلّ هو بطلهما- بلا منازع- منذ ما يقارب تسعَ سنوات، ثمّ أخذته دهشته هذه إلى الاستغراق في الصمت الرهيب. ولكنّ هذا الصمت لم يدُم طويلًا، بل قطعته زوجتُه مريمة عندما تحسّست سيفه ثمّ قدّمته إليه.

عائشة: «أحسنتِ- والله- يا بنت علي العطّار».

مريمة: «لم يعدْ أمامنا خيارٌ سواه يا أمي».

أمسك الصغير السيفَ بقوة، بينما تنظرعائشة إليه محاولةً أن تبعث في وجدانِه قوة العزيمة، وفتوّة الفرسان، وإرادةَ النصر.

وهكذا كان سقوط الزّغل في هوّة التسليم والاستسلام، بمنزلة مزاحمة لمحمد الصّغير في صغاره، ومنافسة له الذّل والهوان، فانقطعت ألسنٌ كانت تلهج بالثناء على الزّغل وشجاعته، وظهرت ألسنٌ تمتدح الصغير وحنكتَه! وكيف لا وقدْ عاهد قشتالة ثلاث سنوات، ازدهرت فيها غرناطة ونمتْ تجارتها وتحسّنت ظروف معاشها، بينما كانت مملكة الزّغل تحارب قشتالة وحيدةً في ميدانها.

جهلَ الشعب الغرناطي أنّ استسلام الزّغل سيعقبه انفرادُهم في ميدان الحرب مع قشتالة، وجهلوا المثلَ القائل: «أُكلتُ يوم أُكلَ الثور الأبيض».

عادت الحياةُ إلى قصر الحمراء، وعاد الملك يغازل شعبَه، ويرتدي بين الفينة والفينة ملابسَ الحرب، وكأنه يقول لهم: «مستعدّ للذّود عنكم، وعن غرناطة». ومستغلًّا لعودة الثقة بينه وبين أهل غرناطة؛ فقد قرّر الصغير أن يخرج بجيشه لردّ القشتاليّين عن حصون مملكتِه وقلاعها، إذْ لا يجدر به بعدَ الآن تركُ موسى بن أبي غسّان وحده في ميادين الحرب والقتال، حتى استأثر الأخيرُ بقلوب شباب غرناطة ورجالها.

***

بينما كانت الأمورُ تجري هكذا في غرناطة، كان يحيى النيّار يقوم بمغامرة جديدة لإرضاء أسياده الجدد، بعدما أعلنَ انضواءه تحت راية الكاثوليكيّة، فعلى بُعد ميلَيْن من غرناطة كان يقف حصنُ رومة الحصين كمكان وملجأ أمينٍ يخفي فيه السكانُ قطعان ماشيتهم عن عيون القشتاليّين المتربّصين، الذين يسعونَ إلى تجويع غرناطة وتجريدها من كلّ وسائل الحياة.

لم يكن الاستيلاءُ على مثل هذا الحصن بالأمر الهيّن اليسير، فقوّة أسواره ويقظة حرّاسه كانتا حائلًا دون إمكان احتلاله بسهولةٍ ويسر، فقد كان من المستحيل السيطرةُ على الحصن من دون حصاره زمنًا، ولكن الحصن سقطَ في يوم وليلة!

اعتاد سكانُ الحصن عند تعرّض غرناطة وقراها للهجوم، أن يُهرَع إليهم اللاجئون من كلِّ مكان قريب، ليحتموا بالحصن ويتحصّنوا فى أبراجه الحربية التي تردّ عنهم كيدَ العدو، ومع مرور الوقت اعتادت حامية الحصن مثل هذا اللجوءِ المفاجئ إليها طلبًا للحماية، حين يندفع المسلمون إلى أبواب حصنهم هذا فجأة، وفي أعقابهم مَن يتعقّبهم، حتى يمكن استيعابهم بسرعة، ثمّ إغلاق الأبواب خلفهم لمنع متعقبيهم من الدخول وراءهم، وقد كان الفرسان القشتاليّون يفعلون هذا مرارًا وتكرارًا، وهُم على صهواتِ خيولهم فتردّهم أسوار حصن رومة ليعودوا وهُم يلعنون مكانَ هذا الحصن الذي حرمهم مِن طرائدهم وغنائمهم. لكنْ في صباح هذا

اليوم بينما كان معظمُ سكان الحصن نائمين، شاهد الحرّاس غبارًا يتصاعد من مسافة بعيدة خلف عمائم يشقُّه لمعانُ الأسلحة التي تحملها قوة إسلامية، وبصحبتها قطيعٌ من البقر يقوده مائة وخمسون مسلمًا مُتّجهين بسرعة نحو الحصن، وبينهم أسيران مِن القشتاليّين يرسفان في القيود.

اقترب الجمعُ من الحصن فترجّل نبيل مسلمٌ عن صهوة جواده المطْهَم، وطلب الإذنَ بالدخول مدّعيًا أن قوته قد عادت بالكثير من الغنائم من أراضي العدو الذي يتعقبهم، وهُم يخافون أن يصلوا إليهم قبل إدراكهم غرناطة، لهذا لجأوا إلى حصن رومة.

استمع كبيرُ حرّاس الحصن إلى كلام هذا الشيخ العربي، فأمر من فوْره بفتحِ أبواب الحصن ليتدفّق الفرسان إلى ساحته، مع قطعان الماشية التي ملأت المكان حيث اختلط صهيل الخيل بخوار البقر، بينما المهور تقفز بفرسانها المسلمين ذوي الملامح الجبلية الصارمة، وقد كان الفارس الذي طلب إذن الدخول هو رئيسَ هذه المجموعة، وهو رجلٌ كهلٌ ذو لحية كثّة تضفي عليه شيئًا من المهابة، ومعه ابنه الشاب وبينهما الأسيران القشتاليّان يطرقان في الأرض بنظراتهما.

كانت فرحة أهل الحصن عارمة بهذا الجمع المبارك وبما جلبه معه من الغنائم الكثيرة، وبما فعله هذا الشيخ الكبير ومجموعته الصغيرة من الفرسان، فراح بعضٌ من أهل الحصن يجمعون- بفرحةٍ عارمة- قطيعَ البقر الذي تفرّق أفراده في حوش الحامية، بينما ذهب البعض الآخر لأخذ مواقعِه في أعلى الحصن للمراقبة، فيما تفرّق جمع

اللاجئين في كلّ اتجاه وناحية. وفجأةً انفجرت صرخةٌ كأنها رعدٌ شقّ فضاء الحصن، لتعلنَ من كلّ مكان وكلّ ركن أنّ الحصن صار تحت سيطرة قشتالة!

كانت صرخة مفزعةً بثّت الخوف في القلوب، وخلعت العقولَ من رؤوسها، وألجمت الألسنة، وأزاغت الأبصار. وسرعان ما تبيّنت الخديعة التي انْطلت على حراس الحصن، إذْ إنّ القوة التي لجأت إلى الحصن مدعيةً أنها إسلامية، لم تكن إلّا قوة «إسلامية متنصّرة»، ارتدت عن إسْلامها، وإنّ قائدهم هو يحيى النيّار مع ابنه، وقد نزلا من الجبال بهذه القوة الصغيرة لمساعدة الكاثوليك في معركتهم ضد المسلمين، فأوكل إليهم أمرُ احتلال الحصن ليقدماه هديةً إلى الملك فرناندو دليلًا على إيمانهم الجديد، فكان هذا الحصن هو أولَ ثمرةٍ من ثمار ارتدادهما عن الإسلام .

***

.٤.

في وسط غرناطة، وتحديدًا في ساحة باب الرملة الكبير، وقفت جموع الشعب الغرناطي، ملتفين حول فرسان غرناطة المحاربين، يتصدّرهم موسى بن أبي غسّان، الذي تعلقت به آمال وقلوب أهل غرناطة، فصاروا يهتفون له ويتغنّون باسمه، بينما ظهر موسى مرتديًا بزّته العسكرية، وبجواره محمد العطّار وعامر الغرناطي، وقد ظهرت عليهما تغضنّات التقدّم في العمر.

موسى: «لماذا تصرّان على الخروج وقد أعذركما الشرع؟!».

محمد: «لا عذرَ اليوم لأحدٍ يا موسى».

عامر: «إن كانت السنّ قد تقدّمت فما زال هناك متسعٌ للشهادة يا ابن أبي غسّان».

موسى (تلمع عيناه في ابتهاج: «ليت كلّ شباب غرناطةَ اليوم مثلكما».

محمد: «بل ليت الجميع كابن أبي غسّان».

تعلو أصواتُ الجموع بالتكبير والتهليل، بينما تشهر الفرسان السيوف والرماح، ويتقدَّم حملة البنادق ليكونوا في صدارة الجيش، وبينما هم كذلك إذ بالأمير محمد بن علي قد خرج من قصر الحمراء، وهو يرتدي دروعَه وسلاحه، فبدا في كامل أهبته، وحوله مجموعة من فرسانه وخدمه، وقد جاء ليقود الجيوش الخارجة للغزو، وعندما رآه العامة مسلّحًا؛ علم الجميع أنه قد قرّر شنّ الحرب على حلفائه السابقين، فسارعوا بالتجمع تحت لوائه، ليؤكدوا ولاءهم لسيدهم ومليكهم الشاب، وكأنهم يطوون صفحةً ماضية، ليفتحوا صفحة بيضاء جديدة لمستقبل مأمول، وامتلأت الساحة بالفرسان الذين كانت دروعهم تلمع تحت شمس غرناطة الدافئة، وهُم يحملون أعلام وأدوات أجدادهم وعائلاتهم المسلمة القديمة، وما كاد الأمير الصغير يشهد تلك الجموع وهذا الحب في عيون العامة حتى تقدّم إليهم وخاطبهم قائلًا:

«أيها الناس.. لا منقذَ لغرناطة اليوم إلّا سيوفُكم ورماحكم وقلوبكم. لقد أرسلتُ إلى الفقهاء في طول البلاد وعرضها يستحثّون الناس على الجهاد، الذي أصبح فرضَ عين على كلّ مَن استطاع حمل السلاح، وهأنذا أنزل بكم إلى ساحات القتال والشرف للذّود عن هذا الدين، والدفاع عن هذه الأرض الطاهرة، التي أغرقناها يومًا وأيامًا بذنوبنا، فإمّا أن ننتصر وإمّا أن ننالَ الشهادة، فنُعذَر أمام الله تعالى. لقد غرّ القشتاليّين أننا صمتنا وسلمنا، فتجرأوا علينا، وحسبوا أنّ غرناطة قد خلتْ مِن الرجال، ونسُوا أنّ الصمت لا يعني الموت، والسلمَ لا يعني الخضوع».

حرّكت كلماتُ الصغير قلوبَ أهل غرناطة بعدما لمسوا فيها الصدقَ والإخلاص، وتمنَّى أكثرهم لو أنّ صحوته هذه سبقت أخطاءه فلم يعاهدِ القشتاليّين يومًا، ولم ينصرهم على عمّه، حتى تسبّب طيشُه وخفّته في ضياع مالقة وبسطة والمرية ووادي آش والمنكب.. ولكن مَن يدري فلعلّ صحوته هذه تنقذُ ما تبقى من البلاد، بل وتستعيد ما فُقد.

استجابَ أهل غرناطة للصغير، واستنفروا على وقْع كلماته، فردّوا عليه بالتكبير الذي دوّى كالرعد في سماء المكان، حتى أن صَداه وصل إلى جبال الثلج، وجاءته جموعُ المتطوّعة من كلّ مكان لينضووا تحت رايته، ويضعوا أنفسهم تحت تصرفه!

ووسط هذا الجو المترَع بالحماسة والأخلاص، اقترب موسى من موكب السّلطان الشاب حتى كاد فرسُه أن يعانق فرس الأمير، وسلم عليه، وقدَّم نفسه في طاعته وتحت رايته، وهنا أراد الصغير أن يستفيد من حنكة موسى وتجاربه السابقة في الغزو والحرب فبادره بالكلام.

أبو عبد الله: «بماذا تشير علينا يا ابن أبي غسّان؟».

موسى: «يجب علينا يا مولاي ألّا نضيّع الوقت حتى نرد للقشتاليّين الصاعَ صاعيْن، ونأخذهم على حين غرّة، فهم لا يتوقّعون خروجنا للهجوم بعدما ألفوا منّا الدفاع ونحن محاصرون خلفَ الأسوار، ولقد بحثت وعاودت النّظر غيرَ مرّة، فوجدت أن نتوجّه فورًا صوب حصن همدان القريب من غرناطة، وذلك لأنّ هذه القلعة تحت قيادة العسكري مندو دي كويكسادا وحاميتها أقلّ من ٢٥٠ فردًا من محاربي الصائفة الأشداء، وقد اتخذ اللعينُ مندو دي كويكسادا من ذاك الحصن مركزًا لترويع الفلاحين وسرقتهم، إذ يخرجُ منها بين الفينة والأخرى لمهاجمة مَن حوله، ومِن ثمّ العودة والتحصّن بها، لذا فعلينا استردادُ الحصن وردع القشتاليّين، من أجل تأمين الفلاحين هناك».

أبو عبد الله (يردّد): «٢٥٠ فردًا!». (يتنهّد ثمّ يقول): «إذًا، على بركة الله».

خرج الجيش بقيادة الصغير يرافقه موسى بن أبي غسّان وعامر الغرناطي ومحمد العطّار، وتوجّهوا إلى قلعة همدان الحصينة، وما كاد الجيش يصلُ حتى أطبق عليها الحصار من كلّ ناحية وصوب، وقد استمرّ الحصار ستة أيام بلياليها، ودافعتِ الحامية عن نفسها بشجاعة، لكنها أرهقتْ من عدم نومِ الجنود ليلًا، ومِن تواصل وشدة الهجوم عليها. وفي اليوم السادس، أمَر الصغير بتلغيم الأبراج، بينما انبرتْ فرقة من الجند بقيادة موسى بن أبي غسّان لحماية ظهور مَن يقومون بذلك، إذ كثّف موسى وفرقته من إطلاق الأعيرة النارية من البنادق، كما كثّفوا إطلاقَ الأسهم على المدافعين، ولم يكدِ المسلمون يتمّون التلغيم حولَ الحصن حتى رفع المدافعون رايات الاستسلام، وعندها ارتفعت ألسنة المسلمين بالتكبير، ودخل الصغير وجيشُه الحصنَ وطهّروه ممّا فيه، وأعادوا المسجد إلى ما كان عليه، ثمّ أمرَ الصغير بجمع الأسرى وإحصاء الغنائم، ثمّ ترك في الحصن حامية إسلامية وتحرّك عائدًا صوب غرناطة.

دبّت في الصغير روحٌ جديدة، وعرف أخيرًا مذاقَ النّصر، فأراد أن يستزيدَ منه، إذ لم تمضِ بضعة أيام على استرداده حصن همدان، حتى خرج مرّةً أخرى بقواته ليهاجم حصونًا أخرى، فاستطاع استردادَ بعضٍ منها في فترةٍ وجيزة، كما استردّ قرية البذول عنوةً، ودبّت في المسلمين في تلك الأنحاء روحٌ جديدة، وثار أهلُ البشرّات (البشرّة) وما حولها على حكامهم القشتاليّين، كما ثار أهل وادي آش

في الوقت نفسه واضطرموا لما رأوه من وثبة أبي عبد الله وعزمِه على نزوع جديدٍ إلى المقاومة، فبعثوا إليه يطلبون عونَه. وفي الأثناء، سار أبو عبد الله في قواته يريد حصن أندَرَش لما علمَه مِن ثورة المسلمين هنالك، ونجح بالفعل في استردادِ الحصن، وغيره من المَحالِّ والحصون القريبة منها، ورتّب بها حاميات من المسلمين للدفاع عنها، وكان ذلك في (شعبان ٨٩٥ هـ)، وبعد ذلك عاد أبو عبد الله محمد بن علي إلى غرناطة، وفي إثره نحو ٢٠٠ أسيرًا ومجموعةٌ عظيمة من الذخائر والغنائم، فاستبشر أهل غرناطة وعمَّهم الفرح، ودبّت فيهم روح جديدة لم يعهدوها منذ سنين.. كما عاد محمد العطّار، ولكنه كان محمولًا على فرسه بعدما أحدقت به إصابةٌ خطيرة.

رقدَ العطّار طريحَ فراشه رهينًا لإصابته التي كانت بالغة، حتى أنها كادت تودي بحياته لولا أنه نجا من الموت بمعجزة، فاجتمع الأطباءُ مِن حوله باذلين قصارى جهودِهم لإنقاذه. وبعد ثلاثة أيام بدأ العطّار يستعيد توازنه، ويستفيق رويدًا رويدًا مِن غيبوبته، ويفتح عينيه ليرى زوجته حمدونة، تبكي بصوتٍ غير مسموع، وهي تنظر إليه لا تكاد ترفع عينيها عنه.

محمد: «جفّفي دموعك يا حمدونة.. فأنا بخير».

تحاول حمدونة أن تتصنّع الابتسام، وتمسح دموعَها بطرف خمارها، وتقول:

«أنا بخير ما دمتَ أنت بخير».

محمد: «لا تبكي إذًا أيتها الحبيبة، إلّا إن كان بكاؤك حزنًا على أنني لم أنل الشهادة!».

تجهشُ حمدونة بالبكاء مجددًا، ولا تملك السيطرة على دموعها، فتشاركها في البكاء ابنتُها عائشة ثمّ ابنها خالد.

ينظر محمد إليهم بعينِ المعاتِب ولا يتكلم، وما هي إلّا لحظات حتى يُسمع طرقٌ على الباب.

يهرولُ خالد ناحية الباب بينما ترتدي حمدونة حجابها، حتى إذا مضت لحظات سُمع صوتُ عامر يتنحنَحُ للدخول، فيؤذن له، ليدخل ومعه زوجته التي تختلي بحمدونة بينما يجلس الصديقُ إلى صديقه.

عامر: «كيف أصبحت يا أبا خالد؟».

محمد: «أصبحت والحمد لله، وهأنذا أتحسن كما تشاهد».

ينظر عامرٌ إلى خالد الذي كان لا يزال واقفًا إلى جانب فراش أبيه، فيقول له: «كبرتَ يا خالد، وما هو إلّا وقت قصير حتى نراك تحملُ السيف كأبيك، لتدافع عن دينك وأهلك».

خالد (مبتسمًا في حماسة): «ليتني أخرجُ معكم من اليوم يا عمّاه!».

عامر: «لا تستعجل يا ولدي، بل انتظر حتى يشتدّ عودك».

محمد (محاولًا الضحك): «لو شاهدته وهو يبكي منذ قليل!».

ينظرُ الصبي إلى الأرض في حياءٍ طفولي ويلتزم الصمت.

عامر: «إنما البكاءُ للنساء، وأبوك بخير والحمد لله، ثمّ هبْ أنه استشهد يا خالد، أليستْ شهادته تلك من أجل الإسلام؟».

يهزّ خالد رأسَه، ولا يقوى على الكلام.

محمد: «أخبرني يا عامر كيف أحوال غرناطة؟».

عامر(يربتُ على كتفِ محمد): «غرناطة بخير، فطِبْ بالًا وخاطرًا».

محمد: «هل عاد فرناندو للإغارة علينا مرة أخرى؟».

عامر: «لا.. لم يفعل».

محمد: «وماذا يصنع أمير غرناطة؟».

عامر: «يتجهّز للخروج إلى المنكب، بعدما أشار عليه موسى بن أبى غسّان بوجوب فتح الطريق بين غرناطة وعدوة المغرب».

محمد: «هل ستخرج معهم؟»

يبتسم عامر ويقول: «نعم سأخرج، وإن كان يحزنني افتقادي صحبتك

محمد : «ارجع بالنصر ولا تفجعني فيك».

قبّل عامر جبهةَ صاحبه وقال:

«لكل أجل كتاب، كنت أتمني المكوثَ معك لوقت أطول، ولكنّ الوقت قد أزفَ، ولا بدّ لي من التجهّز للخروج مع الأمير».

وهكذا وفي أواخر رمضان، خرج أبو عبد الله في قوّاته يريد افتتاح ثغرِ المنكّب، وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطىء المغرب، وهي صلة يعلق عليها المسلمون أهمية خاصة، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ، واستردّ أبو عبد الله في طريقه حصن شلوبانية الواقع شرقي المنكب بعد قتال عنيف. وعلم القشتاليّون بمحاولة أبي عبد الله، فهُرِعت حاميات بلِّش ومالقة إلى المنكب لإنجادها، ورأى أبو عبد الله أنه لا يستطيع مهاجمتها، وترامتْ إليه الأنباء بأنّ ملك قشتالة قد عادَ بجنده إلى مرج غرناطة يعيثُ فيه فسادًا وتخريبًا، فارتدّ أدراجه. وقد كان فرناندو قد هاله ما حدث من الاضطراب والتصدّع في المناطق المحتلة حديثًا، فاعتزم السير من قرطبة بجيشِه إلى تلك الأنحاء.

والواقع أنّ بوادر الانتقاض والثورة كانت قد اشتدت في وادي آش وما حولها من الضِّياع والقرى، وأخذ ظفر المسلمين في تلك المعارك المحلية يذكي عزمَ الثوار ويشجّعهم؛ وخشي القشتاليّون عواقبَ هذه الحركة، فضاعفوا قوى الحاميات في تلك الأنحاء، واحتالوا على أهلِ وادي آش فأخرجوا معظمَهم من المدينة إلى السهول المجاورة.

استجاب أبو عبد الله إلى نداء أهل وادي آش، وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم، وعلى الرحيل بالأهل والولد إلى غرناطة، ونقل من تلك القرى والضِّياع كميات وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها. وما كادت جموع المسلمين ترتد راجعة إلى غرناطة، حتى ظهر فرناندو بجيشه أمام وادي آش، ورأى أن يأخذ الأمرَ باللّين والرفق، فأذاع الأمانَ لَمن عاد إلى وطنه، وأذن لَمن شاء بالرحيل، وغادر المسلمون وادي آش وأعمالها، وحدث مثل ذلك فى المرية وبسطة، فترك المسلمون بيوتَهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم، وسارت منهم جموعٌ غفيرة إلى غرناطة، وجازت جموعٌ أخرى البحرَ إلى المغرب، وأقفرت تلك الأنحاء مِن معظم سكانها المسلمين، وبعث إليها ملك قشتالة بجموعٍ من القشتاليّين والأوروبيّين لتعميرها، وانتهز أبو عبد الله فرصةَ هذا الاضطراب؛ فاستولى على حصن أندَرَش للمرة الثانية، كما أحكم قبضته على عددٍ آخر مِن الحصون المهمة.

***

.٥٠.

على أسوار غرناطة

باحتلاله بسطة واستسلام الزّغل، كان فرناندو يظنّ أنّ الحرب قد انتهت، لكنّ ذلك تلاشى عندما قرّر الصغير النزول إلى ساحة الوغى، وتحدّي قشتالة، ذلك التحدي الذي سبقتْه أخطاء وهفَوات من الصغير لا تُغتفر!

حاول الصغير فتحَ طريق في البحر لطلب النجدات من جيرانه المسلمين، كما طلب أيضًا مساعدات عاجلة وملحّة من خارج الجزيرة، من سلطان مصرَ المملوكي الناصر محمد، فقام الأخير بتوبيخ الملك فرناندو بلطفٍ لشنّه الحرب على غرناطة، فالحربُ المستمرة التي كان يخوضها مماليك مصر ضدّ الأتراك العثمانيّين لم تتركْ مندوحة للمماليك لقتال القشتاليّين الذين كانوا هُم بدورهم أعداءً للأتراك العثمانيّين!، كما لجأ أمير غرناطة إلى طلب المساعدة من سلطان فاس، ولكن التاريخ لم يسجّل أي استجابة منه، فيما استمرّ شمال أفريقيا في موافاة قشتالة بالقمح طوال فترة الحرب، واحتفظ بعلاقات تجارية جيدة معها، وبالإضافة إلى ذلك وعلى أي حال، فإنّ غرناطة لم تعدْ تملك أي نقطة ساحلية تستطيع عن طريقها تلقي المعونات من البحر.

بين أشجار حدائق قصر المورق، كان فرناندو وإيزابيلا يفكّران في كيفية القضاءِ على هذه المملكة العريقة المتهاوية، التي ظلّ هو وأجداده قرونًا طوالًا يحاربونها حتى قاربت على السقوط. كان فرناندو سعيدًا بضعف عدوّه، موقنًا باقتراب نهايته، فها هُم جواسيسه يخبرونه بفشل كلّ السفارات التي أرسلها الصغير إلى جيرانه المسلمين، كما علم أنّ ملك البرتغال لن يسمحَ بمرور أيّ نجدات تجاه غرناطة مِن سبتة التي يحتلّها منذ عقود!

كانت غرناطة وأحداثُها هي ما تشغلُ ذهنَ وتفكير فرناندو وإيزابيلا، وكان فرناندو يعلم أن السبلَ قد قطعت مع تلك المملكة الصغيرة، ولكن في الوقت نفسه كان يخشى من عدوة المغرب أن تستيقظ فتتبدل الأحوال، ويجد الصغير مَن ينصره؛ لذا قرّر فرناندو إنزال الحصار الأخير بمملكة غرناطة، لكن حصارها لن يكون سهلًا!

فكّر فرناندو في هذا الأمر طويلًا، وأرّقه فيضان غرناطة بالفرسان والحصون والأموال، وسكانها الذين يربو عددهم على خمسمائة ألف.. فماذا لو أنّ الصغير نجح في تجْييش هذا العدد الكبير؟ كما أن حصارًا مِن المقدّر له أن يطول يتطلّب الكثير من السلاح والعتاد والمؤن، وجلب المرتزقة من جميع أنحاء أوروبا، سيحتاج بلا شك إلى المزيد من الأموال، ولمّا كانت قشتالة أمةً لا تعمل، فقد كانت خزائن المملكة خاوية، وكان فرناندو يعلم أنّ قشتالة كانت تعتمد منذ قرون على الجزية التي تجبوها من ممالك المسلمين، بل إنه كان يعلم أن أجداده حاربوا المسلمين بأموال المسلمين، بل هو نفسه استفادَ من تلك الأموال في حصاره لمالقة وبسطة، إذْ قدّم له الصغير الكثيرَ والكثيرمن المؤن والأموال والهدايا، التي أنفقها فرناندو في إسقاط مملكة الزّغل.

لكنّ تلك الأموال قد انقطعت الآن، فكيف له أن يدبر المال اللازم لتغطية التكلفة الباهظة التي يحتاج إليها إسقاط غرناطة؟ كان

هذا هو السؤال الذي شغلَ عقل فرناندو طويلًا، وشاركته فيه الملكة إيزابيلا التي فكرت مليًّا، حتى توصّلت إلى مموِلٍ جديد لحملاتها، كان هذا الممول على الحقيقة هُم يهود قشتالة؛ لذا فقد بادرت إيزابيلا بجمع المعلومات عن حياة اليهود وأموالهم بمساعدة مركيز قادش، وقد كانت إيزابيلا ترى أنّ على اليهود- إنْ أرادوا العيش في قشتالة- أن يُثبتوا انتماءهم ووفاءهم لتراب المملكة، لذا قالت: «على يهود المملكة أن يتبرعوا من أجل قشتالة، وعليهم أن يثبتوا ولاءهم ووفاءهم لنا بتلك الأموال التي جمعوها من تجارتهم مع المسلمين عهودًا طويلة».

أمّا فرناندو فقد أبدى إعجابه الشديد بتلك الفكرة، فأمر بالسرعة في جباية تلك الأموال بفرض الضرائب على اليهود والتشدّد في تحصيلها.

تولّى مركيز قادش أمرَ تحصيل الضرائب والرسوم من اليهود، واشتدّ عليهم كثيرًا، حتى إنهم أرادوا إخفاء أغلب أموالهم، غير أن فرناندو طمأنهم، واعدًا إيّاهم بتعويضهم عن تلك الأموال فوْرَ انتزاعه غرناطة.

وفي اجتماع ثلاثي بعيدًا عن ظلال الجدران، وتحت ظلال الأشجار، أمرَ فرناندو مركيز قادش بإرسال الرسل إلى ممالك أوروبا طلبًا للعون، كما أرسلَ يطلب المرتزقة من كلّ مكان، وأرسل أيضًا إلى البابا في روما يطلب إليه أن يباركَ حملته هذه.

مركيز قادش: «هل نرسل أيضًا إلى ملك البرتغال نطلب مساعدته؟».

فرناندو (بعد تفكير قليل): «لا تفعل، إذْ لا نريد أنْ نعطي خوان ملك البرتغال أيَّ فرصة للتدخل في شئون مملكتنا».

مركيز قادش: «هل هناك أي مهامّ أخرى يمكنني القيام بها يا سيدي؟».

فرناندو: «أرسل في طلب رودريغو فونس دي ليون وماستر أوف سانتياجو، وأخبرهما أني قد ولَّيْتهما شرفَ قيادة الجيش المتّجه صوب غرناطة».

ما كادَ مركيز قادش يتلقى هذا الأمر حتى وجَم وجهُه وعبست ملامحُه، واجتاحتْه صدمةٌ عاصفة، ولكنه مع ذلك تمالك نفسه، كفارسٍ محنّك، وبادر بتنفيذ الأمر من دون إبداء أيّ اعتراض. ولاحظ فرناندو علاماتِ التبدّل على مركيز قادش، فبادره بالسؤال عن أسباب وجومِه.

فرناندو: «ما لي أرى علاماتِ العبوس قد حطّت على وجهك؟».

مركيز قادش: «لا شيء سيدي سوى صدمتي وحزني لافتقادِ صحبتك في هذه الحرب المقدسة؟!».

فرناندو: «ومَن أخبرك أنك لنْ تخرج معي يا رورديغو؟! أنت مِن أهم قادة هذه الحرب، وأنت بطلُها منذ ما يقارب عقدًا من الزمان، وستكون دائمًا أحدَ رجالها إلى أن تنتهي هذه الحرب وينتهي معها دابرُ المسلمين إلى الأبد».

وهكذا قضى فرناندو شتاء العام ١٤٩٠ كله في الاستعداد والتأهب، وما كاد العام ١٤٩١ يبدأ حتى خرج معتزمًا أن يُقاتل الحاضرة الإسلامية كي يُرغمها على التسليم والخضوع. وطمعًا في تحقيق غايته هذه في قوة وحسم؛ بالغ في إعداد جيشه وأعداده ليبلغ قوامُه خمسين ألف مقاتل مِن الفرسان والمترجّلين، بل قدّره بعضهم بثمانين ألفًا، وقد زوّد فرناندو جيشه بالمدافع والذخائر والعتاد الضخم، والأقوات الوفيرة، وأشرف ملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة، La Vega، الواقع جنوب غربي الحاضرة الإسلامية، في اليوم الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٤٩١م (الموافق ١٢ من جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ)، وعسكر على ضفاف نهر شَنيل، على قيد فرسخين من غرناطة، في ظاهر قرية تسمى «عتقة». وأرسل في الحال جمعًا مِن جنده إلى حقول البشرّات القريبة التي تمدّ غرناطة بالمؤن، فأتْلفوا زروعَها، وهدموا قراها، وأمعنوا في أهلِها قتلًا وأسْرًا، وحوّلوا المرجَ الأخضر إلى قفرٍ قاحلٍ موحش، وقطعوا بذلك عن غرناطة موردًا مِن أهم مواردها، وضرب فرناندو حول الحاضرة الإسلامية حصارًا صارمًا، وصمّم على متابعته حتى تفتح أو

تستسلم، ونزلت إيزابيلا إلى هذه الحرب بصحبة ابنها الأمير خوان والأميرات خوانا وماريا وكاتالينا، وتوجّهت إلى قلعة لاريلا لتكون على مقربة من الجيش، كي تستطيع تموين الجيش، ولكي تكون جاهزة للنزول إلى المعسكر في أي وقت حين تستدعي الظروف.

وهكذا، بدأ الفصلُ الأخير في الصراع بين مملكة قشتالة ودولة الإسلام في الأندلس؛ ولم يكن ثمّة شك في نتيجة هذا الصراع، الذي أعدت له قشتالة عدّتها الحاسمة، ومهّدت له جميع الوسائل والسبل. بلد إسلامي وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمةٍ تالِدة، يحيط به العدو كالموج الزاخر من كلّ ناحية، مزوّدًا بالعُدد والمؤن الموفورة، وقد قطعت كلّ موارده وصلاته مع الخارج. وكان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية في الأندلس صيف سنة ١٤٩١م.

***

.٦٠.

Ave maria...؟!

وقف محمد العطّار يناجي غرناطة وهو يتحسّس سرابها ويقول:

أين ذهبت هذه القوة؟ وكيف ذوَى ذاك الجمال يا غرناطة؟

يا مدينة الحدائق والفستقيّات والنوافير!

يا مدينة الحمراء والبيازين!

يا مدينة ابن الخطيب وزمان الوصل الجميل!

يا حاضنة الريحان والياسمين والرمان والزعفران!

ها هي متاجرك التي كانت تغصّ بالبضائع تغلَقُ أبوابُها، وشوارعك الحافلة بالبهجة والحركة قد ماتتْ فيها الحياة، بعدما عصف بها الخوف والرّعب. لقد خيّم اليأس على هضابك بعدما أقفرت جنانك، وذبلَ الورد في حدائقك ونوافذ بيوتك، وتساقطت أوراقُ أشجارك، كما تساقط خيرة فرسانك في حلبات القتال، وانفرطت حبّات رمانك وتحوّلت دموع أهلك إلى أمواجٍ يغرق في خضمِّها كلّ أملٍ لك في الحياة!

كان يمكنُ للناظر من نوافذ الحمراء أنْ يلاحظ في ضوءِ شمس غرناطة الساطعة لمعانَ دُروع القطاعات القشتاليّة المحاصرة للمدينة، وكان يمكن للجالس خلفَ السور أن يستمعَ إلى صهيل خيْلهم، لقد كان الحصار مؤلمًا ومفزعًا، ليس لأهل غرناطة وحدهم، بل سبقهم في هذا الفزع أميرهم..

لقد سقط الزّغل، وهو الذي كان يمثل للصغير العدوَّ والسند، وأصبح بسقوطه وحيدًا في الميدان، وهو الذي ساهم وساعد في إسقاط هذا الجناح المهمّ في مملكته، فكان بفعلته كمَن جدَعَ أنفَه بيديه!

ومع ذلك، لم تكن غرناطة مغنمًا سهلًا، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها، تحميها من الشرق آكام جبل شُلير (سيرّا نفادا) الشامخة، وتحميها من الجنوب، أي الجانب المواجه للمعسكر القشتالي، أسوار وأبراج بلغت الذروة من المناعة والحصانة. وكانت غرناطة تموج يومئذ بالوافدين إليها من مختلف القواعد الإسلامية الذاهبة (المرية، وادي آش، مالقة، المنكب، وغيرهم)، وتضمّ بين أسوارها من السكان أكثر من أربعمائة ألف نفسًا، وعلى رغم أنّ هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئًا ثقيلًا على مواردها المحدودة؛ كان مِن بينهم على الأقلّ زهاء عشرين ألفًا من الصفوة المختارة من الفروسية الأندلسيّة، التي عثرت على ملاذها الأخير في العاصمة المحصورة. ومن جهةٍ أخرى فقد كانت الحاضرة الإسلامية منذ بعيد تلمح شبحَ الخطر الدّاهم يتربص بها دائمًا، وكانت تعيشُ في أهبة دائمة لمواجَهَته، وتجمع ما استطاعتْ مِن الأقوات والمؤن. فلمّا دهمها الحصار كانت على أهْبَة تامّة لدفاع طويلِ الأمد.

في داخل أروقة الحمراء، جمعَ الصغير رجالَه وقادته، وكان منهم موسى بن أبي غسّان فارس غرناطة وبطلها المغوار وساحر قلوب الشباب، محمد العطّار ممثلًا عن أهل البيّازين، وقد ولّاه الأمير مهمة في تلك الحرب لإخلاصه، ونعيم بن رضوان وعبد الكريم الثغري والوزير يوسف بن كماشة.

كان الاضطراب يخيِّم على ملامح الصغير، بينما عدمُ الاكتراث وعدم الخوف يزيّنان محيّا ابن أبي غسّان.

تكلّم الصغير في الجمع المحتشد مِن حوله قائلًا: «لقد أحكم الحصارُ قبضتَه على المدينة، وخنق القشتاليّون كلَّ الطرق المؤدية إليها، لهذا فقد جَمَعْتكم اليوم كي نتشاور في أمرِ هذا الحصار المفروض علينا مِن قِبَل ملك قشتالة، والأمرُ شورى، ولكنْ قبل أن يدلي كلُّ واحد منكم برأيه علينا جميعًا أن نستمعَ إلى الوزير يوسف بن كماشة، ليحدّثنا عن الوضع داخل مخازن الحبوب وداخل الأسواق.

وبينما الصغير يتحدّث، كان محمد العطّار ينظر إليه في صمتٍ ويقول في نفسه: «يتحدّث اليوم عن الشّورى! الشورى فقط عند النكبات والهروب من المهمّات الصعبة، ولكن أين كانت هذه الشورى يوم عاهدتَ قشتالة وخنعْتَ لمليكها، وحاربتَ مِن أجلها؟!».

بعدما فرغ الصغير من حديثه أشارَ إلى وزيره كي يتحدّث..

وكان الأخير يقلّب في صفحات دفترٍ كبير بين يديه، ويمعنُ النظرَ بين صفحاته، وبعد استغراقٍ عميق، رفع عينيه في الجمْع متحدثًا:

ابن كماشة: «لدينا تموين يكفي عدةَ أشهر، بغضّ النظر عمّا لدى التجار والسكان الأغنياء مِن مؤن، ولكن كلّ هذا لا يزيد على مؤونة عدة أشهر أخرى ضد حصار القشتاليّين الذي يبدو أنه غير محدّد الزمن».

رمقَ موسى الوزيرَ بنظراتٍ حادّة ساخرة، ثمّ ردّ عليه متهكماً:

«غير محدّد الزمن! مَن الذي أوصى الوزير بهذه الكلمات؟ ومَن الذي حكم بأنّ هذا الحصار غير محدّد الزمن؟».

لاحظَ الوزير سخريةَ ابن أبي غسّان فقاطعه بنبرةٍ حاسمة وقال: «لقد رأينا جميعًا تأهب القشتاليّين يا ابن أبي غسّان، فهل تراهم رافعين هذا الحصار عمّا قريب؟».

موسى: « بل أراك تريدُ أنْ تسلم لهم المدينة بأسرع ممّا يريد ملكُ قشتالة نفسه.. إنّما يُرفع الحصارُ بسيوفنا، لا بإرادتهم ولا بخنوعك أمامهم أيّها الوزير!».

تدخّل أبو عبد الله ليخفض حرارةَ الحوار، ويهدئ مِن وتيرته، ثمّ أمر الوزير بالإكمال، فتحدّث الأخير قائلًا:

«هذه لائحةٌ يا مولاي بأسماء الرجال القادرين على حمل السلاح»، (يقدم الورقة إلى أبي عبد الله)

يطالع الصغير الورقة، ويقلّبها ويقول: «إنه لعددٌ كبير».

يوسف: «نعم يا سيدي، ولكنهم ليسوا محاربين، لهذا قد يفرّون إذا حمي وطيسُ المعركة، ولن يجرؤوا على مواجهة العدوّ مِن قرب».

نظر موسى إلى يوسف شزْرًا وقال: «لعمري ما هذا التخاذل؟ ما سبب هذا اليأس؟ إنّ هؤلاء الذين تتّهمهم بالجبن، لأنّهم مدنيّون، إنما تسري في عروقهم دماءُ أجدادهم، الفاتحين الأوائل لهذه البلاد.

علينا يا سادة إدراكُ هذا جيدًا، ومِن الآن.. علينا أن نعي أنّ لدينا قوات مقاتلة خيّالة وراجلة هي مِن نخبة فرسان الأندلس، فرسان عرَكَتهم الصوائف الحربية بألف معركة، أمّا بقية شعبنا فلماذا نشكّك في قوته ودفاعه وولائه لدينه وأمته؟ لماذا نستخفّ بهم، وفيهم عشرون ألف شابّ في أوْجِ الصّبا؟ سندافع معهم وبِهم عن عِرضنا وبيوتنا، لذلك سيفوقون كلَّ محارب متمرِّسٍ بأدائهم». (يصمتُ لحظة ثمّ ينظر إلى الصغير مواصلًا): «هل تريدون قطاعاتٍ محاربة؟ ها هُم خيّالتنا كالموجِ العَرم، وهُم أجرأ مِن القشتاليّين في القتال، فدَعوهم يعْطوهم ويُعْطوا هؤلاء المسلمين المرتدّين الذين استسلموا للقشتاليّين درسًا لن ينسَوه» (وقف موسى وتحرّك بين القادة، وهو ينظر في عيونِهم قائلًا): «دعوهم يخرجوا للقاءِ العدو في أرضه، وسترون كيفَ يعودون لكم بهم أسرى على أبواب المدينة، فالجنديّ الحقُّ لا يستعذب شيئًا قدرَ استعذابه أن يقاتلَ عدوّه وينتصر عليه».

نظرَ الجميع إلى موسى بن أبي غسّان بعيون مُتْرعة بالعجب والتقدير، ما عدا الوزير بن كماشة الذي نظرَ إليه شزْرًا وحقدًا وغيظًا..

محمد العطّار: «نعْمَ الحديث يا موسى».

نعيم بن رضوان: «أحسنتَ، فقد رفعتَ مِن عزائمنا وشحذْت همّتنا، وصففْتنا على قلبِ رجلٍ واحد».

الصغير: «بوركتَ يا ابن أبي غسّان، ولكنّ هذا لا يمنعنا مِن أنْ نستمع إلى بقية تقرير الوزير يوسف بن كماشة». (ثمّ التفت الصغير إلى هذا الأخير، وطلب منه أن يعاودَ قراءة التقرير).

يوسف بن كماشة: «لقد أحكم ملك قشتالة الحصار، وأرهقَ المدينة، وقطعَ جميعَ علائقنا مع الخارج، سواء من البرّ أو البحر، ورابطت السفن القشتاليّة في مضيق جبلِ طارق، وعلى مقربةٍ مِن الثغور الجنوبيّة، لتحول دون وصول أيّ إمداد من إفريقية».

موسى بن أبي غسّان: «الواقع أنه لم يكنْ ثمّة أمامنا نحن الغرناطيين أي أملٍ في الغوث والإنقاذ من هذه الناحية. ذلك أنّ معظم ثغور المغرب الشمالية والغربية، ومنها سبتة وطنجة، قد سقطت في أيدي البرتغاليّين، ودولة بني وطّاس في المغرب الأقصى لا تزال ضعيفةً في طور بدايتها، وهي أبعدُ عن التفكير في الإقدام بأيِّ عمل حربي جسيم ضدّ قشتالة، فضلًا عن أنّ إمارات المغرب الواقعة في الضفة الأخرى، كلها في حالة ضعفٍ وتفكّك وهوان، وتخشى بأسَ قوة قشتالة البحريّة، وتسعى إلى كسب صداقتها وحمايتها».

يوسف بن كماشة: «على ذلك سيكون حصارُ غرناطة محكمًا من البرّ والبحر، ولم يبق أمامنا سوى طريق البشرّات الجنوبية من ناحية جبل شُلير (سيرّا نفادا) لجلب بعض الأقوات والمؤن بصعوبة بالغة».

موسى بن أبي غسّان: «لن نعيش حتى تنفَد المؤن يا يوسف، فكفاك ما تفعل من بثّ اليأس في النفوس التي لن تيأس حتى تطيح بهذا الجيش إلى الجحيم (مشيرًا بيده ناحية جيش قشتالة خارج الأسوار)، ومعه كلّ الخونة والمثبّطين!».

لم يتمالكْ يوسف نفسه من أنْ يعضّ على أسنانه، ثمّ تحدّث محمد العطّار فقال:

«لقد كان البعض منّا يميل إلى مصانعة القشتاليّين قبل كلامِك هذا يا موسى، أمّا الآن فليس هناك سوى الحرب.. الحربُ فقط، والصدام بين الحديد والحديد، وبين الرجال والرجال.. وليفعل ملك قشالة ما بدا له، لكن النصرَ لن يزرعَ راياته إلّا في فسطاطنا!».

أبو عبد الله الصغير: «الآن، افعلْ ما تراه مناسبًا يا موسى، فأنا أضعُ بين يديك أمنَ هذه البلاد، وأعلنك حاميًا للمملكة، فأنت بعونِ الله مَن سيثأر لنا مِن كلّ إهانة تلقّاها دينُنا، وكلّ شهيد فقدناه، وكلّ جريح لا يزالُ يتألم، فبيديك ستزيل كلَّ معاناتنا، وبعزيمتك ستعيدُ الابتسامة لليتامى والثكالى والأرامل مِن أبناء وبناتِ بلدنا».

موسى بن أبي غسّان: «إنما حياتي كلّها أدفعها فداءً لديني، ودمائي ليست إلّا قطرات صغيرة في نهرٍ كبير يمدُّ المسلمين بالحياة».

الصغير: «جهّز ما استطعتَ من قوة ومِن أجود الخيل، وأنا سأدعمك بكلّ ما تحتاج إليه، وبكلّ ما أستطيع وأملك، وقد أمرنا

بتعيين القائد نعيم بن رضوان والقائد محمد العطّار مساعديْن لك في مهمتك العظيمة، كما سيتولّى عبد الكريم الثغري حراسةَ الأسوار مع عددٍ مِن المتطوعين، كذلك سيتولّى زعماء القصبة والحمراء حمايةَ الحصون».

استمع أبو عبد الله إلى كلمات موسى بن أبي غسّان، فأوقدت في قلبه جذوةَ الشجاعة والبطولة، ومِن ثمّ سمعها كلّ أهلِ غرناطة فلم يعدْ- في طولها وعرضها- صوتٌ يعلو فوق صوت السلاح، ولا مهمة تتقدّم على التجهيز للقتال، وارتفعت الروح المعنوية وتوقّدت الحماسة، وصار الناس غير عابئين بكلّ جيوش قشتالة، وصارت المدينة كلُّها وكأنها موسى بن أبي غسّان، فقد وصلت كلماته إلى قلب كلِّ جندي ومقاتل، والتفّ حوله فرسان شبابٌ معتبرينه القدوةَ الذي يتبعونه، والمثالَ الذي يجب أن يحذوا حذوَه، كما رأى فيه المقاتلون القُدامى صورةً زاهية لشبابهم وفتوتهم، واندفع العوامُ في طريق هؤلاء وهُم يهتفون باسْم موسى بن أبي غسّان، أمّا الشيوخ المتقدّمون في السنّ والنّساء؛ فقد صاروا يلهجون بالدّعاء له في صلواتهم.

خرج موسى من بهْو قمارش، واصطحب معه الفارس الهمام محمد العطّار الذي كان قدْ تشافى مِن جرحه الذي ألمّ به في آخرِ معاركه قُبَيْل الحصار، كما أمرَ موسى بإغلاق أبواب المدينة بالمزالج الخشبية الآمنة، ورُفعت سلاسلُ الأبواب الثقيلة لتغلَق أبوابها

الضخمة، وموسى مع كلّ هذا يقفُ متأهّبًا وسط فرسانه، ممتطيًا صهوةَ جواده، وقد عيَّن على كلِّ باب كوكبة مِن الفرسان الأشدّاء بخيولهم المدرّبة والمتحفّزة للهجوم، وقد زُينت سروجُها بأجْمل الألوان والزخارف، فبدتْ كأنّها خارجة في استعراض، أمّا الفرسان بدروعهم ودروقهم الملونة ورماحهم الطويلة، فكأنهم يعلنونها على الجميع: «الحربُ آتية.. والنّصرُ لنا».

موسى: «لقد ائتَمَنْتموني على الدفاع عن أبواب المدينة، فحياتي دونها، وأجسادُنا أنا وفرساني هي مزالجها».

(الجموعُ تهتف بأعلى صوتها: الله أكبر.. الله أكبر).

***

مِن سنن التاريخ أنه حين تشتدّ الأزمات، وتختلط المواقف، وينقسم الناس؛ غالبًا ما يظهر شخصٌ استثنائي يملك القوةَ والتّأثير والإرادة التي تعيد ترتيبَ الصفوف، وتملأ القلوبَ بالعزيمة، وتُجمِّع الأشلاء الممزّقة لتكتمل مِن جديد، ثمّ يمضي بها صوبَ تحقيق الأمل والغاية، لا يكترثُ لمُبطل ولا يلتفتُ لمثبِّط، زادُه في رحلة الحقّ سيفٌ في يمناه ورايةٌ في يسراه، وجذوةُ نارٍ تملأ قلبه باليقين المقدّس..

وفي هذه اللحظة من تاريخ غرناطة، كان لعزم موسى بن أبي غسّان وحماسته أكبرُ أثر في تطوّر المواقف والأحداث، وحمْل الأمير والشعب على اعتزام الجهاد، والدفاع إلى آخر رمق!

وهكذا دوّت غرناطة بصيحةِ الحرب. وقد كان موسى محبوبَ الجند والشعب على السواء، وكان زعيم الفروسية المسلمة، يقودها كلما سنحت الفرصة إلى الحصون والقلاع القشتالية المجاورة فيثخنُ فيها انقضاضًا وهدمًا وتقتيلًا وتجريحًا. وكانت عوداته الظافرة تثير في الشعب حماسة أيَّما حماسة.

كان فرناندو يرسلُ جندَه لإتلاف المزارع والحقول المجاورة، فكان موسى ينظّم السرايا لإزعاج قوّاته، وقطع مواصلاته وانتزاع مؤنه، ولما ضربت جيوشُ قشتالة بطوْقِها حول غرناطة، وشدّدت في حصارها، واضطر المسلمون إلى الامتناع داخل مدينتهم صابرين جلدين؛ كان موسى يأمرُ بفتحِ الأبواب كلّما سنحت له الظروف، فيهاجم القشتاليّين ويثخنُ فيهم، ثمّ يعودُ أدراجه، فلا يكاد يدخلُ حتى تغلق أبوابُ المدينة مرة أخرى.

استمرّ الحصار طويلًا، وأرسل فرناندو رسلَه يجلب المرتزقة من كلّ أوروبا ويعدُهم بخيرات غرناطة ويمنّيهم بجنّتها الوارفة، فتوافدت عليه الإمدادات لا يقطعها أو يمنعها عنه عائق.. أمّا غرناطة فقد صارت وحيدة، كغزالةٍ شردتْ عن سِرْبها، فهامت في الصحراء وقد تقطّعت بها السبل، ولم يعدْ يأبَه لمصيرها غيرُ شعبها.

نجحَ فرناندو في تطويق غرناطة والتّضييق عليها، فلم تعدْ تملك من المؤن غير الذي فيها، ومع ذلك فقدْ ظلّت تقاومُ وتقاتل، وظلّ ابن أبي غسّان يخرج الليلة تلوَ الأخرى بنخبةٍ مُختارة من الفرسان،

يناجز القشتاليّين ويقتلُ منهم، وكان في بعض الليالي يهجمُ عليهم هجومًا مباغتًا فيقتل منْهم مَن يقتل ويجرح منهم مَن يجرح.. وفي ليالٍ أخرى كان يخرج لهم ويطلبُ المبارزة هُو وفرسانه، وكانت له دائمًا في تلك الصراعات صولاتٌ وجولاتٌ ويدٌ عليا، وبطولاتٌ يحكي قصصَها الآباءُ لأبنائهم، لطمأنة قلوبهم قُبَيل النوم، ويتبادلها الرجالُ في تجمّعاتهم الساهرة بين القلق والرّجاء!

انتهت شهورُ أبريل ومايو ويونيو، ومازال الحصار كما هو كأنّه هو طوق مِن فولاذ، وظلّت المعارك كما هي سجالًا لا تنقطعُ بين الغزاة والمحاصرين. وذاتَ مساء مِن مساءات الصيف، وعلى سطح أحد المنازل المرتفعة التي كان مِن خلالها يمكن مشاهدةُ معسكر الجيش الغازي، وقفت زوجةُ محمد العطّار وصديقتها زينب اللوشية تتجاذبان أطراف الحديث، وتتنسّمان نسماتِ الليالي الصيفية العليلة، بينما تراقبان من بعيدٍ ما يحدث في معسكر القشتاليّين.

حمدونة: «أرأيتِ يا زينب كيف فعل جنودُنا ويفعلون يوميًّا بجيش قشتالة؟ لقد صارت شجاعتهم مضربًا للأمثال».

زينب: «لله درّهم، بارك الله فيهم وفي بطولاتهم».

حمدونة: «مَن كان يظنّ أنّ شباب غرناطة يملكون كلّ هذه القوة والشجاعة، لقد تبدّلت أحوالهم، عقولًا وقلوبًا، فصارت غرناطة عشيقتهم التي يسهرون لحمايتها ويسترخصون أرواحَهم للذّود عنها؟!».

زينب: «إنها المِحن يا أمّ خالد، هى التي تصنع الرجال، وتَفرز مَن يواجهها!».

حمدونة: «صدقتِ. فمَن كان يظنّ أنّ طريف ابن جارتنا يفعلُ ما فعل في القشتاليّين! إذْ هجم عليهم بمفردِه، واقتحمَ معسكرهم، حتى وصل إلى الخيمة الملكية، وانتزع الراية القشتاليّة، ثمّ عاد سالمًا، بعدما أذهل القشتاليّين بشجاعته، ما حدا ملك قشتالة على أن ينهَى جنودَه عنْ مبارزة المسلمين، ثمّ زادَ من تحصين معسكره خوفًا وخشية من مغامرات شباب غرناطة، لقد أُصيبَ القشتاليّون بالذهول مِن جرأة هذا الفارس المقرّب من موسى بن أبي غسّان، وقد كان فرناندو قد فعلَ ذلك بعدما زادت خسائر جنودِه، وارتفعت بزيادتها الروحُ المعنوية للمسلمين، فأمر- لعنه الله- بمنع قبولِ أيّ تحدٍّ بالمبارزة، ممّا حدا فرسان المسلمين على أن يجتهدوا في استخدام كلّ الوسائل لإثارة المحاربين القشتاليّين واستفزازهم للنزول إلى الميدان، ولكن مِن دون جدوى!».

زينب: «أتكتمين عنّي يا أمّ خالد؟».

حمدونة: «سرُّك في بئرٍ عميقة، فاطمئني».

زينب: «لو أنّ رجلًا كموسى كان يحكم غرناطة، لتغيرت أحوالنا منذ زمن وتبدّلت، فهذا الشباب الذي يخرج اليوم مغامرًا ومحاربًا، لم يكن يرى قبل ذلك قائدًا يتشبّث بشعاراته ويقتدي بأفعاله، فالجنودُ يحتاجون إلى مَن يُلهب مشاعرهم يا حمدونة، لينسجوا على

منواله. فانظري حالَهم اليوم بعدما قادهم موسى بن أبي غسّان، ورأوا بعيونهم شهامتَه وإقدامه، لقد صاروا يتبارون في الشجاعة ويندفعون لمقاتلة القشتاليّين، وهُم مَن كانوا قبل ذلك يتنافسون على الانخراط في الخلاعة والمجون، واللّهث خلف الفتيات».

حمدونة (ضاحكةً ومتعجبة): «وأين السرّ في هذا يا زينب؟ فجميعُ أهل غرناطة، بشبابهم وشيّابهم، يعلمون هذا الكلام؟ كنت أظنّك قد وجدتِ مَن يعوّضك زوجك مِن فرسان غرناطة»، ثمّ راحت تتابع ضحكاتها.

وبينما هما كذلك، وشيء من البهجة يملأ نفسيْهما، إذ بأصواتٍ تقترب، فتنصتان فإذا بخطى حصانٍ تتناهى إلى سمعهما، ويقترب وقعُها وهي تدكّ شوارع المدينة، بينما تصرخُ الأطفال وتصيح النساء.. وما هي إلّا لحظات قليلة حتى استدار هذا الفارسُ عائدًا مِن حيث أتى، بعدما خلّف وراءه غبارًا في الجو، ورعبًا في قلوب العامة!

جلست حمدونة وزينب تتبادلان النظراتِ المستغربة وهما ذاهلتان ممّا حدث بالقرب منهما، وكلتاهما تحاول أن تفهمَ ما جرى، بينما استمرَّ الهرج والمرجُ في شوارع المدينة، والكلّ يتساءلون عمّا حدث.. مَن هذا الفارس؟ وكيف وصل إلى هنا؟

وبينما السؤال يدور كقرصِ الرّحى في عقول البعض ويجري على ألسنتهم كنهرٍ من الصدمة، إذْ بشابٍّ غرناطي يرفع لوحة مكتوبًا

عليها باللغة القشتالية «ave maria»، وهو يتجه بها ناحية بعض الفرسان المتجمعين بالقرب من دار محمد العطّار.

ترقّبت حمدونة زوجَها بينما صمتَت زينب، وقد ذهبت ابتسامتُها وامَّحت ضحكتُها من فوق وجهها الذي سرعان ما تجمّدت ملامحُه.

ما الذي جرى؟ وما المكتوبُ في تلك اللوحة بيدِ الشاب؟ ولماذا يحمل لوحةً وقد كتب عليها بالقشتاليّة وليس بالعربية، ومَن هذا الفارس الذي اخترق كالبرق أزقّة غرناطة ثمّ عاد أدراجَه بالسرعة الخاطفة نفسها؟

أمّا ما حدث فقد تبيّن أنّ هذا العِلْج استطاع أن يسطو على باب «دارو دارة»، واستغل سكونَ الليل ونوْمَ الحراس، فهاجم الباب ومعه بضعةٌ من الجنود لا يزيد عددُهم على خمسة عشر فارسًا، وبينما حراس الباب منشغلون بمقاتلة المهاجمين، إذْ بهذا الجندي يترك المبارزات ويندفع بفرسه ناحية مسجدِ غرناطة الكبير، ويترك هذه اللوحة معلقة بخنجرٍ على بابِ المسجد!

وهنا يتملّك الذهول من الجميع، فتردّد زينب بصوتٍ خافت:

ave maria؟!

***

٧٠

Santa Fé

ظهرت خيام الجيش القشتالي كمدينةٍ صغيرة تغصّ بالمفروشات والنفائس من الحرير والأقمشة، تزيّنها الأعلام بمختلفِ ألوانها، وهي تخفقُ على صواريها، وفي وسط هذه المدينة انتصبتْ خيمة الملكة في مكانٍ يشرف على بقيّة الخيام بشكلٍ مرتفع قليلًا بكل أُبَّهتها الملكية، وكانت المدينة الصغيرة تضجّ بالحركة وصهيلِ الخيول وحركة الفرسان التي لا تنقطع، وأمامَ تلك المدينة كانت تربضُ مدينة غرناطة بأسوارها القوية، تتحدّى مَن يقترب منها!

مع تقدّم المساء، خفتتْ ضجة المخيّم، وخفَّت حركةُ الفرسان، إذ صار الجميعُ ينشدون النومَ استعدادًا ليومٍ جديد من الصراع مع المسلمين، وكان ذلك في يوليو ١٤٩١م. وفي الخيمة الملكيّة ظهر فرناندو وهو يستعدّ للذهاب إلى النوم، إذْ كان كثيرَ التثاؤب قليلَ الكلام والحركة، وما هي إلّا لحظات حتى خلعَ ملابسه العسكرية وارتدى ملابسَ النوم الخالية من الأسلحة والدروع المريحة للبدن.

كانت كلّ مظاهر التّعب واضحةً في ملامح فرناندو الخامس وحركاته، حتى إنّه لم ينتبهَ لاستيقاظ الملكة التي بادرته بالكلام.

إيزابيلا: «هل ستنام اليوم مبكرًا كعادتك؟».

فرناندو (يتثاءب محاولًا فتحَ عينيه): «يجب أن أنال قسطًا ولو قليلًا من النوم؛ فقد قتلني النّعاس، وغدًا سأتولى بنفسي الهجوم على هذه المدينة المنيعة، فقد طال الحصار، وبدأ بعضُ الجنود في إظهار التململ والضّجر».

إيزابيلا: «هل مِن نبأ جديد؟ هل هناك مَن رفع صوته بالعصيان مِن جنودنا؟».

فرناندو (يواصل تثاؤبه): «لا، ولكني علمتُ ذلك مِن خلال مطالبهم!».

إيزابيلا: «أي مطالب ونحنُ في حرب لم تضعْ بعدُ أوزارَها؟!».

فرناندو: «لقد تحدّثوا إلى مركيز قادش، حول منعي كلّ أدوات الترفيه، قائلين إنْ كان الحصار سيطول، فلماذا يمنعُ مولانا الملك عنّا كلّ أسباب الترفيه التي تقتل الوقتَ وتريح القلب، فعلمتُ وقتَها أن التململ قد أصابهم». (يظهر فرناندو كأنه أفاقَ مِن نومه، أو يحاول طردَه، ويكمل): «يريدون سماعَ الأغاني والموسيقى ومشاهدةَ الراقصات!».

إيزابيلا (تقتربُ مِن فرناندو وتضعُ يدَها فوق كتفه): «لكن ليس كلّ الجيش بشجاعتك وعقلك يا حبيبي».

فرناندو: «بل يجبُ أن يعي الجميعُ ويفهم طبيعةَ تلك الحرب التي نخوضها، إذْ كيف لجندي يرهقُ نفسه ويشغل ليلَه بالموسيقى

والغناء، أن يكون مستعدًّا في اليوم التالي لخوض أعظم المعارك؟ كيف سيفعل وقد أجهدَه السّهرُ وأضعفت قلبَه مطالعةُ الرّاقصات؟ وكيف سيواجهُ السيف وقد شغلتْه الموسيقى، وأوهنَتْ عزمَه كؤوس الخمر ومجالسة الفتيان؟ إنّها حربٌ مقدسة لا هوادةَ فيها، ولا مكانَ لغير السيف». (يقبض بيده على الهواء).

تنظرُ إيزابيلا في حنوٍّ إلى زوجها، الذي تقدّم تجاهها وقبّل يدَها، ثمّ ابتسم قائلًا: «على أني أعترف بأنني ما كان لي أنْ أحقّق كلّ هذه الانتصارات على هؤلاء المسلمين لولا ملكة عظيمة تُدعى إيزابيلا». تتّسع الابتسامة على وجْهه، بينما تردّ عليه الملكة: «وما كانت هذه الانتصارات لتتحقق، لولا ملك عظيم الشأنِ مثلك يا حبيبي».

فرناندو (يعاود التثاؤب مرةً أخرى، ويغالبه النعاس): «عليّ الآن أنْ أُخلد إلى النوم، بعدما أرهقني التفكير في اقتحام هذه المدينة».

إيزابيلا: «نومًا هنيئًا».

فرناندو: «وأنتِ، ألنْ تُخلدي قليلًا إلى النوم؟».

إيزابيلا: «بلى، ولكن ربّما بعد قليل، بعدما أُصلي مِن أجلك وأدعو الرب أن يكلّل حربك المقدسة هذه بالنجاح والانتصار، حتى تغدو تلك الجزيرة كاثوليكيّة لا مكانَ فيها لهؤلاء الكفار».

فرناندو: «نعم.. نعم، صلّي من أجل المملكة كلها ومِن أجلي».

تبادل الملكانِ التحية، ثمّ ذهب فرناندو إلى مخدعه، بينما ذهبت

إيزابيلا إلى الجناح الداخلي من الخيمة الملكية، حيث محرابها المقدّس الصغير، ركعت إيزابيلا أمام تمثال يسوع وأمّه مريم، ثمّ جلست تتلو ما تيسر لها من ترنيماتٍ بصوتٍ لا يكاد يُسمَع.

وبينما هي كذلك راكعة أمام محرابها، خاشعة تصلي، إذْ فجأة تنهض فزعةً على أضواء نيرانٍ ورائحة دخان، ثمّ ما لبثت خيمتُها أن اشتعلت فيها ألسنةُ النيران أيضًا بفعل الرياح التي كانت قوية بحيث سرّعت انتقال اللّهب من خيمةٍ إلى أخرى، ما أحالَ المخيم إلى مدينة صغيرة من النيران المتأججة، فصارَ ليلُه كشمس الظهيرة في نهارٍ جحيمي!

وبالكاد أنقذتِ الملكة نفسَها مِن ألسنة الحريق، فارّةً كعصفورةٍ من فخّ صيّاد، ومبتعدةً عن الخيمة التي كان اللّهب قد أتى عليها برمّتها، بينما ظلّت هي تلهثُ وتسعلُ وترتجف، وقد اجتاحَ الرّعب قلبَها، وما كادتْ تهدأ قليلًا، وحولها النّاجيات مِن جواريها وخدمِها حتى قدمَ لها أحدُهم كأسًا مِن الماء، فشربتْ منها، ثمّ تذكرتْ فجأة زوجَها الملك النائم في الخيمة، فلمعت عيناها بخوفٍ شديد، وهي تصرخ: «الملك.. فرناندو!».

حاولت مجموعةٌ من الجيش إطفاءَ النيران، والبحث عن الملك الذي ظنّ الجميعُ هلاكه في خضمّ هذه الجائحة العارمة التي حلّت بمعسكر قشتالة، وما ظنّوا جميعًا إلّا أن الملك قد لفظ أنفاسه احتراقًا باللّهب أو اختناقًا بالدّخان.. ووسط ذهولِ الجميع، وصدمة الملكة

ورعبِها وخوفها، إذ بصوتِ خطواتٍ تقترب.. أمعنتْ إيزابيلا النظرَ فاتحةً عينيها على أقصى اتّساعهما، فإذا بالمقبل هو الملك فرناندو، وقد أفلح في النّجاة بنفسه، وفرّ بعيدًا عن النيران.

لم تتمالكْ إيزابيلا نفسها، فارتمتْ في أحضان زوجِها مجهشةً بالبكاء، وهي تهمسُ في أذنه: «كدتُ أموت حسرةً وكمدًا، إذْ ظننتُ أنّ مكروهًا قد أصابك وأنت مجهدٌ نائم».

جفّف فرناندو دموعَ زوجته، واضعًا كفّيه على خديها، ثمّ قال: «لا تخشَي على زوجك أيتها الملكة الجميلة، فقد اعتدتُ رائحة الدخان ومعايشة الحرائق، لهذا فقد تنبّهت فوْر اندلاع النار فخرجتُ مسرعًا».

ينتهي العناقُ بين الملكين، وينظر فرناندو إلى معسكره فيجده قد تحوّل إلى كتلةٍ مِن اللّهب، فأمرَ بإحصاء عددِ القتلى وإسعاف الجرحى بأقصى سرعة ممْكنة، فانهمكَ الجيش في محاولةِ السيطرة على الحريق الذي التهم كلّ خيام المعسكر ومؤونته، وصبغَ أرضَه بلون الرماد الأسود، ولم يعدْ أحدٌ يستنشق إلّا رائحة الدّخان التي تنتشر في كلّ مكان. غير أنه على الرغم مِن قسوة هذا الحريق وتدميره أرجاءَ المعسكر، فإن أحدًا مِن الجنود لم يمسَسْه سوء، ولم يلحق به أي أذى. فقد اندلعت النيران في ليلةٍ من ليالي يوليو؛ حيث القيظ يبلغ أشُدَّه، وقد دأبَ الجنود في مثل هذه الليالي الحارة على البقاء خارجَ الخيام، إذِ انقسم الجميع ما بين نائم بعيدًا عن خيمته، معرّضًا بدنَه للفضاء

الطلق، علّه يحظى بنسمةِ هواء باردة تساعده على النوم، وساهرٍ أرَّقَه الحرّ فاستعصى على جفنَيه النعاس شاغلًا نفسَه بإحْصاء دنانير النّجوم المنثورة على صفحة سَماء، ومِن ثمّ حين شبّت النّيران كان الجنودُ جميعًا يقظانين وخارجَ الخيام، فكانوا من اللّهب في مَنْجاة، وعن الأذى في مَبْعدة!

اطمأنّ فرناندو على جندِه، وعلى ابنه «خوان»، ثمّ راح بعد ذلك يبحث عن أسباب الحريق، مُنحيًا باللائمة على مسلمي غرناطة! فقال:

«كيف لهؤلاء المسلمين أنْ يفعلوا ما فعلوا بمعسكرنا؟ أين الحرّاس يا رودريغو؟».

مركيز قادش: «حراسنا على أهْبَة الاستعداد يا سيدي، والمسلمون لم يقتربوا من معسكرنا، ولن يفعلوا، بل لن يستطيعوا!».

فرناندو: «فمَن الذي أحرق المعسكر إذًا؟!».

مركيز قادش: «لقد تبيّن لنا يا سيدي أنه اشتعل من جرّاء شدة القيظ، وليس لبشرٍ يدٌ فيما حدث».

فرناندو (يُشيح بوجههِ ناحيةَ أسوار غرناطة، متوعّدًا وهو يشير بسبابته بينما قبض بقيةَ أصابعه في قوة): «لو كان للمسلمين يدٌ فيما حدث لأحرقتهم جميعًا، ولأفعلن بغرناطة ما لم أفعله بمالقة».

إيزابيلا: «حتى لو لم يكنْ لهم يدٌ فيما حدث، فلهم كلّ اليدِ في إطالة أمدِ هذا الحصار، وعدم الإذعان والتسليم، لهذا سينالهم كلُّ العقاب، وكلما زادت مدةُ الحصار سيزيدُ عذابهم، وتلك النار التي أفزعتني سأحرقهم بها يومًا قريبًا!».

ينعكسُ ضوء بقية النار على أسوار غرناطة، فتظهر من خلفها عمائم المسلمين، وهُم متربّصون على الأسوار يراقبون الموقف من كثب، أمّا عينا فرناندو فقد شخصتا إليهم، بينما هو يسأل نفسه: «ماذا لو أنّ المسلمين استغلّوا ما نحن فيه الآنَ وهاجمونا؟» لكنّه لم يستغرقْ طويلًا حتى وجد الإجابة وقال في نفسه: «لن نترك لهم أي فرصة ليفعلوا ذلك»، ثمّ استدار جهةَ مركيز قادش وحدّثه قائلًا: «اخرج على رأس ٣ آلاف فارس، وهاجم بهم أسوار المدينة، حتى تقطع على المسلمين كلَّ تفكيرٍ للهجوم علينا».

ولأنّ مركيز قادش قائدٌ مجرّب، فلم يخامره الشك قَط في صحة أوامر الملك، فانطلق مسارعًا إلى التنفيذ. وقبيل بزوغ الفجر، تحرّك مركيز قادش بجزءٍ من الجيش، وهاجم بهم أسوارَ المدينة، التي اكتفت- على رغم كلّ شيء وبلا مبرر- بالدفاع فقط! وكأنّهم كانوا ينتظرون السماء أن تدافع عنهم، لهذا لم يحْسِنوا استغلال الموقف، وقد صبّ هذا في مصلحة القشتاليّين.

حاول مركيز قادش الاقترابَ من المدينة، ولكن ردّته مدافعُ المسلمين وبنادقهم. وبعد هذه الجولة، وبعدما تأكّد مركيز قادش أن

المسلمين لن يفعلوا ولن يهاجموا المعسكر؛ عادَ أدراجه ليخبر سيدَه بما حدث.

كانت ليلةً ليلاء على معسكر قشتالة، إذْ لا نوم ولا راحة ولا خيام تحمي الجنود من حرارة يوليو الحارقة، ومع شروقِ الشمس على معسكر القشتاليّين تبيّن أنه لم يبقَ شيء مِن منظره الجميل، فقد تحوّل عن آخره إلى ركام مُحترق تختلط فيه الخوذُ وأدوات الحرب، وبينها كتلٌ مِن الذهب والفضة الذائبة، فقد تحوّل كلُّ شيء إلى رماد، ولكنّ ذلك لم يفُتَّ في عضد القشتاليّين الذين سارعوا بإنشاءِ خيمةٍ ملكيّة جديدة للملكة وزوجها الملك، تعبيرًا عن إخلاصهم وحبّهم لملوكهم..

ولخوفه مِن أنْ ينتهزوا الفرصة، ولردْعهم ولقتل الفكرة في مهْدها، قرّر فرناندو ألّا يكتفي بما حقّقه مركيز قادش، فأمرَ بقرع الطبول والاسْتنفار، حتى يرى المسلمون أنّ جيش فرناندو قد خرجَ مِن محنتِه سليماً معافى، وأنّ الحرائق لا تقهرُه، والنيرانَ لا تغلبُه، وحرارة يوليو لا تأثيرَ لها فيه، وبدقّ الطبول تحركت كلّ قطاعات الجيش تحتَ أعلامها الخفاقة، وهي تتأهّب للهجوم مجددًا على المدينة التليدة.

كان فرناندو يعلمُ أنّ جنوده مرهقون ممّا حدث، وكان في قرارة نفسه يخشى أنْ يحاربه المسلمون قبلَ أنْ يلتقط هو وجيشُه أنفاسهم، لكنه كان يعلمُ أنّ حركته تلك ستجنّبه شرًّا كبيرًا.

وبأمرٍ مِن مركيز قادش بحسبِ وضعيّته كقائد للجيش تحركت كلّ القطاعات، يقودُهم فرناندو ممتطيًا حصانه الأبيض، وبجواره مركيز قادش ودي قابرا في استعراضٍ واضح للقوة، بينما أبوابُ غرناطة مغلقةً كما هي ومدافعُها ساكنة لا تتحرّك، وكأنّها هي التي اجتاحتها النيران، لا عدوُّها.

تحرّك الجيشُ خطواتٍ إلى الأمام، ثمّ توقّف الجميع بعيدًا عن مرمى مدافع المسلمين، ونظرَ الجميع إلى الأسوار، ثمّ أمرَ فرناندو جيشَه بإحراق وتدمير كلّ مظاهر الخضرة حول المدينة، كما أمرَ مدفعيته بإطلاق عددٍ من الطلقات على الأسوار؛ اختبارًا لها ولِمَن فيها، فردَّ عليهم المسلمون بالمثل، ولكنهم لم يبادروا بفتح الأبواب، والاشتباك مع القشتاليّين من قرب.

وبينما يقودُ فرناندو الجيش، ويضربُ أسوار المسلمين بالبارود، كانت إيزابيلا تفكّر في أمرِ المعسكر المحترق، وكيف تبني معسكرًا غيره، ويكون غيرَ قابلٍ للاشتعال، وفي الوقت نفسه يكون مشجّعًا للفرسان فلا يفرّون منه ولا يفكّرون في الابتعاد عنه.. معسكر يُصدَم المسلمون به ولا تأكلُه النيران، أو تُغرقه الأمطار!

وبعد تفكير عميق، تفتّق عقل إيزابيلا عن فكرة، إذْ قررت أن تبني معسكرًا يثير اليأسَ في قلوب المسلمين، فعملتْ على استبدال الخيَم بمدينة مُسَورة من الطين والحجارة، تكون تلك المدينة الجديدة بمنزلة الطوق الذي يخنقُ غرناطة ويقتلها، فتُسلِّم وتستسلم.

أخبرت إيزابيلا زوجَها بفكرتها، فرحَّب بها أيَّما ترحيب، وبادر بجلب البنّائين والحدّادين من كلّ قشتالة وأراجون، كما أصدر أمرَه إلى أمراء المدن بأن يسارعوا بإمدادِ الجيش بكلّ أدوات البناء، حتى يكتمل بناء المدينة المنشودة قبل بداية الشتاء!

وعندما سأل فرناندو زوجتَه عن اسم المدينة، غرق وجهُها في هُيام شديد وقالت:

«سأسمّيها (سانتا فيه) Santa Fé».

فرناندو (مردّدًا خلفها، بينما رفع عينيه باتجاه الأفق): «سانتا فيه Santa Fé».

إيزابيلا: «نعم، مدينة الإيمان المقدّس، ستكون المدينة الوحيدة في كلّ هذه الجزيرة التي لم تطأها قدمُ مسلم أو مسلمة من قَبْل، المدينة التي ستقهرُ المسلمين، وتلقي بهم إلى عُرض البحر، وتنهي عصورًا مِن حروب الاسْترداد».

فرناندو (يهزّ رأسه وهو لايزال يردّد): «سانتا فيه.. ما أجملَ الاسمَ يا حبيبتي، وما أجملَ معناه ومغزاه».

تحرّك الملكان الكاثوليكيّان بين حطام معسكرهما، وكان يرافقهما مركيز قادش كعادته، توقّف فرناندو ثمّ التفتَ نحو مركيز قادش قائلًا له: «لا تنسَ يا رودريغو.. أريدُ أن تزين المدينة الجديدة بأشجار الرّمّان!».

مركيز قادش: «بالطبع يا سيدي، وسيكون على شاكلة رمّان غرناطة بارع المذاق والرائحة».

فرناندو: «بل لن يكون في غرناطة رمّان يا رودريغو!».

وهكذا صدرتِ الأوامر من الملكين الكاثوليكيّين ببناء المدينة المقدسة، وكُلِّفت تسعُ بلديات قشتالية مسئولية القيام بهذا العمل، فاندفعوا يتنافسون بحماسٍ لتحقيق هذه الغاية التي تمثّل قمةَ أهدافهم، وسنام أولوياتهم، فتمّ إنشاءُ هذه المدينة بسرعةٍ كبيرة، لكأنّ أبنيتها كانت تُزرَع زرعًا.. وصمّم المهندسون تخطيطَها لتكون على شكلِ صليبٍ عملاق، فجاءت عبارة عن طريقيْن كبيريْن متعامديْن على شكلِ الصليب، وينتهي كلٌّ منهما ببوابة تطلّ على إحدى الجهات الجغرافية الأربع، وعند تقاطع هذيْن الطريقيْن قامت ساحة عظيمة تتّسع للجيش إذا اجتمع فيها بأكمله. وهكذا تم بناء المدينة الجديدة، فولدت مزدهرةً زاهية الألوان، وسرعان ما امتلأت طرقاتُها بأطيافٍ وأطياف من البضائع الثمينة والرخيصة على السواء، وردَتْ إليها من كلّ ناحية وصوب.. بينما جارتها مدينة غرناطة فقد ذوى بريقُها، وذبلت الحياةُ في عروقها، وتيبّست الحركة في شوارعها، فصارت بأبوابها المقفلة وجدرانِها الحزينة وأهلِها البائسين؛ أشبهَ بأرملة عجوز لا سندَ لها، وقد مات عنها زوجُها تاركًا إيّاها تصارع- وحدها في الظلام- طوفانَ القهر وعاصفةَ الضياع!

***

٨٠

المعركة الأخيرة- اليأس

انتهى فصلُ الصيف، وبدأ يتّخذ طريقه للرحيل ململمًا معه حرارتَه القائظة وشمسَه الملتهبة، مفسحًا مكانه لخريف العام ١٤٩١م، وكان خريفًا قاسيًا قاهرًا.. فأوراق الشجر تتساقط بكثافة، لتعبثَ بها الرياح كيفما اتّفق، فتُسقِط بعضها على وجْه التراب، وتطيحُ ببعضها الآخر إلى آخرِ المدى، وتنثرُ البقية هنا وهناك لا تكادُ تستقرّ، مثلما بقيتْ غرناطة ذاتُها تتقلب وتنطوي، كأن يدًا عابثة قد ثبّتَتْها على ظهر رحًى شيطانية لا تكفّ عن الدوران المجنون حولَ لا شيء!

لقد كان خريفًا مؤلمًا على الشعب المحاصَر خلف الأسوار، فقد بدأت الأقواتُ في النفاد، وأخذَ اليأس يسيطر على الوجوه، وغاضت الفرحة حتى مِن ملامح الأطفال، وحلَّ محلّها حزن شديد السواد، ورعبٌ مِن مستقبل مجهول! وكثرَ الحديثُ عن أحوال الحصار وأهواله، وترامتْ أصداؤه القانطة على وجوهِ الصّغار والنساء، فلم يعدِ الأوّلون يلعبون في الطرقات بأحصنتِهم الخشبيّة، ولم تعدِ الأخيرات يتسامرنَ بحكايات الحياة، وفرحة المحاصيل، ومواويل المحبّين تحت أشجار الرّمّان.. بل لم يعدْ لهنّ حديثٌ إلّا عنْ أمور الحرب والجهاد، وعنْ شُحّ المؤن وزيادة الأسعار، فقد أصابتِ الجميعَ حمَّى الحرب، فلم يعد ثمّة صوت يعلو على صوتها، وأمّا نهرُ

شنيل الذي كان يعجُّ بالجالسين على ضفّتيه، فقد خلا إلّا مِن أوراق الشّجر الصفراء، كما هجرت ضفافَه حتى العصافير، التي شردت بعيدًا باحثةً عن ملاذٍ بعدما فتكَ بقلبها الرعبُ مِن أصوات المدافع و«الأنفاط» التي لا تتوقّف ليلًا أو نهارًا! لقد كانت أيامًا مَريرة، غزلت خيوطَها أيدٍ رعْناءُ شرّيرة!

وكما تحوّلت نساءُ وأطفال غرناطة فصارت الحربُ محورَ حياتهم، تبدلت أيضًا أحوالُ الرجال، فصار السيفُ والبندقية والسهمُ جلساءَهم، ولكن متى ذلك؟ فيا ليتهم جعلوا السيوف جليستهم حقًّا، والبنادق رديفَتَهم، قبل أن يُحاطَ بهم! ولكن على كلِّ حال فقد حدث ما حدث، ولن ينفعَ البكاءُ الآن!

كان محمد العطّار وصديقُه عامر الغرناطي، يرتديان ثيابَ الحرب، ويقفان بالقربِ من إحدى بوّابات غرناطة، وبصحبتهما مجموعةٌ كبيرة مِن الحرس المسلّحين بالبنادق الطويلة وراميات السّهام.

كان محمد يتفقّد أحوالَ الجند وظروف المدينة، فهو الخبيرُ بها وبأهلها، وهو الناشئ بينهم، وكان إلى ما قبل أيامٍ واحدًا منهم، قبل أن يوكِل إليه الصغير مهمةَ مساعدة موسى في حروب غرناطة. وإنْ كان هذا التقاربُ بين محمد العطّار وصاحب الحمراء، لم يرُقْ لعامر الذي كان يرى في صاحب غرناطة كلَّ أسباب تعاسة المدينة وهلاكها. لذا فقد سأل عامر صاحبَه متهكمًا..

عامر: «كيف حال القائد محمد؟ ولماذا لا أراه في قصر الحمراء؟».

محمد (يشعر بتهكّم صاحبه، فيردّ عليه متغاضيًا عن هذا التهكم): «حالي من حال المدينة ومِن حالك يا عامر، أمّا الحمراء فسوف أذهب إليها بعدما أنتهي من تفقّد أحوالِ الجند وثغور المدينة، فالملك يريدُ تقريرًا مفصّلًا عمّا يجري!».

عامر (مستهجنًا): «ومنذ متى صرتَ تتحدّث عن ابن عائشة بهذه الكيفية يا محمد؟».

محمد (يقترب مِن صاحبه، وبنظراتٍ قاسية يخاطبه): «منذ أن احتاجت غرناطة إلى تعاضدنا لا لتقاتلنا يا عامر، واعلمْ أنّ حديثي هذا لا يمثّل ما أحمله بداخلي أو يغيّر رأيي في الأمير صاحب الحمراء، لكنْ (يشير بيده) لكلِّ مقامٍ مقالٌ يا صديقي، وغرناطة الآن تحتاج إلينا جميعًا لنكون على قلب رجلٍ واحد، وقد ندمَ الرجلُ على ما فعل وعلى تحالفه السابق مع القشتاليّين، وها هو الآن يشنّ عليهم الحربَ تلو الأخرى لا يتقاعسُ ولا يتوانَى، وقد كان في وسعِه أن يستسلم لهم ويضمنَ لنفسه أفضلَ المكاسب».

يربتُ عامر بيده على كتف صاحبه، ثمّ ينظر إليه متسائلًا: «أتعتقد حقًّا أنّ مَن خانَ هذه البلاد قبْلًا سيدافع عنها الآن؟ فمَن المسئول إذًا عن تدهورِها ووصولها إلى الدّرك الذي صارت عليه الآن؟!».

يصمتُ محمد برهةً قبل أن يردّ على صاحبه، ويقول: «يجب أنْ أؤمن بذلك يا عامر.. بل يجب أن تؤمن أنتَ به كذلك».

عامر (محرّكًا رقبتَه في تعجب): «ولماذا يتعيّن عليَّ الإيمان بهذا يا صاحبي؟».

محمد: «مِن أجل غرناطة يا عامر، لا مِن أجل ملكها».

عامر: «غرناطة لا تحتاجُ إلى الخونة يا محمد».

محمد: «بل هي الآنَ في مَسيس الحاجةِ إلى نسيان الماضي والتمسّك بالأمل يا رفيقَ العمر».

عامر: «على كلِّ حال، أنت تعلمُ ما في نفسي، وتعلم أيضًا أنني معك ولن أخذلك أو أخذل غرناطة، فطِبْ خاطرًا، ولكنْ لتعلم يا رفيقَ العمر أنّ هذا الملك القابع في الحمراء لن يقدّمَ إلى غرناطة إلّا التعاسة والخسران، وعند الصدام سيعودُ سيرتَه الأولى، لكنّ سيرته تلك ستجعلُ مِن هذا المسجد (يشير بيديه إلى المسجد) كنيسة، وسيتسبّب في تحوُّل مئذنتِه إلى منارة متوّجة بجرس، وسيقسّمنا بين قتيلٍ بلا ثمن، وأسيرٍ يعاني الذّلة في قبضة القشتاليّين، ووقتها لنْ ينفعنا الندم، ولن تُجدينا أيُّ محاولة للعودة، بعد أن يكون هذا الخائن قد سلّمَنا إلى سيِّده!».

محمد: «وقتها لن يكون صديقك محمد باقيًا على هذه الأرض!».

عامر (متعجبًا): «فأين إذًا..؟».

محمد (في لهجة مزجَتِ الإيمانَ بالحسم): «سأكون مدفونًا تحت ترابها.. فالموتُ عليّ أهونُ مِن أن أرى غرناطة- حبّة القلب- صارت ثمرةً ناضجة في حوْزة القشتاليّين. واللهِ إنّ حياتي لأرخصُ شيء أقدّمه لغرناطة ولدولة الإسلام فيها».

عامر (بالكاد يغالبُ عبراتٍ تدور وتتحجّر في عينيه): «إذًا، لكأنّك ستفجعُني فيك، كما فُجعتُ يومَ مالقة في علي!».

محمد: «الشهادة ليست فاجعةً يا عامر. ولم تكن يومًا خسارة».

عامر: «إذًا، لن تنالها مِن دوني يا صديقي. أعدُك بأن أكونَ شريكك في مواجهة الموت.. فإمّا شهادة تكيدُ القشتاليّين، وإمّا انتصارًا يُرضي ديننا وربّنا».

***

لم تتوقّف مدافعُ قشتالة عن دكِّ الأسوار، بينما مدافعُ المسلمين تقف لَمن يتقدّم مِن معسكر قشتالة بالمرصاد، وعلى رغم هدير الطلقات فشلت كلّ محاولات جيش فرناندو في ثلْمِ الأسوار أو اختراقها.

أمّا في الحمراء، وتحديدًا في برج قمارش، فقد كان أبو عبد الله الصغير يناقش مواجهةَ الحصار والحرب، وحولَه يوسف بن كماشة وموسى بن أبي غسّان ومحمد العطّار.

لم يتّفق المجتمعون على رأي، بل ذهبَ كلٌّ منهم في ناحية، فيوسف بن كماشة كان مِن المثبّطين الدّاعين إلى بثّ اليأس في قلوبِ الناس، ومِن ثمّ دفْعِهِم إلى الاسْتسلام، بينما ظلّ موسى بن أبي غسّان وفريقُه يضيئون مصابيحَ الأملِ في هذا المجلس، بغيةَ إشعال جذوة اليقين بالنّصر في كلّ أرجاء غرناطة.

في البداية، أدار يوسف بن كماشة رحَى الكلام على طريقتِه التي تفرِّق ولا تجمِّع! فقال:

«لم يتركْ ملكُ قشتالة وسيلةً لإحكام الحصار وإرهاق المدينة إلّا استخدمها. لقد قطعَ جميع علائقنا مع الخارج، سواء من البرّ أو البحر، بينما رابطتِ السفنُ القشتاليّة في مضيقِ جبل طارق، وعلى مقربةٍ مِن الثّغور الجنوبيّة، لتحولَ دون وصول أي إمدادٍ من إفريقية».

موسى بن أبي غسّان: «يريد إرغامَنا على التسليم».

محمد العطّار: «نعم، يريدُنا أن نستسلمَ يا موسى، وما مدينتُه الجديدة إلّا نوعٌ مِن الضغط علينا، كي نقبلَ بما يريد».

موسى بن أبي غسّان: «نعم.. نعم، مدينة الإيمان المقدّس كما سمّتها ملكتُهم اللعينة».

يوسف بن كماشة: «لقد بلغني أنّ وفودًا من كلّ أصقاع أوروبا قد حضرتْ إلى المدينة الجديدة لتشاركَ في محاصرتنا».

أبو عبد الله الصغير: «إذًا، بماذا تشيرون علينا الآن؟».

استبقَ موسى بن أبي غسّان، وقطع الحديث على الجميع، ممتطيًا جوادَ حماستِه البليغة، محاولًا إسكاتَ الأصوات المعارضة، قائلًا: «فلتُفتَحْ الأبوابُ، ونخرجْ إليهم بكلّ الجيش، نُثخنُ فيهم ونمنعُهم من الاقتراب مِن أسوارنا، فالمسألة الآنَ ليست مسألةَ معركة وانتصارٍ فيها، بل مسألةُ حياة غرناطة كلّها التي أصبحتْ على المحكّ- يصمت برهة ثمّ يقول- لقد عاش أسلافُنا في هذه البلاد على الجهاد، ولنْ يحفظَ تلك البلاد الآنَ ويحفظنا إلّا الجهاد، ولنْ تموت نفسٌ حتى تستوفي أجلَها، فلماذا الجُبن والجزع ما دام قتيلنا في الجنة وقتيلهم في جهنم؟».

أثارت كلماتُ موسى حماسةَ الجميع، ماعدا يوسف بن كماشة الذي بدا غير متفاعلٍ مع الحديث، بل اكتفَى بالنظر إلى موسى بعينيْن يندلع منهما لهيبُ الحقد والحسد!

انفضّ المجلس بعدما اتّفق الجميعُ على استمرار الحرب، ومواصلة الدفاع، واستبعاد الاستسلام.

خرج موسى كي يستعدّ للمعركة المقبلة يرافقه محمد العطّار، واتفق الاثنان على وجوب بثّ روح الجهاد في أهل غرناطة، وبادر موسى فنادى في الناس، فاجتمعوا إليه، فانطلق يخاطبُهم بصوتِه الجَهْوَري، واستحثّهم على حمْل السلاح والدفاع عن أعراضهم

ونسائهم، وقبل كلّ ذلك دينهم الذي عُمِّر في هذه الأرض قرونًا طويلة، فاشتعلَ الناس حماسةً، وكبَّروا وهللوا، مُستندين إلى كلام موسى، الذي سرَى في نفوسهم كقبَسٍ مِن نار مقدسة، فانتعشتْ قلوبهم وتأجّجت أرواحهم، وحمل مَن استطاع منهم سلاحَه وقوسه، وكوَّنوا جيشًا من المتطوّعين، وبينما يخطبُ موسى في العامة ويحرّضهم على الجهاد، إذ بصهيلِ خيلِ الملك الصغير تقترب.

نظر العامّة إلى مليكهم وقد خرجَ محاطًا بزهرة جندِه، فغمرتهم السعادة واستبشروا، ومِن ثمّ انضموا إليه متطوّعين مجاهدين، والكلُّ يحدوه الأمل في النّصر العظيم، فمازالت كلماتُ موسى تتردّد في آذانهم، وتسكن قلوبهم، وراح بعضهم يردّد كلامَ موسى، ويتّخذ منه شعارًا ومنهاجًا: «فإن كان المرءُ لا يموت إلّا موتة واحدة، فلماذا نموت في صمتٍ أو ذلّ أو فرار؟!».

وبعد مشاورات قصيرة، تقرّر أن يقود موسى جنوده، بينما يقود أبو عبد الله فرسانَه مع المتطوّعين من الرجّالة وعامة الشعب. وبعد وقت قصير، وإعداد بسيط، فُتحت الأبواب وانقضّ الجيش المسلم على جيش القشتاليّين، ودارت رحى حربٍ طاحنة، وانتشر الموتُ في كلّ مكان، واندفعت أنهار الدماء تسيلُ بين الحشائش والمزروعات، وتحوّلت الحدائق حول الأسوار إلى مسرح لحصْدِ الأعناق والأرواح. وكلّ شبرٍ من الأرض صار بمنزلة البيت والعرض، فاحتدم الصراع

عليه من الجانبين، فالمسلمون يتشبثون بكلّ شبر يرْوُونه بدمائهم الطاهرة، ويتّخذون من أرواحهم وأجسادهم متاريسَ دونها.. والقشتاليّون بدورهم يزحفون في عددٍ كبير من المهاجمين لا يكترِثون بمَن يسقط منهم قتيلًا أو جريحًا، مُعتمدين على كثرتهم التي تُغْنيهم عمَّن سقطَ منهم، وعلى رغم ذلك فقد كان تقدّمهم بطيئًا بطء السّلحفاة، على حساب دماءٍ غزيرة سفحوها على أرض المعركة.

أمّا موسى وجنوده فقد كانوا في كلّ مكان في المعركة، كان نشاطهم عظيمًا، وحركتهم لا تهدأ جيئةً وذهابًا، فأربكوا أعداءهم، وكانت مناوراتهم مخيفةً، وضربات سيوفهم تفزع فرسان قشتالة وترهبُ قلوبهم. وصار كلّ فارسٍ من مقاتلي موسى ينتشر في كلّ مكان في الساحة، كأنه عدة فرسانٍ في شخصٍ واحد. كان الصراع قويًّا وشرسًا لا مكان فيه لليأس، حتى إذا سقطَ الواحد منهم عن حصانه مِن جرّاء سهمٍ أو طلقة بندقية أو ضربة سيف، ثمّ شاهد موسى وهو يصرخُ فيهم أن دافعوا عنِ الإسلام وتراب بلادكم؛ سَرْعان ما هبّ المصابون مرةً ثانية، غير آبهين بالموت الذي يحومُ حولهم، فبينما هُم يحتضرون يحملون على القشتاليّين، فيذبحون منهم مَن يقدرون عليه، وهُم يتَمْتِمون بالشهادة، فيفارقون الحياة وأعينُهم باسمة شاخصةٌ إلى السماء ابتغاءً للأجر، في حين تنسابُ دماؤهم الطاهرة تزكِّي المكان وتبعثُ في نفوس إخوتهم الذين ما زالوا على قيد الحياة بوادرَ الأمل في الانتصار، أو الرغبة في الاستشهاد والثأرِ مِن الأعداء.

وعلى هذا المنوال، مضتِ الحرب سجالًا بين الطرفين، على رغم عدم التكافؤ بين طرفيها، فأعدادُ القشتاليّين وعتادهم أضعافُ المسلمين، ومع مرورِ الوقت وتتابعِ سقوط الشهداء تمكّن القشتاليّون مِن ترسيخ أقدامهم في عددٍ مِن أبراج المدينة، تلك الأبراج التي كانت تزعجهم بسهامِها وبنادقها الطويلة الثقيلة.

استمرّ القتال على كلّ الجهات، وزاد ضغطُ العدو القشتالي على المسلمين، وأبو عبد الله يبذل قصارَى جهده مع فرسانه للتخفيفِ عن المتطوعين إلى درجةِ أنّه انهمك بنفسِه في القتال، واختلط بالمقاتلين في مواقعَ مختلفة من ساحة المعركة كي يحمّس مُشاته على الصمود في وجه الغازي المحتل، لكنّ المشاة المسلمين كانوا ضعافًا لا يُعتمدُ عليهم فمَرَقوا بسرعة، وتبعَهم فرسانُ الحرس الملكي إلى أبواب المدينة، وكادَ أبو عبد الله أن يقع في الأسْر كعادته!! لولا أنّه لوى رسنَ حصانه مع كوكبةٍ من أشجع فرسانه إلى المدينة ليدخلَها بأقصى سرعة، ويحتمي بأسوارها وهو يكادُ يموت جزعًا وفزعًا!

وعبثًا حاول موسى أن يجمعَ شملَ الجند، وأن يحضّهم على الذّود عن أوطانهم ونسائهم وكلِّ ما هو مقدَّس لديهم. حاول أن يعيدهم إلى ساحة الشرف، لكنه ألفى نفسَه وحيدًا في الميدان مع نفرٍ من فرسانه المخلصين، وقد تضاءل عددُهم وسقطَ الباقون منهم جرحى وقتلى. فاضطرّ عندئذ أن يرتدّ إلى المدينة وهو يرتجفُ غضبًا وبؤسًا، فأمر مِن فوْره بأنْ تُوصد أبوابُ المدينة بالأعمدة الثقيلة

وجنازير الحديد، وفتحت المدفعية زخّات نيرانِها مِن فوق الأسوار لتنجح في الحيلولة دون تقدّم القشتاليّين، وعندها أمرَ الملك القشتالي فرناندو جنودَه بالعودة بعيدًا عن مرمى النيران، تاركًا النار والدخان والخراب تلفّ غرناطة الجميلة وبساتينها المحترقة التي تُحيط بها جثثُ أبنائها القتلى ممزقةً أشلاءً.

عمّ شبحُ الفناءِ أرباض غرناطة بعد تلك المعركة التي ظنوها باعثةَ الأمل لهُم وفيهم، وبدأت تُدوِّي في الأفق القريبِ عاصفة غيابها الأبدي بصريرها المرعب، ولاحَ لكلّ ذي عين أنّ الوقت قد حان لتصير غرناطة في عين العاصفة، ولبسَ الجميع ثوبَ الحداد، وامتلأت الأجواءُ برائحة الهزيمة البغيضة والانكسار المذلّ، وألْجمتِ الصدمة الكثيرين بلجام الصمت، فأمسى الجميعُ سكارى وما هُم بسكارى. وذهب موسى بن أبي غسّان يتفقّد أصحابه، فوجدَهم شهداء عند ربّهم يُرزقون، وأنشأ يبحثُ عن محمد العطّار ورفيقه عامر الغرناطي، بحث عنهما طويلًا، فلم يعرف لهما طريقًا، ولم يعثر لهما على أثر، وجدَّ في السؤال عنهما، حتى أخبره مَن شاهدهما مِن الجند، وقصّ عليه قصتهما، فقال إنّه شاهد عامرًا ومحمدًا وهُما يصولان ويجولان في حوْمَة المعركة يضربان هنا ويدافعان هناك، ولم يهدأ سيفُ أي منهما، حتى لم يعدْ جانبٌ في جسميهما لم تسلْ منه الدماء.. وعلى رغم الجراح الدامية نجح الاثنان في كلّ مبارزةٍ دخلاها، وسقطَ جمعٌ مِن فرسان قشتالة صرعى تحت ضربات

سيوفهما التي كانت- وهي قيدُ قبضتيهما- تعرف طريقها جيدًا إلى أعناق الخصوم.. ولكنّ سهمًا غادرًا شقّ صدر محمد وأصاب قلبَه، فهوى من فوق صهوة فرسه، وسرعان ما تقدّم منه جنديّان قشتاليّان أرادا الإجهاز عليه، لكنّ عامرًا كان يراقب صاحبه، فانقضّ على القشتاليّين ومزّقهما كلّ ممزَّق، ثمّ غرزَ سيفَه في رمل أرضِ المعركة، وانكبّ على صاحبه يحاول حملَه ونقله من الميدان، وهو لا يكادُ يتمالك نفسَه من البكاء، حتى إن دموعَه ظلّت تهطلُ على وجه محمد بكثافة متواصلة، بينما يحاول محمدٌ جاهدًا أن يطمئنه، وبينما يحملُ عامر صاحبه بين يديه ساعيًا إلى إسعافه، إذْ بسهمٍ يخرق ظهرَه، فتحامل على نفسه كي لا يسقط صاحبَه من بين يديه، فإذا بالقشتالي يزيدُه سهمًا آخر، عندها خارتْ قوى عامر، وسرعان ما سقطَ على الأرض وصاحبُه بين يديه.... حدق عامر في عيني محمدٍ باحثًا عن أمل أنْ يظلّ باقيًا على قيد الحياة، لكنْ هيهاتَ هيهات، فقد فارق محمدٌ الدنيا وغرناطةَ التي لفظ آخرَ أنفاسه في سبيلها. أغمض عامر عيني صاحبِه، ثمّ خاطبَه بصوتٍ مذبوح: «لن تنالها وحدَك يا صديقي، ولن أعيش بعدك». ثمّ التفتَ إلى جبال غرناطة بعينيْن تفيضان بالدموع والألمِ الحارق، فكأنّما هو يودعها، أو يعتذر لها بأنه سيموت قبل أن ينقذها، أو لعلّه يوصي تلك الجبال بغرناطة: «أنْ حافظي عليها ودافعي عنها، ما دام أهلُها سقطوا دونها». تردّد بصرُ عامر بين جبال غرناطة وأسوارها، ولم تمرّ لحظات حتى سقطَ على ظهره، فمدّ يدَه يتحسس جسدَ صاحبه، فوقعت كفّه على صدره،

بينما كان وجهُ عامر متجهًا إلى السماء باسمًا، وكأنه يشاهدها أول مرة.. اتّسعت ابتسامتُه كثيرًا على رغم الموت المتراقص بين عينيه، فرفع يدَه اليمنى ناحيةَ السماء، وكأنه يصافحُ يدًا أخرى جذبتْه إليها، وعندما هوتْ يمناه كورقةِ خريف، كانت روحُه تفيض إلى بارئها، بينما دماؤه تنسابُ عمقًا راحلةً إلى نقطةٍ بعيدة في قاعِ تراي غرناطة!

سقط الرفيقان.. بل ارتفعا عاليًا، بعد صراع من أجل حياة غرناطة، وبعد حروبٍ متعاقبة وجهادٍ عظيم، وصدق محمد حين وعدَ صديقه بأنّ مساجد الأندلس لن تتحوّل إلى كنائس إلّا وهو تحت ترابها، لا يشاهد ذلك ولا يراه!

اعتصر قلبُ موسى ألمًا لفراق الرجال الذين استُشهدوا، وبخاصة محمد وعامر، وسقطت دموعُه من دون أن يهتزّ له جفن، وصمتَ بضع دقائق شعرَ فيها بوحشةٍ مُقبضة تهزّ كيانه بعدما أصبح وحيدًا في الميدان، وبعد أنْ فرغت غرناطة إلّا مِن اللئام!

أمّا أبو عبد الله الصغير، فقد لجأ إلى قصره يتجرّع خلف أسواره سمومَ خياناته السابقة، وتحالفه مع القشتاليّين، ومحاربتهِ عمَّه، ووقوفهِ مع قشتالة يومَ بلش مالقة ويوم مالقة ثمّ يوم بسطة، ولسان حاله يقول: «أُكلتُ يومَ أُكلَ عمّي، وتساقطت أوراق غرناطة يوم أن تساقطت بلدان عمّي!» لكنْ لم يكنِ الندمُ لينفع أحدًا على مدى التاريخ، حتى ينفعك اليوم يا صغير، فقد حانَ الأجل، وصارت الطرقات كلُّها تمضي منحدرةً إلى نهاية واحدة. ولاحت لحظةُ الحقّ ممزوجةً بلهيب الفراق الأخير!

كان موسى يسير في حواري وأزقّة غرناطة، يتلفّت يَمنة ويَسرة، فلا يشاهدُ حواليه إلّا مظاهر الضياع والفناء، على وقع نحيبِ النساء وصرخات الجرحى، ونشيج الأرامل والثكالى على شهداءٍ ذهبوا لكي يقطفوا النّصر، وظلَلْن ينتظرْنهم على قارعات الطرق وفي قعور البيوت، فما عادوا ولا عاد النصر، وضاعت بينهم غرناطة.. حتى الأطفال الصغار- وهُم يلعبون- كانوا يُنشدون عباراتٍ جميلةً، ولكنّها مؤلمة تدلّ أيضًا على النهاية، إذ يقولون:

«لا تَبْكِ يا أُمَّاهُ... إنَّا ذاهبون إلى الجنَّة.

إنَّ أرض غرناطة لن تَضِيقَ عن لَحْدِ طفل صغيرٍ ماتَ في سَبِيل الله.

إنّ أزهارَ غرناطة لن تَمنَعَ عِطرَها قَبْرًا لم يُمتَّعْ صاحبُه بعِطرِ الحَياة.

إنّ ينابيعَ غرناطة لنْ تَحرِمَ ماءَها ثَرَى لَحدٍ، ما ارتَوَى صاحبُه مِن مائها.

أنتِ يا أرضَ غرناطةَ أُمُّنا الثانيةُ فضُمِّينا إلى صَدرِكِ الدّافئ الذي ضَمَّ آباءنا الشُّهَداء.

لا تَبْكِ يا أُمّاهُ، بلِ اضْحَكي، واحفظي لُعَبَنا، فسيأتي إخوتُنا ليلعَبوا بها.

فذَكِّريهِمْ أنَّنا تركناها مِن أجلِ هذا الوطن، سنلْتَقي يا أُمّاهُ! إنَّكِ لن تُؤثِري الحياة في ظلالِ القشتاليّين على الموتِ تحْتَ الرّاية الحجازيَّة، ولن تَضيقَ عَنّا أرضُ غرناطة؛ ما ضاقت أرضُنا بشهيد».

غالبَ موسى دموعَه وهو يسمعُ أطفال غرناطة يتغنّون بهذه المعاني النبيلة، ولكنه لم يفقدْ إيمانه بربّه ولا بدينه ولا بترابِ بلده، ولم يفقد عزمَه وحزمَه وبأسه وشهامتَه، فقد تجاوز هذه الظلمة الداكنة من الأحزان، واخترقَ الأزقة إلى حيث صاحب الحمراء، فوجده مكتئبًا حزينًا، ينعي نفسَه ويلعن أيامَه ويندبُ حظّه، ووجد معه وزيره يوسف بن كماشة ومجلسًا من كبار الجند والفقهاء والأعيان. وقد كان هذا هو الاجتماع الأخير في بهْو الحمراء الكبير (بهو قمارش)، وكان البؤس خيامًا سوداء دُقّت أوتادها في وجوه الجميع!

لم يُرد الصغير لموسى أن يبادرَ بالحديث كعادته، لذا فقد بادرَ هو قائلًا:

«لقد مضى على حصار غرناطة مذْ بدأ الربيع حتى دخول الخريف زهاءَ سبعة أشهر، أكثرَ من مائتي يوم وليلة مرّت ونحن نغالب أهوالَ الحصار، وتفاقم المحن شيئًا فشيئًا، فلمّا جاءت خاتمة المعارك بدّدت كلّ أمل لنا فى الإنقاذ، كما فتكَ بالكافة الجوعُ والحرمان والمرض، ودبَّ اليأسُ في قلوب الناس جميعًا، لهذا لم يبقَ مَناصٌ مِن إعادة النظر في الموقف مِن جديد».

كان هذا الكلام يداعبُ مشاعرَ ابن كماشة، وهو الداعي منذ زمن بعيد بوجوب الاستسلام، لذا فقد تكلّم مؤيدًا لحديث سيّده فقال: «لقد وصل الخَطب إلى ذِرْوته، فهلكت أنجادُ الفرسان، وخبتْ قوى الدفاع، ونضبتْ الأقواتُ والمؤن، واشتدَّ البلاء بالناس، وغاضَ كلّ

أملٍ في تلقّي الإمداد من عدوة المغرب، فلا نصيرَ لنا ولا منصتَ لاستغاثتنا».

ولأنّ للباطل رجالًا، كما للحق رجالًا، فقد تحدّث إبراهيم الحارث، فلم يخالط كلامَه حرفٌ واحد من الصّدق فقال: «تعلمون جميعًا أني كنت في مالقة وقتَ سقوطها في قبضة القشتاليّين، كما تعلمون جميعًا ما حلّ بمالقة مِن جرّاء توانيها في الاستسلام، وقد نصحْنا حامدًا الثغري بالتسليم فأبى الرّجل، وحلَّق بخياله بعيدًا، حتى حدثَ ما حدث من سبْي النساء واستعباد الرجال.. لهذا لا نريد أنْ تتكرّر هنا تلك المأساة، لا نريدُ أن تتعرّض هذه الأرض وأهلها للأحداث والفواجع التي عصفت بمالقة، خصوصًا أنّ الشعب لم يعدْ يقوى على تحمّل ويلات الدفاع، فلم يعدْ أمامنا سوى التسليم أو الموت!».

أبو القاسم بن سودة» وزير الصغير ونائبه»: «نعمْ أيها الشيخ الجليل، فهذا الشعبُ لن يتحمّل ويلات الدفاع عن المدينة، لهذا فأنا أرى أنّ التسليم هو حلٌّ سليم، وواجبٌ شرعي في حالتنا هذه، بوصفه أقلّ المفسدتيْن».

عبد الله بن أبي الفرج: «أرى يا سيدي رأيَ الفقيه».

أبو عبد الله الصغير: «أراكم جميعًا متّفقين على التسليم، فلتكنْ إرادة الله»... ثمّ وضع يدَه على وجهه، وكأنّه يحاول التخفي من

نظرات موسى بن أبي غسّان الذي ظلّ يستمع إلى هذا الكلام وهو يحدجُ بنظراتٍ مِن لهب وجوهَ المتكلمين، لا يكاد يصدّق جرأتهم على هذا الذي يقولون! وهو يقول في نفسه:

أهؤلاء هُم أعيان غرناطة وسادتُها؟ أهولاء وزراؤها وملوكها؟ أهولاء هم الذين أكلوا مِن خيراتها وافترشوا حريرَ ترابها؟ لماذا يتنكّر البعض كلّ هذا التنكّر لبلادهم، ويروغون مِن تبعةِ الدفاع عنها كما تروغُ الثعالب؟ كيف بهِم أن يضحُّوا بهذه السهولة ببلدِهم، تاركين إيّاه لقمةً سائغة في قبضة أعدائِه، بينما يقفونَ هُم على مَبْعدة في خزيٍ وجزع كهِرّةٍ مَذْعورة؟ كيف للرجال أنْ يخونوا، وكيف للذاكرة أنْ تنسى، وللعيون أن تعمَى، وللخديعة أن تحلّ بديلًا عن الشجاعة والصّدق؟!!

وبعدما ضاقتْ نفسه بحديثِهم راحَ يتحدّث إليهم قائلًا: «لماذا كلّ هذا اليأس والاستسلام؟ لماذا أرى الهزيمة تنبتُ كأشواكٍ شيطانية في أعينكم، قبل أن تلوح نُذُرُها في المعركة؟! لماذا نتعجّل الهزيمة بينما لم تنضبْ كلُّ مواردنا بعد، فمازال لنا موردٌ هائلٌ للقوة، كثيرًا ما أدّى إلى المعجزات، ذلك هو شجاعتُنا أمام يأسنا! فلنعملْ على إثارة الشعب ودفعِه إلى الجهاد، ولنضع السّلاح في يدِه، ولنقاتل العدوَّ حتى آخر نفس، وإنه لخيرٌ لي أن أُحصَى بين الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة، مِن أنْ أُحصَى بين الذين شهدوا تسليمَها!».

إبراهيم الحارث: «لقد ضاع كلُّ أملٍ في النصر يا موسى، وعليكَ الآن أن تطيعَ ولي الأمر ولا تعصِهِ، ولا تفرّق كلمتنا وقد اتّفقنا جميعًا على التسليم يا بني. وطاعةُ ولي الأمر واجبةٌ يا فتى».

يوسف بن كماشة: «وأنا أعدكَ يا موسى بأنْ أحصل لك ولغرناطة على أفضلِ الشروط مِن ملك قشتالة».

موسي بن أبي غسّان (متسائلًا في عناد): «أفضلُ الشروط! ومَن الذي قال إنّك ستتولّى أمر المفاوضات، ونحن لم ننتهِ بعدُ مِن مجلسنا، ولم نقرّر بعد الاستسلام؟!».

يتلعْثَم يوسف بعدما ألجمَه موسى حجارةً بسؤاله المعاند، بينما ينظرُ أبو عبد الله إلى الأرض، فتيقّن موسى مِن أنّ أمرًا ما قد دُبِّر في الخفاء، وأنّ المفاوضات قد بدأتْ بالفعل، وأنّ هذه الجلسة إنّما هي ضربٌ من المخايلة والتّمويه، وحفظًا لماء وجوهٍ خائنةٍ غاض فيها الحَياء، وكذلك خُدعة لموسى نفسِه حتى لا يثير الشعبَ عليهم، الأمرُ الذي جعلَ هذا الأخيرَ يمسكُ بدفّة الكلام مِن جديد!

موسى بن أبي غسّان (موجّهًا حديثَه إلى إبراهيم الحارث): «وأنت أيها الشيخ الذي رفضَ الاستشهاد في مالقة وفرّ منها، هل جئتَ إلى هنا لتسلّم غرناطة بعدما أضعتَ مالقة؟ ثمّ أليسَ مِن الأولى بك أيّها الشيخ الطاعنُ في السنّ أنْ تنادي في العامة: حيّ على الجهاد بدلًا مِن أنْ تفتَّ في عضدهم، وتبثّ في قلوبهم روحَ الانهزام والاستسلام!!؟ أين أنتَ يا شيخ مِن ابن روميلة صاحبِ الزلاقة، وأين أنتَ مِن العزّ بن عبد السلام صاحب عينِ جالوت؟».

إبراهيم الحارث (بكلماتٍ متهرئة، وكأنه غارقٌ في قاع جُبّ): يا ولدي لكلّ مقامٍ مقال، وقد قالَ الله في محكَمِ آياته: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}».

أبو عبد الله الصغير (يرفع رأسَه متوجّهًا إلى موسى): «إنّ غرناطة لا تستطيع دفاعًا، ولا تأمل الغوث والإمداد، ونزولًا على رغبة السواد الأعظم من الشعب، الذي لم يعدْ يصبرُ على هذا الأمر الفادح، فقد أرسلت في طلبِ الهدنة من الملكيْن الكاثوليكيّين، لكي نستطيع خلالَ تلك الهدنة أن نتفاهَم على شروط الصلح التي يمكن التسليم بمقتضاها».

إبراهيم الحارث: «لقد اشتدّت وطأة الجوع على المحاصَرين، وأصبحت العامّة الصاخبة تجوبُ أنحاء المدينة تُنذرالأغنياءَ بالويل، وتبعث الرجفةَ إلى الملك أبي عبد الله وأعوانه، وإزاء هذا التهديد؛ دعانا الأمير، وطلب منّا البحث فيما يمكن عملُه لتجنّب الأخطار التي تهدّد المدينة في الداخل والخارج، وقد رأينا أنه لم يبقَ سبيلٌ سوى التسليم أو الموت، وقد أشرنا على الملك أبي عبد الله بأن يتولّى أبو القاسم بن سودة ومعه يوسف بن كماشة- بإذنٍ من مولاي أبي عبد الله- مفاوضةَ القشتاليّين».

لم يسعْ موسى إلّا أنْ هبّ مِن مجلسه، وهو يقول في تحدٍّ شديد: «أمّا أنا.. فالموتُ خيرٌ لي مِن التسليم لأعداء الله والدين.. ماذا ستقولون لربكم غدًا؟! بل ماذا ستقولون لأولادكم وأحفادكم؟!

هل ستقولون لهم إنكم اجتمعتُم هنا لتحكموا على دولتهم ومستقبلِهم بالضياع، وعلى أمّتهم بالفناء والدّمار، وعلى مساجدهم بأنْ تصير كنائسَ ومآذنهم أن تصبحَ أبراجًا للأجراس؟! هل ستخبرونهم أنّكم شاركتم في وأدِ دولة الإسلام في الأندلس؟! هل ستقولون لأحفادكم إنّكم أضعتم للإسلام دولةً ومساجدَ يذكر فيها اسمه؟! هل ستتحمّلون تبِعَة آلافِ آلافِ المسلمين الذين سيُهجَّرُون مِن بلادهم أو سيقتّلون أو ينصَّرون عُنْوة؟ هل ستتحمّلون لعناتِ التاريخ وحسرة الحاضر؟! ماذا ستقولون لطارق بن زياد، وموسى بن نصير، وألوفٍ من المسلمين الشهداء قضَوْا نحبهم على هذه الأرض، وذهبوا فداءً لها؟!.. أجيبوني يا سادة، أجيبوني...!».

كان موسى يتحدّث بصوتٍ جَهْوَري للغاية، وكأنّه أراد أن يُشهدَ حجارة الحمراء على كلامِه الحقّ وزيغهم الباطل، أو لعلّه أحبّ أن ينهرهم أو يردّهم إلى صوابهم، وربما حاول أن يوقظَ في داخل كلٍّ منهم الرجلَ الشّجاع الوفي الذي تَوارى خلفَ النّفاق والمصالح، ولكنّه لم يجدْ داخلهم غيرَ الخنوع والاسْتسلام ودموعَ التماسيح وعويلَ النساء وجزَع الأطفال!

عندئذ، لم يملكْ كثيرٌ من الحضور أنفسَهم مِن الإجهاش بالبكاء، لكنّ موسى لبِث وحدَه صامتًا عابسًا قبل أن يقول:

«اتركوا العويلَ للنساء والأطفال، فنحن رجالٌ لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدّماء، وإني لأرى روحَ الشعب قد

خبت، حتى ليستحيل علينا أنْ ننقذ غرناطة، ولكن مازال ثمّة بديل للنفوس النبيلة، ذلك هو موتٌ مجيد، فلنَمُت دفاعًا عنْ حرياتنا وانتقامًا لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن أمّنا الغبراء أبناءَها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفِه، ولئن لمْ يظفرْ أحدُنا بقبر يسترُ رفاتَه، فإنه لن يعدمَ سماءً تغطّيه، وحاشا لله أنْ يقال إنّ أشراف غرناطة خافوا أنْ يموتوا دفاعًا عنها»!

ثمّ صمت موسى، وسادَ المجلسَ سكونُ الموت، وسرح أبو عبد الله ببصره في أرجاءِ المكان، فإذا اليأس ماثلٌ في تلك الوجوه التي أضْناها الألم، وإذا كلُّ عزمٍ قد غاض في تلك القلوب الكسيرة الدامية. عندئذ صاح: «الله أكبر، لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، ولا رادّ لقضاء الله، تالله لقد كُتب عليَّ أنْ أكونَ شقيًّا، وأن يذهب المُلكُ على يدي».

ثمّ صاحت الجماعةُ على أثره: «الله أكبر، ولا رادّ لقضاء الله»، وكرّروا جميعًا أنّها إرادة الله ولتكُن، وأنه لا مفرَّ مِن قضائه ولا مَهْرب، وأنّ شروط ملك قشتالة أفضلُ ما يمكنُ الحصول عليه.

رأى موسى أنّ اعتراضه عبثٌ لا يجدي، وأنّ الجماعة قد أخذت فعلًا في توقيع صكّ التسليم، لذا فقد نهضَ مغضَبًا وهو يصيح: «لا تخدعوا أنفسَكم، ولا تظنّوا أنّ القشتاليّين سيوفُّون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامةِ مَلِكهم. إنّ الموت أقلّ ما نخشى، فأمامنا نهبُ مدنِنا وتدميرُها، وتدنيسُ مساجدِنا، وتخريبُ بيوتنا، وهتكُ نسائنِا

وبناتِنا، وأمامنا الجَورُ الفاحش، والتّعصب الوحشي، والسّياط والأغلال، وأمامَنا السجون والأنطاع والمحارق.. هذا ما سوفَ نعاني مِن مصائبَ وعسْف، وهذا ما سوف تراه على الأقلّ تلك النّفوس الوضيعة، التي تخشَى الآنَ الموتَ الشريف، أمّا أنا فوالله لنْ أراه»!

ثمّ غادر المجلس مخترقًا بهْو الأسود، عابسًا حزينًا مبعثرَ الفؤاد، وجازَ إلى أبْهاء الحمراءِ الخارجية مِن دون أنْ يرمقَ أحدًا أو يفُوه بكلمة، ثمّ ذهبَ إلى داره وغطّى نفسه بسلاحِه، واقتعدَ غارب جواده المحبوب، واخترقَ شوارع غرناطة، حتى غادرها مِن باب البيرة، وخارج المدينة التقَتْه سَرية من الفرسانِ القشتاليّين قوامُها نحو الخمسة عشر على ضفة نهرِ «شنيل». فلمّا رأوه مقبلًا عليهم طلَبوا إليه أنْ يقف وأنْ يفصح عن هويّته، لكنّ موسى لم يُجبْهم، بل سارعَ بالوثوب إلى وسطهم، وطعنَ أحدَهم برُمْحه وانتزعه عنْ سرْجه فألقاه أرضًا قبلَ أنْ ينقضّ على البقية الذين أذهلتْهم المفاجأة، فأثخنَ فيهمُ الطّعن بضرباتٍ ضاعفَ الغضبُ قوتَها، فكانت طعناتٍ نجلاءَ قاتلة، وكأنه لم يشعرْ بما أثخنَه من جراح، ولم يُردْ إلّا أنْ يقتل، وأن يُسيل الدماءَ أنهارًا، وبدا كأنه يقاتلُ للانتقام فقط، وكأنّما يتوقُ إلى أن يقتَل دون أن يعيشَ لينعم بظفره. وهكذا لبثَ يبطش بالفرسان القشتاليّين حتى أفنَى أغلبَهم، غير أنه أصيبَ في النهاية بجرحٍ خطر، ثمّ سقط جوادُه مِن تحته بطعنةٍ أخرى، فتهاوى

إلى الأرض وسقط سيفُه مِن قبضتِه، ولكنه ركعَ على ركبتيه واستلَّ خنجره، وأخذ ينافحُ عن نفسه.. فلما وجدَ أنّ قواه قد نضبَتْ، لم يشأ أنْ يقع أسيرًا في يدِ خصومه، فارتدّ إلى الوراء بوثبةٍ أخيرة، وفي برهةٍ خاطفة ألقى بنفسِه إلى صفحة النّهر، وسرعان ما ابتلعتْه على الفور، ودفعه سلاحُه الثقيل إلى الأعماق البعيدة.

***

.٩٠.

الخيانة والنهاية «سقوط شجرة الرّمّان»

كتب استشهاد موسى، وأصحابِه مِن قبله، نهايةَ الحرب بين قشتالة وغرناطة، لكأنّ هذه الحرب لم تجدْ بعدَهم رجالًا أشداءَ يحملون السيف والرّمح والدرع، ومن قبلهم مسئولية بلدٍ يضيع شيئًا فشيئًا، بينما الناس في ذهول ينظرون!

بدأت مرحلةٌ أخيرة في حياةِ دولة الإسلام في الأندلس، مرحلة ما قبل التسليم، حاول أبو عبد الله الصغير في أوّل الأمر أن يتكتّم أمرَ المعاهدة، ويُخفيها عن الشعب، فقد كان على الرغم من كلّ شيء يخشى ثورةَ هذا الشعبِ الجريح، ولكنّ كتمانَه لم يستمر طويلًا، فقد تسرّبت أخبار المعاهدة واعتزام الصغير التسليمَ والاستسلام، فأصابتِ الشعبَ غيمةٌ من الوجوم، وباعَ كثيرون مِن أهل غرناطة أراضيهم استعدادًا للرحيل، محتذين خطواتِ قادتهم وأمرائِهم، فمذْ

تجهّمت الحوادث، وبدأ حصار غرناطة، بدأ الوزراء وكبارُ التّجار التصرّف في أمْلاكهم، حتى إنّ أبا عبد الله الصغير نفسَه باع- عن طريق وكيله القائد أبي القاسم بن سودة- حديقتَه المعروفة بجنّة عصام خارج غرناطة، وباعَ بعض الوزراء والفرسان الآخرين أملاكَهم في هذه المنطقة نفسِها، وباع الوزير عبد الله بن أبي الفرج قرية يملكُها في ضاحية المدينة، في أواخر المحرم من سنة ٨٩٧ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٩١م.

في هذه الأثناء، كان الملكان الكاثوليكيّان يرميان إلى استخلاصِ غرناطة بأيّ ثمنٍ غير الحرب، ولا يدّخران وسعًا في بذل أيّ تضحية أو منحة لإغراء الزّعماء والقادة، لتذليل هذه المهمة، وكانت قاعدتهم في معاهدة المسلمين، أنّ أحدًا لن يجبرهم على تنفيذ شروط تلك المعاهدة بعد التسليم! فقد كان الملكان المخادعان يعلمان أنّ المعاهدات تحميها القوةُ والسلاح، وليست الكلمة والشرف. لذا فقد وافقا على كلّ شروط المسلمين، حتى هيئ لَمن يقرأ شروطَ المعاهدة أنّ المسلمين لن يفقدوا غير حاكمهم فقط، أمّا دينُهم وأموالهم وأعراضهم ومساجدُهم فقد حفظتها تلك المعاهدة اللئيمة!

ولحرصِه على نفسه ومصالحه؛ فقد فاوضَ الصغير الملكَين على الاستئثار بامتيازاتٍ خاصة له، ومعاهدةٍ سريّة عُقدت وأُبرمت شروطُها في الوقت نفسِه الذي عُقدت فيه معاهدة التسليم، يُمنح بموجبها أبو عبد الله وأفرادُ أسرته ووزراؤه منحًا خاصة ما بين

ضِياع وأموال نقديّة وحقوق مالية وغيرها. وقد أُبْقيَت هذه المعاهدة في طيّ الكتمان، ولم يقف عليها سوى نفرٍ مِن الخاصة.

وكما تسرّبت أخبار التسليم إلى عامة الشعب، فقد وصلت إلى خِدر عائشة الحرّة، فأرَّق خبرُ الاستسلام مضجَعَها، وضاعف أحزانَها، وراحت تتذكّر بقلبٍ منفطر ونفسٍ متحسّرة مَهْزومة تلكَ الأيام التي حاربت فيها زوجَها وأخاه حتى تحفظَ المُلك لابنها! مرّت حياتُها أمام عينيها كقافلة هائمة في صحراء التّيه، بدءًا مِن حفل زواجها المشهود في قاعة الأسود، مرورًا بزواج أبي الحسن مِن ثريا، ونهايةً بموته ونيْل ابنها التعيس الحكمَ، فإذا به يسلّم ذاك المُلك وهذه القصور المُنيفة إلى الأعداءِ في غمْضة عين. فراحت تُسائلُ نفسها، وهي تمرّ بخطًى متثاقلةٍ بين أروقة قصرِ الحمراء لتودّعه وداعَها الأخير: «هل كنتُ محقّة عندما أشعلتُ نارَ الحرب وفرّقتُ بين ابني وزوجي؟ هل كان محمد الصغير جديرًا بهذا الملك وهذه القصور؟ وتوالدتْ مِن هذا السؤال أسئلةٌ كثيرة، وراحت علاماتُ الاستفهام تتكاثر في عقلِ الأمّ عائشة، حتى صارت غابةً مِن الأشواك تؤلمها في يقظتها ومنامِها وتقضّ مضجَعَها، وتلهب قلبَها وجسدها في النهار والليل. وأيقنت- بعدَ خراب غرناطة- أنّ ابنها لم يكنْ يصلح للحكم والسياسة والحرب، وتمنّت لو عادت بها الأيامُ لتُحسن تربيةَ ابنها، أو تمنعَه عن الحكم، وتحملَه على أنْ يطيع أباه ويمتثلَ لعمّه. لكن متى اكترثَ التاريخُ بالجهلاء الذين لا يدْركون الحقائق إلّا بعد فوات الأوان؟!

وأمّا مريمة، فقد أنهكها البكاء، وراحت تقفُ في بهوها تراجع أيامها وأحزانها. لقدْ كانت أيامًا مريرة، إذ كيف للرجلِ أن يغدو لا شيء بين عشيّة وضحاها؟! وكيف للملوك أبناءِ الملوك أن يعيشوا مِن دون مُلكهم وتيجانِهم وأُبَّهَتِهم؟! وكيف يتحمّلون النزول مِن عليائهم الشامخة كي يَصيروا جزءًا من العامة يسيرون بينهم في الطرقات والأسواق بغير ما حرسٍ وطبولٍ وخيول مطَهّمة؟!

سيطر الحزنُ على قلبِ مريمة، فلم تعدْ تنبس ببنت شفة، وخارتْ قواها وغرقت في موجةٍ مِن صمتٍ ثقيل، صارت فيه أقربَ إلى الموت منها إلى الحياة!

ولأنّ «مصائب قوم عند قوم فوائدُ»؛ فقد كانت هذه الأحداث الدامية بمنزلة بردٍ وسلامٍ على ثريا الرّومية، فقد اجتاحتْها بهجة حُرمت منها طويلًا، بعدما أدركت قربَ نَيلها الحرية، وهي السجينة في الحمراء منذ سنوات، عندما استولى أبو عبد الله الصغير على الحكم.

كانت ثريا مسلمةً في الظاهر فقط، أمّا في داخلها فلم يكنِ الإسلامُ يمثل لديها سوى بساطٍ من الحرير الناعم تعبُرُه من أجل الوصولِ إلى حكم مملكة غرناطة، ولأنّ تلك المملكة عمّا قريب ستذروها الرياح، فكذلك اعتناقُ ثريا للإسلام المبني على المكاسبِ فقط ، سوف يذهبُ بدوْره طيَّ العاصفة! ليس إسلام ثريا فحسب، بل إسلام ابنيها «سعد» و«نصر» اللّذين اجتهدتْ في تعليمهما الدّيانة

المسيحية سرًّا. لذلك كانت ثريا تنتظر يومَ التسليم على أحرّ مِن الجمر وقد امتلأ قلبها بالشماتة والتشفي، فكم تمنّت أن تذلّ عائشة وتراها حافيةً بلا ملك، وها هو حُلمها الذي كان ضربًا مِن الخيال، يمتطي حصانَ الحقيقة، ويقترب حثيثًا خطوةً بعد خطوة!

ومع اقتراب موعد التسليم، ارتفع صوتُ ثريا وبدأ يملأ القصرَ جلبة وضوضاء، في حين غاص صوتُ عائشة، وراحت ثريا تهدّد الخدم بقرب خروجها، وهي تضحكُ وتضحك، وكانت تلك الضحكات تقتل عائشة كلّ يومٍ مئات المرات، ولكنها لم تكنْ تملكُ إلّا النظر في صمتٍ عاجز.

أمّا حمدونة زوجة محمد، فقد قرّرت الخروج من غرناطة، والعبورَ نحو عدوة المغرب، فلم تعدْ تطيق أن تسمعَ أخبار الصغير والتسليم. لذا فقد خرجتْ إلى قبر زوجها تودّعه وهي غارقةٌ في دموعها الحارقة، لتخاطبه وكأنّه حيٌّ أمامها: «لقد كنت لي كلّ الدنيا يا محمد، وحبّي لغرناطة هو في الحقيقة حبٌّ لك وحدك، فلمّا ذهبتَ ذهبتْ غرناطة، فلم أعدْ أطيق حياةً فيها مِن دونك، إذْ لا معنى لغرناطة إلّا بوجودك يا حبيبي، ولا حياةَ لي فيها مادمتَ بعيدًا عنها». استدارت حمدونة- لا تكادُ قدماها تحملانها- قاصدةً منزلَها تودّعه وداعَها الأخير، وراحت تمْعِن النظرَ في أركان البيت تسترجعُ ذكرياتِ أيامها وأحلامها، ضحكاتها وبكائها، والدموع تنهمرُ من عينيها لا شيء يقدرُ أن يكفْكِفها، وما لبثت سوى بضعة أيام حتى

حملت نفسَها وأولادها وعبرتِ العدوة لتعيش في المغرب على أطلالِ الأندلس! ....

أمّا الصغير فقد خشي مِن أنْ يحاك به، فبثّ جواسيسه بين الشعب يراقبه مِن كثب، إذْ ظلّ على الدوام يخشى ثورةَ الشعب عليه، ونشر رجاله يزينون للناس التسليم، ويتحدّثون معهم عن «مزايا المعاهدة العظيمة» التي وقّعها ملك غرناطة ليحفظَ بها حقوق الشعب، كما بثّ صاحب قشتالة أيضًا عيونَه في أزقة غرناطة وميادينها، حتي يتيقّن من صدق الاستسلام والتسليم.

خبَت الفرحةُ في عيني غرناطة، وانطفأ مصباحُها، واسودّ ليلها، وما أطولَ ليالي الشتاء في بلدٍ حزين، ولم يعدْ شعب غرناطة ذاك الشعب السعيد الرّغد، بل التزم معظمُه السكوت، فلم يعدْ ثمّة حديث إلّا عن الرحيل، ووسطَ صمتٍ يكتنفُ الشّوارع والطرقات، وصقيع يلفّ غرناطة، وثلوج تتساقطُ لتزيدَ الطّين بلةً، وحزنٍ يخيّم على كلِّ الأرجاء. إذْ بصوتٍ يُسمع مِن بعيد، ثمّ يقتربُ رويدًا رويدًا، ليرجّ أركان غرناطة ويزلزلها، كان هذا الصوتُ هو صوتَ الدرويش حامد بن زرعة الذي نزل من جبال البشرات بهيئتِه الرثّة وثيابه الممزّقة، وقد تجرّد جسده من أغلب لحمِه، فصار أشبه بهيكلٍ عظمي لا يكاد يحمل أسمالَه البالية، بينما عيناه غائرتان كمقبرتيْن مهدّمتين، أمّا صوته فكان لا يزال يثير الذعرَ في مُسْتمعيه.

وقف الدرويش حامد في وسط ميدان البيّازين وراح يقولُ بصوتٍ عالٍ ممزوجٍ بحشرجة الشيخوخة: «أيّها الناس، اخلعوا طاعةَ هذا المشئوم الذي سيسلمكم للقشتاليّين.. اخلعوا طاعتَه وانْبذوا عهودَه، وأعلنوا أنّكم لن تُذعنوا له ولنْ تلتزموا بمواثيقه وعهودِه. احملوا السيفَ الذي جبُن هو عَن حمْله، واقتلوا الغزاةَ وموتوا دفاعًا عن أعراضكم وأموالكم. وأنا أضمنُ لكمُ النّصر. يا أهلَ غرناطة، إيّاكم والمشئوم؛ سيسلّمكم للقشتاليّين نظيرَ أموالٍ تعلمونها.. ومِن الآن لم يعدْ محمد بن علي ملكَ غرناطة.. بل خائنها».

ظلّ حامد يردّد هتافاته، ويتنقّل بها من شارعٍ إلى شارع، ومن ساحةٍ إلى ساحة، حتى جمع خلفَه أكثرَ مِن عشرين ألف رجلًا حملوا السلاح جميعًا، وراحوا يجوبون الطرقاتِ ويهتفون: «الموت للخونة.. الموت لأبي عبد الله المشئوم». ثمّ اتجه الجميعُ إلى قصر الحمراء الذي أغلق في وجوههم أبوابَه، فارتعَدَ محمد بن علي بن سعد الذي كان معه وقتَها وزراؤه وفقهاء المدينة من مؤيّدي التسليم للقشتاليّين.

أبو عبد الله (يتحدّث في توتر وجزع): «ماذا تريدُ غرناطة مني؟ وماذا يريد شعبُها؟ وأنا لم أفعلْ ما فعلت إلّا مِن أجلهم، بعدما نفدتِ الأقوات، ومات الرجال والفرسان».

إبراهيم الحارث: «هوّن عليك يا سيدي، فإنّما هي كلماتُ حامد التي أثارتْهم، ولكنّهم لنْ يكادوا يعودون إلى بيوتهم ويروْنَ أطفالَهم الجوعى حتى ينسَوا الحرب ويتذكّروا شحّ الغذاء والمؤن وبطونَ

الأطفال الخاوية، وبعدها هُم مَن سيحملونك على التّسليم ويطلبون منك العجلةَ في ذلك».

يوسف بن كماشة: «لي رأيٌ يا سيدي لو أذنتَ لي». (يلوح الصغيرُ له بيدِه فيتابع حديثه): «أخشى يا سيدي مِن تفاقم الأحوال، وإفلاتِ الأمر مِن أيدينا، لذلك أشيرُ على مولاي بالعمل بالتّعجيل بالتسليم، حرصًا على سلامة المدينة وسلامتِنا نحن، وألّا ننتظر مرورَ الستين يومًا التي نصّت عليها المعاهدة».

أبو عبد الله: «وماذا عنِ الشّعب الثائر؟».

إبراهيم الحارث: «اتْركْه لنا يا سيدي، فهؤلاء العامة قد أكلَهُم الجهل، لهذا لن يصمدوا أمام فتْوانا وتحريمِ الخروجِ على الحاكم». (يقولها وهو يبتسِم).

أبو عبد الله: «بوركتَ أيّها الفقيه العالم».

إبراهيم الحارث: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}؛ فطاعتكم يا سيدي مِن طاعة الله». (يبتسِم).

أبوعبد الله: «حسنًا، ليخرج الشيخ إبراهيم وأتباعُه إلى العامة ينْذِرونهم بعقوبةِ الخروج علينا، وفي الوقت نفسِه يخرج وزيرُنا يوسف بن كماشة إلى فرناندو مع خمسمائة من الرهائن مِن الوجوه والأعيان، تنفيذًا لنصّ المعاهدة، وليعربْ له عن حُسْن نيّتنا، كما يحمل إليه هديةً تتألّف من سيف ملوكي وجواديْن عربيّين مسرَّجَين

بسروجٍ ثمينة، وليتّفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢م، الموافق الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ».

يوسف بن كماشة: «أي لتسعةٍ وثلاثين يومًا فقط مِن توقيع عهْدِ التسليم».

أبو عبد الله: «نعَمْ يا يوسف».

إبراهيم الحارث: «خيرُ البرّ عاجلُه يا سيدي، والآنَ سأنفّذ ما طلبتَ مني».

خرج إبراهيمُ إلى العامة، ومعه تلاميذُه إلى حي البيّازين، وراح إبراهيم الحارث ورفاقُه يلتقون بالعامة ويخوّفونهم من عاقبة الخروج على الحاكم، ويبشّرونهم بالرّخاء تحت حكم القشتاليّين، ويتلونَ عليهم الآية الكريمة: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوَا إِنَّا نَصَارَى}، كما راحوا يُذكّرونهم بالجوع والحرمان وبكاءِ الأطفال وكلّ ما نجمَ عن الحصار ويخوّفونهم مِن أنْ يلقوا المصيرَ نفسه الذي لقيه المالقيّون، وأنّ الملك أبي عبد الله لا ينام الليل ولا يرتاح النهار بحثًا عن راحتهم وتأمينِ السّبل لعيشهم، وأنّ أبا عبد الله إنّما عقد الهدنة مع القشتاليّين خوفًا على شعب غرناطة، وليس على نفسِه.

استمرّ الفقهاء هكذا يوميْن متتاليَيْن، وفي الثالث خرج أبو عبد الله إلى جموعِ الشعب فقال:

«إني أدفع ثمنَ جريمة تمرّدي على أبي، وتكالبي على اغتصابِ المُلك منه، فجلبتُ على مملكتي وعلى نفسي كلَّ هذا البلاء، وهكذا

حاقَ بي عملي السيئ، والآن ليس في مقدوري سوى الانخراط في هذه المعاهدة المذلّة، حتى أحمي شعبي مِن السيف وأُنقذَ أطفاله من المجاعة ونساءه مِن السبْي، وأضمنَ للناس أملاكَهم وحريّتَهم ودينهم تحت حكمِ ملكَين هما أفضلُ مِن هذا الذي يقف الآنَ أمامكم..».

استقبلَ العامّة هذه الكلمات بآذانهم وبعواطفهم فحسْب، وليس بعقولهم، فاقتنعَ معظمُهم بالتسليم ومزاياه، فنسُوا الحربَ وأعباءها، واختفتْ مِن قلوبهم كلُّ مظاهر السّخط والحنق، إلى حدّ أنهم أضحوا يُثنون على الصّغير ويقرظون ما يتحلّى به من بُعد نظر، وحنكةٍ سياسيّة، وقدرةٍ على التّدبير.. ومن سخرية التاريخ أنّ كثيرًا من الشعوب تلهجُ ألسنتُها بالمديح لَمن أضلّوها عن الطريق، وقادوها إلى الهزيمة، ودفَعوا بها إلى هاويةِ الضّياع!

فرغَ أبو عبد الله مِن كلمتِه، ثمّ قفلَ راجعًا إلى الحمراء، وهو سعيدٌ بقُدْرته على تخْدير عقولِ النّاس، وتأليف قلوبهم حولَه، على الرغم مِن أنّه يقبع في المربّع الخطأ!

أمّا الوزير ابن كماشة، فقد خرجَ إلى معسكر الملكيْن الكاثوليكيّين، فاستُقبل هناك بحفاوةٍ بالغة، وأدّى مهمتَه اللّعينة، وعادَ بعدَ يوْمين إلى الحمراء، كي يخبرَ أبا عبد الله أنّ الملك القشتالي فرناندو تغمر قلبَه الغبطةُ بعرض الإسراع في التّسليم.

عندما اقترب موعدُ التسليم، كانت غرناطة- وعلى رغم موافقة العامة وقبولهم- تكتسي ثوبَ الحزن الذي عمّ أرجاءها، وغلب على أجوائِها البكاءُ والعويل، فكأنّ ليلها تضاعفتْ ظلمتُه أضعافًا، وكأنّ نهارها غابت شمسُه وصارتْ سماؤه دخانًا أسودَ سقيمًا.. واختفتِ البسمةُ مِن وجوه أطفالها، وامتلأتْ أعينُهم بالذّل، بينما تململَت الأُسَر، وشرعت كلٌّ منها تجهّز نفسها إمّا للمغادرة إلى عدوة المغرب، أو للبقاء في غرناطة والقبولِ بالإذعان كدواجنِ البيت تحت حكم القشتاليّين. وهكذا ابتدأتِ البغالُ تحملُ كلّ ثمين من الحمراء على عَجل، إذِ انْهمك أهلُها في إفراغها مِن أغلى ما فيها، تاركين بدلًا منها دموعًا حزينة وقلوبًا تنفطّر وجعًا، وعيونًا لا تقوى على الارتفاع عن الأرض. وعلى أصواتِ عويل النساء وأنينِ الأطفال بدأ الغرناطيّون الرحيل. أمّا عائشة الحرة فقد كانت على رأسِ مَن غادروا الحمراء، وكانت قد أوْهَنتها السنون وأفاعيلُها، وأحنَى ظهرها فشلُ ابنها، بينما طفقت مريمة وأبناؤها يندبون حظّهم، بعدما فقدوا هذه الجنّة التي تركوها عنْ يدٍ صاغرين!

تردّدت أعينُ أهل الحمراء زائغةً حائرة تتنقلُ بينَ جدران بيوتها ومآذن مساجدِها ومنعطفاتِ شوارعها وزينةِ بساتينها.. بينما يقتلعون أقدامَهم اقتلاعًا، متّخذين طريقَهم إلى المنافي المجهولة، فلا يكادون يطالعون الطريقَ بُرهةً، حتى تعودَ أعناقهم لتستديرَ إلى الوراء، كأنّهم يودّون أنْ ينتزعوا قطعةً مِن ترابِ غرناطة تبقَى معهم أبدَ الدّهر.. لكنْ هيهات، وهلْ غرناطة مجرد حفنةٍ مِن التّراب؟!

وعندما صارت غرناطة بعيدةً عن أعين أهلِها الذين بدأوا رحلاتِهم من أطراف الطرق، صاروا يودّعونها الوداعَ الأخير. وداعَ مَن أيقن أنّه لن يعود مجدّدًا، وذهب يصارع أمواجًا مجهولة في محيط مجهول!

***

في فجر اليوم الثاني من يناير، اليوم الذي حُددَ لتسليم الحمراء، ونحْر غرناطة على مذبح الهوان.. كان رنينُ البكاء يتردّد في غرفِ قصر الحمراء وأبْهائه، وكانت الحاشيةُ منهمكةً في حزمِ أمتعة الملك المخلوع وذويه، وقد سادَ الوجومُ كلَّ الوجوه، وضاقتِ الصدور بما احتبسَ في أعماقِها من زفرات وحُرْقة.. وما كادت تباشيرُ الصبح تبزغُ كأنها خيوطٌ مِن ظلام، حتّى غادر القصرَ ركبُ الملك المنفيّ، يحمل أموالَه وأمتعتَه، ومِن ورائه أهلَه وصحبَه القلائل، وحولَه كوكبةٌ من فرسانه المخلصين، بينما كانت أمُّه الأميرة عائشة تمتطي صهوةَ جوادها، ويموجُ الحزن في عينيها، وينسدلُ كستارةٍ كئيبة على محيّاها الوقور، بينما بقيّة السيدات مِن آلِه وحشَمِه لا يستطعْنَ مغالبةَ حزنهنّ، فيرسلنَ زفراتٍ عميقةً ودموعًا سخينة، وبدوْا كأنّ قلوبهن ورقاتٌ سقطت مِن شجرة رمّان مريضة، انتزعتْها العاصفةُ فراحتْ تدور في فراغ.

اخترقَ الركبُ غرناطة في صمتٍ حِداديّ، وحين بلغ البابَ الذي سيغادر منه المدينةَ إلى الأبد، ضجّ الحرّاس بالبكاء لرؤية

الركبِ وهو يجتاز البوابةَ إلى غيرِ رجْعة، مُتخذًا طريقَه صوبَ نهر شنيل في اتّجاه البشرات.

أمّا أبو عبد الله، فقد اتّجه إلى وجهةٍ أخرى ليتجرَّع كأسَه المُرّة حتى الثّمالة، وكان قد تقرّر اللقاءُ في صباح ذلك اليوم بينَه وبين ملك قشتالة، فخرجَ مِن باب مدينة الحمراء المسمَّى باب الطباق السبع Siete Suelos، في نفرٍ من فرسانه وخاصّته في طريقه إلى لقاءِ عدوّه الظافر وسيدِه الجديد، تاركًا خلفَه الوزير ابن كماشة ليباشر مراسمَ التسليم.

***

أمّا معسكر القشتاليّين في سانتا فيه، فقد كان يموجُ بالزّينة والضّجيج والابْتهاج. وكانت الأوامرُ قدْ صدرت، والاستعداداتُ قد نُفّذت لاحتلال المدينة. وكان ضمنَ الاتفاقِ بين أبي عبد الله والملك فرناندو أنْ تطلق مِن الحمراء ثلاثةُ مدافع إيذانًا بالتأهّب للتسليم.

لم يشأ فرناندو أنْ يسيرَ إلى الحاضرةِ الإسْلامية بنفسِه، قبْل التحقّق من خضوعِها التّام، واستتْبابِ الأمن والسّلامة في ربوعِها، فأرسل إليها قوةً مِن ثلاثة آلاف جندي وسريّة من الفرسان، وعلى رأسها الكردينال بيدرو دي مندوسا مطران قشتالة الأكبر، وكان من المتّفق عليه أيضًا بينَ فرناندو وأبي عبد الله ألّا يخترق الجيشُ القشتالي شوارعَ المدينة، بل يسيرُ قصدًا وتوًّا إلى قصبة الحمراء؛ تفاديًا لأي

نوعٍ مِن الاستفزاز أو الشّغب، فاخترقَ الجندُ القشتاليّون الفحصَ إلى ضاحية Armilla (أرملة) الواقعة جنوبي غرناطة، ثمّ عبروا نهرَ شنيل، واتّجهوا توًّا إلى قصر الحمراء من ناحية التلّ المسمّى «تل الرَّحى» Questa de los Molinos، الواقع غربي المدينة وجنوب غربي الحمراء.

سارَ الملك فرناندو في الوقتِ نفسِه في قوةٍ أخرى، ورابط على ضفّة شنيل، ومِن حوله أكابرُ الفرسان والخاصّة في ثيابهم المزركشة الزاهية، حتى يمهّد الكردينال الطريقَ لَمقدم الركبِ الملكي، بينما انتظرتِ الملكة إيزابيلا في سريّة أخرى من الفرسان في أرملة، على مسافة قريبة.

وصل الجندُ القشتاليّون إلى مدينةِ غرناطة مِن هذه الطريق المنحرفة نحو الظّهر، وكانت أبوابُ الحمراء قد فُتِحَتْ وأخْليَت أبهاؤها انتظارًا للساعة الحاسمة.

***

وصل الأمير أبو عبد الله إلى معسكر القشتاليّين، فاستقبله فرناندو بترحابٍ وحفاوةٍ في محلّته على ضفّة نهر شنيل، وما كاد يلمح فرناندو حتّى هَمَّ الصغير بالترجّل عنْ جواده، ولكنّ فرناندو بادر بمنعِه وعانقَه بعطفٍ ومودّة، فقبّل أبو عبد الله ذراعَه اليمنى إيماءةَ الخضوع. ثمّ قدّم إليه مفتاحي البابيْن الرئيسيّين للحمراء قائلًا:

«إنّهما مفتاحا هذه الجنّة، وهُما الأثرُ الأخير لدولة المسلمين في الأندلس، وقد أصبحتَ أيها الملك سيدَ تراثنا وديارنا وأشخاصنا، هكذا قضى الله، فكنْ في ظفرك رحيماً عادلًا».

تناول فرناندو المفتاحيْن قائلًا: «لا تشكّ في وعودنا، ولا تُعوزنَّك الثقة خلالَ المحنة، وسوف تعوّضك صداقتُنا ما سلبك القدرُ إيّاه».

أبو عبد الله: «شكرًا لك سيدي، ولكنّ لي رجاءٌ أخير منك».

فرناندو: «ما هو؟».

أبوعبد الله: «بابُ الحمراء الذي خرجتُ منه الآن، لا أريدُ أن يخرجَ منه أحدٌ بعدي، أغلقْه يا سيدي».

فرناندو: «لا عليك.. سآمرُ بإغلاقِه إلى الأبد، لنْ يمرّ مِن بعدك في باب الطباق السّبع أيُّ إنسان.. سآمرُ بالبِناء فيه».

أبو عبد الله: «شكرًا لك يا سيدي على كلّ هذا الكرَم وهذا العطف. والآن هيّا يا سيدي، في هذه الساعة الطيبة، وتسلّم هذه القصور- قصوري- باسم الملكيْن العظيميْن اللّذين أراد لهما الله القادرُ أن يستوليا عليها، لفضائلِهما، وزلّات المسلمين، وقد تركتُ خلفي وزيري يوسف بن كماشة ليتمّم معكم كلّ مراسم التّسليم، تركتُه ليحظَى بمقابلة الكردينال الأعظم، وهذا خاتَمي الذّهبي، الذي كنتُ أوقّع به على الأوامر الرّسمية، هو هديةٌ مني إلى الكونت ديجو دي مندوسا الذي علمتُ أنّك يا سيدي ستعيّنه محافظًا للمدينة».

تقبّل فرناندو هدايا الصغير الذي عرَّج في طريقه على محلّة الملكة إيزابيلا في أرملة، فاستقبلتْه وأسرته برقّة ومجاملة، وحاولت تخفيفَ آلامه، وسلّمته ولدَه الصغير الذي كان ضمنَ رهائن التّسليم، ثمّ سارت الملكة إيزابيلا على أثر اسْتقبالها لأبي عبد الله، وانضمّت بصحبها إلى الملك فرناندو، أمّا الكردينال الأعظم وصحبُه فما كادوا يجوزون إلى داخل القصر الإسلامي المنيف، حتى رفَعوا فوقَ برجِه الأعلى، وهو المسمّى برج الحراسة Torre de la Vela صليبًا فضيًّا كبيرًا، هو الذي كان يحملُه الملك فرناندو خلال حربِ غرناطة، كما رفعوا إلى جانبه علم قشتالة وعلم القدّيس ياقب، وأعلن المنادي من فوق البرج بصوتٍ جَهْوري ثلاثًا أنّ غرناطة أصبحت ملكًا للملكَين الكاثوليكيّين، وأطلقت المدافع قذائفَها تدوّي في الفضاء، ثمّ انطلقت فرقةُ الرهبان الملكية ترتلُ صلاة «الحمد لله» Te Deum laudamus، على أنغام الموسيقى.

وهكذا كانت كلّ المشاهد التي جرتْ على «مسرح التّسليم» تؤكّد الصفة الصليبيّة العميقة لهذه الحرب التي شنّتها قشتالة على الأمّة الأندلسيّة، وعلى الإسلام في الأندلس.

***

بعدما اطمأنا إلى أنّ الأحداث تمضي على ما يرام، وأنّ غرناطة صارت خاليةً مِن أي مفاجأة غير سارة.. اتّجه الملكان الكاثوليكيّان إلى الحمراء، بينما انتشر القشتاليّون في الساحة المجاورة. ودخل الملكان من «باب الشريعة» حيث استقبلهما الكردينال مندوسا

والوزير ابن كماشة، وأعطى مفاتيحَ الحمراء إلى الدون ديجو دي مندوسا الذي عُيّن حاكمًا للمدينة، وبعدما تجوّل الملكان قليلًا في القصر، وشهدا جمالَه وروعته؛ عادا إلى سانتا فيه، وبقي الكونت ديجو دي مندوسا في الحمراء مع حاميةٍ قوية من خمسمائة جندي.

ثمّ عاد الملكان فزارا الحمراءَ زيارتهما الرّسمية في يوم ٦ يناير، وسارا في موكبٍ فخْمٍ مِن الأمراء والكبراء، والأشراف والعقائل، ودخلا غرناطة من باب البيرة، ثمّ جازا إلى الحمراء مِن طريق مرتفع غمارة، ودخلا قصرَ الحمراء وجلسا في بهْو قمارش أو المشور، على عرشٍ أعدّه الكونت ديجو دي مندوسا؛ حيث كان يجلس الملوك المسلمون في المكان نفسه على عرشهم. وهنالك، أقبل أشرافُ قشتالة للتهنئة، وكذلك جمعٌ مِن الفرسان المسلمين، الذين أتَوْا ليقدّموا فروض التحيّة والتجلَّة لسادتهم الجُدد.

وفي هذه الأثناء، كان الملكان الكاثوليكيّان، قد أفرجا عن رهائن المسلمين الخمسمائة، وفي مقدّمتهم ولد أبي عبد الله، وردّ المسلمون من جانبهم بالمثل، فأفرجوا عن الأسرى القشتاليّين الذين بلغَ عددُهم نحو سبعمائة أسيرٍ رجالًا ونساء. وتعهّد القشتاليّون بأنْ يطلقوا سراحَ الأسرى المسلمين في كلّ مملكةِ قشتالة في ظرف خمسة أشهر بالنسبة إلى الأسرى الموجودين في الأندلس، وثمانية أشهر بالنسبة إلى الأسرى الموجودين في بقية أراضي قشتالة.

***

انسدل الستارُ إذًا معلنًا نهاية المأساة الأندلسية، واستولى القشتاليّون على جنّة غرناطة، آخرِ الحواضر الإسلامية في الأندلس الإسلامية. وفي الوقت الذي بدأ فيه المسلمون الغرناطيّون يخفون هويّتهم، ويخبئون دينَهم في أعماق قلوبهم، خوفًا مِن أن يعلنوه على الملأ؛ كانت أعلامُ قشتالة النصرانيّة ترفرف ظافرةً فوق الصروح الإسلامية المهزومة، وانتهت بذلك دولةُ الإسلام في الأندلس، وطويتْ تلك الصفحة المجيدة من تاريخ المسلمين، ولم تمرّ بضعُ سنوات حتى خبتْ شمس الحضارة الأندلسية الباهرة، بعدما ظلّت قرونًا تنشر في أصقاع أوروبا كلّها أشعتُها الساطعة، علومًا وآدابًا وفنونًا، وبعدما كانت الأندلسُ هي بقعةً وحيدة من النهار وسط قارةٍ عجوز تسبح في ظلام دامس.. صارت الحضارة الإسلامية هناك بتراثِها الشامخ، نهبًا للفناء والمَحْو!

على أنّ مأساة الأندلس كانت تحجبُ خلفَها مأساة الملك التّعِس أبي عبد الله الصغير، آخرِ ملوك بني الأحمر وآخرِ ملوك الإسلام في الأندلس. فقد تقرّر مصيره، وظهرتْ حقوقُه وامتيازاته وفقًا للمعاهدة السريّة التي عقدت بينَه وبين الملكيْن الكاثوليكيّين. وقد نصّت المعاهدةُ المذكورة على أنْ يُقطع أبو عبد الله طائفة من الأراضي والضياع في برجة ودلاية وأندرش وأجيجر وأرجبة ولوشار وبضعة بلاد أخرى من أعمال منطقة البشرّات، وهذه البلاد يقعُ بعضُها في جنوب غربي ولاية ألمرية، والبعضُ الآخر قبالتها في جنوب شرقي

ولاية غرناطة، وأنْ يحكم أبو عبد الله في هذه المنطقة باسْم ملك قشتالة وتحتَ حمايته، ويتمتّع بدخلها وسائر غلالها وعائداتِها. وقد حُدّدت إقامته، أو اخْتار هو الإقامةَ في بلدة أندَرَش الواقعة على النهر الأخضر شمالي ثغر أدرة الصغير.. ليقضي أبو عبد الله بقيّة حياته باكيًا كالنساء، على مُلك أضاعَه بيده، ولم يحافظْ عليه كالرجال!

و..

آهٍ يا أندلس!

تمرّ الأيام والسّنون وأنتِ جُرحٌ في القلب لا يندَمِل.. ونزيفٌ من أرواحنا لا يزدادُ مع الوقت إلّا غزارة.. وأملٌ بعيدٌ أغرقَ في الضياع، وما له مِن مُعيد!

آهٍ يا أندلس!

تبهتُ الأزمنة ويخْبو وهجُها، ويشيخُ التاريخ وتتغضّن ملامحُه، ولا تزالين أنتِ يا أندلس تجتاحينَ الضميرَ جذوةً مِن نار، أو عروسًا فتيّةً أهمَلَها أهلوها أو انْشغلوا عنها، فذهبتْ أدراجَ الضياع، بعدما عاشتْ أجملَ سنواتِ شبابها العربي تختالُ بجمالها المَهيب وحسَبها الرفيع، فلم يكنْ يملك الآخرون حيالها إلّا الإعجاب والخشيةَ. ثمّ المرور من جانبها في دهشة ذاهلةٍ وحياءٍ خاضع، لا يكادونَ يرفعون أعينَهم في طلعتِها الآسرة الأخّاذة معًا!

آهٍ يا أندلس!

أيّتها الجوهرة المُضيَّعة!

كم يتعجّب الناظرُ إلى مراحِلك، والمتعقّب لفصول روايَتك، منذُ كنتِ هائمةً في مفترقات التاريخ، عروسًا حسناء تتهيّأ في كامل زينتها واقفةً على ناصيةِ العصور والمواسم، تنتظرُ بشغفِ المسافر الحيران.. يقتلها الظمأ بحثًا عنْ ذلك الفارسِ الفاتح، الذي يروز معدنها ويدرك بنجابَتِه أعماق جوهرِها.. لتشعر بأنّها وُلدت حقًّا عندما تحقّق لقاؤها التّاريخي مع البطل الذّائع الصيت طارق بن زياد، الآتي مِن شغَفِ الصّحراء عابرًا المضيقَ بجيشه المَهيب وقيمِهِ السّامية!

آهٍ يا أندلس!

أنهضَتْك سيوفُ ابن زياد مِن وهْدتك الغائمة، ورفقتْ بك مُنْتشلةً إيّاكِ من ضياعك الرّاكد، وسرعان ما اتّخذتِ خطواتك الأولى على الطريق الذي تستحقّينَه باتّجاه قمّة التاريخ.. وما هي إلّا بضعة عقودٍ حتى تربّعتِ على ذروةِ الحضارة، وصرتِ ترْفُلين في قُصورك العامِرة وحدائقِك الخلّابة، وأنتِ تكتَسين أرقَى ثيابِ الرّفاهية والرّغد والمَنعة، حتّى استعصَت أرجاؤك على كلّ طامع، وأبعدت حدودُك عن أيّ حاقد.. بينما صرتِ يا أندلس ملاذًا للضّعفاء، وملجأً لطلّاب العلم والمعرفة، ومزارًا للباحثين عن الجمال والأعاجيب والنّوادر!

آهٍ يا أندلس!

لماذا يا أندلس، بعدما بلغتِ الذّروةَ وتربّعتِ على سنامها قرونًا، إذا بعِقدِك ينقطِعُ وتنفرِطُ حبّاته، الواحدةُ تلوَ الأخرى، فصِرْتِ

كشجرةٍ ناضِرة لم يصبرْ عليها خريفُ الزّمان فتساقطَتْ أوراقُها عبرَ سنوات قليلة.. فكأنّ عزًّا لم يقُم وكأنّ حضارة لم تزْدهر، وكأنّ مساجدَ لم تبهرِ الأعينَ بمآذِنها المعانِقة للسّماء، وكأنّ حدائقَ لم تتضوَّع أنفاسُها العبقة في أرجائِك يا أندلس!

آهٍ يا أندلس!

تساقطَتْ حبّاتُك يا أندلس!

فهلْ كان هذا حكمُ التّاريخ، بأنّ كلّ كمالٍ يعقبُه نقصٌ لا محالة؟

أو هُوَ حكمُ أبنائك الذين انْشغلوا عنْك بأنفسهم، وربّما بلا شيء، لتقتُلَهم مأساةُ سقوطكِ التي بدَوْا أمامَها كأنّهم أُسْقِط في أيْديهم، فصاروا كمَنْ طارتْ عقولُهم، أو مسَّهم جنّ؛ فشَرَعوا يتخبّطون في انتظارِ إعلان نهايتِهم على وقْعِ إرهاصاتِ السّقوط الأخير في العام ١٤٩٢!



شـكـر

شكرٌ إلى كلِّ مَن ساهم في نشرِ هذا العمل..

إلى كلِّ مَن ساعدني، ولو بكلمة..

إلى:

رانيا شيخ سليمان

وشعبان السيد إبراهيم

وخلود الحطّاب